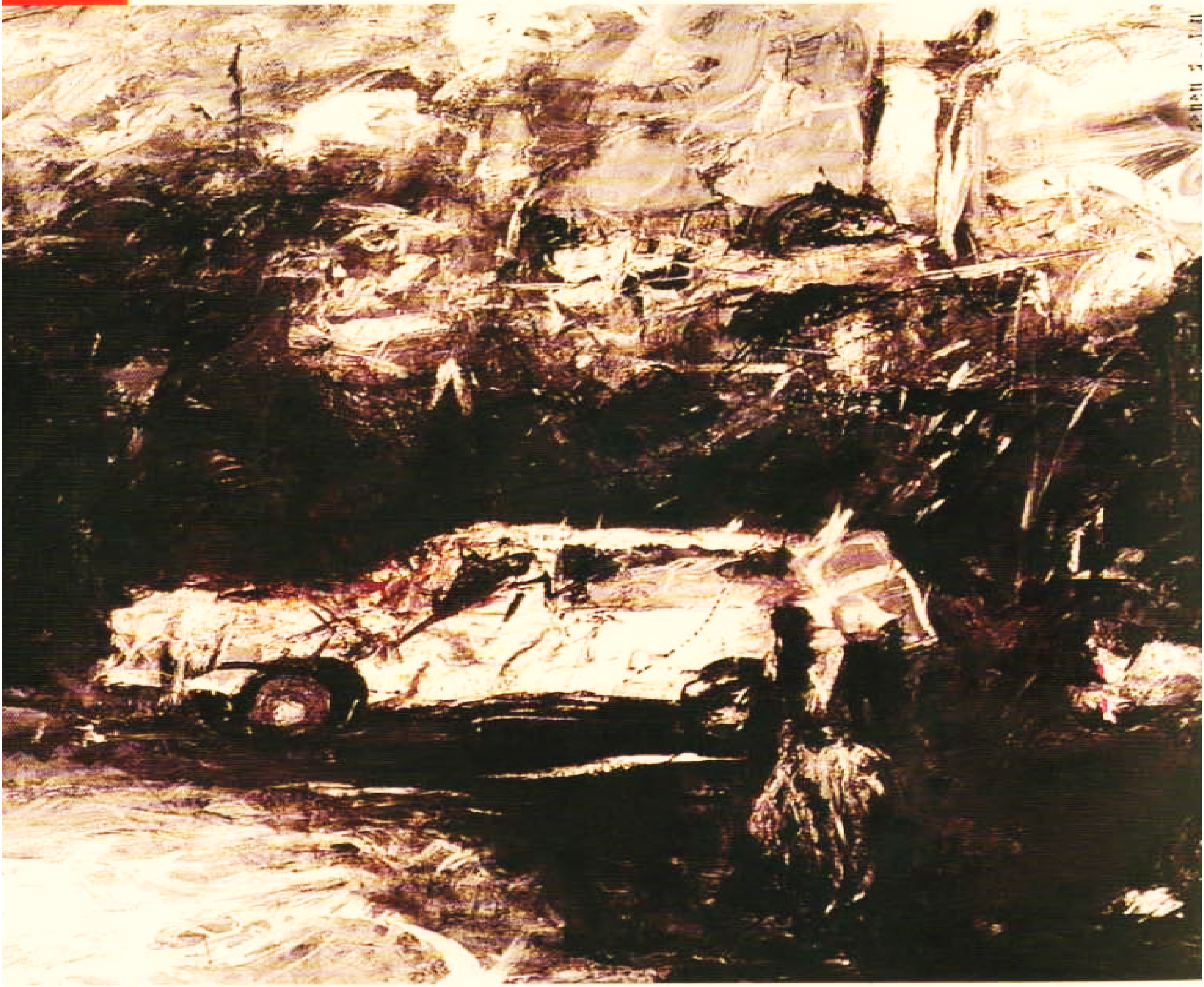
روايـ

غابرييل غارسيا ماركيز



خبر اختطاف

ترجمة:
صالح علماني

غابرييل غارسيا ماركيز

ترجمة: صالح علماني

خبر اختطاف

الرواية

شكر

في شهر تشرين الأول ١٩٩٣ ، اقترحت عليّ ماروخا باتشون وزوجها ألبيرتو بيياميثار ، أن أكتب كتاباً عن تجربتهما خلال اختطافها لفترة ستة شهور ، وعن المساعي الشاقة التي بذلها زوجها إلى أن تمكن من إطلاق سراحها . وكنت قد قطعت شوطاً في كتابة المسودة الأولى عندما انتبهت إلى أنه من المستحيل فصل عملية الاختطاف تلك عن العمليات التسع الأخرى التي جرت في الوقت نفسه في البلاد . والواقع أن عمليات الاختطاف العشر لم تكن مختلفة ـ مثلما ظننا للوهلة الأولى ـ وإنما هي عملية اختطاف جماعية لعشرة أشخاص مختارين جيداً ، نفذتها الجماعة نفسها من أجل الهدف الوحيد نفسه .

هذا الاكتشاف المتأخر اضطرنا إلى البدء مرة أخرى ببناء ونفس مختلفين ، حتى يكون لجميع الشخصيات هويتها المحددة جيداً وجوها الخاص . لقد كان ما فعلناه حلاً فنياً (تقنياً) لرواية متشابكة كانت ستبدو في صياغتها الأولى مدوية وغير نهائية . ومع ذلك ، فان العمل الذي كان مقرراً له بهذه الطريقة أن ينتهي في سنة واحدة ، امتد إلى ثلاث سنوات تقريباً ، ودائماً بمساعدة دقيقة ومناسبة من جانب ماروخا وألبيرتو ، اللذين أصبحت روايتهما الشخصية هي المحور المركزي لهذا الكتاب وخيطه الناظم .

لقد قابلت كل شخصيات الواقعة الذين كان بامكاني مقابلتهم ولم أجد

لديهم جميعاً الاستعداد السخي لاقلاق سلام ذاكرتهم أو ليفتحوا أمامي الجراح التي ربما كانوا يريدون نسيانها . إن ألمهم ، وصبرهم ، وغضبهم هو الذي منحني الشجاعة للاصرار على هذه المهمة الخريفية ، والاكثر صعوبة وحزناً في حياتي . وإن احباطي الوحيد هو أن أعرف أن أياً منهم لن يجد على الورق شيئاً أكثر من انعكاس ذاو للرعب الذي عانوه في الحياة الحقيقية . وهذا هو شعوري قبل أي شيء تجاه أسرتيّ الرهينتين الميتتين ـ مارينا مونتويا وديانا طربيه ـ وخصوصاً أم هذه الأخيرة ، السيدة نيديا كينتيرو دي بالكاثار ، التي كانت مقابلاتي لها تجربة انسانية مؤثرة لاتُنسى .

هذا الاحساس بالتقصير أتقاسمه مع شخصين عانيا معي في ورشة العمل السرية في الكتاب : الصحفية لوثا نخيلا ارتيغاس التي تتبعت وحصلت على معلومات كثيرة مستحيلة باصرار صيادة متخفية وبتكتمها المطلق ، ومارغاريتا ماركيز كابابيرو ، ابنة عمتي وسكرتيرتي الخاصة التي تولت نسخ وتبويب وتصحيح والحفاظ على سرية المادة الاساسية المعقدة التي شعرنا مرات عديدة بأننا على وشك الغرق فيها .

إلى جميع شخصيات العمل والمشاركين فيه أتوجه بشكري الكامل ، لأنهم جعلوا بالإمكان ألا يطوي النسيان هذه المأساة البهيمية ، التي هي للأسف الشديد ليست إلا حلقة من الهولوكوست التوراتي الذي تشهده كولومبيا منذ أكثر من عشرين سنة . إليهم جميعاً أهدي هذا الكتاب ، ومعهم إلى جميع الكولومبيين ـ الأبرياء والمذنبين ـ على أمل ألا يحدث لنا مطلقاً ما يرويه هذا الكتاب .

غ . غ . م .

كارتاخينا دي اندياس ، أيار ١٩٩٦

- ١ -

قبل أن تدخل إلى السيارة نظرت من فوق كتفها لتتأكد من أنه ليس هناك من يترصدها . كانت الساعة السابعة وخمس دقائق في بوغوتا . وكان الظلام قد خيم منذ ساعة ، وكانت الحديقة الوطنية سيئة الإضاءة تضفي على أشجارها العارية من الأوراق هيئة شبحية قبالة السماء العكرة والكئيبة ، إنما لم يكن هناك في مجال الرؤية ما يخيف . جلست ماروخا وراء السائق ، بالرغم من منصبها ، لأنها كانت ترى على الدوام أنه المكان الأكثر راحة . وصعدت بياتريث من الباب الآخر وجلست إلى يمينها . لقد كانتا متأخرتين قرابة الساعة عن روتينهما اليومي ، وكان يبدو عليهما الاجهاد بعد مساء ناعس شاركتا فيه في ثلاثة اجتماعات تنفيذية . كان الاجهاد يبدو بصورة خاصة على ماروخا التي كانت قد أقامت حفلة في بيتها في الليلة السابقة ولم تستطع النوم إلا ثلاث ساعات . مدت ساقيها المخدرتين ، وأغمضت عينيها وهي تسند رأسها إلى مسند المقعد ، وأصدرت الأمر الروتيني :

ـ إلى البيت من فضلك .

إنهما راجعتان مثلما تفعلان كل يوم ، أحياناً من هذا الطريق وأحياناً عبر طريق آخر ، لأسباب أمنية أو لأسباب تتعلق بأزمة المرور على السواء . كانت الرينو ٢١ جديدةومريحة ، وكان السائق يقودها بحذر صارم . الخيار الأفضل في تلك الليلة كان في الذهاب عبر الجادة الدائرية الشمالية . وجدوا

الاشارات الضونية الثلاث خضراء على التوالي ، وكانت حركة المرور أقل ازدحاماً من المعتاد . وحتى في أسوأ أيام الازدحام كانوا يقضون نصف ساعة للوصول من المكاتب إلى بيت ماروخا في الشارع المستعرض الثالث ، الرقم ٨٤ آ-٤٢ . ثم يوصل السائق بعد ذلك بياتريث إلى منزلها الذي يبعد نحو سبع كوادرات .

تنتمي ماروخا إلى أسرة من المثقفين البارزين ، خرج منها عدة أجيال من الصحفيين . وقد كانت هي نفسها صحفية ، ونالت جوائز عديدة . ومنذ نحو شهرين تولت إدارة «فوثيني» ، المؤسسة الحكومية لتشجيع السينما ، أما أخت زوجها ومساعدتها الخاصة بياتريث ، فكانت مُعَالجة فيزيائية ذات خبرة طويلة ، وقد توقفت عن ممارسة ذلك العمل للتحول إلى موضوع آخر لبعض الوقت . وكانت مسؤوليتها الرئيسية في «فوثيني» تتمثل في الاهتمام بكل ما له علاقة بالصحافة . لم يكن هناك ما يدعو كلتيهما للخوف ، ولكن ماروخا كانت قد اكتسبت دون وعي منها تقريباً عادة النظر إلى الخلف من فوق كتفها منذ شهر آب الماضي ، عندما بدأت عصابات المخدرات باختطاف صحفيين في حملة مفاجئة .

لقد كانت مخاوفها في محلها . فمع أن الحديقة الوطنية بدت لها مقفرة حين نظرت من فوق كتفها قبل أن تدخل إلى السيارة ، إلا أنه كان هناك ثمانية رجال يرصدونها . أحدهم كان يجلس وراء مقود سيارة مرسيدس ١٩٠ زرقاء قاتمة ، تحمل لوحة مزيفة من بوغوتا ، وتقف على الرصيف المقابل . وكان هناك رجل آخر يجلس وراء مقود سيارة أجرة صفراء مسروقة . وأربعة رجال يلبسون سراويل رعاة البقر وأحذية رياضية وسترات جلدية ، يتمشون في ظلال الحديقة . وكان السابع طويلاً ومربوعاً ، يرتدي بدلة ربيعية ويحمل حقيبة رجال أعمال يستكمل بها مظهر رجل الأعمال الشاب . ومن مقهى صغير عند الناصية ، على مسافة نصف كوادرا ، كان المسؤول عن العملية يراقب الحدث الأول الواقعي الذي كانت التمرينات الدقيقة والمكثفة عليه قد

بدأت قبل عشرين يوماً .

لحقت سيارتا الأجرة والمرسيدس سيارة ماروخا ، محتفظتين بأدنى مسافة ممكنة ، تماماً مثلما فعلتا منذ يوم الاثنين السابق لتحديد الدروب التي تسلكها . وبعد نحو عشرين دقيقة انعطف الجميع إلى اليمين عبر الشارع ٨٢ ، على بعد أقل من مئتي متر من البناء المشيد بالآجر العاري حيث تعيش ماروخا مع زوجها وأحد أبنائها . وكانت السيارة قد بدأت بصعود مرتفع الشارع عندما تجاوزتها سيارة الأجرة وأغلقت الطريق أمامها بالتوقف ومقدمتها تلامس الرصيف الأيسر ، فاضطر السائق إلى ضغط المكبح بقوة كي لا يصطدم بسيارة الأجرة . وفي الوقت نفسه تقريباً توقفت سيارة المرسيدس وراءهم ، فلم يعد بامكانهم التراجع إلى الخلف .

نزل ثلاثة رجال من سيارة الأجرة واتجهوا بخطوات ثابتة نحو سيارة ماروخا . الرجل الطويل ذو الملابس الأنيقة كان يحمل سلاحاً غريباً بدا لماروخا مثل بندقية صيد ذات أخمص مبتور وسبطانة طويلة وثخينة كإنها منظار . والواقع أن ذلك السلاح كان مينيزيس miniuzis عيار ٩ مليمتر مزود بكاتم صوت ، يمكنه اطلاق الرصاص دراكاً أو في رشقات من ثلاثين رصاصة في ثانيتين . كان المهاجمان الآخران مسلحين كذلك برشاشات ومسدسات . أما ما لم تستطع ماروخا وبياتريث رؤيته هو نزول ثلاثة رجال آخرين من سيارة المرسيدس التي توقفت وراءهم .

لقد تصرفوا بتوافق وسرعة كبيرين ، بحيث لم تتمكن ماروخا ولا بياتريث من تذكر إلا نتفاً متفرقة من الدقيقتين القصيرتين اللتين استغرقهما الهجوم . خمسة رجال أحاطوا بالسيارة وتولوا أمر ركابها الثلاثة في وقت واحد وبصرامة احترافية . وبقي السادس يحرس الشارع وهو يشهر رشاشه . عرفت ماروخا ما ينتظرها ، فصرخت بالسائق :

ـ انطلق يا أنخل . أصعد فوق الرصيف بأي طريقة ، ولكن انطلق .

كان أنخل متيبساً ، ولكن لم يكن لديه على أي حال مجال للخروج وهو

محشور بين سيارة الأجرة التي أمامه والمرسيدس التي وراءه . ولخشيتها من أن يبدأ الرجال باطلاق النار ، احتضنت ماروخا حقيبتها بقوة وكأنها طوق نجاة . واختبأت وراء مقعد السائق ، وصرخت ببياتريث :

ـ انبطحي على الأرض .

فتمتمت بياتريث :

ـ ولا بأي حال . على الارض سيقتلوننا .

كانت ترتعش ، ولكنها كانت متماسكة . فقد كانت مقتنعة بأن الأمر ليس إلا عملية سطو ، فنزعت بصعوبة الخاتمين من يدها اليمنى وألقت بهما من النافذة وهي تفكر :« فليجنوا » . ولكنها لم تستطع انتزاع الخاتمين الآخرين من يدها اليسرى . أما ماروخا التي تكورت على نفسها وراء المقعد ، فلم تتذكر حتى أنها كانت تلبس خاتماً من الماس والزمرد يشكل طقماً مع قرطيها . .

فتح رجلان باب ماروخا ، وفتح آخران باب بياتريث . وأطلق الخامس النار على رأس السائق من خلال الزجاج ، ولم يتعد أزير الرصاصة صوت زفرة خافتة بسبب كاتم الصوت . ثم فتح الرجل الباب ، وسحب السائق خارجاً وأطلق عليه وهو على الأرض ثلاث رصاصات اخرى . لقد كان قدراً مغلوطاً : فأنخل ماريا روا هو سائق ماروخا منذ ثلاثة أيام فقط ، وكان يدشن جدارته الجديدة بالبدلة القاتمة والقميص المنشى وربطة العنق السوداء التي يرتديها سائقو الوزارات . أما سلفه الذي تقاعد بناء على رغبته في الأسبوع السابق ، فقد كان السائق الرسمي لمؤسسة « فوثيني » طوال عشر سنوات .

لم تعلم ماروخا باغتيال سائقها إلا بعد وقت طويل جداً . فهي لم تشعر في مخبئها إلا بصوت تحطم الزجاج المفاجئ ، ثم سمعت صرخة حازمة فوق رأسها تقريباً : : « لقد جئنا من أجلك يا سيدتي . اخرجي! » . مخلب حديدي أمسكها من ذراعها وأخرجها سحلاً من السيارة . قاومت قدر استطاعتها ، وقعت أرضاً ، خُدشت إحدى ساقيها ، ولكن رجلين رفعاها عن الأرض

واقتاداها إلى السيارة المتوقفة خلف سيارتها . ولم ينتبه أي منهما إلى أن ماروخا كانت تتشبث بحقيبتها .

أما بياتريث ذات الأظفار الطويلة والقاسية ، والمدربة تدريباً عسكرياً جيداً ، فقد واجهت الفتى الذي حاول اخراجها من السيارة وصرخت به : « إياك أن تلمسني! » فتشنج في مكانه ، وانتبهت بياتريث إلى أنه مضطرب الأعصاب جدا مثلها ، وانه قد يقدم على عمل أي شيء . فغيرت نبرة صوتها وهي تقول له :

ـ سأنزل بمفردي . قل لي ما الذي عليّ عمله .

أشار الفتى إلى سيارة الأجرة وقال لها :

ـ اصعدي في السيارة وانبطحي على أرضها . هيا بسرعة!

كانت أبواب سيارة الأجرة مفتوحة ، ومحركها دائراً ، وسائقها ثابت في مكانه . تمددت بياتريث كيفما استطاعت في القسم الخلفي من السيارة . غطاها الخاطف بسترته وجلس على المقعد واضعاً قدميه فوقها . ثم صعد رجلان آخران : أحدهما إلى جوار السائق والآخر في الخلف . انتظر السائق إلى أن سمع اصطفاق البابين ، وانطلق بقفزات باتجاه الشمال عبر الجادة الدائرية . عندئذ فقط انتبهت بياتريث إلى أنها قد نسيت حقيبتها على مقعد سيارتها ، ولكن الوقت كان قد فات . لم يكن الخوف أو وضعها غير المريح هو أكثر ما يزعجها ، وانما عدم قدرتها على تحمل رائحة الامونياك المنبعثة من السترة .

كانت سيارة المرسيدس التي أخذوا فيها ماروخا قد انطلقت قبل ذلك بدقيقة ، ومضت عبر طريق مختلف . كانوا قد أجلسوها في منتصف المقعد الخلفي وجلس رجلان إلى جانبيها . أجبرها الجالس إلى اليسار على اسناد رأسها إلى ركبتيه في وضع غير مريح إلى حد لا تكاد تستطيع معه التنفس . وإلى جانب السائق كان هناك رجل يتصل مع السيارة الاخرى بواسطة هاتف لاسلكي بدائي . لقد كان تشوش ماروخا أكبر لأنها لم تعرف في أي سيارة

يحملونها ـ فهي لم تعرف مطلقاً ان هناك سيارة أخرى توقفت خلف سيارتها ـ ولكنها كانت تشعر بأن السيارة جديدة ومريحة ، وربما هي مصفحة كذلك ، لأن ضجة الشارع كانت تصل إليها خافتة مثل همس المطر . لم تكن تستطيع التنفس ، وكان قلبها يكاد يخرج من فمها ، وبدأت تشعر بالاختناق . الرجل الذي كان يجلس إلى جوار السائق ، وكان يتصرف كقائد ، انتبه إلى جزعها ، فحاول تهدئتها .

ـ كوني هادئة ـ قال لها من فوق كتفه ، واضاف : ـ إننا نأخذك لكي تقومي بنقل رسالة . ستعودين إلى بيتك خلال ساعة . ولكن أمورك ستسوء إذا أنتِ تحركتِ ، فمن الخير لك أن تبقي هادئة

وحاول الذي كان يسندها إلى ركبتيه أن يهدئها أيضاً . أخذت ماروخا نفساً عميقاً وزفرت الهواء من فمها ببطء شديد ، وبدأت تستعيد قواها . بعد كوادرات قليلة بدأ الوضع يتبدل ، لأن السيارة واجهت ازدحاماً في حركة المرور في أحد المعابر الاجبارية . فأخذ رجل الهاتف اللاسلكي يصرخ مصدراً أوامر مستحيلة لا يتوصل سائق السيارة الاخرى إلى تنفيذها . كانت هناك عدة سيارات اسعاف محتجزة في مكان ما من الاتوستراد ، وكان دوي صفاراتها وزعيق الأبواق الباعث على الصمم يجنن من لا يملك أعصاباً هادئة ، ولم يكن الخاطفون ، في تلك اللحظة على الأقل ، يملكون ذلك الهدوء . فقد كان السائق مضطرب الأعصاب وهو يحاول شق طريقه ، فاصطدم بسيارة تكسي عابرة . لم تكن أكثر من صدمة خفيفة ، ولكن سائق التكسي صرخ بكلمات فاقمت من عصبية الجميع . أصدر رجل الهاتف اللاسلكي الأمر بالتقدم بأي طريقة ، فهربت السيارة عبر الأرصفة والأرض الخلاء .

ما إن تحررت السيارة من منطقة الاحتقان حتى واصلت تقدمها صعوداً . فإحست ماروخا بأنهم يتوجهون صوب « لاكاليرا » ، أحد سفوح الجبل الأكثر ازدحاماً في مثل هذا الوقت . وتذكرت فجأة أنها تملك في أحد جيوب سترتها بعض بذور الهيل ، وهو مهدئ طبيعي . فطلبت من خاطفيها أن يسمحوا لها

بمضغها . ساعدها الرجل الذي إلى يمينها في البحث عن البذور في جيبها ، وانتبه عندئذ إلى أن ماروخا تحتضن حقيبتها . انتزعوا الحقيبة منها ، ولكنهم أعطوها بذور الهيل . حاولت ماروخا أن ترى الخاطفين جيداً ، لكن الاضاءة كانت ضعيفة . تجرأت على سؤالهم : «من تكونون ؟» . فرد عليها رجل الهاتف اللاسلكي بصوت رصين :

ـ نحن من منظمة م ـ ١٩* .

هراء . لأن م ـ ١٩ كانت قد تحولت إلى العلنية والشرعية وهي تشن حملة دعائية لتكون جزءاً من الجمعية التأسيسية .

قالت ماروخا :

ـ قل لي بجد ، هل أنتم من تجار المخدرات أم من رجال حرب العصابات ؟

قال الرجل الذي في المقعد الأمامي :

ـ نحن من رجال حرب العصابات . ولكن اهدئي ، نريدك أن تقومي بنقل رسالة فقط . أقول لك بجد .

قطع كلامه ليصدر أمراً بالقاء ماروخا أرضا ، لأنهم سيمرون على حاجز للشرطة . قال لها : «إياك أن تتحركي الآن أو تقولي شيئاً ، وإلا فاننا سنقتلك» . وأحست هي بسبطانة المسدس في خاصرتها ، بينما أكمل الكلام الرجل الذي بجانبها :

ـ إننا نصوب أسلحتنا إليكِ .

كانت نحو عشر دقائق أبدية . ركزت ماروخا قواها وهي تمضغ حبات الهيل التي كانت تبعث فيها الحيوية أكثر فأكثر ، ولكن وضعها غير المريح لم يكن يسمح لها برؤية أو سماع ما تحدثوا به مع حاجز الشرطة ، إذا كانوا قد تحدثوا . واحساس ماروخا يقول لها إنهم قد مروا دون أن توجه إليهم أية

---

* م ـ ١٩ (M-19) منظمة يسارية كانت تخوض حرب عصابات في كولومبيا . ونشطت بصورة خاصة في النصف الثاني من الثمانينات .(م) .

أسئلة . شكوكها الأولية في أنهم يتوجهون نحو « لاكاليرا » تحولت إلى يقين ، وقد سبب لها ذلك شيئاً من الراحة . ولم تلبث أن نهضت ، لأنها كانت تشعر براحة أكبر مما كانت عليه وهي تسند رأسها إلى ركبتي الرجل . اجتازت السيارة طريقاً موحلاً ، ثم توقفت بعد نحو خمس دقائق . وقال رجل الهاتف اللاسلكي :

ـ ها قد وصلنا .

لم يكن هناك أي ضوء مرئي . غطوا رأس ماروخا بسترة وأجبروها على الخروج منحنية ، فكان الشيء الوحيد الذي تراه هوقدميها تتقدمان عبر فناء في أول الأمر ، وربما بعد ذلك عبر مطبخ مرصوف ببلاط صغير . عندما أزاحوا الغطاء عن رأسها انتبهت إلى أنها في غرفة ضيقة عرضها مترين وطولها ثلاثة أمتار ، على أرضها فراش للنوم ، ويتدلى من سقفها الأملس مصباح أحمر . بعد لحظة من ذلك دخل رجلان مقنعان بنوع من الطاقيات الجبلية لم تكن في الحقيقة إلا ساق بيجامة للجري ، فيها ثلاثة ثقوب للعينين والفم . ومنذ تلك اللحظة ، وطوال فترة أسرها ، لم تر وجه أي شخص .

انتبهت إلى أن الرجلين اللذين يحرسانها ليسا من الذين اختطفوها . فملابسهما قديمة ومتسخة ، وهما أقصر قامة من ماروخا التي يبلغ طول قامتها متراً وسبعة وستين سنتمتراً ، وقد لاحظت كذلك أن جسديهما وصوتيهما فتيّين . أمر أحدهما ماروخا بأن تسلمه المجوهرات التي تلبسها قائلاً لها : « إن هذا لأسباب أمنية . لن يحدث لك هنا أي شيء » . سلمته ماروخا خاتمها المرصع بقطع دقيقة من الماس والزمرد ، ولكنها لم تعطه القرطين .

أما بياتريث التي كانت في السيارة الأخرى ، فلم تستطع التوصل إلى تكوين أي فكرة عن الطريق الذي قطعته . لقد بقيت ممددة طول الوقت على أرضية السيارة ، وليست تتذكر أنها صعدت طريقاً مرتفعاً جداً مثلما هو الطريق الى « لاكاليرا » . ولا أنهم مروا بأي حاجز للشرطة . فربما كان

لسيارةالأجرة امتياز ما يتيح لها المرور دون تأخير . كانت الأجواء على الطريق شديدة العصبية بسبب ازدحام حركة السير . وكان السائق يصرخ من خلال جهاز الهاتف اللاسلكي بأنه لا يستطيع المرور فوق السيارات ، ويسأل عما عليه عمله ، مما كان يزيد من عصبية الذين في السيارة المتقدمة ، فكانوا يوجهون إليه تعليمات مختلفة ومتناقضة .

بقيت بياتريث تقبع في وضع غير مريح ، فإحدى ساقيها ملتوية ، وهي تختنق برائحة السترة التي تغطيها . كانت تحاول اتخاذ وضع أكثر راحة . ظن حارسها بأنها تريد التمرد ، وحاول تهدئتها بالقول لها : «اهدئي ياحبي ، لن يحدث لك شيء . ستتولين ايصال رسالة فقط» . وعندما أدرك أخيراً أن ساقها في وضع غير مريح ، ساعدها على مدّها وأصبح أقل فظاظة . والشيء الذي لم تستطع بياتريث تحمله هو أن يقول لها «ياحبي» ، لأن هذا التمادي كان يضايقها أكثر من نتانة رائحة السترة . ولكنه كلما تمادى في محاولة تهدئتها ، كلما كانت تزداد قناعة بأنهم سيقتلونها . قدرت أن الرحلة في السيارة لم تستغرق أكثر من أربعين دقيقة ، وهكذا فإن الساعة يجب أن تكون الثامنة إلا ربعاً عندما وصلوا إلى البيت .

كان وصولها مماثلاً تماماً لوصول ماروخا . فقد غطوا رأسها بالسترة النتنة واقتادوها من يدها بعد أن نبهوها إلى أنه عليها عدم النظر إلا إلى أسفل . فرأت ما كانت قد رأته ماروخا : الفناء ، والأرضية المبلطة ، ودرجتين أخيرتين . أشاروا إليها بالتحرك إلى اليسار ، ثم نزعوا عنها السترة . وهناك كانت ماروخا جالسة على مقعد خشبي ، شاحبة تحت النور الأحمر المنبعث من المصباح الوحيد .

قالت ماروخا :

ـ بياتريث! أنت هنا!

كانت تجهل ما الذي جرى لها ، ولكنها فكرت في أنهم قد أطلقوا سراحها لأنه لا علاقة لها بأي شيء . ومع ذلك ، فقد أحست حين رأتها هناك

بسعادة كبيرة لأنها لم تعد وحدها ، وأحست في الوقت نفسه بحزن عظيم لأنهم اختطفوها معها . تعانقتا وكأن كلاً منهما لم تر الأخرى منذ وقت طويل .

لم يكن بإمكانهما تصور أنهما ستستطيعان العيش في تلك الغرفة الحقيرة ، وأن تناما على فرشة واحدة ملقاة على الأرض ، وبوجود حارسين مقنعين لا يرفعان بصرهما عنهما لحظة واحدة . جاء مقنع آخر ، أنيق ورشيق ، لا يقل طول قامته عن متر وثمانين سنتميتراً ، كان الآخران يناديانه بلقب *الدكتور* ، وتولى عندئذ القيادة بسلوك قائد كبير . انتزعوا الخاتمين من يد بياتريث اليسرى ، ولم ينتبهوا إلى أنها تعلق سلسلة ذهبية في عنقها تتدلى منها ميدالية تحمل رسماً للعذراء .

قال لهما المقنّع :

ـ هذه عملية عسكرية ، ولن يحدث لكما أي شيء . ـ ثم كرر ماكان قد قاله الآخرون : ـ لقد أحضرناكما لتحملا رسالة إلى الحكومة فقط .

سألته ماروخا :

ـ من الذي يحتجزنا ؟

فهز كتفيه وقال : « هذا غير مهم الآن » ثم رفع المسدس الرشاش لترياه جيداً ، وأكمل : « ولكنني أريد أن أقول لكما شيئاً واحداً . هذا مسدس رشاش مزود بكاتم صوت ، وليس هناك من يعرف أين أنتما ولا مع من . إذا ما صرختما أو فعلتما شيئاً سنخفيكما من الوجود في لحظة واحدة ، ولن يعرف أحد أي شيء عنكما بعد ذلك » . حبست كلتاهما أنفاسها في انتظار ماهو أسوأ . ولكن القائد الذي انتهى من التهديدات ، توجه إلى بياتريث قائلاً :

ـ سنفصل إحداكما عن الأخرى الآن ، ولكننا سنطلق سراحكِ أنت . لقد احضرناكِ بالخطأ .

جاء رد فعل بياتريث فورياً ، وقالت دون أدنى تردد :

ـ آه ، لا . أنا سأبقى برفقة ماروخا .

لقد كان قراراً شجاعاً وكريماً ، حتى ان الخاطف نفسه هتف مذهولاً ودون أي أثر للسخرية : «أية صديقة مخلصة لديك يا دونيا ماروخا!» وماروخا ، الشاكرة وسط ذعرها ، أكدت له أنها كذلك ، وشكرت بياتريث . عندئذ سألهما *الدكتور* إذا كانتا ترغبان في شيء تأكلانه . فقالتا معاً لا . وطلبتا ماء ، لأنهما كانتا تشعران بجفاف شديد في فيهيهما . أحضروا لهما مرطبات . وماروخا التي كانت تحتفظ بسيجارة مشتعلة على الدوام وبعلبة سجائر وولاعة في متناول يدها ، لم تكن قد دخنت طوال الطريق . طلبت أن يعيدوا اليها حقيبتها حيث تحتفظ بالسجائر فقدم إليها الرجل واحدة من سجائره .

كلتاهما طلبتا الذهاب إلى الحمام . وقد ذهبت بياتريث أولا بعد أن غطوها بخرقة ممزقة ومتسخة . وأمرها أحدهم : «انظري إلى الأرض» . اقتادوها من يدها عبر ممر ضيق إلى مرحاض حقير ، في حالة سيئة جداً وله نافذة ضيقة كئيبة تطل على الليل . لم يكن للباب مزلاج من الداخل ، ولكنه يُغلق جيداً ، وهكذا صعدت بياتريث فوق مقعد المرحاض ونظرت من خلال النافذة . والشيء الوحيد الذي استطاعت رؤيته على ضوء عمودٍ للنور هو بيت صغير من اللبن له سقف أحمر وأمامه مرج ، مثل بيوت كثيرة يمكن رؤيتها على دروب السهوب .

عندما رجعت إلى الغرفة وجدت أن الوضع قد تغير تماماً . فقد قال لها *الدكتور* : « لقد عرفنا للتو من تكونين ، وهذا يفيدنا أيضاً . ستبقين معنا » . لقد عرفوا ذلك من المذياع الذي بث للتو خبر الاختطاف .

فالصحفي ادواردو كاربيو الذي يتولى قسم أخبار الأمن العام في محطة الإذاعة الوطنية ، كان يستفهم عن بعض الأمور من مصدر عسكري عندما تلقى هذا الأخير خبر الاختطاف عبر جهاز اللاسلكي . وفي تلك اللحظة بالذات كانوا يبثون الخبر دون تفاصيل . وبهذه الطريقة عرف الخاطفون هوية بياتريث .

وقالت الإذاعة أيضاً إن سائق سيارة التكسي التي صُدمت قد سجل رقم لوحة السيارة التي صدمته وأوصافها العامة . وأن الشرطة حددت الطريق الذي هرب منه الخاطفون . وهكذا فقد أصبح ذلك البيت خطراً بالنسبة إليهم جميعاً ، وعليهم أن يغادروه فوراً . والأسوأ من ذلك أنه يتوجب على المخطوفتين أن تذهبا في سيارة مختلفة ، مخبأتين في صندوق الأمتعة .

لم تجد حجج المرأتين نفعاً ، لأن الخاطفين كانوا يبدون مرعوبين مثلهما ، ولم يحاولوا اخفاء ذلك . طلبت ماروخا قليلاً من الكحول الطبي ، وكانت مذعورة من فكرة أنهما ستختنقان في صندوق الأمتعة .

فقال لها *الد*كتور بجفاء :

ـ ليس لدينا كحول هنا . ستذهبان في الصندوق وليس بالامكان عمل شيء آخر . تحركا بسرعة .

أجبرهما على خلع احذيتهما وحملها في أيديهما ، بينما هم يقتادونهما عبر البيت إلى حيث المرآب . وهناك نزعوا عنهما أغطية الرأس ، ووضعوهما في صندوق السيارة في وضع جنيني ، دون حشرهما بقسوة . كان المكان واسعاً وجيد التهوية لأنهم كانوا قد نزعوا اطار المطاط الذي يُحكم الإغلاق . وقبل اغلاق الصندوق ، أطلق *الد*كتور رشقة تهديدات مرعبة بالقول لهما :

ـ إننا نحمل هنا عشرة كيلوغرامات من الديناميت . لدى أول صرخة أو سعال أو بكاء ، أو أي شيء اخر ، سننزل من السيارة ونفجرها .

لقد شعرتا كلتاهما بالراحة وفوجئتا ، فقد كان ينفذ من شقوق الصندوق تيار بارد ونقي مثل تيار مكيف الهواء . تلاشى الاحساس بالاختناق ، وبقي الخوف والقلق من المجهول وحده . اتخذت ماروخا وضعاً ساهياً كان بالامكان الالتباس فيه واعتباره استسلاماً كاملاً ، ولكن ذلك الوضع كان في الواقع هو معادلتها السحرية لتحمل الجزع . أما بياتريث بالمقابل ، المستسلمة لفضولها الذي لايرتوي ، فقد تطلعت من الشق المضيء في الصندوق غير المحكم . ومن خلال الزجاج الخلفي رأت ركاب السيارة : رجلان في المقعد

الخلفي ، وإمرأة ذات شعر طويل إلى جانب السائق ، ومعها طفل عمره نحو سنتين . وإلى الجهة اليمنى من الطريق رأت الإعلان الضخم المضاء بالاصفر لأحد المراكز التجارية المعروفة . لم يراودها أي شك : إنه الاتوستراد الذي يتجه إلى الشمال ، المضاء لمسافة طويلة ، ثم بعد ذلك الظلمة المطبقة في طريق سيء التعبيد ، حيث خففت السيارة من سرعتها . ثم توقفت بعد قرابة خمس عشرة دقيقة .

لابد أنه حاجز آخر للشرطة . كانت تُسمع أصوات مختلطة ، وضجيج سيارات أخرى ، وموسيقى ؛ ولكن الظلام كان كثيفاً إلى حد لم تستطع معه بياتريث أن تميز شيئاً . استعادت ماروخا حيويتها ، ركزت اهتمامها ، آملة أن يكون موقع تفتيش حيث يجبرونهم على عرض ما يحملونه في الصندوق . تحركت السيارة بعد نحو خمس دقائق ومضت في طريق صاعد ، ولكنهما لم تستطيعا تحديد الطريق هذه المرة . بعد حوالي عشر دقائق من ذلك توقفت السيارة ، وفُتح الصندوق . غطوا رأسيهما مرة أخرى وساعدوهما على الخروج في الظلام .

اجتازتا معاً طريقاً شبيهاً بذاك الذي قطعتاه في البيت الآخر ، وكانتا تنظران إلى الأرض يقودهما الخاطفون عبر ممر ، ثم صالة صغيرة فيها أناس يتحدثون هامسين ، وأخيراً غرفة . وقبل ادخالهما هيأهما *الدكتور* للمفاجأة قائلا لهما :

ـ ستلتقيان الآن مع شخصية صديقة .

كان الضوء في الداخل خافتاً جداً لدرجة أنهما احتاجتا إلى دقيقة كي تعتادا على الرؤية . كان المكان لايزيد على المترين عرضاً والثلاثة أمتار طولاً ، وفيه نافذة واحدة مغلقة باحكام . وعلى فراش فردي على الأرض كان يجلس مقنعان مثل اللذين في البيت السابق ، وكانا ينظران باستغراق إلى التلفزيون . كل شيء كان كئيباً وضاغطاً . وفي الركن الذي إلى يسار الباب ، فوق سرير ضيق ذي مسند حديدي ، كانت تجلس امرأة شبحية لها شعر

أبيض ذاوٍ ، وعينان ذاهلتان ، وبشرة ملتصقة بالعظم . لم يبد عليها أنها أحست بدخولهم ؛ لم تنظر ، ولم تتنفس . لاشيء : إن جثة ما كانت لتبدو أكثر موتاً منها . تجاوزت ماروخا صدمة المفاجأة ودمدمت :

ـ مارينا!

لقد كانت مارينا مونتويا . المخطوفة منذ نحو شهرين ، والتي اعتبرت ميتة . شقيقها دون خيرمان مونتويا كان سكرتيراً عاماً لرئاسة الجمهورية ، وكان يتمتع بسلطات واسعة في زمن حكومة فيرخيليو باركو . وقد كان تجار المخدرات قد اختطفوا من قبل ابنه الفارو دييغو ، مدير إحدى شركات التأمين المهمة ، لكي يجبروا الحكومة على التفاوض معهم . والرواية الأكثر شيوعاً ـ والتي لم تتأكد أبداً ـ تقول إن الخاطفين قد أطلقوا سراحه بعد وقت قصير ، على اثر وعد سري لم تنفذه الحكومة . واختطاف عمته مارينا بعد تسعة شهور من ذلك ، لايمكن تفسيره إلا على أنه انتقام مشؤوم ، إذ أنها لم تكن تتمتع حينذاك بأي قيمة تبادلية . فحكومة باركو كانت قد انهت فترتها ، وكان خيرمان مونتويا قد أصبح سفيراً لكولومبيا في كندا . ولهذا كان راسخاً في وعي الجميع بأنهم قد خطفوا مارينا لكي يقتلوها وحسب .

بعد الفضيحة الأولية التي تلت الاختطاف ، وحركت الرأي العام المحلي والعالمي ، اختفى اسم مارينا من الصحف . كانت ماروخا وبياتريث تعرفانها جيداً ، ولكن لم يكن من السهل عليهما التعرف عليها آنذاك . وواقع أنهم أحضروهما إلى الغرفة نفسها كان يعني بالنسبة إليهما منذ البداية أنهما في زنزانة المحكوم عليهم بالموت . لم تنبس مارينا ببنت شفه . ضغطت ماروخا على يدها ، فهزتها قشعريرة . لم تكن يد مارينا باردة ولا دافئة ، ولم تكن تنقل أي احساس .

أخرجتهما الشارة الموسيقية لنشرة الأخبار من ذهولهما . كانت الساعة التاسعة والنصف من ليلة السابع من تشرين الثاني ١٩٩٠ . وقبل نصف ساعة من ذلك . كان الصحفي هيرنان استوبينيان ، من قسم الأخبار المحلية ، قد

علم بأمر عملية الاختطاف من صديق له في مؤسسة «فوثيني» ، فهرع إلى المكان . ولم يكن قد رجع إلى مكتبه بالتفاصيل الكاملة عندما فتح مدير الأخبار ومقدمها خابيير آيالا البث بالخبر المستعجل الأول قبل العناوين : *المديرة العامة لمؤسسة «فوثيني»* ، *دونيا ماروخا باتشون دي بيياميثار* ، *زوجة السياسي المعروف ألبيرتو بيياميثار* ، *ومعها أخته بياتريث بيياميثار دي غيريرو* ، *تعرضتا لعملية اختطاف في الساعة السابعة والنصف من هذه الليلة* .

بدا الصحفي واضحاً تماماً : ماروخا هي شقيقة غلوريا باتشون ، أرملة لويس كارلوس غالان . الصحفي الشاب الذي أسس حركة الليبرالية الجديدة سنة ١٩٧٩ لتجديد وتحديث التقاليد المهترئة للحزب الليبرالي ، وكان القوة الأكثر جدية وحماساً ضد تجار المخدرات والمؤيد لتسليم المجرمين المحليين إلى دولة أجنبية .

ـ ٢ ـ

كان أول من علم بالاختطاف من أفراد العائلة هو الدكتور بيدرو غيريرو ، زوج بياتريث . كان حينذاك في وحدة العلاج النفسي والسلوك الجنسي البشري ـ على بعد نحو عشر كوادرات ـ يملي محاضرة حول تطور الأنواع البشرية ابتداء من الوظائف الأولية لوحيدات الخلية وحتى انفعالات البشر وعواطفهم . قاطعته مكالمة هاتفية من ضابط في الشرطة سأله بأسلوب مهني عما إذا كان يعرف بياتريث بيياميثار . فرد عليه الدكتور غيريرو : « طبعاً . إنها زوجتي » . صمت الضابط قليلاً وقال بنبرة أكثر انسانية : « حسن ، لا تنفعل » . ولم يكن الدكتور غيريرو بحاجة إلى أن يكون عالم نفس بارزاً لكي يدرك أن تلك العبارة هي الديباجة التي سيتلوها شيء خطير جداً .

سأل :

ـ ولكن ما الذي حدث ؟

فقال الضابط :

ـ لقد اغتالوا سائقاً عند تقاطع الطريق السريع الثالث مع شارع ٨٢ . السيارة من نوع رينو ٢١ ، رمادية فاتحة ، لوحة رقم PS -٢٠٣٤ ، بوغوتا . هل تعرف هذا الرقم ؟

فقال الدكتور غيريرو جزعاً :

ـ ليست لدي أدنى فكرة . ولكن قل لي ما الذي حدث لبياتريث .

قال الضابط :

ـ الشيء الوحيد الذي نستطيع قوله لك حتى الآن هو أنها اختفت . لقد وجدنا محفظتها على مقعد السيارة ، وفيها دفتر صغير تطلب فيه الاتصال بحضرتك في حالة الطوارئ .

لم يكن هناك أي شك . فالدكتور غيريرو نفسه كان قد نصح زوجته بأن تسجل تلك الملاحظة في دفترها الصغير . ومع أنه كان يجهل رقم اللوحة ، إلا ان الأوصاف تنطبق على سيارة ماروخا . والناصية التي وقعت عندها الجريمة تقع على بعد خطوات قليلة من بيتها ، حيث يتوجب على بياتريث أن تمر معها قبل أن تصل الى منزلها . ألغى الدكتور غيريرو المحاضرة مقدما تفسيراً مرتجلاً ومتسرعاً . وأخذه صديقه طبيب البوليّة ألونسو اكونيا خلال خمس عشرة دقيقة إلى مكان الهجوم عبر حركة مرور الساعة السابعة الصاخبة .

أما ألبيرتو بيياميثار ، زوج ماروخا باتشون وشقيق بياتريث ، الذي كان على بعد منتي متر عن مكان الاختطاف ، فقد علم بالأمر من خلال مكالمة داخلية من بوّاب بيته . كان قد رجع إلى البيت في الساعة الرابعة ، بعد أن أمضى فترة بعد الظهر في جريدة *التيمبو* وهو يعمل في الحملة من أجل الجمعية التأسيسية التي سيجري انتخاب أعضائها في شهر كانون الأول ، وكان قد نام بملابسه بسبب الإرهاق الذي تعرض له في الليلة السابقة . وقبل السابعة بقليل جاء ابنه اندريس يرافقه غابرييل ، ابن بياتريث ، وصديقه المفضل منذ أن كانا طفلين . تطلع اندريس إلى غرفة النوم بحثاً عن أمه وأيقظ ألبيرتو .فوجئ هذا الأخير بحلول الظلام ، فأضاء النور وتأكد وهو مايزال ناعساً أن الساعة تقترب من السابعة . ولم تكن ماروخا قد وصلت بعد .

كان تأخرها غريباً . فهي وبياتريث تعودان دائماً في وقت أبكر مهما كانت صعوبة حركة المرور ، أو انهما تتصلان بالهاتف إذا كان هناك أي تأخير طارئ . أضف إلى ذلك أن ماروخا كانت قد اتفقت معه على اللقاء في البيت الساعة الخامسة . راود القلق ألبيرتو ، وطلب من اندريس أن يتصل هاتفياً

بمؤسسة «فوثيني» . فأخبره موظف الاستعلامات بأن ماروخا وبياتريث قد خرجتا متأخرتين قليلاً ، وأنهما ستصلان إلى البيت بين لحظة وأخرى . وكان بيياميثار قد ذهب إلى المطبخ ليشرب ماء عندما رن جرس الهاتف . رد اندريس . وبسبب رنة الصوت وحدها أدرك ألبيرتو أن المكالمة مثيرة للمخاوف . وقد كان الأمر كذلك بالفعل : لقد حدث عند الناصية شيء لسيارة يبدو أنها سيارة ماروخا . وكانت لدى البواب روايات مشوشة لما حدث .

طلب ألبيرتو من اندريس أن يبقى في البيت ليرد على الهاتف إذا ما اتصل أحد ، وخرج من البيت بأقصى سرعة . لحق به غابرييل . ولم تتحمل أعصابهما انتظار المصعد الذي كان مشغولاً ، فنزلا طيراناً على الأدراج . وقد تمكن البواب من القول لهما صارخاً :

ـ يبدو أن هناك ميتاً .

كان الشارع يبدو وكأنه في حفلة . الجيران يطلون من نوافذ الأبنية السكنية ، والسيارات تزدحم في الشارع معرقلة حركة المرور في الطريق الدائري . وكانت هناك عند الناصية دورية إذاعة شرطية تحاول منع الفضوليين من الاقتراب من السيارة المهجورة . فوجئ بياميثار بوصول الدكتور غيريرو قبله .

لقد كانت سيارة ماروخا بالفعل . وكان قد مضى نصف ساعة على الأقل على عملية الاختطاف ، ولم يبق في المكان إلا الآثار : زجاج نافذة السائق المحطم بطلق ناري ، بقعة الدم وفتات الزجاج على المقعد ، ورسم ظل بشري على الأسفلت ، في المكان الذي كانوا قد رفعوا منه للتو السائق الذي مازال على قيد الحياة . وما سوى ذلك كان نظيفاً ومرتباً .

ضابط الشرطة ، الكفء والرسمي ، قدم إلى بيياميثار التفاصيل التي ذكرها الشهود القلائل . كانت المعلومات مبعثرة وغير دقيقة ، وبعضها متناقض ، ولكنها لا تترك مجالاً للشك في أن الأمر هو عملية اختطاف . وأن الجريح الوحيد هو السائق . أراد ألبيرتو أن يعرف إذا ما كان السائق قد

أعطى معلومات تلقي بعض الضوء . لا ، لم يكن ذلك ممكناً : فقد كان في حالة غيبوبة ، وليس هناك من يعرف إلى أين نقلوه .

الدكتور غيريرو بالمقابل ، وكما لو أن الصدمة قد خدرته ، لم يكن يبدو عليه أنه يقدر خطورة المأساة . فقد تعرف لدى وصوله على حقيبة بياتريث ، وعلبة أدوات تجميلها ، ومفكرتها ، وحافظة جلدية فيها بطاقة هويتها ، ومحفظة نقودها وفيها اثنا عشر ألف بيزو وبطاقة اعتماد ، فتوصل إلى الاستنتاج بأن المخطوفة الوحيدة هي زوجته . وقال لصهره :

ـ لاحظ أن حقيبة ماروخا غير موجودة . على الأغلب أنها لم تكن في السيارة .

ربما كانت كياسة شخصية لإلهائه ريثما يستردان كلاهما أنفاسهما . ولكن ألبيرتو كان في وادٍ آخر . فما كان يهمه آنذاك هو التأكد من أنه لايوجد في السيارة أو حولها دماء اخرى غير دماء السائق ، ليضمن أن أياً من المرأتين لم تصب بجراح . أما ماسوى ذلك فقد كان واضحاً في ذهنه ، وكان احساسه أقرب إلى الشعور بالذنب لأنه لم يفكر مسبقاً على الاطلاق في أن ذلك الاختطاف يمكن له أن يحدث . لقد أصبح على قناعة مطلقة الآن بأن العملية موجهة ضده شخصياً ، وكان يعرف من الذي فعل ذلك ولماذا فعله .

ما كاد يذهب حتى قطعوا برنامج الاذاعة ليبثوا خبر موت سائق ماروخا في سيارة الدورية التي كانت تنقله الى مستشفى كانتري . وبعد ذلك بقليل وصل الصحفي غيليرمو فرانكو ، المحرر القضائي في اذاعة *راديو كاراكول* ، وقد حفزه خبر مقتضب عن تبادلٍ لاطلاق النار ، ولكنه لم يجد في المكان سوى السيارة المهجورة . التقط عن مقعد السائق شظايا من الزجاج وورقة سجائر ملطخة بالدم ، وخبأها في علبة شفافة مرقمة ومؤرخة . وانتقلت العلبة في تلك الليلة بالذات لتصبح جزءاً من مجموعة اللقى الجنائية التي جمعها فرانكو على امتداد سنوات عمله الطويلة .

رافق ضابط الشرطة بيياميثار في طريق عودته إلى البيت ، وكان يجري

معه في أثناء ذلك استجواباً غير رسمي يمكن أن يفيده في تحرياته ، ولكن بيياميثار كان يرد عليه دون أن يفكر في شيء آخر سوى الأيام الطويلة والقاسية التي تنتظره . كان أول ما فعله هو إطلاع اندريس على قراره . طلب منه أن يتولى أمر التعامل مع الناس الذين بدؤوا بالتوافد إلى البيت ، بينما راح هو يجري الاتصالات الهاتفية المستعجلة وينظم أفكاره . ثم أغلق غرفة النوم على نفسه واتصل بالقصر الرئاسي .

لقد كانت له علاقات سياسية وشخصية جيدة مع الرئيس ثيسر غافيريا ، وكان هذا الأخير يعرفه كرجل مندفع ولكنه حميم ، وقادر على الاحتفاظ ببرودة أعصابه في أشد الظروف خطورة . ولهذا فوجئ الرئيس من حالته الانفعالية ، ومن اللهجة الجافة التي أخبره بها أن زوجته واخته قد اختطفتا ، وانتهى إلى القول دون رسميات :

ـ أنت مسؤول أمامي عن حياتيهما .

يمكن للرئيس ثيسر غافيريا أن يكون أشد الرجال فظاظة حين يرى أنه يتوجب عليه أن يكون كذلك ، وهذا ما رآه يومذاك . إذ قال له بجفاء :

ـ اسمع يا ألبيرتو . سيتم عمل كل مايجب عمله .

ثم أخبره على الفور ، وبالفتور نفسه ، أنه سيصدر التعليمات حالاً لمستشاره الأمني رافائيل باردو رويدا ، لكي يتولى القضية ويطلعه على تطورات الوضع لحظة بلحظة . وسيثبت مسار الأحداث أنه كان قراراً صائباً .

توافد الصحفيون في جماعات . وكانت لدى بيياميثار معلومات عن مختطفين سابقين كان يُسمح لهم بسماع الإذاعة والتلفزيون ، فارتجل رسالة يطالب فيها بمعاملة ماروخا وبياتريث باحترام لأنهما امرأتان محترمتان وليست لهما أي علاقة بالحرب ، وأعلن أنه سيكرس منذ تلك اللحظة كل وقته وقواه لانقاذهما .

كان أحد أول من حضروا إلى البيت هو الجنرال ميغيل ماثا ماركيز ، مدير شعبة الإدارة الأمنية ، التي تتولى مسؤولية التحقيق في الاختطاف . لقد كان

الجنرال يتولى منصبه ذاك منذ أيام حكومة الرئيس بيليساريو بيتانكور ، قبل سبع سنوات من ذلك ؛ ثم واصل عمله مع الرئيس فيرخيليو باركو ؛ وكان الرئيس ثيسر غافيريا قد ثبته في منصبه للتو . إنه استمرار لا سابقة له في منصب يكاد يكون من شبه المستحيل نيل الرضا فيه ، وخصوصاً في أزمنة شديدة العسر من فترة الحرب ضد تجارة المخدرات . الجنرال ذو القامة المتوسطة والصلب ، كأنه مسكوب من الفولاذ ، والذي له رقبة ثور ورثها عن سلالته المحاربة ، هو رجل كثير الصمت والتأمل ، وقادر في الوقت نفسه على التبسط بحميمية في أوساط أصدقائه : إنه فلاح خالص . ولكنه لا يعرف التلون في وظيفته . فالحرب ضد تجارة المخدرات بالنسبة إليه هي قضية شخصية يخوضها حتى الموت ضد بابلو اسكوبار . وكان يلقى استجابة مماثلة من خصمه . فقد أنفق اسكوبار ألفين وستمئة كيلو غرام من الديناميت في محاولتين متتاليتين لاغتياله : وهو أعلى امتياز قدمه اسكوبار لأيٍ من أعدائه . لقد خرج ماثا ماركيز جريحاً من كلتا المحاولتين ، وعزا نجاته إلى حماية *الطفل الالهي** . وهو القديس نفسه في الحقيقة الذي عزا إليه اسكوبار عدم تمكن ماثا ماركيز من قتله .

كان لدى الرئيس غافيريا ما يشبه السياسة الخاصة المتمثلة في عدم السماح للفرق المسلحة بالتدخل في أي عملية تحرير للرهائن دون اتفاق مسبق مع أسر المخطوفين . ولكن ، في ميدان الاشاعات السياسية ، كانت هناك أحاديث كثيرة تدور عن خلافات في اسلوب العمل ما بين الرئيس والجنرال ماثا . وقد استبق بيياميثار الأحداث ليؤمن الوقاية ، وقال للجنرال ماثا :

ـ أريد أن ألفت انتباهك إلى أنني أعارض قيامك بعملية تحرير بالقوة . وأريد أن أضمن أن ذلك لن يحدث ، وأن يجري التشارو معي قبل اتخاذ أي قرار بهذا الخصوص .

* الطفل الالهي : هو القديس شفيع مدينة بوغوتا ، عاصمة كولومبيا .(م) .

أبدى ماثا ماركيز موافقته . وبعد محادثة استعلامية مطولة ، أصدر أمراً بمراقبة هاتف بيياميثار ، فربما يحاول الخاطفون الاتصال به ليلاً .

في المحادثة الأولى مع مستشار الرئيس الأمني رافائيل باردو ، في تلك الليلة بالذات ، أطلع هذا الأخير بيياميثار على أن الرئيس قد عينه وسيطاً مابين الحكومة والأسرة ، وأنه المخول الوحيد باعطاء التصريحات الرسمية حول القضية . وكان واضحاً لكليهما أن اختطاف ماروخا هو كارامبولا* من جانب تجار المخدرات للضغط على الحكومة من خلال غلوريا باتشون ، أخت المخطوفة . وقررا العمل تبعاً لذلك دون مزيد من الافتراضات .

لم تكن كولومبيا قد وعت أهميتها في تجارة المخدرات العالمية قبل أن يتدخل تجار المخدرات في السياسة العليا للبلاد عبر بوابة خلفية ، أولاً من خلال قدرتهم المتعاظمة على الافساد والرشوة ، ثم من خلال التطلعات والطموحات الخاصة . فقد حاول بابلو اسكوبار في عام ١٩٨٢ أن يحتل موقعاً مرموقاً في حركة الليبرالية الجديدة التي قادها لويس غالان ، ولكن هذا الأخير شطبه من قوائمه وكشف عنه اللثام في ميدلين أمام مظاهرة ضمت خمسة آلاف شخصٍ . وقد توصل اسكوبار بعد فترة قصيرة إلى أن يكون عضواً في مجلس النواب عن الجناح الهامشي في الحركة الليبرالية الرسمية ، ولكنه لم ينس الإهانة ، وشن حرباً حتى الموت ضد الدولة ، وضد الحركة الليبرالية الجديدة بصورة خاصة . فجرى اغتيال رودريغو لارا بونييا ، الذي كان يمثل الحركة كوزير للعدل في حكومة الرئيس بيليساريو بيتانكور ، على يد قاتل مأجور في شوارع بوغوتا . ثم جرت ملاحقة خلفه انرييكي باريخو إلى بودابست بواسطة قاتل مأجور أطلق عليه رصاصة من مسدس في وجهه ، ولكنه لم يتمكن من قتله . وفي ١٨ آب ١٩٨٩ ، أُطلقت نيران رشاش على لويس كارلوس غالان في الساحة العامة ببلدية سواتشا ، على بعد عشرة

* كارامبولا (carambola) مصطلح في لعبة البيلياردو يشار به إلى اصابة أكثر من كرة على التوالي بضربة واحدة .

كيلومترات من القصر الرئاسي ووسط ثمانية عشر حارساً خاصاً مسلحين .

إن السبب الرئيسي لهذه الحرب هو خشية تجار المخدرات من امكانية تسليمهم إلى الولايات المتحدة ، حيث يمكن لهم أن يتعرضوا للمحاكمة على جرائم اقترفوها في تلك البلاد ، وتصدر بحقهم أحكام طويلة جداً . وقد كان من بين تلك الأحكام ، حكم من الوزن الثقيل ، صدر بحق كارلوس ليهدير ، وهو تاجر مخدرات كولومبي جرى تسليمه سنة ١٩٨٧ ، وحكمت عليه محكمة في الولايات المتحدة بالسجن المؤبد إضافة إلى مئة وثلاثين سنة . لقد كان تسليمهم ممكناً بمقتضى الاتفاقية الموقعة أثناء حكومة الرئيس خوليو ثيسر طربيه ، حيث تم الاتفاق للمرة الأولى على تسليم الوطنين لدولة أجنبية . وقد طبق ذلك أول مرة الرئيس بيليساريو بيتانكور على أثر اغتيال لارا بونييا ، فقام بسلسلة جزئية من عمليات تسليم المجرمين . وأدرك تجار المخدرات ـ وقد أرعبهم طول يد الولايات المتحدة في العالم بأسره ـ أنه لم يعد لهم مكان أكثر أمناً من كولومبيا ، وانتهى بهم الأمر الى التحول إلى هاربين متخفين في بلادهم نفسها . وكانت السخرية الكبرى هي أنه لم يبق أمامهم من خيار سوى وضع أنفسهم تحت حماية الدولة للنجاة بجلدهم . وهكذا حاولوا الحصول على تلك الحماية ـ بالاقناع أو بالقوة ـ بشن حملة ارهاب دون تمييز ولا رحمة ، واقترحوا في الوقت نفسه أن يسلموا أنفسهم للعدالة وان يعودوا إلى الوطن ويستثمروا رؤوس أموالهم في كولومبيا ، بشرط وحيد هو ألا يجري تسليمهم إلى الولايات المتحدة . وقد شكلوا سلطة مناهضة حقيقية في الظل تحت يافطة مؤسساتية ـ الاكستراديتابليون* ـ وتحت شعار اسكوبار التقليدي القائل : « نفضل قبراً في كولومبيا على زنزانة في الولايات المتحدة » .

الرئيس بيتانكور أبقى على الحرب . وخليفته فيرخيليو باركو زاد إوارها . وهكذا كان الوضع في عام ١٩٨٦ . حين ظهر ثيسر غافيريا كمرشح

* الاكستراديتابليون (Extraditables) : هم المجرمون وتجار المخدرات الكولومبيون المطلوبون للعدالة في الولايات المتحدة . وقد شكلوا تجمعاً ضاغطاً على الحكومة تحت هذا الأسم .

رئاسي بعد اغتيال لويس كارلوس غالان ، وكان غافيريا رئيساً لحملته الانتخابية . وعندما بدأ حملته كمرشح دافع عن مبدأ تسليم المطلوبين كوسيلة لابد منها لتعزيز العدالة ، وأعلن عن استراتيجية جديدة ضد تجارة المخدرات . لقد كانت تلك الاستراتيجية عبارة عن فكرة بسيطة تقول : من يسلمون أنفسهم للقضاة ويعترفون ببعض أو كل جرائمهم يمكنهم الحصول على منفعة أولية تتمثل في عدم تسليمهم إلى الولايات المتحدة . ولكن صياغة هذه الفكرة في المرسوم الأصلي لم تكن كافية لطمأنة الاكستراديتابليين . وطالب اسكوبار عبر محاميه أن يكون عدم التسليم غير مشروط ، وألا يكون مطلب الاعتراف والوشاية إجبارياً ، وأن تكون للسجن حصانة لايمكن تجاوزها ، وأن تقدم ضمانات تكفل الحماية لأسرهم وأتباعهم . وللتوصل إلى ذلك ـ بالارهاب في يد والمفاوضات في اليد الأخرى ـ بدأ سلسلة اختطافات الصحفيين كي يلوي ذراع الحكومة . فخطف ثمانية أشخاص خلال شهرين . وهكذا فقد فُسر اختطاف ماروخا وبياتريث على أنه لفة اخرى لبرغي تلك السلسلة المشؤومة .

لقد أدرك بيياميثار الأمر على هذا النحو مذ رأى السيارة المثقوبة بالرصاص . وفيما بعد ، وسط الناس الذين توافدوا على البيت ، سيطرت عليه قناعة مطلقة بأن حياتيَ زوجته وشقيقته متعلقتان بما يمكنه أن يفعله لإنقاذهما . ففي هذه المرة ، أكثر من أي مرة سابقة ، أصبحت الحرب مطروحة كمبارزة شخصية لايمكن تفاديها .

إن بيياميثار في الواقع هو شخص ناجٍ من الموت . إذ أنه كان قد توصل ، كعضو في مجلس الشيوخ ، إلى إقرار القانون الأساسي الوطني للمخدرات عام ١٩٨٥ ، حين لم يكن هناك تشريع نظامي ضد تجارة المخدرات وإنما بعض المراسيم المتفرقة من قانون حالة الطوارئ . وفيما بعد ، وجه إليه لويس كارلوس غالان التعليمات لكي يحول دون إقرار مشروع قانون قدمه برلمانيون من أصدقاء اسكوبار إلى المجلس بهدف رفع الدعم التشريعي عن اتفاقية

تسليم المطلوبين السارية مع الولايات المتحدة . وكان موقفه ذاك بمثابة الحكم على نفسه بالموت . ففي ٢٢ تشرين الأول ١٩٨٦ أطلق عليه قاتلان مأجوران . يرتديان بيجامات التعرق ويتظاهران بممارسة الرياضة قبالة بيته ، رشقتي رصاص من رشاش حين كان يدخل إلى سيارته . وقد أفلت من الموت بأعجوبة . ويومها لقي أحد المهاجمين مصرعه على يد الشرطة ، أما شركاؤه الذين اعتقلوا ، فقد أطلق سراحهم بعد سنوات قليلة . لم يدفع أحد ثمن محاولة الاغتيال ، ولكن الشك لم يخامر أحداً كذلك في هوية من أمر باقترافها .

جرى تعيين بيياميثار سفيراً في اندونيسيا بعد أن أقنعه غالان نفسه بالابتعاد لبعض الوقت عن كولومبيا . وبعد سنة من ذلك ، ألقت أجهزة أمن الولايات المتحدة في سنغافورة القبض على قاتل مأجور كولومبي كان متوجهاً إلى جاكرتا . ولم يتضح تماماً إذا ما كان مبعوثاً لاغتيال بيياميثار ، ولكن تبين أن ذلك القاتل كان يعتبر ميتاً في الولايات المتحدة بواسطة وثيقة وفاة تَبيّن أنها مزيّفة .

في ليلة اختطاف ماروخا وبياتريث كان بيت بيياميثار مزدحماً إلى حد الانفجار . كان يتوافد أناس من الشرطة ومن الحكومة ، وأقرباء المخطوفتين . وقد قامت مروجة الفن اثينيث فيلاثكيث وصديقة آل فيياميثار المقربة التي تسكن في الطابق التالي ، بتولي مهمة المضيفة ، ولم يكن ينقص إلا الموسيقى لكي تبدو تلك الليلة مثل أي ليلة جمعة اخرى . إنه أمر لامناص منه : فكل اجتماع في كولومبيا لأكثر من ستة أشخاص ، من أي طبقة وفي أي ساعة ، محكوم عليه بالتحول إلى حفلة رقص .

في أثناء ذلك كانت الأسرة كلها الموزعة في أنحاء العالم قد علمت بالخبر . فألكسندرا ، ابنة ماروخا من زواجها الأول ، كانت قد انتهت من تناول عشائها في مايكاو ـ في شبه جزيرة غواخيرا* النائية ـ عندما أذاع

* غواخيرا (Guajira) منطقة صحراوية على الحدود بين كولومبيا وفنزويلا .

خابيير آيالا الخبر . لقد كانت مديرة « إنفوكي » ، البرنامج الشعبي الذي يبثه التلفزيون أيام الأربعاء ، وكانت قد وصلت في اليوم السابق إلى غواخيرا لاجراء سلسلة من المقابلات . ركضت إلى الفندق لتتصل بالأسرة ، ولكن هاتف المنزل كان مشغولاً . وبصدفة محظوظة ، كانت قد قابلت في برنامجها يوم الأربعاء السابق عالماً نفسياً متخصصاً في علاج حالات مرضية تسببها السجون التي فيها درجة عالية من الأمن . ومنذ سماعها الخبر في مايكاو ، انتبهت إلى أن العلاج نفسه يمكن أن يكون مفيداً للمخطوفين . فرجعت إلى بوغوتا لتضع ذلك موضع التطبيق بدءاً من برنامجها التالي .

أما غلوريا باتشون ـ شقيقة ماروخا ، والتي كانت آنذاك سفيرة لكولومبيا لدى اليونسكو ـ فقد أُيقظت في الساعة الثانية فجراً على جملة قالها بيياميثار «لدي خبر سيء لكِ» . وهكذا علمت بالخبر بعد لحظة من ذلك في الغرفة المجاورة ، خوانا ابنة ماروخا ، التي كانت تقضي اجازة في باريس . كما أُيقظ في نيويورك ، نيكولاس الموسيقي ومؤلف الألحان الذي كان في الثالثة والعشرين .

في الساعة الثانية فجراً ذهب الدكتور غيريرو مع ابنه غابرييل للتحادث مع البرلماني دييغو مونتانيا كويبار ، رئيس الوحدة الوطنية ـ حركة موالية للحزب الشيوعي ـ وعضو جماعة *الأعيان* التي تشكلت في شهر كانون الأول ١٩٨٩ للتوسط بين الحكومة وخاطفي ألفارو دييغو مونتويا . ولم يجدوه مستيقظاً وحسب ، وإنما مغموماً أيضاً . كان قد سمع خبر الاختطاف في نشرات الأخبار الليلية ، وبدا له أنها بادرة محبطة . والشيء الوحيد الذي أراد الدكتور غيريرو أن يطلبه منه هو أن يكون وسيطاً لكي يوافق بابلو اسكوبار على احتجازه بدلاً من زوجته بياتريث . وقد رد عليه مونتانيا كويبار بجواب يعبر عن أسلوبه ، إذ قال له :

ـ لا تكن تافهاً يا بيدرو . ففي هذه البلاد لم يعد هناك مايمكن عمله .

رجع الدكتور غيريرو إلى بيته عند شروق الشمس ، ولكنه لم يحاول

حتى أن ينام . لقد كان الجزع يُفقده استقراره . وقبل الساعة السابعة بقليل اتصل به ياميت آمات مدير أخبار *اذاعة كاراكول* شخصياً ، ورد عليه الدكتور وهو في أسوأ حالة معنوية بتوجيه تحدٍ مخيف إلى الخاطفين .

أما بيياميثار الذي لم ينم دقيقة واحدة ، فقد استحم وارتدى ملابسه في الساعة السادسة والنصف صباحاً ، وذهب إلى موعد مع وزير العدل خيمي خيرالدو آنخل ، الذي أطلعه على آخر تطورات الحرب الدائرة ضد ارهاب تجار المخدرات . خرج بيياميثار من ذلك اللقاء وهو مقتنع بأن نضاله سيكون شاقاً وطويلاً ، ولكنه كان شاكراً لهاتيك الساعتين اللتين أتاحتا له الاطلاع على آخر تطورات الموضوع ، ذلك أنه كان قد تجاهل أمر تجارة المخدرات تماماً منذ بعض الوقت .

لم يتناول فطوراً ولا غداء . وفي المساء ، بعد عدة مساعٍ فاشلة ، ذهب هو أيضاً لزيارة دييغو مونتانيا كوييار الذي فاجأه مرة أخرى بصراحته : « لاتنس أن هذا الأمر سيطول . على الأقل حتى شهر حزيران من السنة القادمة ، بعد الجمعية التأسيسية ، لأن ماروخا وبياتريث ستكونان الترس الذي يحتمي به اسكوبار كيلا يسلموه إلى الولايات المتحدة » . لقد كان عدد كبير من الأصدقاء يتضايقون من مونتانيا كوييار لأنه لايخفي تشاؤمه أمام الصحافة ، على الرغم من كونه عضواً في جماعة *الأعيان* . وقد قال آنذاك لبيياميثار بلغة مزوقة :

ـ سأستقيل على أي حال من هذه الجماعة العاهرة . فنحن فيها لسنا سوى حمقى .

كان بيياميثار يشعر بالإرهاق والوحدة عندما رجع إلى البيت ، بعد يوم من المساعي التي لا أمل فيها . وقد تركه كأسا الويسكي اللذان شربهما دفعة واحدة ، منهوكاً تماماً . ثم تمكن ابنه اندريس ، الذي سيكون رفيقه الوحيد منذ ذلك الحين ، من جعله يتناول الفطور في الساعة السادسة مساء . وكان يفعل ذلك حين اتصل به رئيس الجمهورية هاتفياً . وقال له بأفضل نبرة لديه :

ـ الآن تعال يا ألبيرتو وسنتحدث .

استقبله الرئيس غافيريا في الساعة السابعة ليلاً في مكتبة بيته الخاص في القصر الرئاسي ، حيث كان يعيش منذ نحو ثلاثة شهور مع زوجته آنا ميلينا موبيوث وابنيه ، سيمون الذي في الحادية عشرة وماريا باث ذات الثمانية أعوام . كانت المكتبة ملجأ صغيراً ولكنه مريح ، الى جوار دفينة أزهار نفاذه ، حيث الرفوف الخشبية المترعة بمطبوعات رسمية وبصور للأسرة ، وفيها جهاز موسيقى كومبكت مع الاسطوانات المفضلة : البيتلز ، جيثرو تِل ، خوان لويس غيرا ، بيتهوفن ، باخ . فبعد ساعات العمل الرسمية المرهقة ، كان الرئيس يعقد هناك اللقاءات غير الرسمية أو يسترخي برفقة أصدقاء الغروب مع كأس من الويسكي .

كان غافيريا ينتظر بيياميثار بتحية مؤثرة ، وحدثه بلهجة تضامنية ومتفهمة ، ولكن بصراحته الفظة بعض الشيء . ومع ذلك ، فقد كان بيياميثار أكثر هدوءاً حينذاك بعد أن تجاورز الصدمة الأولية ، وكان قد حصل كذلك على مايكفي من المعلومات ليعرف أن ما يمكن للرئيس أن يفعله من أجله هو قليل جداً . كلاهما كان متأكداً من أن هناك دوافع سياسية وراء اختطاف ماروخا وبياتريث ؛ ولم يكن ثمة حاجة لأن يكونا منجمين حتى يعرفا أن الفاعل هو بابلو اسكوبار . ولكن ماهو جوهري ليس معرفة ذلك ـ قال غافيريا ـ وإنما التوصل إلى جعل اسكوبار يعترف بأنهما لديه ، كخطوة مهمة أولى من أجل أمن المخطوفتين .

لقد كان بيياميثار يعرف بوضوح منذ اللحظة الأولى أن الرئيس لن يخرج عن الدستور ولا عن القوانين لكي يساعده ، وأنه لن يوقف العمليات العسكرية بحثاً عن المخطوفين ، ولكنه لن يحاول في الوقت نفسه القيام بعمليات انقاذ دون تفويض من أسر المخطوفين .

« هذه هي سياستنا » ـ قال الرئيس .

ولم يعد هناك ما يمكن قوله . حين خرج بيياميثار من القصر الرئاسي ،

كانت قد انقضت أربع وعشرون ساعة على عملية الاختطاف ، وكان يقف مثل أعمي في مواجهة قدره ، ولكنه كان يعرف أنه يستند إلى تضامن الحكومة معه لكي ينطلق في مساعٍ خاصة لمصلحة مخطوفتيه ، وكان يعرف كذلك أن مستشار الرئيس الأمني رافائيل باردو موضوعٌ تحت تصرفه . ولكنه كان يرى أن واقعية دييغو مونتانيا كوييار الفظة هي التي تتمتع بأكبر قدر من المصداقية .

* * *

أول عملية اختطاف في تلك الحملة التي لا سابق لها ـ في ٣٠ آب الفائت ، وبعد أقل من ثلاثة أسابيع على تولي الرئيس ثيسر غافيريا مهام منصبه ـ هي عملية اختطاف ديانا طربيه ، مديرة الأخبار في تلفزيون كريبتون ومديرة مجلة *اليوم x اليوم* في بوغوتا ، وابنة رئيس الجمهورية الأسبق والزعيم الأعلى للحزب الليبرالي خوليو ثيسر طربيه . وقد اختطف معها أربعة أفراد من فريقها : رئيسة تحرير نشرة الأخبار اثوثينا ليبفانو ؛ والمحرر خوان بيتا ، والمصوران ريتشارد بيثيرا واورلاندو اثيفيدو ، اضافة إلى الصحفي الألماني المقيم في كولومبيا هيرو بوس . أي ما مجموعه ستة أشخاص .

الخدعة التي استخدمها الخاطفون هي مقابلةٌ مزعومة مع الراهب مانويل بيريث ، القائد الأعلى لجيش التحرير الوطني . ولم يكن أي واحد من الأشخاص القلائل الذين عرفوا بأمر الدعوة موافقاً على تلبية ديانا لها . ومن هؤلاء الأشخاص وزير الدفاع ، الجنرال اوسكار بوتيرو ، ومستشار الرئيس الأمني رافائيل باردو الذي كان رئيس الجمهورية قد بيّن له مخاطر الرحلة لكي يبلغها إلى أسرة طربيه . ومع ذلك ، فان التفكير في أن ديانا ستتخلى عن تلك الرحلة كان يعني عدم معرفتها . والواقع أن المقابلة مع الراهب مانويل بيريث لم تكن تهمها بقدر ما كانت تهتم بإمكانية فتح حوار للسلام . فقبل سنوات من ذلك كانت قد قامت برحلة على متن بغلة لتتحدث إلى جماعات الدفاع

الذاتي المسلحة في مناطقهم بالذات ، وذلك في محاولة لفهم تلك الحركة من وجهة نظرها السياسية والصحفية . الخبر لم يكشف شيئاً في حينه ، ونتائج الرحلة لم تُنشر . ولكنها فيما بعد ، وعلى الرغم من حربها القديمة مع حركة م ر ـ ١٩ (MR-19) عقدت صداقة مع قائد الحركة كارلوس بيثارو ، وزارته في معسكره للبحث عن حل سلمي . لقد كان واضحاً أن من خطط لخدعة اختطافها كان يعرف هذه الحيثيات . وهكذا فانه لم يكن هناك في تلك اللحظة أي شيء في هذا العالم ، مهما كانت الأسباب ومهما كثرت العقبات ، يمكنه منع ديانا من الذهاب للتحدث إلى الراهب بيريث الذي كان يملك مفتاحاً آخر من مفاتيح السلام .

كان اللقاء قد تأجل في السنة السابقة بسبب عدة عقبات طارئة ظهرت في اللحظة الأخيرة ، ولكنها في الساعة الخامسة من يوم الثلاثين من آب ، ودون أن تخبر أحداً ، انطلقت ديانا وفريقها هذه المرة إلى وجهتها في شاحنة مخلعة ، مع رجلين شابين وفتاة قدموا أنفسهم على أنهم مبعوثون من قيادة جيش التحرير الوطني . الرحلة نفسها من بوغوتا كانت تقليداً أميناً لما كان سيحدث لو أن رجال حرب العصابات هم الذين يقومون بها حقاً . لابد أن المرافقين هم أعضاء في جماعة مسلحة ، أو أنهم كانوا كذلك ، أو أنهم حفظوا الدرس جيداً ، لأنهم لم يقترفوا خطأ واحداً يكشف الخدعة سواء في أحاديثهم أو في سلوكهم .

في اليوم الأول وصلوا إلى هوندا ، على بعد مئة وستة وأربعين كيلومتراً من بوغوتا . وهناك كان ينتظرهم رجال آخرون معهم سيارتان مريحتان . وبعد تناول العشاء في استراحة بغَالين واصلوا تقدمهم على الطريق غير المرئي والخطر ، تحت وابل المطر الشديد . وكان عليهم عند الفجر أن ينتظروا إلى أن يتم تنظيف الطريق من انهيار ضخم . وأخيراً ، بعد الإرهاق والنوم السيء ، وصلوا في الحادية عشرة صباحاً إلى مكان كانت تنتظرهم فيه دورية معها خمسة أحصنة . وواصلت ديانا واثوثينا الرحلة على الخيل طوال أربع ساعات ،

ورفاقهما سيراً على الأقدام ، عبر جبل كثيف أول الأمر ، ثم في وادٍ شاعري بعد ذلك ، فيه بيوت هادئة ما بين مزارع البن . وكان الناس يطلون للنظر إليهم وهم يمرون ، وكان بعضهم يتعرفون على ديانا ويحيونها من الشرفات . وقدر خوان بيتا أن من رأوهم على امتداد الطريق لايقلون عن خمسمئة شخص . وقد نزلوا بعد الظهر في مزرعة مقفرة حيث استقبلهم شاب له مظهر الطلاب وقدم نفسه على أنه من جيش التحرير الوطني ، ولكنه لم يقدم لهم أي معلومات عن وجهتهم . كان الجميع مرتبكين ، فعلى بُعد أقل من نصف كيلو متر يظهر مقطع من طريق اتوستراد ، وفي أقصى المشهد هناك مدينة لاشك في أنها ميدلين . هذا يعني : أرض ليست لجيش التحرير الوطني ـ هكذا فكر هيرو بوس ـ ، اللهم إلا إذا كانت العملية لعبة معلمٍ يلعبها الراهب بيريث ليجتمع بهم في منطقة لن يخامر الشك أحداً في أنهم فيها .

وبالفعل ، بعد نحو ساعتين أخريين ، وصلوا إلى كوباكابانا ، البلدة التي التهمها اندفاع ميدلين الديموغرافي . نزلوا هناك في بيت صغير ذي جدران بيضاء وسطح تغطيه طبقة من الطحالب . شبه مغروس على أكمة بارزة ووعرة . وكانت هناك في الداخل صالة في كل جانب منها غرفة صغيرة . وفي إحدى الغرف كان هناك ثلاثة أسرة زوجية تمدد عليها الأدلاء . وفي الغرفة الأخرى ـ حيث يوجد سرير مزدوج وسرير آخر من طابقين ـ أنزلوا رجال الفريق الصحفي . أما ديانا وثوثينا فقد خصصوا لهما آفضل غرفة في صدر البيت ، وكانت فيها آثار تدل على أن ثمة نساء كن يستخدمن الغرفة قبلهما . كان النور مضاء في وضح النهار ، لأن جميع النوافذ كانت مغلقة بأخشاب .

بعد قرابة ثلاث ساعات من الانتظار ، جاء مقنّع آخر ورحب بهم باسم القيادة ، وأعلن لهم أن الراهب بيريث ينتظرهم ، ولكن لابد لهم ، لأسباب أمنية ، من أن ينقلوا النساء أولاً . وكانت تلك هي المرة الأولى التي أبدت فيها ديانا مظاهر القلق . ونصحها هيرو بوس بعدم الموافقة بأي حال على تقسيم الفريق . ولأنها لم تستطع منع ذلك ، قدمت له ديانا بطاقة هويتها خفية ، دون

أن يتاح لها الوقت لتوضح له سبب ذلك ، ولكنه فهم الأمر على أن بطاقة الهوية ستكون دليلاً إذا ما قاموا باخفاء ديانا من الوجود .

قبل أن تشرق الشمس أخذوا المرأتين ومعهما خوان بيتا . أما هيرو بوس ، وريتشارد بيثيرا ، واورلاندو اثيفيدو فبقوا في الغرفة ذات السرير المزدوج والسرير العسكري ذي الطابقين ، وبقي معهما خمسة حراس . كانت الشكوك بأنهم وقعوا في فخ تتزايد كل ساعة . وبينما كانوا يلعبون بالورق في تلك الليلة ، لاحظ هيرو بوس أن أحد الحراس يلبس ساعة ثمينة ، فقال مازحاً : « يبدو أن جيش التحرير الوطني قد صار على مستوى روليكس » . ولكن خصمه تظاهر بأنه لم يفهم التلميح . والشيء الآخر الذي بلبل ذهن هيرو بوس هو أن الأسلحة التي يحملونها ليست من أسلحة رجال حرب العصابات ، وإنما أسلحة عمليات في المدن . أما اورلاندو الذي كان يتكلم قليلاً ويعتبر نفسه « مسكين النزهة » ، فلم يكن بحاجة إلى كثير من التأمل لكي يحدس الحقيقة ، وذلك بسبب احساسه القاهر بأن شيئاً خطيراً كان يحدث .

أول تبديل للبيت جرى في منتصف ليل العاشر من أيلول ، حين اندفع الحراس وهم يصرخون : « لقد جاء القانون » . وبعد ساعتين من المسير الشاق بين النباتات الكثيفة ، تحت عاصفة رهيبة ، وصلوا إلى البيت الذي كانت فيه ديانا واثوثينا وخوان بيتا . كان بيتاً فسيحاً وجيد الترتيب ، فيه تلفزيون ذو شاشة كبيرة ، ودون أي شيء آخر يمكن له أن يثير الشكوك . ولكن ما لم يتصوره أي واحد منهم على الاطلاق هو كم كانوا قريبين في تلك الليلة من النجاة بمحض الصدفة . لقد كان اجتماع شملهم محطة استمرت لساعات قليلة استغلوها في تبادل الأفكار والخبرات والخطط من أجل المستقبل . فاضت ديانا بمكنون قلبها أمام هيرو بوس . وحدثته عن غمها وحزنها لأنها أوصلتهم إلى الفخ الذي لا مخرج منه والذي هم فيه ، واعترفت له بأنها كانت تحاول أن تخمد في ذاكرتها ذكرياتها عن أسرتها ـ زوجها ،

أبنائها ، أبويها ـ التي لا تتيح لها لحظة من الراحة . ولكن نتيجة محاولاتها تكون عكسية على الدوام .في الليلة التالية ، وبينما كانوا يقتادونها سيراً على الأقدام الى بيت ثالث ، مع اثوثينا وخوان بيتا ، عبر طريق مستحيل وتحت وابل من المطر لا يتوقف ، أدركت ديانا أنه ليس هناك أي قدر من الحقيقة في القصة التي أخبروهم بها . وفي تلك الليلة بالذات أخرجها من شكوكها حارس لم يكونوا قد عرفوه من قبل ، إذ قال لهم :

أنتم لستم في حوزة جيش التحرير الوطني ، وانما في أيدي الاكستراديتابليين . ولكن اطمئنوا ، فسوف تكونون شهوداً على حدث تاريخي .

كان اختفاء فريق ديانا طربيه مايزال سراً غامضاً بعد تسعة عشر يوماً على غيابهم ، حين جرى اختطاف مارينا مونتويا . كان قد اقتادها بالقوة ثلاثة رجال يرتدون ثياباً أنيقة ، مسلحين بمسدسات من عيار ٩ مليمتر ورشاشات من طراز مينيزيس مزودة بكاتم صوت ، حين كانت قد انتهت للتو من اغلاق مطعمها دوندي *لا س تياس* ، في القطاع الشمالي من بوغوتا . وقد حالف الحظ يومذاك أختها لوكريثيا التي تساعدها في خدمة الزبائن ، فقد كانت قدمها ملفوفة بالجبس بسبب التواء في رسغها ، مما حال دون حضورها إلى المطعم . كانت مارينا قد أغلقت المحل ، ولكنها عادت وفتحته ثانية لإنها تعرفت على الرجال الثلاثة الذين طرقوا على الباب . لقد تناولوا الطعام هناك عدة مرات منذ الاسبوع الفائت ، وكانوا يدهشون العاملين في المطعم بلطفهم وظرفهم البلدي ، وباكرامياتهم السخية لندل الخدمة التي تصل إلى ثلاثين بالمئة . لكن سلوكهم في تلك الليلة كان مختلفاً تماماً . فما إن فتحت مارينا الباب حتى سيطروا عليها بحركة بارعة وأخرجوها من المحل . وتمكنت هي من التشبث بذراعها بأحد أعمدة النور وبدأت بالصراخ . فوجه إليها أحد المهاجمين ضربة بركبته على عمودها الفقري قطعت أنفاسها . حملوها وهي فاقدة الوعي إلى سيارة مرسيدس ١٩٠ زرقاء ، ووضعوها في الصندوق المكيف للتنفس .

لويس غيلليرمو بيريث مونتويا ، أحد أبناء مارينا السبعة ، في الثامنة والأربعين من عمره ، وأحد كبار الإداريين في شركة كوداك في كولومبيا ، قدم الرواية نفسها التي يرددها الجميع : لقد اختُطفت أمه كعمل انتقامي بسبب عدم تنفيذ الحكومة للاتفاق مابين خيرمان مونتويا والاكسترا ديتابليين . ولأنه لايثق بطبعه بكل ما له علاقة بالعالم الرسمي ، فقد انهمك في مهمة السعي لتحرير أمه بالتعامل مباشرة مع بابلو اسكوبار .

ودون أي توجه محدد أو أي اتصال مسبق مع أحد ، ودون أن يعرف حتى ما الذي سيفعله عندما يصل ، سافر لويس غيلليرمو بعد بضعة أيام إلى ميدلين . وفي المطار ركب سيارة أجرة وطلب من السائق أن يأخذه إلى المدينة دون أن يَحدد أي مكان بعينه . وقد خرج الواقع لمواجهته عندما رأى على حافة الطريق جثةَ مراهقةٍ في حوالي الخامسة عشرة من العمر ، ترتدي ملابس احتفالية ملونة جيدة وتضع أصبغة تجميل بمبالغة . كانت هناك إصابة برصاصة وخيط من الدم الجاف على جبهتها . ودون أن يصدق لويس غيلليرمو ما تقوله عيناه ، أشار بإصبعه قائلاً :

ـ توجد هناك فتاة ميتة .

فقال السائق دون أن ينظر :

ـ أجل ، إنهن الدمى اللواتي يذهبن في حفلات مع أصدقاء دون بابلو .

لقد كسر ذلك الحادث الجليد . وكشف لويس غيليرمو للسائق عن هدف زيارته للمدينة ، فأعطاه هذا الأخير كلمة السر لمقابلة ابنة مزعومة لإحدى بنات عم بابلو اسكوبار . وقال له :

ـ إذهب اليوم في الساعة الثامنة إلى الكنيسة التي خلف السوق . وستأتي إليك هناك فتاة تدعى روساليا .

وقد كانت في انتظاره هناك بالفعل ، جالسة على أحد مقاعد الساحة . لقد كانت طفلة تقريباً ، ولكن تصرفاتها وثقتها بكلماتها كانت تكشف عن امرأة ناضجة ومُدرَّبة جيداً . قالت له إنه من أجل بدء الاتصالات لابد له من أن

يحمل معه نصف مليون بيزو . وأعطته اسم الفندق الذي يتوجب عليه النزول فيه يوم الخميس التالي ، حيث سينتظر مكالمة هاتفية في الساعة السابعة صباحاً أو السابعة ليلاً من يوم الجمعة . وحددت قائلة :

ـ التي ستتصل بك تدعى بيتا .

انتظر يومين كاملين وجزءاً من اليوم الثالث دون جدوى . وانتبه أخيراً إلى عملية الاحتيال التي وقع فيها ، وحمد حسن حظه لأن بيتا لم تتصل به طالبة النقود . لقد كان تكتمه شديداً لدرجة أن زوجته لم تعلم بأمر تلك الرحلات ولا بنتائجها التي يرثى لها إلا بعد أربع سنوات ، حين روى ذلك للمرة الأولى من أجل هذا الريبورتاج .

* * *

بعد أربع ساعات من اختطاف مارينا مونتويا ، حاصرت سيارتا جيب ورينو ١٨ ، من قدام ومن خلف ، سيارة رئيس تحرير جريدة التيمبو ، فرانثيسكو سانتوس ، في شارع فرعي في حي لاس فيرياس ، إلى الغرب من بوغوتا . السيارة التي كان يركبها هي سيارة جيب حمراء ذات مظهر تافه ، ولكنها كانت مصفحة من منشنها ، والمهاجمون الأربعة الذين أحاطوا بالسيارة لم يكونوا مسلحين بمسدسات عيار ٩ مليمتر ورشاشات قصيرة من طراز مينيزيس مزودة بكاتم صوت وحسب ، وإنما كان أحدهم يحمل كذلك مطرقة خاصة لكسر الزجاج . ولكنهم لم يكونوا بحاجة لأي شيء من ذلك ، فقد بادر هو نفسه إلى فتح الباب ليتحدث إلى المهاجمين . وقد قال فيما بعد : «كنت أفضل الموت على عدم معرفة ما الذي يحدث» . شله أحد المهاجمين بتصويب مسدس إلى جبهته وأجبره على الخروج من السيارة وهو يحني رأسه . فتح مهاجم آخر الباب الأمامي وأطلق ثلاث رصاصات : واحدة منها اصطدمت بالزجاج وانزلقت ، بينما اخترقت الطلقتان الأخريان جمجمة السائق اورومانسيو ايبانيث ، ثمانٍ وثلاثون

سنة . لم ينتبه باتشو* إلى ذلك . وبعد عدة أيام ، حين كان يستعيد مجمل وقائع الهجوم ، تذكر أنه سمع أزير الرصاصات الثلاث خافتاً جداً بفعل كاتم الصوت .

كانت عملية سريعة جداً لم تلفت الانتباه وسط حركة المرور الصاخبة ليوم الثلاثاء . وجد أحد رجال الشرطة السريين الجثة تنزف في المقعد الأمامي للسيارة المهجورة ؛ فأمسك هاتف اللاسلكي الموجود فيها ، وسمع على الفور من الطرف الآخر صوتاً شبه تائه في المجرات الكونية .

ـ لنرى .

سأله الشرطي السري :

ـ من المتكلم ؟

ـ هنا جريدة *التيمبو* .

بعد عشر دقائق كان الخبر يُبث على الهواء . الواقع أن الإعداد لتلك العملية كان قد بدأ قبل أربعة أشهر من ذلك ، ولكنها كانت على وشك الإخفاق بسبب عدم انتظام تنقلات باتشو سانتوس . ولهذه الأسباب نفسها ، كانت منظمة م – ١٩ قد تخلت عن اختطاف أبيه هيرناندو سانتوس قبل خمس عشرة سنة من ذلك .

لقد جرى حساب كل التفاصيل مسبقاً في هذه المرة . ولكن سيارات الخاطفين التي فوجئت بازدحام السيارات في جادة بوياكا ، عند مستوى تقاطعها مع الشارع ٨٠ ، هربت فوق الأرصفة وضاعت في تعرجات حي شعبي . كان باتشو سانتوس يجلس بين اثنين من الخاطفين ، تغطي عينيه نظارة مطلية بطلاء أظفار ، ولكنه واصل ذهنياً انعطافات والتفافات السيارة ، إلى أن دخلت متعثرة إلى مرآب . ومن خلال الطريق والوقت تشكلت لديه فكرة تقريبية عن الحي الذي هو فيه .

---

* باتشو أو باكو هو الاسم الذي يطلق تحبباً على من يسمون فرانثيسكو .

اقتاده أحد الخاطفين من ذراعه ماشياً وهو بنظارة العمياء حتى نهاية الممر . ثم صعدا إلى طابق ثانٍ ، وانعطفا إلى اليسار ، ومشيا نحو خمس خطوات ، ودخلا إلى مكان جليدي . وهناك نزعوا النظارة عن عينيه . عندئذ رأى غرفة مظلمة ، نوافذها مغلقة بألواح خشبية وفيها بؤرة ضوء واحدة في السقف . أما الاثاث الوحيد فكان سريراً زوجياً يبدو أن شراشفه قد استخدمت طويلاً ، وطاولة عليها مذياع نقال وجهاز تلفزيون .

انتبه باتشو إلى أن تعجل خاطفيه لم يكن لأسباب أمنية فقط ، وإنما لكي يصلوا في موعد بدء مباراة كرة القدم بين فريقي سانتافي وكالداس . ومن أجل راحة بال الجميع قدموا له زجاجة خمر ، وتركوه وحيداً مع التلفزيون ، وذهبوا لمشاهدة المباراة في الطابق السفلي . شرب نصف الزجاجة خلال عشر دقائق ولم يشعر بأنها تؤثر فيه ، ولكن الشراب منحه الحماسة لمشاهدة المباراة . ولأنه متعصب لفريق سانتافي منذ طفولته ، لم يستطع الاستمتاع بالخمرة بسبب غضبه من التعادل : فقد كانت النتيجة هدفين لهدفين . وأخيراً ، رأى نفسه في نشرة أخبار التاسعة والنصف في صور مسجلة في الأرشيف ، يرتدي فيها بدلة سموكين وهو محاط بملكات الجمال . عندئذ فقط علم بمصرع سائقه .

بعد نشرة الأخبار دخل عليه أحد الحراس وهو يضع قناعاً من قماش صوفي ، فأجبره على خلع ملابسه وارتداء بيجامة تعرق رمادية يبدو أنها اللباس الاجباري في سجون الاكستراديتابليين . حاول أن ينتزع منه كذلك بخاخ الربو الذي يحمله في جيب سترته ، ولكن باتشو أقنعه بأن ذلك الدواء بالنسبة إليه هو مسألة حياة أو موت . شرح له المقنّع أنظمة الأسر : يمكنه الذهاب إلى الحمام الذي في الممر ؛ وسماع المذياع ومشاهدة التلفزيون دون قيود ، ولكن دون رفع الصوت أكثر من الحدود العادية . وأخيراً جعله يستلقي وقيده من كاحله على السرير بسلسلة لها بطانة قماشية .

مدّ الحارس فراشاً على الأرض ، بوضع موازٍ للسرير ، وبعد لحظة بدأ

يشخر مطلقاً صفيراً متقطعاً . بدت الليلة مثقلة . ووعى باتشو في الظلام ، بأنها ليست إلا الليلة الأولى من مستقبل غامض يمكن فيه حدوث كل شيء . فكر في ماريا فيكتوريا ـ المعروفة بين الأصدقاء باسم ماريا في ـ زوجته الجميلة والذكية ذات الشخصية القوية ، والتي أنجب منها حتى ذلك الحين ابنين : بنجامين وعمره عشرون شهراً ؛ وغابرييل ، سبعة شهور . صاح ديك في الجوار ، وفوجئ باتشو بتوقيته غير المعقول ، وفكر : «إن ديكاً يصيح في الساعة العاشرة ليلاً هو ديك مجنون دون شك» . إنه رجل انفعالي ، مندفع وسهل الدمعة : نسخة وفية عن أبيه . لقد كان اندريس اسكابي ، زوج أخته خوانيتا ، قد لقي مصرعه في طائرة انفجرت في الجو بقنبلة وضعها الاكسترادیتابليون . ووسط التأثر العائلي كان باتشو قد قال جملة هزت الجميع : «واحد منا لن يكون حياً في شهر كانون الأول» . ولكنه لم يشعر في ليلة الاختطاف مع ذلك بأنها ستكون الليلة الأخيرة . فللمرة الأولى كانت أعصابه هادئة ، وكان واثقاً من أنه سيعيش . ومن إيقاع التنفس أدرك أن الحارس المستلقي إلى جانبه كان مستيقظاً . فسأله :

ـ في يد من أنا موجود ؟

فسأله الحارس بدوره :

ـ بيد من تفضل أن تكون : رجال حرب العصابات أم تجار المخدرات ؟

قال باتشو :

ـ أظن أنني في يد بابلو اسكوبار .

وقال الحارس :

ـ وهو كذلك . ولكنه صحح ما قاله على الفور : في يد الاكسترادیتابليين .

كان الخبر ينتشر مع الأثير . فموظفو مقسم الهاتف في *التيمبو* كانوا قد اتصلوا بالأقرباء المقربين ، وأخبر هؤلاء بدورهم آخرين وآخرين حتى نهاية العالم . وبسبب سلسلة من المصادفات الغريبة ، كانت زوجة باتشو هي أحد

آخر أفراد الأسرة الذين علموا بالأمر . فبعد عملية الاختطاف بدقائق اتصل بها ابن عمها خوان غابرييل الذي لم يكن واثقاً بعد مما حدث ، ولم يتجرأ على أكثر من سؤالها عما إذا كان باتشو قد رجع إلى البيت . فقالت له لا . ولم يجرؤ خوان غابرييل على اطلاعها على الخبر الذي مايزال غير مؤكد . وبعد دقائق من ذلك اتصل بها انريكي سانتوس كالديرون ، ابن عم زوجها ونائب مدير *التيمبو* ، وسألها :

ـ هل عرفت بموضوع باتشو ؟

ظنت ماريا فيكتوريا أنه يتحدث عن خبر آخر تعرفه وله علاقة بزوجها ، فقالت :

ـ طبعاً . .

فودعها انريكي بأقصى سرعة ليواصل الاتصال بأقرباء آخرين . بعد سنوات ، وأثناء الحديث عن ذلك الخطأ ، علقت ماريا فيكتوريا قائلة : «لقد حدث لي ذلك لأني أردت التظاهر بالعبقرية» . وبعد لحظة عاد خوان غابرييل للاتصال بها وروى لها كل شيء دفعة واحدة : لقد قتلوا السائق وأخذوا باتشو معهم .

* * *

كان الرئيس غافيريا ومستشاروه المقربون يراجعون بعض الاعلانات التجارية لتنشيط الحملة الانتخابية للجمعية التأسيسية ، حين اقترب مستشاره الصحفي ماوريثيو فارغاس ، وهمس في أذنه : «لقد اختطفوا باتشيتو سانتوس» . لم يتوقف عرض شريط الاعلانات . ولكن الرئيس الذي يحتاج إلى نظارة لمشاهدة عرض سينمائي ، خلع نظارته ليتطلع إلى فارغاس ، وقال له :

ـ أعلموني بالتطورات أولا بأول .

ثم وضع النظارة من جديد وواصل مشاهدة العرض .

سمع الخبر صديقه الحميم ألبيرتو كاساس سانتا ماريا ، وزير الاتصالات ، الذي كان يجلس إلى جواره ، فنقله من أذن إلى أذن لجميع المستشارين الرئاسيين . هزت القاعة قشعريرة . ولكن الرئيس لم يرمش ، وذلك وفقاً لقاعدةٍ في طريقته في الحياة كان يعبر عنها بعبارة مدرسية : « يجب انهاء هذه المهمة » . ولدى انتهاء العرض نزع نظارته مرة أخرى ، وخبأها في جيب الصدر ، وأمر ماوريثيو فارغاس :

ـ اتصل برافائيل باردو وقل له أن يدعو إلى اجتماع للمجلس الأمني على الفور .

وفي اثناء ذلك ، فتح تبادلاً للآراء حول الاعلانات التجارية ، مثلما كان مقرراً . وبعد أن تم التوصل إلى اتخاذ قرار ، أظهر الصدمة التي سببها له خبر الاختطاف . بعد نصف ساعة من ذلك دخل الى الصالة التي كان ينتظره فيها معظم أعضاء المجلس الأمني الذين جرى استدعاؤهم . وما كاد الاجتماع يبدأ حتى دخل ماوريثيو فارغاس على رؤوس أصابعه وهمس في أذنه :

ـ لقد اختطفوا مارينا مونتويا .

الواقع أن اختطافها جرى في الساعة الرابعة مساء ـ قبل اختطاف باتشو ـ ولكن وصول الخبر إلى الرئيس تطلب أربع ساعات .

* * *

كان هيرناندو سانتوس كاستيللو ، والد باتشو ، ينام منذ ثلاث ساعات على بعد عشرة آلاف كيلومتر ، في فندق بفلورنسا في ايطاليا . وفي غرفة مجاورة لغرفته كانت ابنته خوانيتا ، وفي غرفة اخرى ابنته أدريانا مع زوجها . جميعهم تلقوا الخبر في الهاتف وقرروا عدم ايقاظ الأب . ولكن ابن اخيه لويس فيرناندو اتصل به مباشرة من بوغوتا ، وبادره بالديباجة الأكثر حذراً التي خطرت له ليبرر ايقاظ عمه ذي الثمانية والسبعين عاماً ، والذي لديه خمس وصلات في شرايين القلب :

ـ لدي خبر سيء جداً .

وقد تصور هيرناندو بالطبع أسوأ الاحتمالات ، ولكنه حافظ على الشكليات :

ـ ما الذي حدث ؟

ـ لقد اختطفوا باتشو .

تنفس هيرناندو الصعداء ، لأن خبر الاختطاف مهما كان قاسياً ، فانه ليس غير قابل للاصلاح مثل خبر الاغتيال ، وقال : « فليتبارك الرب » . ثم بدّل نبرة صوته في الحال :

ـ اطمئن . سنرى ماذا سنفعل .

بعد ساعة من ذلك ، في الفجر العَطِرِ للخريف التوسكاني ، انطلق الجميع في رحلة العودة الى كولومبيا .

* * *

أسرة طربيه القلقة لعدم ورود أخبار من ديانا بعد أسبوع من سفرها ، طلبت من الحكومة القيام بمسعى غير رسمي عبر منظمات حرب العصابات الرئيسية . وبعد اسبوع من الموعد الذي كان مقرراً أن تعود فيه ديانا ، قام زوجها ميغيل اوريبي وعضو البرلمان ألفارو ليفا برحلة سرية إلى كاسافيردي ، المقر العام للقوات المسلحة الثورية الكولومبية في سلسلة الجبال الشرقية . ومن هناك أقاموا اتصالات مع كافة المنظمات المسلحة لمعرفة إذا ما كانت ديانا محتجزة لدى احداها . وقد أنكرت ست منظمات ذلك في بيان مشترك .

ودون أن تعرف رئاسة الجمهورية ماهو الشيء الذي تستند إليه هيجت الرأي العام ضد تكاثر البيانات الزائفة ، وطلبت عدم تصديق تلك البيانات أكثر من إعلام الحكومة . ولكن الحقيقة الخطرة والمريرة هي أن الرأي العام كان يصدق دون تحفظ بيانات الاكسترادتيابليين ، وهكذا فقد تنفس الجميع

الصعداء يوم ٣٠ تشرين الأول ـ بعد ستين يوماً من اختطاف ديانا طربيه واثنين واربعين يوماً من اختطاف فرانشيسكو سانتوس ـ عندما أزاح الاكسترادیتابليون آخر الشكوك بجملة واحدة : «إننا نقر علناً بأن الصحفيين المختفين موجودون بحوزتنا» . وبعد ثمانية أيام من ذلك جرى اختطاف ماروخا باتشون وبياتريث فيياميثار . وقد كانت هناك أسباب أكثر من كافية للتفكير في أن الحملة ستتخذ أبعاداً أكثر اتساعاً .

في اليوم التالي لاختفاء ديانا وفريقها الصحفي ، حين لم يكن هناك من يتصور أنهم قد اختطفوا ، اعترضت جماعة من القتلة في أحد شوارع بوغوتا المركزية ، مدير الاخبار الشهير في اذاعة *راديو كاراكول* ، ياميت آمات ، بعد عدة أيام من المراقبة والمتابعة . وقد أفلت آمات من قبضتهم بمناورة رياضية فاجأتهم ، ولم يعرف أحد كيف نجا من رصاصة أطلقوها عليه من الخلف . وبعد بضع ساعات من ذلك ، تمكنت ماريا كلارا ، ابنة الرئيس الاسبق بيليساريو بيتانكور ـ وهي برفقة ابنتها ذات الاثنتي عشرة سنة ـ من الهرب بسيارتها عندما قام فريق اختطاف آخر بقطع الطريق أمامها في أحد أحياء بوغوتا السكنية . والتفسير الوحيد لاخفاق هاتين العمليتين هو أنه كانت لدى الخاطفين تعليمات مشددة بعدم قتل ضحاياهم .

* * *

أول من عرف معرفة يقينية هوية من يحتجزون ماروخا باتشون وبياتريث فيياميثار هما هيرناندو سانتوس والرئيس الأسبق طربيه ، لأن اسكوبار نفسه أرسل إليهما خطياً عبر محاميه ، بعد ثمان وأربعين ساعة من الاختطاف ، يقول : «يمكنك أن تقول لهم أن الجماعة تحتجز باتشون» . وفي ٢١ تشرين الثاني كان هناك تأكيد آخر عَرَضي في رسالة تحمل ترويسة الاكسترادیتابليين موجهة إلى خوان غوميث مارتينث ، مدير جريدة *الكولومبي* في ميدلين ، وكان قد تفاوض عدة مرات مع اسكوبار باسم

الأعيان . وكانت الرسالة التي تحمل ترويسة الاكستراديتابليين تقول : « إن احتجاز الصحفية ماروخا باتشون هو رد منا على أعمال التعذيب والاختطاف المقترفة في مدينة ميدلين في الأيام الأخيرة على يد جهاز أمن الدولة نفسه الذي أشرنا إليه مرات كثيرة في بياناتنا السابقة » . وتعبر الرسالة مرة اخرى عن القرار بعدم إطلاق سراح أي رهينة مادام ذلك الوضع مستمراً .

الدكتور بيدرو غيريرو ، زوج بياتريث ، المثقل منذ البداية باحساسه بالعجز المطلق حيال أحداث تطغى عليه ، قرر اغلاق عيادته النفسية قائلاً : « كيف سأستقبل مرضاي وأنا في حالة أسوأ من حالتهم » . لقد كان يعاني أزمة كآبة لم يشأ نقلها إلى أبنائه . فهو لم يكن يشعر بلحظة واحدة من الراحة ، وكان يعزي نفسه بكؤوس الويسكي عند الغروب ، ويرعى أرقه بسماع أغاني البوليرو الطافحة بدموع العاشقين من إذاعة *راديو كاراكول* ، حيث كان يغني أحدهم : « *حبيبتي ، ردي عليّ إذا كنت تسمعينني* » .

أما ألبيرتو فيياميثار الذي كان يعي منذ البداية أن اختطاف زوجته واخته هو حلقة في سلسلة مشؤومة ، فقد حاول رص الصفوف بالتكاتف مع أسر المختطفين الآخرين . ولكن زيارته الأولى لهيرناندو سانتوس كانت مثبّطة للعزيمة . لقد رافقته في تلك الزيارة غلوريا باتشون دي غالان ، أخت زوجته ، فوجدا هيرناندو منهاراً على أريكة في حالة من اليأس الكامل . وقد قال لهما منذ البداية : « إنني أهيء نفسي لأقل قدر ممكن من الألم حين يقتلون ابني فرانثيسكو » . حاول فيياميثار أن يضع خطة لمشروع مفاوضات مع الخاطفين ، ولكن هيرناندو أحبطه بفتور لا سبيل إلى ترميمه بالقول له :

ـ لا تكن ساذجاً يابني ، ليست لديك أدنى فكرة عن نوعية هؤلاء الأشخاص . لم يعد هناك مايمكن عمله .

ولم يكن الرئيس السابق طربيه أكثر حماسة . لقد كان يعرف من مصادر مختلفة أن ابنته بحوزة الاكستراديتابليين ، ولكنه كان عازماً على عدم الاعتراف بذلك علناً طالما لم يعرف ما الذي يريدونه بالضبط . وقد تهرب في

الأسبوع السابق من سؤال وجهه إليه بعض الصحفيين بحركة التفاف جريئة حين قال لهم :

ـ قلبي يحدثني بأن ديانا ومساعديها قد تأخروا في عملهم الصحفي ، وأنه ليس في الأمر أي احتجاز .

لقد كانت حالة من الوهم يمكن فهمها بعد ثلاثة أسابيع من المساعي غير المجدية . وقد فهم بيياميثار الأمر على هذا النحو ، ولكنه بدل أن يصاب بعدوى التشاؤم المسيطر على الآخرين ، سيطرت عليه روحية جديدة للقيام بمسعى مشترك .

لو سُئل أحد أصدقائه في تلك الأيام كيف هو بيياميثار ، لكان عرّفه بعبارة قصيرة : « إنه رفيق كأس عظيم » . وكان بيياميثار سيتقبل ذلك بأريحية على أنه امتياز نادر يحسده عليه الآخرون . ومع ذلك ، فقد أدرك في يوم اختطاف زوجته بالذات أنه يمكن للشرب أن يكون امتيازاً خطراً كذلك في مثل وضعه ، فقرر التوقف عن شرب أي رشفة من الخمر في مكان عام طالما لم يطلق سراح مخطوفتيه . وكشرِّيب اجتماعي جيد ، كان يعرف أن الخمر تقلل من اليقظة ، وتُفلت اللسان ، وتُحرِّف بطريقة ما الاحساس بالواقع . وهذا كله ينطوي على مجازفة بالنسبة لشخص يتوجب عليه أن يقيس أفعاله وكلماته بالمليمتر . أي أن الصرامة التي فرضها على نفسه لم تكن توبة ، وإنما هي إجراء أمني . لم يعد يذهب إلى أي حفلة ، وقال وداعاً لساعاته البوهيمية وجولاتِ لهوه السياسية . وفي ليالي أطول التوترات الانفعالية ، صار ابنه اندريس يستمع إليه وهو يُفرِّج عن نفسه حاملاً كأس مياه معدنية ؛ بينما هو يعزي نفسه بكأس وحيد من الشراب .

في اجتماعاته مع مستشار الرئيس الأمني رافائيل باردو ، تدارسا امكانية القيام بمساعٍ بديلة . ولكن تلك الامكانية كانت تصطدم دائماً بسياسة الحكومة التي أبقت على التهديد بتسليم المطلوبين قائماً في كل الأحوال . أضف إلى ذلك أن كليهما كان يعرف أن ذلك التهديد هو أقوى وسيلة ضغط

لإجبار الاكسترادي تابليين على تسليم أنفسهم ، وأن الرئيس كان يستخدمه بقناعة كبيرة مثلما يستخدمه الاكسترادي تابليون ذريعة للامتناع عن تسليم أنفسهم .

لم يكن بيياميثار قد تلقى أي تدريب عسكري ، ولكنه كان قد ترعرع في أجواء الثكنات العسكرية . فأبوه ، الدكتور ألبيرتو بيياميثار فلوريس ، عمل طوال سنوات طبيباً في الحرس الجمهوري ، وكان على علاقة وثيقة بحياة ضباطه . وكان جده الجنرال خواكين بيياميثار قد تولى منصب وزير الحرب . بينما كان أحد أعمامه ، الجنرال خورخي بيياميثار فلوريس قائداً عاما للقوات المسلحة . وقد ورث ألبيرتو عنهم ازدواجية الطبع العسكري والسانتانديري ، فكان في الوقت نفسه خدوماً ومتسلطاً ؛ جدياً ولاهياً ؛ يضع الرصاص حيث يضع عينه ؛ يقول ما يتوجب عليه قوله دائماً وبصورة مباشرة ؛ ولم يتحدث إلى أحد دون استخدام أساليب الاحترام طوال حياته . ومع ذلك ، فقد غلبت عليه صورة الأب ، فأنهى دراسة الطب كاملة في جامعة خابيريانا ، ولكنه لم يتخرج منها مطلقاً ، لأنه انساق مع رياح السياسة التي لاشفاء منها . وليس لأنه عسكري ، وانما لكونه سنتانديرياً صافياً وبسيطاً ، كان يحمل على الدوام مسدس سميث اند ويزون ١٨ قصيراً ، لم يكن يرغب في استخدامه مطلقاً . مع ذلك ، وسواء أكان مسلحاً أم لم يكن ، فقد كانت فضليتاه الكبريان هما التصميم والصبر . ومع أن هاتين الفضيلتين تبدوان للوهلة الأولى متناقضتين ، إلا أن الحياة أثبتت له أنهما ليستا كذلك . بمثل هذا التراث ، كان لدى بيياميثار فائض من الأسباب لمحاولة البحث عن حلّ مسلح لمسألة الاختطافات ، ولكنه رفض ذلك طالما لم تصل الأمور إلى أقصى حدود الحياة أو الموت .

وهكذا فقد كان الحل الوحيد الذي يلوح له في نهاية شهر تشرين الثاني هو مواجهة اسكوبار والتفاوض معه كسانتانديري إلى أنتيوكيي* ، بقسوة

* أنتيوكيي : منتسب إلى أقليم أنتيوكيا (انطاكية) في كولومبيا ، وعاصمته ميدلين موطن بابلو اسكوبار ، زعيم كارتيل المخدرات الشهير .

ومساواة . وفي إحدى الليالي ، وكان مرهقاً من كثرة الذهاب والاياب ، طرح كل مايدور في ذهنه على رافانيل باردو . وقد تفهم هذا الأخير كربه ، ولكن إجابته كانت دقيقة في مراعاتها للأنظمة عندما قال له باسلوبه المتواضع والمباشر :

ـ اسمعني يا ألبيرتو : يمكنك القيام بالمساعي التي تريدها ، حاول كل ماهو ممكن ، ولكن إذا كان ماتريده هو مواصلة التعاون معنا فيجب أن تعلم أنه ليس بامكانك أن تتجاوز الحدود المرسومة . ولا خطوة واحدة يا ألبيرتو . هذا يجب أن يكون واضحاً لديك .

لم تكن أي فضيلة لتنفع ببياميثار حينئذ أكثر من تصميمه وصبره لتصريف التناقضات الداخلية التي تطرحها عليه تلك الشروط . فقد كان ذلك يعني : تصرف مثلما تشاء ، وفق مخيلتك وهواك ، ولكن مع وجوب الإبقاء على يديك مقيدتين على الدوام .

- ٣ -

فتحت ماروخا عينيها وتذكرت مثلاً اسبانياً شائعاً : «عسى ألا يعطينا الرب كل مايمكننا أن نتحمله» . كانت قد مضت عشرة أيام على الاختطاف ، وقد بدأت هي وبياتريث على السواء تعتادان على روتين بدا لهما في الليلة الأولى غير معقول . لقد كان الخاطفون يرددون بكثرة أن احتجازهما هو عملية عسكرية ، ولكن نظام الأسر كان أسوأ من نظام السجن . إذ لم يكن بامكانهما التحدث إلا في الأمور المستعجلة ، وبصوت هامس على الدوام . ولايمكنهما النهوض عن الفرشة التي تستخدمانها كفراش مشترك . وكل ماتحتاجانه يتوجب عليهما طلبه من الحارسين اللذين لايرفعان نظرهما عنهما حتى وهما نائمتان : يجب طلب الإذن من أجل الجلوس ، ومن أجل مدّ الأرجل ، ومن أجل التكلم إلى مارينا ، ومن أجل التدخين . وكان على ماروخا أن تغطي فمها بوسادة لكي تخفف من صوت سعالها .

كان السرير الوحيد هو سرير مارينا المضاء ليلاً ونهاراً بمصباح نوم أبدي . وبموازاة السرير كانت ممدودة على الأرض الفرشة التي تنام عليها ماروخا وبياتريث ، إحداهما بعكس الاخرى ، مثل سمكتي برج الحوت ، وبدثار واحد لكلتيهما . وكان الحراس يسهرون جالسين على الأرض ومستندين إلى الجدار . وقد كان مكانهم ضيقاً لدرجة أنهم إذا ما مدوا أرجلهم تصبح أقدامهم على فراش الأسيرتين . وكان الجميع يعيشون في العتمة

الغبشة لأن النافذة الوحيدة كانت مختومة . وقبل النوم كانوا يغطون فجوة الباب الوحيد بخرق قماشية حتى لاينفذ ضوء مصباح مارينا الواهن إلى بقية البيت . ولم يكن هناك من ضوء في الليل أو النهار سوى وميض التلفزيون ، لأن ماروخا جعلتهم ينزعون المصباح الأزرق الذي يضفي على كل شيء شحوباً مرعباً .

كانت الغرفة المغلقة دون تهوية تنضح بحرارة نتنة . وقد كانت أسوأ الساعات هي تلك الممتدة من السادسة وحتى التاسعة صباحاً ، حيث تبقى الأسيرات المستيقظات دون هواء ، ودون أي شيء للشرب أو الأكل ، بانتظار أن ينزعوا الخرق القماشية عن فجوة الباب ليبدأن بالتنفس . العزاء الوحيد لماروخا ومارينا كان يتمثل في الدقة بتزويدهم بإبريق قهوة وكرتونة من علب السجائر كلما طلبتا ذلك . أما بياتريث المتخصصة في العلاج التنفسي ، فقد كان الدخان المتراكم في الغرفة الضيقة يمثل نكبة بالنسبة إليها . ولكنها كانت تتحمل الوضع مع ذلك بصمت وهي ترى مدى سعادة الأخريين . لقد هتفت مارينا في إحدى المرات وهي تمسك سيجارتها وفنجان قهوتها : « كم سيكون جميلاً أن نلتقي نحن الثلاثة في بيتي لندخن ونشرب قهوتنا ، ونضحك من تذكر هذه الأيام الرهيبة » . وفي ذلك اليوم لم تتضايق بياتريث من الدخان ، وإنما تحسرت لأنها لاتدخن .

ربما كان وجود النساء الثلاث في السجن نفسه قد فرض نفسه كحل طارئ ، لأن البيت الذي اقتادوا إليه ماروخا وبياتريث أولا ، لم يعد صالحاً بعد أن كشف سائق التكسي التي صدموها عن الوجهة التي ذهب إليها الخاطفون . هذا هو التفسير الوحيد للتبدل الذي طرأ في اللحظة الأخيرة ، ولوجود سرير واحد ضيق ، وفرشة بسيطة لاثنتين ، وأقل من ستة أمتار مربعة لثلاث رهائن وحارسين مناوبين . لقد كانوا قد أحضروا مارينا أيضا من بيت آخر ـ أو من مزرعة أخرى كما كانت تقول هي ـ لأن سُكْر وفوضى حراس البيت الأول الذي كانت فيه كان يعرّض المنظمة بأسرها للخطر . ولم يكن مفهوماً على أي حال

افتقار إحدى أكبر المتعددة الجنسيات في العالم إلى أدنى حد من طيبة القلب يتيح لها أن تضع أتباعها وضحاياها في ظروف انسانية .

لم تكن لديهن أدنى فكرة عن مكان وجودهن . وبسبب الضجة في الخارج عرفن أن هناك بالقرب منهن طريقاً عاماً للشاحنات الثقيلة . وكان يبدو كذلك أن هناك واحدة من دكاكين الطرق ، فيها كحول وموسيقى ، وتبقى مفتوحة حتى وقت متأخر . وفي بعض الأحيان كان يُسمع مكبر صوت يدعو ، على السواء ، إلى احتفالات سياسية أو دينية أو يبث موسيقى صاخبة . وفي عدة مناسبات سمعن شعارات الحملات الانتخابية لانتخابات الجمعية التأسيسية القريبة . وكان يُسمع بكثرة أكبر أزيز طائرات صغيرة تنطلق أو تهبط على مسافة قريبة ، مما يدفع إلى التفكير بأنهن كن إلى جوار غوايمارال ، وهو مطار صغير لطائرات تحتاج لمدرج قصير يقع على بعد عشرين كيلومتراً عن بوغوتا . وماروخا المعتادة منذ طفولتها على مناخ السهوب ، لم تكن تشعر بأن البرد في غرفتها هو برد الريف المفتوح على الاتساعات وإنما هو برد المدينة . أضف إلى ذلك أنه لايمكن فهم احتياطات الحراس المغالية إلا إذا كانوا في بؤرة عمرانية .

وقد كانت أكبر المفاجآت هي ذلك الهدير العرضي الذي كان يصدر عن طائرة هليكوبتر قريبة جداً ، تبدو وكأنها فوق البيت مباشرة . وكانت مارينا تقول إنه كان يأتي فيها ضابط من الجيش مسؤول عن عمليات الاختطاف . وقد كان عليهن أن يعتدن مع مرور الوقت على ذلك الهدير ، لأن طائرة الهليكوبتر كانت تحط مرة في الشهر على الأقل طوال فترة أسرهن ، ولم يكن لدى الرهائن أي ريب في أن مجيء تلك الطائرة له علاقة بهن .

كان من المستحيل تمييز الحدود بين الحقيقة والوهم المُغذي لدى مارينا . فقد كانت تقول إن باتشو سانتوس وديانا طربيه موجودان في غرف اخرى من البيت نفسه ، بحيث يتابع الضابط الذي يأتي في الهليكوبتر القضايا الثلاث في الوقت نفسه في كل زيارة . وفي إحدى المرات سمعوا جلبة مثيرة

للذعر في الفناء . وكان «الوكيل» يشتم زوجته وهو يصدر أوامر متعجلة بأن يرفعوا من هنا ، وأن يدفعوا من هناك ، وأن يقلبوا إلى أعلى ، وكأن الأمر يدور حول حشر جثة في مكان لايتسع لها . وفكرت مارينا في هذياناتها الضبابية بأنهم ربما يكونون قد قطعوا جسد فرانثيسكو سانتوس ويحاولون دفنه مقطعاً تحت بلاطات المطبخ . وكانت تقول : «عندما تبدأ المذابح لايعود بالامكان وقفها . سنكون نحن التاليات» . كانت ليلة مرعبة . ولكنهم عرفوا بالصدفة فيما بعد أنهم كانوا يبدلون مكان غسالة بدائية لم يكن بإمكان أربعة أشخاص أن يحملوها .

كان الصمت شاملاً في الليل . ولم يكن يقطعه إلا صياح ديك ليس لديه احساس بالوقت ، يصدح متى شاء . وكان يُسمع نباح بعيد في الأفق ، ونباح آخر قريب جداً بدا لهن وكأنه يصدر عن كلب حراسة مدرب .

لقد كانت البداية التي بدأتها ماروخا سيئة . فقد تكورت على نفسها فوق الفرشة ، وأغمضت عينيها ولم تعد تفتحهما طوال أيام عديدة إلا للضرورة القصوى ، محاولة بذلك التفكير بوضوح . هذا لايعني أنها كانت تنام ثماني ساعات متتالية ، وإنما كانت لا تكاد تنام نصف ساعة ، وحين تستيقظ تجد نفسها مرة اخرى في الكرب الذي يحدق بها في الواقع . لقد كان رعباً دائماً : الاحساس الجسدي بوجود جهاز توقيت ساكن في المعدة يوشك دائماً على الانفجار ليتحول إلى كابوس مرعب . فكانت ماروخا عندئذ تستعرض شريط حياتها كاملة لتلتقط منه الذكريات الطيبة ، ولكن الذكريات غير المرغوب فيها هي التي كانت تفرض نفسها .

في واحدة من رحلاتها الثلاث إلى كولومبيا قادمة من جاكرتا ، طلب منها زوج أختها لويس كارلوس غالان أثناء غداء خاص ، أن تساعده في ادارة حملته القادمة للانتخابات الرئاسية . لقد كانت مستشارته في حملته السابقة ، وكانت قد تنقلت آنذاك مع أختها غلوريا عبر البلاد كلها . فاحتفلتا بالانتصارات ، وتحملتا الهزائم وتجاوزتا المخاطر ، ولهذا كان عرضه لها

منطقياً . وقد أحست ماروخا بالرضى والاعجاب بنفسها . ولكنها لاحظت بعد الغداء شيئا غامضاً في غالان . . ومضة نور مما هو فوق الطبيعي : إنها الرؤيا الخاطفة والصائبة بأنه سيُقتل . لقد كانت رؤيا كاشفة أقنعت زوجها بالعودة إلى كولومبيا بالرغم من أن الجنرال ماثا ماركيز كان قد حذره ، دون أي تفسير ، من أخطار الموت التي تنتظره . وقبل ثمانية أيام من العودة إلى كولومبيا ، استيقظت في جاكارتا على خبر اغتيال غالان .

لقد خلفت لديها تلك التجربة ميلاً إلى الكآبة ، فاقمت منه عملية الاختطاف . لم تكن تجد ما تتشبث به للهرب من فكرة أن خطراً قاتلاً يتربص بها أيضاً . كانت ترفض الكلام والأكل . وكانت تتضايق من استرخاء بياتريث وفظاظة المقنّعين ، وكانت لاتطيق إذعان مارينا وتماهيها مع صورة الخاطفين . فقد كانت تبدو لها وكأنها سجان آخر ، فهي تدعوها للتقيد بالنظام إذا ما شخرت أو سعلت وهي نائمة ، أو تحركت أكثر مما هو ضروري . وإذا ما وضعت ماروخا كأساً في هذا المكان ، كانت مارينا تسرع إلى رفعه مذعورة «احذري! » وتضعه في مكان آخر . وقد واجهتها ماروخا بازدراء عظيم ، فكانت تقول لها : «لاتقلقي . فلست أنتِ من يملك الأمر هنا» . والأسوأ من كل ذلك أن الحراس كانوا يعيشون في قلق لأن بياتريث كانت تقضي الأيام في كتابة تفاصيل احتجازها لترويها لزوجها وأولادها حين تخرج طليقة . وكانت قد أعدت كذلك قائمة طويلة بكل مايبدو لها بغيضاً في الغرفة ، ثم تخلت عن ذلك لأنها لم تجد في الغرفة ماهو غير بغيض . وكان الحراس قد سمعوا من المذياع بأن بياتريث هي معالجة فيزيائية ، فاختلطت عليهم الكلمة وظنوها معالجة نفسانية ، ولهذا منعوها من الكتابة خوفاً من أن تقوم بإعداد منهج علمي لجعلهم يصابون بالجنون .

لقد كان انحدار مارينا مفهوماً تماماً . فمجيء رهينتين أخريين كان دون ريب ، بالنسبة إليها ، تدخلاً لا يطاق في عالم كانت قد حولته إلى عالمها الخاص ، لها وحدها فقط ، وذلك بعد شهرين من العيش على عتبة الموت .

كما أن علاقتها مع الحراس التي توصلت إلى جعلها عميقة جداً ، تبدلت فجأة مع مجينهما . وخلال أقل من أسبوعين سقطت ثانية في الآلام الرهيبة والعزلات الكثيفة التي كانت قد تمكنت من تجاوزها بعد معاناتها منها في أوقات أخرى سابقة .

وبالرغم من ذلك كله ، لم تبد أي ليلة لماروخا بمثل فظاعة الليلة الأولى . لقد كانت ليلة لانهائية وجليدية . ففي الساعة الواحدة فجراً كانت درجة الحرارة في بوغوتا ـ حسب معهد الأرصاد الجوية ـ مابين ١٣ و ١٥ درجة ، وكان قد هطل رذاذ من المطر في مركز المدينة ومحيط المطار . ولأن التعب كان قد تغلب على ماروخا ، فقد راحت تشخر فور استلقائها ، ولكنها كانت تستيقظ في كل لحظة مخنوقة بسعالها كمدخنة ، ذلك السعال اللجوج الذي لاكابح له ، والذي فاقمته رطوبة الجدران التي تفرز برودة جليدية عند الفجر . وكلما كانت تسعل أو تشخر ، كان الحراس يوجهون إليها ضربة بكعوب اقدامهم على رأسها . وكانت مارينا تسمع السعال والشخير بخوف منفلت من سيطرتها ، فتهدد ماروخا بأنها ستيقدها إلى الفراش كيلا تتحرك كثيراً ، أو أنها ستكمم فمها حتى لاتشخر .

مارينا هي التي نبهت بياتريث إلى نشرة أخبار الصباح في الاذاعة . وقد أخطأت في ذلك . ففي المقابلة الأولى التي أجراها الصحفي ياميت آمات من اذاعة *راديو كاراكول* ، مع الدكتور بيدرو غيريرو ، أطلق زوجها فيضاً من الشتائم والتحديات للخاطفين . وهددهم داعياً إياهم إلى أن يكونوا رجالاً ويكشفوا عن وجوههم . وقد عانت بياتريث من نوبة رعب فظيعة ، لقناعتها بأن وزر تلك الشتائم سيرتد عليها .

بعد يومين من ذلك جاء زعيم يرتدي ملابس جيدة ، له جسد ضخم محزوم في متر وتسعين سنتمتراً ، فتح الباب برفسة من قدمه ودخل إلى الحجرة مثل ريح عاصفة . كانت بدلته التروبيكالية الناصعة وحذاءه الايطالي وربطة عنقه الحريرية الصفراء تتناقض تماماً مع سلوكه الفظ الأقرب إلى سلوك

إنسان الكهوف . وجه شتيمتين أو ثلاث شتائم إلى الحراس ، وعنّف أكثرهم تردداً ، وكان زملاؤه يلقبونه لامبارون (بقعة الزيت) ، قائلاً له : « قيل لي انك عصبي جداً . إنني أحذرك إذن ، فالعصبيون هنا يموتون » . ثم توجه على الفور إلى ماروخا وقال لها دون أي اعتبار أو تقدير :

ـ علمتُ أنك تسببين الكثير من الإزعاج في الليل . وأنك تصدرين أصواتاً وتسعلين .

فردت عليه ماروخا بهدوء نموذجي يمكن الخلط بينه وبين الاحتقار :

ـ إنني أشخر في نومي دون أن أنتبه . ولايمكنني منع نفسي من السعال لأن الحجرة مثلجة والجدران تقطر ماء عند الفجر .

صرخ الرجل الذي لم يأتِ لتلقي الشكاوى :

ـ وهل تظنين أنه بإمكانك عمل ماترغبين فيه . إذا عدتِ إلى الشخير أو السعال في الليل فإننا قادرون على نسف رأسك برصاصة .

ثم توجه بعد ذلك إلى بياتريث :

ـ أو على قتل زوجيكما وأولادكما . فنحن نعرفهم كلهم ونعرف أماكنهم جيداً .

قالت ماروخا :

ـ افعل ماتشاء . لايمكنني منع نفسي من الشخير . ويمكنك قتلي إذا أردت .

لقد كانت صريحة ، وقد لاحظت مع مرور الوقت أنها أحسنت صنعاً . لأن المعاملة القاسية منذ اليوم الأول كانت جزءاً من منهج الخاطفين لتدمير معنويات الرهائن . أما بياتريث التي كانت ماتزال تحت تأثير غضب زوجها في الاذاعة ، فكانت أقل كبرياء . وقالت وهي على حافة الدموع :

ـ ولماذا تريد حشر أبنائنا هنا وهم لاعلاقة لهم بكل هذا ؟ ألا يوجد لك أبناء ؟

وقد رد هو عليها بنعم ، ، وربما كان متأثراً ، ولكن بياتريث كانت قد

خسرت المعركة : فالدموع لم تتح لها مواصلة الكلام . أما ماروخا بالمقابل ، فقالت لذلك الزعيم إنه إذا كانوا يريدون التوصل إلى اتفاق حقاً فليتحدثوا مع زوجها .

وقد فكرت في أن المقنّع قد عمل بنصيحتها ، لأنه عاد للظهور في يوم الأحد ، وكان مختلفاً . فقد أحضر معه صحف ذلك اليوم وفيها تصريحات زوجها ألبيرتو بيياميثار الداعية إلى التوصل إلى اتفاق مناسب مع الخاطفين . ويبدو أن هؤلاء قد بدؤوا العمل بهذا الاتجاه . فذلك الزعيم على الأقل ، كان راضياً جداً ، وقد طلب من الرهائن وضع قائمة بالأشياء الضرورية التي يحتجن إليها : صابون ، فراشي ومعجون أسنان ، سجائر ، كريم للبشرة وبعض الكتب . ووصلت بعض تلك الطلبات في اليوم نفسه ، ولكنهن لم يتلقين بعض الكتب المطلوبة إلا بعد أربعة أشهر . ومع مرور الوقت تراكمت تذكارات وصور من كل الأنواع *للطفل الالهي* والقديسة ماريا اوكسيليادورا التي كان الحراس المختلفون يقدمونها إليهن أو يحضرونها بعد عودتهم من اجازاتهم . وبعد عشرة أيام على اختطافهما كان قد بدأ يسود الحجرة شيء من الروتين المنزلي . فالأحذية صارت توضع تحت السرير ، وكان لابد من اخراجهن إلى الفناء بين وقت وآخر للتعرض للشمس ، لأن رطوبة الحجرة كانت شديدة جداً . إنما لم يكن بامكانهن المشي إلا بجوارب رجالية قدموها لهن منذ اليوم الأول ، وكانت من الصوف السميك وذات ألوان مختلفة ، وكن يستخدمن زوجين منها معاً كي لايُسمع وقع خطواتهن . أما الملابس التي كن يرتدينها يوم اختطافهن فقد صودرت منهن ، ووزعت عليهن بيجامات تعرق رياضية ـ واحدة رمادية وأخرى وردية لكل رهينة ـ وبتلك البيجامات كن يعشن وينمن . كما قدموا لكل منهن طقمين من الملابس الداخلية كن يغسلنها تحت الدوش . وكن ينمن أول الأمر بملابسهن ، ولكنهن حين حصلن على قمصان نوم فيما بعد ، صرن يلبسنها فوق البيجامات الرياضية في الليالي شديدة البرودة . وقدموا لهن كيساً كذلك لحفظ ممتلكاتهن الشخصية القليلة

وملابسهن الداخلية ، والفوط النسائية ، والأدوية وأدوات التجميل .

كان هناك حمام واحد للرهينات الثلاث والحراس الأربعة . وكان عليهن استخدامه باغلاق الباب ولكن دون إقفاله . ولم يكن بامكانهن التأخر فيه أكثر من عشر دقائق للاستحمام تحت الدوش ، حتى عندما يكون عليهن غسل ملابسهن . وكانوا يسمحون لهن بتدخين ما يشأن من السجائر التي يحضرونها من أجلهن ، فكانت ماروخا تدخن أكثر من علبة كل يوم ، ومارينا أكثر منها . وكان في الغرفة جهاز تلفزيون ومذياع تسمع الرهينات منه الاخبار ويستمع الحراس إلى الموسيقى . كن يستمعن إلى أخبار الصباح بصوت خافت جداً ، وكأنهن يفعلن ذلك خلسة ، بينما كان الحراس يستمعون إلى موسيقاهم الصاخبة بأعلى صوت تمليه حالتهم المعنوية .

أما التلفزيون فكانوا يشعلونه في التاسعة صباحاً لرؤية البرامج التربوية ، ثم الروايات المسلسلة ، وبرنامجين أو ثلاثة برامج أخرى قبل أن يحين موعد أخبار الظهيرة . أما النوبة الكبرى فكانت تمتد من الساعة الرابعة بعد الظهر وحتى الساعة الحادية عشرة ليلاً . وخلالها كان التلفزيون يبقى مشتعلاً مثلما هو الحال في غرف نوم الأطفال ، بالرغم من أن أحداً لم يكن يشاهده . وكانت الرهينات بالمقابل تستمعن إلى الأخبار بانتباه مليمتري في محاولة لاكتشاف رسائل مشفرة من أسرهن . ولم يعرفن بالطبع كم من تلك الرسائل قد أفلت منهن ، وكم من العبارات البريئة كن يتصورن أنها رسائل أمل لهن .

لقد ظهر ألبرتو بيياميثار في مختلف نشرات أخبار التلفزيون ثماني مرات في اليومين الأولين ، وكان على يقين من أن صوته سيصل في إحدى تلك النشرات إلى المخطوفات . أضف إلى ذلك أن جميع أبناء ماروخا تقريباً كانوا من العاملين في وسائل الاتصال الجماهيري . وكان لبعضهم برامج تلفزيونية في أوقات منتظمة وثابتة ، فكانوا يستخدمون تلك البرامج للإبقاء على تواصل يفترضون أنه من جانب واحد ، وربما غير مجدٍ ؛ ولكنهم يواصلونه .

كان أول برنامج شاهدنه يوم الأربعاء التالي هو البرنامج الذي أعدته

الكسندرا بعد عودتها من غواخيرا . فقد ظهر الطبيب النفساني خيمي غافيريا ، زميل زوج بياتريث وصديق الأسرة القديم ، وقدّم مجموعة من التعليمات الحكيمة للحفاظ على المعنويات في الاماكن المغلقة . ولأن ماروخا وبياتريث كانتا تعرفان الدكتور غافيريا ، فقد أدركتا مغزى البرنامج ، وسجلتا ملاحظات من تعليماته .

كان ذلك البرنامج هو الأول من سلسلة في ثمان حلقات أعدتها الكسندرا على أساس حوار مطول مع الدكتور غافيريا حول سيكولوجيا المخطوفين . وكان الهدف الأول هو اختيار مواضيع تنال اعجاب ماروخا وبياتريث وبث رسائل شخصية في ثناياها لايمكن لأحد سواهما حلّ رموزها . وقررت الكسندرا عندئذ أن تدعو كل أسبوع شخصية مهيأة للرد على أسئلة مبيتة تثير دون شك لدى الرهينتين تداعيات فورية . وكانت المفاجأة أن كثيرين من مشاهدي التلفزيون العاديين انتبهوا على الأقل إلى أن تلك الأسئلة البريئة تنطوي على شيء ما .

* * *

في مكان غير بعيد ـ ضمن المدينة نفسها ـ كانت ظروف فرانثيسكو سانتوس في غرفة سجنه فظيعة مثلما هي ظروف ماروخا وبياتريث ، ولكنها ليست بمثل الصرامة المفروضة عليهما . وتفسير ذلك هو أنه اضافة إلى الاستغلال السياسي لاختطافهما ، كان هناك هدف انتقامي خاص ضدهما . كما أنه من المؤكد تقريباً أن حراس ماروخا وحراس باتشو كانوا فريقين مختلفين . فقد كانوا يعملون بصورة منفصلة ، حتى ولو كان ذلك لأسباب أمنية محضة ، ودون أي اتصال فيما بينهم . إنما كانت هناك اختلافات غير مفهومة حتى في هذا الشأن . فحراس باتشو كانوا أكثر إلفة وذاتية وملاطفة ، وأقل حذراً فيما يتعلق بهويتهم . أسوأ ما في ظروف باتشو أنه كان مضطراً إلى النوم وهو مقيد إلى حاجز السرير بسلسلة حديدية مبطنة بشريط قماشي

عازل لتفادي اصابته بتقرحات . أما أسوأ ما في ظروف ماروخا وبياتريث هوأنه لم يكن هناك حتى سرير يمكن تقييدهما إليه .

كان باتشو يتلقى الصحف بانتظام منذ اليوم الأول لاختطافه . وقد كانت روايات الصحافة المكتوبة لعملية اختطافه متخيلة جداً بصورة عامة ، وتفتقر إلى المعلومات إلى حد أنها جعلت الخاطفين يتلوون من الضحك . وكان توزيع وقته قد أستقر إلى حد ما عندما جرى اختطاف ماروخا وبياتريث . فقد كان يمضي الليل مستيقظاً وينام في نحو الساعة الحادية عشرة صباحاً . وكان يرى التلفزيون ، وحيداً أو مع حراسه ، ويتبادل الحديث معهم حول أخبار اليوم ، وخصوصاً حول مباريات كرة القدم . وكان يقرأ حتى الارهاق ، ويبقى لديه مع ذلك مايكفي من هدوء الأعصاب ليلعب مع حراسه بالورق أو الشطرنج . كان سريره مريحاً ، وقد نام جيداً منذ الليلة الأولى إلى أن أصيب بعدوى جرب طفحي وبحرقة في عينيه ، ولكن المرض اختفى بمجرد غسل غطاء السرير القطني وتنظيف الغرفة بعمق . ولم يكن الحراس يخشون مطلقاً أن يرى أحد من الخارج النور المضاء في الغرفة ، لأن النوافذ كانت مغلقة بألواح خشبية .

في شهر تشرين الأول برز أول أمل غير متوقع : فقد أمروه بأن يستعد من أجل إرسال دليل إلى أسرته يبين أنه مايزال على قيد الحياة . وكان عليه أن يبذل أقصى جهد ليحافظ على السيطرة على أعصابه . طلب ابريقاً من القهوة الغامقة وعلبتي سجائر ، وبدأ بكتابة رسالة يخط فيها مايخرج من روحه دون أن يصحح ولو فاصلة واحدة . ثم سجل الرسالة على « ميني كاسيت » كان سعاة البريد يفضلونه على أشرطة التسجيل العادية ، لأن اخفاءه أسهل . تكلم ببطء قدر مايستطيع ، وحاول أن يضبط نطقه وأن يتخذ مظهراً لايشي بظلال معنوياته . ثم سجل أخيراً عناوين جريدة *التيمبو* الرئيسية في ذلك اليوم ليؤكد على التاريخ الذي سجل فيه الرسالة . وقد شعر بالرضى ، خصوصاً عن الجملة الأولى : « كل من يعرفونني يدركون مدى صعوبة هذه الرسالة بالنسبة إلي » . ومع ذلك ، حين قرأ الرسالة بأعصاب باردة بعد نشرها في

الصحف ، أحس بأنه قد وضع الانشوطة حول عنقه ، خصوصاً بسبب الجملة الأخيرة التي يطلب فيها من رئيس الجمهورية أن يفعل كل مابوسعه من أجل تحرير الصحفيين ، ثم يحذره بالقول : « ولكن دون تجاوز القوانين والقواعد الدستورية ، لأن في ذلك منفعة ليس للبلاد وحسب ، وإنما كذلك للصحافة المختطفة اليوم » . وقد تفاقمت حالة الانقباض بعد أيام من ذلك ، حين اختطفوا ماروخا وبياتريث ، لأنه فهم ذلك على أنه اشارة إلى أن الأمور ستطول وتتعقد . وقد كان ذلك هو البذرة الجنينية الأولى لخطة هرب ستتحول إلى هاجس لايُقاوم .

* * *

أما ظروف ديانا وفريقها ـ على بعد خمسمئة كيلومتر إلى الشمال من بوغوتا وبعد ثلاثة أشهر من الاختطاف ـ فكانت مختلفة عن ظروف الرهائن الآخرين ، ذلك أن اختطاف امرأتين وأربعة رجال في وقت واحد يطرح مشاكل معقدة جداً على المستويين اللوجستي والأمني . ففي سجن ماروخا وبياتريث كان الافتقاد المطلق للرحمة مفاجئاً . وفي سجن باتشو سانتوس كانت المفاجأة في تآلف وظُرف حراسه الذين كانوا من أبناء جيله بالذات . أما عند جماعة ديانا فكان يسود جو من الارتجال يفرض على المخطوفين والخاطفين على السواء حالة من الذعر والارتياب ، مع عدم استقرار يلوث كل شيء ويزيد من توتر الجميع .

لقد تميز اختطاف ديانا كذلك بسمة التجوال . فخلال الاحتجاز الطويل جرى نقل الرهائن دون أي تفسير مالا يقل عن عشرين مرة ، في محيط ميدلين وداخلها ، في بيوت مختلفة الطراز والمستوى ومتفاوتة الظروف . وربما كانت تلك التنقلات ممكنة لأن الخاطفين ، على النقيض من الخاطفين في بوغوتا ، كانوا يتحركون في وسطهم الطبيعي ويتحكمون به تماماً ، ويحتفظون باتصال مباشر مع قادتهم .

لم يجتمع المخطوفون معاً في بيت واحد إلا في مناسبتين ، ولساعات قليلة فقط . فقد كانوا في البدء موزعين في مجموعتين : ريتشارد واورلاندو وهيرو بوس في بيت ، وديانا واثوثينا وخوان بيتا في بيت آخر قريب . وكانت بعض التنقلات تجري برعونة وبصورة مباغتة ، في أي ساعة ودون اتاحة الوقت لهم لجمع أشياءهم الشخصية بسبب مداهمات الشرطة الوشيكة . وكان التنقل يتم على الدوام تقريباً ، سيراً على الأقدام عبر مرتفعات وعرة أو بالخوض في الوحول تحت وابل من المطر لاينقطع . لقد كانت ديانا امرأة قوية وحازمة ، ولكن تلك المسيرات القاسية والمُذلة ، في ظروف الأسر الجسدية والمعنوية ، كانت تفوق كثيراً قدرتها على المَقاومة . وقد كانت بعض التنقلات الأخرى تتم بصورة عادية مثيرة للدهشة ، في شوارع ميدلين ، بواسطة سيارات أجرة عادية وبتفادي حواجز الشرطة ودورياتها الجوالة . وكان أقسى شيء بالنسبة إليهم في الأسابيع الأولى هو كونهم مختطفين دون أن يعلم أحد بذلك . فقد كانوا يشاهدون التلفزيون ، ويستمعون إلى المذياع ، ويقرؤون الصحف ، ولكن لم يكن هناك أي خبر عن اختفائهم حتى يوم ١٤ أيلول ، حين ذكرت نشرة أخبار تلفزيون كريبتون ، دون ذكر المصدر ، أن فريق ديانا ليس في مهمة صحفية مع رجال حرب العصابات ، وإنما هم محتجزون لدى الاكسترادي‍تابليين . وكان لابد من مرور عدة أسابيع أخرى قبل أن يُصدر هؤلاء اعترافاً بعملية الاختطاف .

المسؤول عن فريق ديانا كان « ابن بلد » ذكياً وسخياً يسميه الجميع باتشون دون أي كنية أو اشارة أخرى . وكان في نحو الثلاثين من العمر ، لكنه يبدو بمظهره الرصين رجلاً أكبر سناً . وقد كان لمجرد حضوره فضيلة الحل الفوري لكل مشاكل الحياة اليومية المعلقة ، وزرع الأمل بالمستقبل . كان يحضر معه دائماً هدايا للرهائن : كتب ، سكاكر ، أشرطة موسيقية ، وكان يطلعهم على آخر تطورات الحرب وأحوال البلاد .

ولكن ظهوره بينهم كان عارضاً ، ولم يكن يمارس كامل صلاحياته . أما

الحراس والمراسلون فكانوا أقرب إلى الفوضوية ، فهم لايتقيدون مطلقاً بوضع الأقنعة ، ويستخدمون أسماء مستعارة يختارونها من القصص الكوميدية المصورة ، وينقلون للرهائن ـ من بيت لآخر ـ رسائل شفوية أو خطية تفيد في التفريج عنهم على الأقل . وقد اشتروا لهم منذ الأسبوع الأول بيجامات التعرق النظامية ، وأدوات النظافة والتجميل الشخصية ، والصحف المحلية . وكانت ديانا واثوثينا تلعبان «البرجيس» معهم ، وقد شاركتا في مرات كثيرة في إعداد قائمة المشتريات . وفي أحد الأيام قال أحد الحراس عبارة أذهلت اثوثينا ودونتها بين ملاحظاتها : «بالنسبة إلى النقود لاتقلقوا ، فهذا ما لدينا فائض منه» . في البدء كان الحراس يعيشون في فوضى ، يستمعون إلى الموسيقى بأعلى صوت ، ويأكلون في أوقات غير منتظمة ويتنقلون في البيت بسراويلهم الداخلية . ولكن ديانا تولت الزعامة ووضعت الأمور في نصابها . فقد اجبرتهم على ارتداء ملابس محتشمة ، وعلى خفض صوت الموسيقى التي تُقلق نومها ، وأخرجت من الغرفة واحداً منهم أراد أن ينام على فراش ممدد على الأرض إلى جوار سريرها .

كانت اثيوثينا ذات الثمانية والعشرين عاماً هادئة وورومنطيقية ، ولم يكن بإمكانها العيش دون زوجها بعد أربع سنوات أمضتها في تعلم العيش معه . كانت تعاني نوبات من الغيرة المتخيلة وتكتب إليه رسائل حب وهي تعرف أنه لن يتلقاها مطلقاً . ومنذ الاسبوع الأول لاختطافها راحت تسجل ملاحظات يومية طازجة ومفيدة جدا من أجل كتابها الذي ستكتبه . لقد كانت تعمل في برنامج ديانا الإخباري منذ سنوات ، ولم تكن علاقتها بها تتجاوز علاقات العمل ، ولكنهما توحدتا معاً في المحنة ، فكانتا تقرأان الصحف معاً ، وتتبادلان الحديث حتى الفجر وتحاولان النوم حتى موعد الغداء . لقد كانت ديانا محدثة مندفعة ، وتعلمت منها اثوثينا دروس الحياة التي لم تقدمها لها المدرسة مطلقاً .

أعضاء فريق ديانا يتذكرونها كرفيقة ذكية ، مرحة وممتلئة بالحياة ،

ومحللة سياسية فطنة . في ساعات يأسها وفتور حماستها كانت تشركهم في شعورها بالذنب لأنها ورطتهم في تلك المغامرة التي لايمكن وصفها . كانت تقول لهم : «لايهمني ما الذي سيحدث لي ، ولكن إذا حدث أي شيء لكم فلن أستطيع العيش في سلام مع نفسي إلى الأبد» . وكانت تشعر بقلق شديد على الحالة الصحية لخوان بيتا الذي تربطها به صداقة قديمة . لقد كان أحد الذين عارضوا الرحلة بشدة وبأكبر قدر من الحجج ، ولكنه رافقها مع ذلك في هذه الرحلة بعد خروجه من المستشفى إثر اصابته بنوبة قلبية جدية . لم تنسه ديانا . ففي يوم الأحد الأول بعد الاختطاف دخلت باكية إلى حجرته وسألته عما إذا كان يكرهها لأنها لم تعمل بنصيحته . فإجابها خوان بيتا بكل صراحة : أجل . وأنه قد كرهها من كل قلبه حين أخبروهم بأنهم في قبضة الاكستراديتابليين ، ولكنه انتهى إلى تقبل الاختطاف كقدر لايمكن تفاديه . وغضب الأيام الأولى تحول لديه إلى إحساس بالذنب لأنه لم يستطع ثنيها عن عزمها .

في بيت آخر قريب ، كانت أسباب الفزع قد تضاءلت حينئذ لدى هيرو بوس ، وريتشارد بيثيرا واورلاندو اثيفيدو . لقد وجدوا في خزائن البيت كميات غير مألوفة من الملابس الرجالية ماتزال في تغليفها الأصلي ، وتحمل بطاقات أشهر الماركات الأوروبية . وقد أخبرهم الحراس بأن بابلو اسكوبار يحتفظ بمثل هذه الملابس للطوارئ في عدد من البيوت الأمنية . وكانوا يقولون لهم مازحين : «انتهزوا الفرصة أيها الفتيان واطلبوا كل ماتشاؤون . قد يتأخر ماتطلبونه قليلاً بسبب النقل ، ولكننا نستطيع تلبية أي طلب تريدونه خلال اثنتي عشرة ساعة» . كميات الطعام والشراب التي كانوا يأتونهم بها في البداية على متن بغلة كانت تبدو جنونية في اسرافها . لقد قال لهم هيرو بوس إنه لايمكن لألماني أن يعيش دون بيرة ، فأحضروا له في الرحلة التالية ثلاثة صناديق من البيرة . وقد قال هيرو بوس فيما بعد باسبانيته المتقنة : «لقد كان الجو خفيف الوطأة» . وفي تلك الأيام أقنع أحد الحراس

بأن يلتقط صورة للرهائن الثلاثة وهم يقشرون بطاطا لإعداد الغداء . وعندما أصبحت الصور ممنوعة عند انتقالهم إلى بيت آخر فيما بعد ، تمكن من إخفاء آلة تصوير آلية فوق خزانة الملابس ، وقد التقط بها مجموعة لابأس بها من السلايدات الملونة لخوان بيبا وله هو نفسه ، ولكنه لم يتوصل إلى تحقيق هدفه في إلتقاط صورٍ للحراس غير المقنّعين .

كانوا يلعبون الورق والدومينو والشطرنج معاً ، ولكن الرهائن لم يكونوا قادرين على منافسة الحراس في رهاناتهم غير العقلانية باسرافهم وخدعهم الشعوذية . لقد كانوا جميعهم فتياناً . يمكن لأصغرهم سناً أن يكون في الخامسة عشرة من العمر ، وكان يشعر بالفخر لأنه كسب جائزة عمله الأول ، في مسابقة لاغتيال رجال الشرطة مقابل مليوني بيزو لكل شرطي يُقتل . وقد كان يزدري النقود إلى حد أن ريتشارد بيثيرا باعه نظارة شمسية وسترة مصور بسعر يمكنه أن يشتري به خمس نظارات وسترات جديدة .

وبين حين وآخر ، في الليالي الباردة ، كان الحراس يدخنون الماريجوانا ويلعبون بأسلحتهم . وقد انطلق منهم الرصاص دون قصد في مناسبتين . إحدى تلك الرصاصات اخترقت باب الحمام وجرحت حارساً في ركبته . وحين سمعوا من الإذاعة في أحد الأيام نداء البابا يوحنا بولس الثاني من أجل اطلاق سراح المخطوفين ، صرخ أحد الحراس :

ـ وما الذي يجعل ابن القحبة هذا يتدخل في الأمر ؟

فقفز أحد زملائه ساخطاً من تلك الشتيمة ، وكان على الرهائن أن يتوسطوا بينهما كيلا يتصارعا بالرصاص . وباستثناء تلك المرة ، كان هيرو بوس وريتشارد يأخذون الأمور ببساطة حتى لا تفور دماؤهم . أما اورلاندو من جهته ، فكان يظن أنه مجرد زيادة عدد في الجماعة ، وكان يضع نفسه بجدارة على رأس قائمة الاعدامات .

منذ الأسبوع الأول جرى تقسيم الرهائن إلى ثلاث جماعات موزعة على ثلاثة بيوت مختلفة : ريتشارد وأورلاندو في بيت ، وهيرو بوس مع خوان بيتا

في بيت آخر ، وديانا مع اثوثينا في بيت ثالث . وقد نقلوا الاثنين الأولين في سيارة أجرة أمام أنظار الناس وسط حركة المرور الشيطانية في مركز المدينة التجاري ، في الوقت الذي كانت فيه كل أجهزة الأمن في ميدلين منهمكة في البحث عنهم . اقتادوهما إلى بيت مايزال قيد الاكساء ووضعوهما في غرفة نوم واحدة أشبه بزنزانة ، طولها نحو مترين وعرضها مثل ذلك ، وحمام قذر لا ضوء فيه . ومعهما أربعة حراس لمراقبتهما . ولم يكن هناك من أجل النوم سوى فرشتين ممدودتين على الأرض . وفي غرفة مجاورة ، مغلقة دائماً ، كان يوجد رهين آخر يطلبون مقابل اطلاقه ـ حسب قول الحراس ـ فدية مليونيرية . لقد كان خلاسياً بديناً يعلق سلسلة ذهبية ثقيلة حول عنقه ، وقد سببوا له الهوس في عزلته المطلقة .

البيت الفسيح والمريح الذي اقتادوا إليه ديانا واثوثينا لتقضيا فيه الشطر الأكبر من فترة احتجازهما كان يبدو وكأنه مقر إقامة خاص لأحد الزعماء الكبار . كانتا تأكلان وهما جالستان إلى طاولة عائلية ، وتشاركان في مناقشات خاصة ، وتستمعان إلى اسطوانات موسيقى دارجة ، بينها حسب الملاحظات التي دونتها اثوثينا موسيقى لروثيو دوركال وخوان مانويل سرّات . وفي ذلك البيت رأت ديانا برنامجاً تلفزيونياً مصوراً في منزلها في بوغوتا ، ومن خلال البرنامج تذكرت أنها قد تركت مفاتيح الخزانة مخبأة في مكان ما ، ولكنها لم تستطع أن تحدد إذا ما كان ذلك المكان وراء أشرطة الكاسيت الموسيقية أم وراء جهاز التلفزيون في غرفة النوم . وتذكرت عندئذ أيضاً أنها كانت قد نسيت أن تقفل صندوق الخزنة بسبب تسرعها في الخروج من البيت آخر مرة للقيام برحلة المحنة . وقد كتبت في رسالة موجهة إلى أمها : « عسى آلا يكون أحد قد دس أنفه هناك » . وبعد بضعة أيام ، في برنامج تلفزيوني ذي مظهر عرضي ، تلقت جواباً مطمئناً .

لم يبد للمختطفتين أن الحياة العائلية قد تبدلت . فقد كانت تأتي سيدات مجهولات يعاملهن كقريبتين ويقدمن إليهما هدايا هي ميداليات

وصور لقديسين أصحاب معجزات لكي يساعدونهما على الخروج طليقتين . كانت تأتي أحياناً أسرة بكاملها مع الاطفال والكلاب الذين كانوا يتقافزون في غرف البيت . وفي المرات القليلة التي تكون الشمس فيها دافئة ، لم يكن بامكانهما الخروج للتشمس بسبب وجود رجال يعملون على الدوام ، أو ربما حراس يتنكرون كعمال بناء . وقد التقطت ديانا واثوثينا صوراً بالتبادل ، كل منهما بكاميرتها ، ولم يكن يبدو عليهما حتى ذلك الحين أي تبدل جسدي . ولكن ديانا بدت شاحبة وهرمة في صورة التقطت لها بعد ثلاثة شهور من ذلك .

في ١٩ أيلول ، عندما علمت ديانا باختطاف مارينا مونتويا وفرانثيسكو سانتوس ، أدركت ـ دون أن تكون لديها عناصر المحاكمة المتوفرة لمن هم في الخارج ـ أن اختطافها ليس عملاً معزولا مثلما فكرت في البدء ، وإنما عملية سياسية ذات اسقاطات هائلة على المستقبل من أجل الضغط في أمر شروط الاستسلام . وقد أكد دون باتشو ذلك : كانت هناك قائمة مختارة من الصحفيين والشخصيات التي ستُختطف تباعاً كلما تطلب الأمر واستدعت ذلك مصالح الخاطفين . وعندئذ قررت ديانا كتابة يوميات ، ليس بهدف سرد وقائع أيامها وإنما من أجل رصد حالتها المعنوية وتسجيل تقديرها للأحداث . فصارت تكتب كل شيء : طرائف من حياة الأسر ، تحليلات سياسية ، ملاحظات انسانية ، حوارات دون اجابات مع أسرتها ، ومع الله ، ومع العذراء ، ومع *الطفل الالهي* . وكانت تنسخ في مرات عديدة صلوات كاملة ـ منها : « أبانا الذي في السماوات » و « يا قديسة مريم » ـ كطريقة أكثر أصالة وربما أكثر عمقاً للصلاة خطياً .

من الواضح أن ديانا لم تكن تفكر في كتابة نص للنشر ، وإنما مذكرة سياسية وانسانية حولتها ديناميكية الأحداث نفسها إلى محادثة مؤثرة بينها وبين نفسها بالذات . كانت تكتب بخطها المدور والكبير ذي الحضور الواضح ، إنما صعب القراءة ، والذي يملأ تماماً ما بين سطور الدفتر

المدرسي . وقد كانت تكتب في أول الأمر خفية ، في ساعات الصباح ، ولكن حين اكتشف الحراس ذلك ، زودوها بما يكفي من الورق وأقلام الرصاص لإبقائها مشغولة في أثناء نومهم .

كان أول تدوين لها في السابع والعشرين من أيلول ، بعد أسبوع من اختطاف مارينا وباتشو ، وفيه تقول : « منذ يوم الاربعاء ، التاسع عشر من هذا الشهر ، اليوم الذي حضر فيه المسؤول عن هذه العملية ، مرت أشياء كثيرة حتى أنني فقدت الأنفاس » . وتتساءل عن سبب عدم إعلان مختطفيها عن عملهم ، وتجيب بأنهم ربما فعلوا ذلك لكي يتمكنوا من اغتيالها دون اثارة استنكار عام في حال عدم نفعها في تنفيذ أهدافهم ، وتكتب : « هكذا أفكر في الأمر وامتلئ رعباً » . إنها تبدي قلقاً على حالة زملائها أكثر من قلقها على حالتها وتهتم بالأخبار من أي مصدر إذا كانت تتيح لها استخلاص نتائج عن وضعها ، لقد كانت على الدوام كاثوليكية متدينة ، مثل أسرتها كلها ، وخصوصاً أمها ، وكان ورعها يزداد ويتعمق مع مرور الوقت ، حتى وصلت إلى حالة من التصوف . كانت تتوسل إلى الرب وإلى العذراء من أجل كل ما له علاقة بحياتها ، بما في ذلك بابلو اسكوبار الذي كتبت عنه متوجهة إلى الرب في يومياتها : « ربما كان بحاجة أكبر الى مساعدتك . فاجعله يرى الخير ليتجنب المزيد من الألم ، وابتهل إليك من أجله لكي تجعله يفهم وضعنا » .

* * *

لقد كان أصعب مافي الأمر دون ريب ، بالنسبة إليهم جميعاً ، هو تعلم التعايش مع الحراس . حراس ماروخا وبياتريث كانوا أربعة شبان دون أي قدر من التربية ، أفظاظ وغير مستقرين ، وكانوا يتناوبون الحراسة ، إثنان كل اثنتى عشرة ساعة ، يجلسون على الأرض ورشاشاتهم جاهزة . وجميعهم يلبسون بلوزات عليها دعايات تجارية ، وأحذية رياضية وبنطلونات قصيرة كانوا يقصونها هم أنفسهم أحياناً بمقصات تشذيب الحدائق . أحد اللذين

كانا يدخلان عليهما في الساعة السادسة صباحاً كان ينام حتى التاسعة بينما يتولى الآخر حراستهما ، ولكنهما في أغلب الأحيان كانا ينامان معاً في الوقت ذاته . وقد فكرت ماروخا وبياتريث بأنه إذا ما داهمت قوة اقتحام شرطية البيت في تلك الساعة ، فلن يكون لدى الحارسين متسع من الوقت للاستيقاظ .

كانت الصفة المشتركة لدى الحراس هي قدرتهم المطلقة . فهم يعرفون أنهم سيموتون في عمر الشباب ، ويتقبلون ذلك ولايهمهم إلا أن يعيشوا لحظتهم . والأعذار التي يقنعون بها أنفسهم في مهنتهم الفظيعة هي مساعدتهم لأسرهم ، وشراء ملابس جيدة ، وامتلاك دراجات نارية ، والسهر على سعادة أمهاتهم اللواتي يعبدونهن قبل أي شيء آخر ، وهم مستعدون للموت من أجلهن . كما إنهم يعيشون متمسكين *بالطفل الالهي* نفسه *وماريا اوكسيليادورا* نفسها مثل مخطوفيهم . فهم يصلّون إليهما يومياً متوسلين حمايتهما ورحمتهما في ورعٍ ضال ، ويقدمون إليهما القرابين والتقدمات ليساعداهم على النجاح في جرائمهم . وبعد عبادتهما للقديسين ، يتوجهون إلى «الروفيغنول» ، وهو مهدئ يتيح لهم أن يجترحوا في الحياة الحقيقية البطولات التي يشاهدونها في السينما . فأحد الحراس يقول : «بخلط الروفيغنول مع زجاجة بيرة يدخل المرء على الموجه فوراً . وعندئذ يعيرون أحدنا حديدة جيدة فيسرق سيارة ليتنزه فيها . وأروع ما في الأمر هو رؤية الرعب في وجه صاحب السيارة وهو يقدم لنا المفاتيح» . وكل ماسوى ذلك يكرهونه : السياسيين ، الحكومة ، الدولة ، العدالة ، الشرطة ، المجتمع كله . فالحياة حسب قولهم ، ماهي إلا براز .

لقد كان من المستحيل التمييز بينهم في البداية ، لأن الشيء الوحيد الذي تراه ماروخا وبياتريث منهم هو القناع ، والجميع كانوا يبدون لهما متشابهين ، وكأنهم شخص واحد . ولكنهما تعلمتا مع مرور الوقت أن القناع يخفي الوجه ، ولكنه لايخفي الطبع . وهكذا توصلتا إلى التمييز بينهم . فكل

قناع له هوية مختلفة ، طريقة خاصة في السلوك ، صوت لايمكن انكاره . بل وأكثر من ذلك : له قلب . وقد انتهى بهما الأمر ، دون رغبة منهما ، إلى مشاطرة الحراس عزلة الحبس . فأصبحوا يلعبون الورق والدومينو ، ويتعاونون على حلّ الكلمات المتقاطعة وأحجيات المجلات القديمة .

كانت مارينا مستسلمة لقوانين سجانيها ، ولكنها لم تكن محايدة . فقد كانت تحب بعضهم وتمقت آخرين ، وكانت تنقل فيما بينهم تعليقات خبيثة بدوافع أمومية محضة ، وتنتهي بذلك إلى خلق تعقيدات داخلية تعرض الوئام في الغرفة إلى الخطر . ولكنها كانت تجبر الجميع على اداء صلاة التسبيح ، وكان الجميع يتقيدون باداء تلك الصلاة .

لقد كان بين الحراس في الشهر الأول واحد يعاني من نوبات خبل فجائية ومتواترة . كانو يدعونه باراباس . وكان يعبد مارينا ويداعبها ويستثيرها . ولكنه كان بالمقابل عدو ماروخا اللدود منذ اليوم الأول . فقد كان يصاب فجأة بمس من الجنون ، فيرفس التلفزيون أو ينطح الحيطان برأسه .

أما أكثر الحراس غرابة واكفهراراً وصمتاً ، فكان شخصاً نحيلاً طوله نحو مترين ، وكان يضع فوق القناع قلنسوة بيجامة الرياضة الزرقاء فيبدو مثل كاهن مجنون . وقد كانوا يطلقون عليه اسم «الراهب» . وكان ينحني لوقت طويل وهو غائب عن الوعي . ولا بد أنه كان أحد أقدم الحراس ، فقد كانت مارينا تعرفه جيداً وتخصه بعنايتها . وكان يأتيها بالهدايا عند عودته من إجازته ، ومن تلك الهدايا صليب بلاستيكي كانت مارينا تعلقه في عنقها بالشريط العادي الذي تلقته معه . وهي وحدها التي كانت قد رأت وجهه ، لأن جميع الحراس كانوا يتنقلون سافري الوجوه قبل مجيء ماروخا وبياتريث ، ولم يكونوا يحاولون إخفاء هويتهم . وتفسر مارينا ذلك على أنه مؤشر إلى أنها لن تخرج حية من ذلك المحبس . يقول ذلك الحارس إنه كان مراهقاً جذاباً ، له أجمل عينين وقع عليهما نظر . وكانت بياتريث تصدقه ، لأن رموشه كانت طويلة جداً وقاسية لدرجة أنها كانت تنفذ من ثقوب القناع . وكان قادراً على

القيام بأفضل الأعمال وأسوأها . وهو نفسه من اكتشف أن لدى بياتريث سلسلة فيها ميدالية للعذراء صانعة المعجزات . وقد قال لها :

ـ السلاسل ممنوعة هنا . يجب أن تسلمي إلي هذه السلسلة .

فقاومت بياتريث مغمومة :

ـ لايمكنك انتزاعها مني ، لأن ذلك سيكون فأل شؤم ، وسيحل بي شيء خبيث .

انتقلت إليه عدوى غمها ، فأوضح لها أن الميداليات ممنوعة لأنها قد تحتوي في داخلها على آلية الكترونية لتحديد موقعها عن بعد . ولكنه وجد الحل ، واقترحه عليها :

ـ فلتحتفظي بالسلسلة ، ولكن أعطني الميدالية . أرجو المعذرة ، ولكنها الأوامر التي أصدروها إلي .

الحارس لامبارون من جهته كانت تتسلط على عقله فكرة أنهم سيقتلونه ، وكان يصاب بتشنجات رعب . ويسمع ضجيجاً وهمياً . وقد ادعى أن في وجهه ندبة جرح فظيعة ، ربما لكي يشوش من سيحاول التعرف إليه . وكان ينظف بالكحول كل شيء يلمسه حتى لا يُبقي أثراً لبصماته . وكانت مارينا تسخر منه ، ولكنها لاتستطيع التخفيف من هوسه . لقد كان يستيقظ فجأة في منتصف الليل ، ويهمس مذعوراً : «اسمعوا! لقد جاءت الشرطة! » وفي إحدى الليالي أطفأ المصباح الخافت ، وقد اصطدمت ماروخا عندئذ بعنف بباب الحمام ، وكادت تفقد الوعي . ولكن لامبارون أنبها مع ذلك لأنها لا تعرف كيف تتحرك في الظلام .

فواجهته بحزم :

ـ كفاك حماقة . فهذا ليس فيلماً بوليسياً .

كان الحراس يبدون وكأنهم مختطفون أيضاً . فهم لايستطيعون التجول في بقية أرجاء البيت ، بل يقضون ساعات استراحتهم نائمين في غرفة أخرى مقفلة بقفل كي لا يهربوا . جميعهم كانوا شباباً عاديين من انتيوكيا ،

لايعرفون بوغوتا جيداً ، وقد روى أحدهم أنهم حين يخرجون من الخدمة ، كل عشرين أو ثلاثين يوماً ، يأخذونهم معصوبي العيون أو في صندوق السيارة حتى لايعرفوا أين هم . وكان هناك حارس آخر يخشى أن يقتلوه عندما لا تعود ثمة حاجة إليه ، لكي يأخذ أسراره معه الى القبر . ودون أي نظام معين كان يأتي قادة مقنَعون يرتدون ملابس جيدة ، فيتلقون تقارير ويصدرون تعليمات . وقد كانت قراراتهم ارتجالية ، وكان مصير الرهائن والحراس على السواء رهن أيديهم .

كان فطور الأسيرات يصل في وقت لايخطر على بال ، ويكون مؤلفاً من قهوة مع الحليب ، وعجة اريبا* فوقها قطعة سجق . أما الغداء ففاصولياء أو عدس في سائل رمادي ؛ وقطع صغيرة من اللحم مع ترسبات من الدهن وملعقة أرز ؛ وزجاجة مياه غازية . وكان عليهن أن يأكلن وهن جالسات على الفراش ، وذلك أنه لم يكن هناك كرسي واحد في الحجرة ، ولم يكن بامكانهن أن يستخدمن سوى الملاعق ، لأن استخدام السكاكين والشوك كان محظوراً لأسباب أمنية . أما العشاء فكانوا يتدبرونه لهن بتسخين الفاصولياء وبقايا الغداء الأخرى .

كان الحراس يقولون إن صاحب البيت الذي يدعونه «الوكيل» يحتفظ لنفسه بالجزء الأكبر من الميزانية . لقد كان أربعينياً مربوعاً ، متوسط طول القامة ، ويمكن التكهن بصورة وجهه الفونوسي** من أسلوبه الأخن في النطق وعينيه المحتقنتين من قلة النوم اللتين تطلان من ثقبي القناع . وكان يعيش مع امرأة ضنيلة الجسم ، كثيرة الصراخ ، رثة الثياب ، ومنخورة الأسنان ، تدعى داماريس ، وكانت تغني أغنيات السلساو البايناتو والبامبوكو طوال النهار بأعلى صوتها وبأذني مدفعي ، ولكن بحماسة شديدة بحيث كان من

---

* اريبا (arepa) : عجة تصنع من دقيق الذرة مع السمن وتحشى بلحم الخنزير والبازيلاء .(م)

** الفونوسي : نسبة إلى فونوس ، إله الحقول والزراعة عند الاغريق ، وهو مسخ له قرون في جبهته ، وأقدام تيس . ولحية وشعر كشعر الماعز .

المستحيل عدم تخيلها تتنقل في أنحاء البيت راقصة على موسيقى أغنياتها .

وكان استخدام الأطباق والكؤوس والشراشف يتواصل دون غسلها إلى أن تحتج السجينات . ولم يكن بالامكان تفريغ المرحاض إلا أربع مرات في اليوم ، ويبقى مغلقاً في أيام الآحاد حين تخرج الأسرة حتى لا يلفت خروج الفضلات من المصرف انتباه الجيران . وكان الحراس يبولون في المغسلة أو في البالوعة تحت الدوش . ولم تكن داماريس تحاول اخفاء إهمالها إلا عندما تعلم بمجيء هليكوبتر القادة ، وتفعل ذلك بأقصى سرعة ، وبتقنيات رجال الاطفاء ، فتغسل الأرض والجدران بخرطوم الماء . وكانت تشاهد الروايات التلفزيونية كل يوم حتى الساعة الواحدة بعد الظهر ، وعندئذ تلقي في طنجرةِ ضغطٍ ما عليها أن تطهوه للغداء ـ اللحم ، الخضار ، البطاطا ، الفاصولياء ، تخلط كل شيء دفعة واحدة ـ وتضعه على النار إلى أن ينطلق صفير القدر .كانت مشاجرتها مع زوجها تثبت أن لديها قدرة على الغضب ومخيلة لتوجيه الشتائم تصل أحياناً إلى ذرى الإلهام . وكان لديهما طفلتان ، إحداهما في التاسعة والأخرى في السادسة من العمر ، تذهبان إلى مدرسة قريبة ، وكانتا تدعوان في بعض الأحيان أطفالاً آخرين لمشاهدة التلفزيون أو اللعب في الفناء . وكانت معلمة المدرسة تزورهم في بعض أيام السبت أيضاً ، كما كان يأتي أصدقاء آخرون أكثر صخباً في أي يوم من أيام الأسبوع ، ويرتجلون حفلة رقص وموسيقى . وعندئذ يقفلون على الرهائن باب الغرفة بالقفل ويجبرونهن على اطفاء المذياع وعلى مشاهدة التلفزيون دون صوت ، ويمنعونهن من الذهاب إلى الحمام حتى في الحالات المستعجلة .

* * *

في أواخر شهر تشرين الأول ، لاحظت ديانا طربيه أن اثوثينا قلقة وحزينة . فقد أمضت اليوم كله دون كلام ، ولم تكن لديها رغبة في المشاركة بأي شيء . ولكن ذلك لم يكن غريباً : فقدرتها على التجريد كانت غير

عادية ، لاسيما أثناء القراءة ، وخصوصاً إذا كان ما تقرأه هو الكتاب المقدس . ولكن صمتها آنذاك كان يرافقه مزاج من الخوف وشحوب غير عادي . وعندما أجبرتها ديانا على الاعتراف ، كشفت لها عن أن المخاوف تتملكها منذ أسبوعين من أن تكون حبلى . لقد كانت حساباتها واضحة . فقد مضى عليها أكثر من خمسين يوماً في الأسر ، وقد انقطع الحيض لديها في دورتين متتاليتين . قفزت ديانا طرباً لهذا الخبر ـ وكان ذلك أحد ردود فعلها التقليدية ـ ولكنها شغلت نفسها بمخاوف اثوثينا وقلقها .

في إحدى زياراته الأولى ، وعدهما دون باتشو باطلاق سراحهما في يوم الخميس الأول من شهر تشرين الأول . وقد بدا لهما ذلك صحيحاً ، لأن تغيرات ملحوظة طرأت على أوضاعهما : معاملة أفضل ، طعام أفضل ، حرية أكبر في الحركة . ومع ذلك ، فقد كانت تبرز على الدوام ذرائع مختلفة لتأجيل الموعد . فبعد يوم الخميس الموعود ، قالوا لهما إن اطلاق سراحهما سيتم في التاسع من كانون الأول احتفالاً بانتخابات الجمعية الوطنية التأسيسية . ثم واصلوا إلى أعياد الميلاد ، فرأس السنة الجديدة ، فعيد الغطاس ، فعيد ميلاد أحد ما في سلسلة من التأجيلات بدت أقرب إلى جرعات السلوى .

واصل دون باتشو زيارتهما في شهر تشرين الثاني . وقد حمل إليهما كتباً جديدة ، وصحف اليوم ، ومجلات متأخرة وعلب شوكولاته . وكان يحدثهما عن المخطوفين الآخرين ، وحين علمت ديانا بأنها ليست أسيرة لدى الراهب بيريث ، هاجت للحصول على مقابلة مع بابلو اسكوبار ، ليس رغبة في نشرها ـ إذا سمح الوضع ـ وإنما لتناقش معه شروط استسلامه . ورد عليها دون باتشو في أواخر تشرين الأول بأن طلبها قد قوبل بالموافقة . ولكن نشرات أخبار السابع من تشرين الثاني وجهت الضربة الأولى لأوهامها : فقد قُطع بث مباراة كرة القدم بين فريق ميدلين والفريق الوطني لاذاعة خبر اختطاف ماروخا باتشون وبياتريث بيياميثار .

سمع خوان بيتا وهيرو بوس الخبر في سجنهما ، وبدا لهما أسوأ خبر

يمكن سماعه . فقد توصلا أيضاً إلى الاستنتاج بأنهما ليسا سوى كومبارس في فيلم رعب . أو «مادة حشوة» كما كان يقول خوان بيتا ، أو «منبوذين» كما كان يقول لهما حراسهما . ففي إحدى المناقشات الحامية ، صرخ أحد اولئك الحراس بهيرو بوس :

ـ اخرس ، فأنت ليس لك حتى صفة المدعو هنا .

استسلم خوان بيتا للخمود ، رفض تناول الطعام ، وصار نومه سيئاً ، وفقد القدرة على التوجه ، واختار الحل الرحيم بالموت دفعة واحدة بدلاً من الموت ملايين المرات كل يوم . أصابه الشحوب . وحلّ الخدر بإحدى ذراعيه ، وصار تنفسه صعباً ونومه متعثراً . وكانت حواراته الوحيدة آنذاك مع أقاربه الميتين الذين صاروا يجتمعون بلحمهم وعظمهم حول سريره . استولى الذعر على هيرو بوس ، فأثار ضجة استنكار ألمانية ، وكان يقول للحراس : «إذا ما مات خوان هنا فستتحملون أنتم المسؤولية» . ولقي تحذيره الاستجابة .

الطبيب الذي جاؤوا به هو الدكتور كونراد بريسكو لوبيرا ، شقيق دافيد ريكاردو وأرماندو ألبيرتو بريسكو لوبيرا ـ من عصابة آل بريسكو الشهيرة ـ وقد كانوا يعملون مع بابلو اسكوبار منذ بداياته في تجارة المخدرات ، ويشار إلى أنهم مبدعو نظام القتلة المأجورين بين مراهقي الريف الشمالي الشرقي لميدلين . ويقال بأنهم كانوا يقودون عصابة أطفال قتلة تتولى أكثر الأعمال قذارة ، ومن بينها حراسة المخطوفين . ولكن الجهاز الطبي بالمقابل كان يضم مهنياً محترفاً هو الدكتور كونراد ، وظل الشبهة الوحيد حوله هو أنه ، أو كان ، طبيب بابلو اسكوبار المقرب . وقد جاء سافر الوجه ، وفاجأ هيرو بوس بتحية بألمانية سليمة :

- Halo Hero, Wie gehts uns.*

---

* بالألمانية في الأصل : مرحباً ياهيرو ، كيف الحال .

كانت زيارة جادت بها العناية الالهية بالنسبة لخوان بيتا ، ليس بسبب تشخيصه للمرض ـ هبوط ضغط شديد ـ وإنما لأنه أشبع نهمه كقارئ . فالشيء الوحيد الذي وصفه له هو اكسير من قراءات جيدة . خلافاً لأخبار الدكتور فريسكو لوبيرا السياسية القائلة بأنهم قد فرضوا على الأسرى نوعاً من الشراب لقتل أكثرهم تمتعاً بالصحة .

تفاقم توعك ديانا في شهر تشرين الأول : آلام رأس مبرحة ، مغص تشنجي ، خمود شديد ، ولكن ليس هناك في يومياتها اشارة إلى أن الطبيب قد زارها . فكرتُ في أن ذلك قد يكون خموداً بسبب شلل الوضع ، حيث كانت شكوكها تتزايد مع اقتراب السنة من الانتهاء . فقد كتبت تقول : «الوقت هنا يمضي مختلفاً عما نحن معتادون عليه . فليس هناك حماسة لعمل أي شيء » وثمة ملاحظة من تلك الفترة لفتت الانتباه إلى التشاؤم الذي كان يثقل عليها : «لقد توصلت إلى إجراء مراجعة لما كانته حياتي حتى اليوم : كم من الغراميات ، وكم من السطحية في اتخاذ قرارات مهمة . وكم من الوقت المهدور في أمور لاتستحق ذلك! » . وقد حظيت مهنتها بمكانة خاصة في ذلك الفحص الصارم للوعي : «ومع أن قناعاتي تزداد رسوخاً حول ماهية ممارسة الصحافة ومايجب أن تكون عليه ، إلا انني لا أرى بوضوح أي ثغرة » . والشكوك لاتستبعد حتى مجلتها نفسها «التي أراها فقيرة ، ليس بالمعنى التجاري ، وإنما الصحافي أيضاً » . وحكمت عليها بيد واثقة : «إنها بحاجة إلى العمق والتحليل » .

لقد كانت أيام كل واحد من الرهائن تنقضي آنذاك في انتظار دون باتشو ، فزياراته التي يُعلن عنها دائماً ، وقلما تتحقق ، كانت هي مقياس الوقت . لقد كانوا يسمعون صوت الطائرات الصغيرة وطائرات الهليكوبتر وهي تحلق فوق البيت ، فيخلف فيهم صوتها انطباعاً بأنها طلعات استطلاع روتينية . لكن تحليق كل طائرة كان يثير استنفاراً بين الحراس ، فيستعدون بأسلحتهم الحربية متخذين أوضاعاً قتالية . وكان الرهائن يعرفون ، مما

سمعوه مراراً ، أن الحراس سيبدؤون بقتلهم في حال وقوع أي هجوم مسلح .

على الرغم من كل شيء ، انتهى شهر تشرين الثاني ببعض الأمل . فقد انقشعت الشكوك التي أثارت قلق اثوثينا لييفانو : فالأعراض التي ظهرت عليها كانت أعراض حمل كاذب ربما سببه التوتر العصبي . ولكنها لم تحتفل بذلك . بل على العكس : فبعد نوبة الذعر الأولى ، تحولت فكرة انجاب ابن إلى حلم وعدت نفسها بأن تعيشه فور خروجها طليقة . أما ديانا من جهتها ، فقد رأت بارقة أمل في تصريحات *الأعيان* وغيدو بارّا حول إمكانية التوصل إلى اتفاق .

* * *

كانت بقية شهر تشرين الثاني بالنسبة إلى ماروخا وبياتريث فترة استقرار . فكل منهما صاغت على طريقتها استراتيجية للبقاء على قيد الحياة . فلجأت بياتريث الشجاعة ذات الشخصية القوية إلى تسلية نفسها بتصغير الواقع . وقد تحملت الأيام العشرة الأولى على أحسن وجه ، ولكنها سرعان ما أدركت أن الوضع أكثر تعقيداً وشؤماً . فراحت تواجه المحنة مجانبة . أما ماروخا ، وهي محللة باردة الأعصاب بالرغم من تفاؤلها الذي يكاد يكون غير عقلاني ، فقد أدركت منذ اللحظة الأولى أنها في مواجهة واقع لا علاقة له بامكانياتها ، وأن الاختطاف سيكون طويلاً وشاقاً . فاختبأت داخل نفسها مثلما يختبئ حلزون داخل قوقعته ، ووفرت قواها ، وفكرت بعمق إلى أن اعتادت على الفكرة القدرية بأنها قد تموت . وقالت لنفسها : «لن نخرج من هنا أحياء» ، وقد فوجئت هي نفسها بالمفعول العكسي لذلك الوحي القدري . فقد أحست منذئذ بأنها سيدة نفسها ، وبأنها قادرة على ربط مصيرها بكل شيء وبالجميع ، والتوصل بالاقناع إلى جعل الانضباط أقل صرامة . لقد أصبح التلفزيون نفسه لايطاق ابتداء من الاسبوع الثالث في الأسر ، وانتهت كل الكلمات المتقاطعة والمقالات القليلة التي يمكن قراءتها في مجلات المنوعات

التي وجدتاها في الغرفة ، والتي ربما تكون من مخلفات مخطوف سابق . ولكن ماروخا ، حتى في أسوأ أيامها ، كانت تحتفظ لنفسها بساعتين من الوحدة المطلقة يومياً ، كعادتها دائماً في الحياة الواقعية .

وبالرغم من كل شيء ، فقد كانت أول أخبار شهر كانون الأول تشير إلى أن هناك أسباباً للتعلق بالأمل . وهكذا ، بينما كانت مارينا تطرح تكهناتها الرهيبة ، بدأت ماروخا بابتداع ألعاب التفاؤل . وقد تشبثت مارينا بتلك الألعاب بسرعة : فإذا رفع أحد الحراس إبهامه اشارة إلى الموافقة ، فكان ذلك يعني أن الأمور تسير على مايرام . وفي أحد الأيام لم تذهب داماريس إلى السوق لشراء الطعام ، فجرى تفسير ذلك على أنه اشارة إلى أنهن لم يعدن بحاجة إلى الطعام ، لأنه سيتم إطلاق سراحهن . ورحن يلعبن لعبة تخيل الطريقة الي سيتم بها تحريرهن ، ويحددن الموعد والطريقة . ولأنهن كن يعشن في الظلام ، فقد تخيلن أن تحريرهن سيتم في يوم مشمس ، وأنهن سيُقمن حفلة خلاصهن على شرفة بيت ماروخا . وكانت بياتريث تسأل : «ماذا ستأكلن ؟ » فترد مارينا ، الطاهية الجيدة ، بذكر قائمة من الأطباق الملكية . كن يبدأن باللعب وينتهين بالحقيقة ، فيرتبن أنفسهن من أجل الخروج وتجمل كل واحدة منهن الأخرى . وفي يوم التاسع من كانون الأول ، وكان أحد الأيام المعلنة لاطلاق سراحهن بمناسبة انتخابات الجمعية التأسيسية ، استعددن تماما للخروج ، بل إنهن أعددن ما ستقوله كل واحدة منهن في المؤتمر الصحفي . مضى اليوم في اللهفة ، ولكنه انتهى دون مرارة ، لثقة ماروخا المطلقة التي لا تشوبها شائبة شك ، في أنهن سيتحررن عاجلاً أو آجلاً على يد زوجها .

- ٤ -

لقد كان اختطاف الصحفيين بطريقة ما ، انعكاساً للفكرة التي كانت تؤرق الرئيس ثيسر غافيريا مذ كان وزيراً للدولة في حكومة فيرخيليو باركو : كيف يمكن خلق بديل قضائي للحرب ضد الارهاب . وقد جعل من ذلك موضوعاً مركزياً في حملته من أجل الرئاسة . وشدد عليه في خطبة تسلم السلطة ، مع التمييز المفهم بأن ارهاب تجار المخدرات هو مشكلة محلية ، ويمكن إيجاد حلّ محلي لها ؛ بينما تجارة المخدرات هي مشكلة عالمية ، ولايمكن حلها إلا عالمياً . وكان يعطي الأولوية لارهاب تجار المخدرات ، ذلك أن الرأي العام راح يطالب بالسجن لارهابيي المخدرات بعد انفجار القنابل الأولى ، ثم طالب بتسليمهم إلى الولايات المتحدة بعد الانفجارات التالية ، ولكنه منذ القنبلة الرابعة بدأ يطالب بالعفو عنهم . وكان لابد لتسليم المطلوبين إلى الولايات المتحدة في هذا المنحى من أن يكون وسيلة طوارئ أيضاً للضغط من أجل إجبار المجرمين على الاستسلام ، وكان الرئيس غافيريا مستعداً لتطبيق ذلك دون تردد .

في الأيام الأولى التي تلت تسلمه صلاحياته لم يكد يتاح له الوقت للتحدث في الأمر مع أحد ، فقد كان مثقلاً بتنظيم الحكومة وبالدعوة إلى جمعية وطنية تأسيسية لإجراء أول إصلاح معمق للدولة خلال المئة السنة الأخيرة . وكان رافائيل باردو يشاطره القلق بشأن الارهاب منذ اغتيال لويس

كارلوس غالان . ولكن باردو وجد نفسه منساقاً لغيبوبة البدايات في السلطة . وكان وضعه متميزاً . فتعيينه في منصب مستشار الأمن والنظام العام كان من أول التعيينات التي طالها الاندفاع التجديدي لأصغر الرؤساء سناً في هذا القرن ، والقارئ النهم للشعر والمعجب بالبيتلز ، وصاحب الأفكار الداعية إلى التغيير العميق التي عمدها هو نفسه بالاسم المتواضع : *الاكتساح* . ولكن باردو كان يمضي وسط تلك العاصفة بحقيبة أوراق يحملها معه إلى كل مكان ، ويجلس ليعمل أينما يستطيع . وكانت ابنته لورا تظن أن أباها قد أصبح بلا عمل لأنه لم تعد هناك ساعات منتظمة لخروجه من البيت وعودته إليه . والحقيقة أن ذلك الاضطراب في المواعيد الذي فرضته الظروف ، كان يتفق تماماً مع طبيعة رافائيل باردو الذي يبدو أقرب إلى شاعر غنائي منه إلى موظف حكومي . كان في الثامنة والثلاثين من عمره . وكان تكوينه الأكاديمي جلياً ومدعماً جيداً : بكالوريوس من المعهد الرياضي الحديث في بوغوتا ، واختصاص اقتصادي من جامعة «لوس انديس» ، حيث عمل كذلك استاذاً للاقتصاد وباحثاً طوال تسع سنوات ، وإجازة في التخطيط من معهد الدراسات الاجتماعية في لاهاي بهولندا . أضف إلى ذلك أنه قارئ نهم لأي كتاب يجده في طريقه ، ولاسيما في اختصاصين اثنين : الشعر والأمن . ولم يكن لديه في ذلك الحين سوى أربع ربطات عنق أُهديت إليه في أعياد الميلاد الأربعة السابقة ، ولم يكن يضعها لأنه لايحب ذلك ، فكان يحملها في جيبه ليلبسها في حالات الطوارئ . وكان يلائم بين بنطلوناته وستراته دون أن ينتبه إلى الشكل والموديل ، ويلبس في سهوه فردة جراب ذات لون مختلف عن الفردة الأخرى ، ويبقى بقميص ذي أكمام قصيرة كلما أستطاع ذلك ، لأنه لم يكن يفرق بين البرد والحر . أما أكبر حفلات قصفه فكانت تتمثل في لعب البوكر مع ابنته لورا حتى الساعة الثانية فجراً ، بصمت مطبق والمراهنة على حبات فاصولياء بدل النقود . وكانت زوجته الجميلة والصبورة كلاوديا ، تغتاظ لأنه يمضي في البيت ساهياً ، لايعرف أين مكان الكؤوس ، ولا كيف يغلق الباب أو

كيف يُخرج الثلج من الثلاجة ، ولأن لديه قدرة شبه سحرية على عدم العلم بحدوث الأشياء التي لا يطيقها . ومع ذلك ، فقد كانت صفته الاكثر غرابة هي جمود الصنم الذي يتمتع به ، والذي لايترك أدنى ثغرة لتصور ما الذي يفكر فيه . إضافة إلى موهبته الصارمة في حسم أي محادثة بأربع كلمات لا أكثر ، أو وضع حد لنقاش محتدم بلفظة حجرية واحدة .

وبالرغم من ذلك ، لم يكن زملاؤه في الدراسة والعمل يفهمون سبب سوء سمعته المنزلية ، فهم يعرفونه عاملاً ذكياً ، منظماً وذا جدية تبعث على القشعريرة ، أما طبيعته الساهية فتبدو لهم وسيلة للتضليل . لقد كان يتعامل بنزق مع القضايا السهلة ، ويبدي صبراً كبيراً حيال القضايا الخاسرة ، ويتمتع بطبع صارم لايكاد يخفف منه ميل إلى مزاح جدي وماكر . ولابد أن الرئيس فيرخيليو باركو قد تعرف على الجانب المفيد من طبيعته المتكتمة وولعه بالأسرار الغامضة ، فأوكل إليه مهمة التفاوض مع حركة حرب العصابات ووضع برامج اعادة تأهيل مناطق النزاع ، وتحت هذا العنوان تمكن من التوصل إلى اتفاقيات سلام مع حركة « م ـ ١٩ » . ثم شاطره الرئيس غافيريا بعد ذلك أسرار الدولة والصمت العميق ، وألقى على كاهله فوق ذلك مشاكل الأمن والنظام العام في واحد من أكثر بلدان العالم اضطراباً وانعداماً للأمن . وتولى باردو المنصب واضعاً كل مكتبه في حقيبته ، وكان عليه بعد أسبوعين من ذلك أن يطلب الإذن باستخدام الحمام أو الهاتف في مكاتب الآخرين . ولكن الرئيس كان يستشيره بكثرة حول أي موضوع ويستمع إليه باهتمام مدقق في الاجتماعات الصعبة . وقد بقي في مساء أحد الأيام وحيداً مع الرئيس في مكتبه ، وسأله هذا الأخير بأسلوبه الغائم :

ـ قل لي يا رافائيل ، ألا يقلقك أن يسلم أحد هؤلاء الأشخاص نفسه فجأة إلى العدالة ، ولانجد أي تهمة نوجهها إليه لوضعه في السجن ؟

لقد كان ذلك هو جوهر المشكلة : فالارهابيون الذين تطاردهم الشرطة لايحسمون أمر تسليم أنفسهم لأنهم لايملكون ضمانات لحماية أمنهم

الشخصي وأمن أسرهم . والدولة من جهتها لاتملك أدلة لادانتهم إذا هي ألقت القبض عليهم . وكانت الفكرة هي ايجاد صيغة حقوقية لجعلهم يعترفون بجرائمهم مقابل أن توفر الدولة الأمن لهم ولأسرهم . وكان رافائيل باردو قد فكر بالمشكلة لصالح الحكومة السابقة ، ومازال يحتفظ ببعض الملاحظات المبعثرة في حقيبته عندما وجه إليه غافيريا السؤال . وقد كانت تلك الملاحظات بالفعل هي بداية الحل : من يسلم نفسه إلى العدالة ينال تخفيضاً في الحكم إذا اعترف بجريمة تتيح محاكمته على أساسها ، ويحصل على تخفيض آخر إذا سلم أملاكاً وأموالاً إلى الدولة . كان هذا هو كل شيء ، ولكن الرئيس استشف الحل كاملاً ، إذ أنه يتفق مع فكرته في اعتماد استراتيجية لا تكون استراتيجية حرب ولاسلام ، وانما استراتيجية قضائية ترفع الغطاء عن حجج الارهاب دون التخلي عن التهديد الذي لابد منه بتسليم المطلوبين إلى الولايات المتحدة .

عرض الرئيس غافيريا الفكرة على وزيره للعدل خيمي خيرالدو انخل . فالتقط هذا الفكرة على الفور ، ذلك أنه كان يفكر منذ زمن في طريقة لاضفاء الصبغة الحقوقية على مشكلة تجارة المخدرات . أضف إلى ذلك أن كليهما كان من أنصار تسليم الوطنيين المطلوبين كوسيلة للضغط عليهم من أجل تسليم أنفسهم .

وبمزاجه كحكيم ساهٍ ، ودقته اللفظية ومهارته في تنظيم الصياغات الأولية ، استكمل خيرالدو انخل الصيغة المطلوبة بالاستناد إلى أفكاره وأفكار أخرى من القانون الجزائي . وفي يومي السبت والأحد صاغ المسودة الأولى على حاسوبه النقال الذي هو كحاسوب الصحفيين . ومع بداية يوم الاثنين عرضها على الرئيس وهي ماتزال تحمل تصحيحات وتعديلات بخط اليد . أما العنوان المكتوب بالحبر في أعلى الصفحة ، فكان الجنين التاريخي للمشروع : *الخضوع للعدالة* .

ولكن غافيريا الدقيق جداً في مشروعاته ، لايحمل هذه المشروعات إلى

مجلس الوزراء ما لم يكن واثقاً من نجاحها . ولهذا ، فقد تفحص مسودة خيرالدو انخل بتعمق مع رافائيل باردو الذي تكون كلماته القليلة صائبة تماماً في العادة ، على الرغم من عدم كونه محامياً . ثم أرسل بعد ذلك النسخة المنقحة إلى المجلس الأمني ، حيث وجد خيرالدو أنخل دعم وزير الدفاع الجنرال اوسكار بوتيرو ، ومدير التحقيق الجنائي كارلوس ميخيا اسكوبار ، الحقوقي الشاب والكفء الذي سيولى مسؤولية تنفيذ المرسوم في الحياة الواقعية . ولم يعارض الجنرال ماثا ماركيز بدوره المشروع ، بالرغم من أنه كان يرى أن النضال ضد كارتيل ميدلين لن يكون مجدياً بأي صيغة اخرى سوى الحرب ، وكان من عادته القول : « هذه البلاد لن تجد الاستقرار إلا بموت بابلو اسكوبار » . فقد كان واثقاً من أن اسكوبار لن يسلم نفسه إلا لكي يواصل الإتجار بالمخدرات من سجنه تحت حماية الحكومة .

قُدّم المشروع إلى مجلس الوزراء مع التأكيد على أن الأمر لايرمي إلى طرح مسألة التفاوض من الارهابيين لدرء كارثة انسانية تتحمل المسؤولية الأولى عنها البلدان المستهلكة . بل على العكس من ذلك : فالمشروع يحاول الحصول على قدر أكبر من الفائدة القضائية من عملية تسليم المطلوبين في خضم النضال ضد تجار المخدرات ، وذلك بتضمنه عدم تسليمهم كمكافأة كبرى ضمن حزمة من الحوافز والضمانات لمن يسلمون أنفسهم للعدالة .

تركزت إحدى المناقشات المفصلية على تحديد موعد نهائي للجرائم التي يتوجب على القضاة أن يأخذوها بالاعتبار . وهذا يعني أنه لن تتوفر الحماية لأي جناية ترتكب بعد تاريخ صدور المرسوم . وكان السكرتير العام للرئاسة فابيو بييّغاس هو أكثر المعارضين وضوحاً لمسألة تحديد موعد نهائي ، وقد استند في ذلك إلى حجة قوية : فعند انتهاء الفترة الممنوحة للجنايات القابلة للعفو ، تصبح الحكومة دون سياسة محددة في هذا المجال . ولكن الأغلبية اتفقت رغم ذلك مع الرئيس في أنه يجب عدم المضي بعيداً في الفترة المحددة ، لأن ذلك سيؤدي إلى المجازفة بتحويل الأمر إلى رخصة

قرصنة يواصل من خلالها المجرمون اقتراف جرائمهم إلى أن يقرروا تسليم أنفسهم .

ومن أجل حماية الحكومة من التعرض لأي شكوك بالمشاركة في مفاوضات غير شرعية أو مهينة ، اتفق غافيريا وخيرالدو على عدم استقبال أي مبعوث مباشر من قبل الاكسترادي‌تابليين خلال المحاكمات ، وعدم التفاوض معهم أو مع أي شخص آخر في أي قضية قانونية . هذا يعني عدم مناقشة المبادئ ، وإنما القضايا الاجرائية وحدها . وأن يكون المدير الوطني للتحقيق الجنائي ـ غير المرتبط بالسلطة التنفيذية وغير المعين من قبلها ـ هو المسؤول رسمياً عن أي اتصال مع الاكستراديتابليين وممثليهم الشرعيين . وأن تكون كل الاتصالات معهم خطية ، وتحفظ على هذه الصورة .

جرت مناقشة مشروع المرسوم باهتمام محمود وبتكتم غير معهود في كولومبيا ، وتم إقراره يوم الخامس من أيلول ١٩٩٠ وكان ذلك هو مرسوم حالة الطوارئ رقم ٢٠٤٧ : يمكن لجميع من يسلمون أنفسهم ويعترفون بجرائم اقترفوها أن يحصلوا على منفعة أولية بعدم تسليمهم (إلى الولايات المتحدة) ، ومن يتعاونون منهم مع العدالة فضلاً عن الاعتراف ينالون تخفيضاً في الحكم يصل إلى ثلث المدة مقابل الاستسلام والاعتراف ، والى سدس المدة مقابل التعاون مع العدالة بالوشاية . وبالاجمال : يحصلون على مايصل إلى نصف مدة الحكم المفروض على جريمة أو على مجموع الجرائم التي كانت السبب في طلب تسليمهم إلى الولايات المتحدة . لقد كان ذلك المرسوم هو التعبير الأكثر بساطة ونقاء للعدالة : المشنقة والهراوة . ومجلس الوزراء نفسه الذي وقّع على المرسوم ، رفض ثلاث عمليات تسليم للمطلوبين ووافق على ثلاث عمليات أخرى ، فكان ذلك أشبه باعلان عام بأن الحكومة الجديدة لن تتخلى عن تسليم المطلوبين إلا كمنفعة أولية من المرسوم .

الواقع أن المرسوم لم يكن مجرد قرار منفرد بقدر ما كان سياسة رئاسية محددة جيداً للنضال ضد الأرهاب عموماً ، ليس ارهاب تجار

المخدرات وحدهم ، بل وحالات الاجرام العادية أيضاً . لم يعبر الجنرال ماثا ماركيز في المجلس الأمني عما كان يفكر فيه حقاً بشأن المرسوم ، ولكنه بعد سنوات من ذلك ـ في حملته الانتخابية من أجل رئاسة الجمهورية ـ انتقده دون رحمة لأنه «إحدى خدع هذا الزمان» . وكتب يقول : «بهذا المرسوم يساء إلى هيبة العدالة ، ويُلقى بالمسؤولية التاريخية للقانون الجزائي إلى البحر» .

كان الطريق طويلاً ومعقداً . فالاكسترادي‌تابليون ـ الذين أصبحوا معروفين في العالم بأنهم الرديف الاجتماعي لبابلو اسكوبار ـ رفضوا المرسوم فوراً ، وإن كانوا قد تركوا الأبواب مواربة لمواصلة القتال من أجل الحصول على أكثر من ذلك بكثير . والسبب الأساسي لرفضهم هو أن المرسوم لايقول بصورة غير قابلة للتأويل إنه لن يجري تسليمهم (إلى الولايات المتحدة) . كما أنهم كانوا يحاولون أن يتم اعتبارهم مجرمين سياسيين ، وأن تُمنح لهم بناء على ذلك المعاملة نفسها التي حصل عليها مقاتلو حركة «م ـ ١٩» لحرب العصابات ، الذين جرى العفو عنهم والاعتراف بهم كحزب سياسي ، وصار واحد منهم وزيراً للصحة ، وشارك الآخرون كلهم في الحملة الانتخابية للجمعية الوطنية التأسيسية . وكان أحد مصادر قلق الاكستراديتابليين الاخرى هو توفير السجن الآمن لهم ، حيث يكونون بمنجى من أعدائهم ، وتأمين ضمانات الحياة لأسرهم وأتباعهم .

لقد قيل إن الحكومة قد أعدت المرسوم كمنحة لتجار المخدرات تحت ضغط عمليات الاختطاف . والواقع أن مشروع المرسوم كان يناقش منذ ما قبل اختطاف ديانا ، وكان قد أُعلن عنه عندما أقدم الاكستراديتابليون على شد 'صمولة في لفة أخرى بالاختطاف المتزامن تقريباً لكل من فرانثيسكو سانتوس ومارينا مونتويا . وحين لم يكفِ ثمانية رهائن لتحقيق مايريدونه ، خطفوا ماروخا باتشون وبياتريث بيياميثار . وعندئذ صار لديهم العدد السحري : تسعة صحفيين . إضافة إلى شقيقة سياسي هارب من عدالة

اسكوبار الخاصة ـ وكان محكوما عليها سلفاً بالموت . وهكذا ، وقبل أن يُظهر المرسوم فعاليته ، كان الرئيس غافيريا قد بدأ يتحول إلى ضحية فكرته التي ابتدعها .

* * *

كان لدى ديانا طربيه كينتيرو ، مثل أبيها ، توجه غريزي وحماسي إلى السلطة ، وميل إلى التزعّم حسم حياتها . فقد ترعرعت بين الأسماء السياسية الكبرى ، وكان من الصعب الا تكون تلك هي نظرتها إلى العالم منذ ذلك الحين . وقد قالت عنها صديقة لها تفهمها وتحبها : « كانت ديانا رجل دولة . وكان شغلها الشاغل في حياتها خدمة البلاد بإرادة صلبة » . ولكن السلطة ـ مثل الحب ـ هي سلاح ذو حدين : تُمارَس وتُعانى . وفي الوقت الذي تُوَلد فيه حالة من التسامي الصافي ، تولد نقيضها أيضاً : البحث عن سعادة هاربة لا تُقاوَم ، ولا يمكن مقارنتها إلا بالبحث عن حب مثالي ، يتلهف المرء إليه ولكنه يخشاه . . يمكن ملاحقته ولكن لايمكن الوصول إليه مطلقاً . وقد كانت ديانا تعاني ذلك بنهم لايرتوي لمعرفة كل شيء ، ولأن تكون في كل شيء ، ولأن تكتشف مبرر الأشياء وكيفيتها ، وسبب الحياة . بعض من تعاملوا معها عن قرب وأحبوها لاحظوا ذلك في قلق قلبها ، وهم يعتقدون بأنها كانت سعيدة في مرات قليلة جداً .

ليس بامكاننا أن نعرف ـ دون أن نكون قد سألناها ـ أي واحد من حديّ السلطة سبّب لها أسوأ جراحها . ولابد أنها أحست بذلك مباشرة حين كانت سكرتيرة أبيها الخاصة وذراعه اليمنى وهي في الثامنة والعشرين من عمرها ، أثناء رئاسته ، وبقيت منذ ذلك الحين عالقة وسط رياح السلطة المتقاطعة . لقد قال أصدقاؤها ـ الذين لا حصر لهم ـ إنها كانت أذكى شخص عرفوه ، وكانت تملك درجة من المعلومات لا يرقى إليها الشك ، وقدرة مذهلة على التحليل ، ومقدرة إلهية لاستشفاف حتى النوايا الثالثة للناس . ويقول أعداؤها

دون مواربة إنها كانت جرثومة اختلال وراء العرش . ويفكر آخرون بالمقابل في أنها قد أهملت مصيرها في سعيها للحفاظ على مصير أبيها قبل كل شيء وفي مواجهة الجميع ، وأمكن لها أن تكون أداة لأهل البلاط والمتملقين .

لقد ولدت في الثامن من آذار ١٩٥٠ ، تحت برج الحوت الصارم ، حين كان أبوها على قائمة الانتظار لرئاسة الجمهورية . وكانت زعيماً بالفطرة حيثما وجدت : في مدرسة الكوليج اندينو ببوغوتا ، والقلب المقدس في نيويورك ، وفي جامعة سانتو توماس في أكينو ، وكذلك في بوغوتا ، حيث أنهت دراسة الحقوق دون أن تنتظر للحصول على الشهادة .

نزولها المتأخر إلى الصحافة ـ وهي السلطة غير المتوجة لحسن الحظ ـ كان بالنسبة إليها دون ريب عودة للقاء بأفضل مافيها . فقد أسست مجلة *اليوم x اليوم* والبرنامج التلفزيوني الإخباري *كريبتون* كطريق أكثر مباشرة للعمل بسلام . وقد قالت آنذاك : «لست بصدد الصراع مع أحد ، ولم يعد لدي الحماس لاثارة الخصومات مع أي كان . إنني الآن داعية إلى المصالحة بالكامل» . وقد بلغت في هذا السبيل حد الجلوس للتحادث ، من أجل السلام ، مع كارلوس بيثارا ، قائد حركة «م ـ ١٩» التي كانت قد أطلقت صاروخاً حربياً على الغرفة نفسها تقريباً التي كان فيها الرئيس طربيه . وتقول الصديقة التي روت ذلك وهي تكاد تموت من الضحك : «لقد أدركت ديانا أنه يجب على المرء أن يكون لاعب شطرنج وليس ملاكما يوجه اللكمات إلى الجميع» .

ولهذا ، يكاد يكون من الطبيعي أن يكون لاختطافها ـ فضلاً عن شحنته الانسانية ـ ثقلاً سياسياً من الصعب التحكم به . وكان الرئيس السابق طربيه قد قال علناً وفي جلساته الخاصة أنه ليست لديه أية أخبار من الاكستراديتابليين ، لأن قول ذلك بدا له أكثر حكمة طالما لم يعرف ما الذي يريدونه . ولكنه كان قد تلقى في الحقيقة رسالة بعد قليل من اختطاف فرانثيسكو سانتوس . وقد أطلع عليها هيرناندو سانتوس فور عودة هذا الأخير

من ايطاليا ، ودعاه إلى بيته لوضع خطة لعمل مشترك . وجده سانتوس في عتمة مكتبته الفسيحة ، يثقل عليه اليقين بأن ديانا وفرانثيسكو سيُعدمان . وكان أكثر ما أثر فيه ـ مثل جميع من التقوا طربيه في تلك الفترة ـ هو الوقار الذي يتحمل فيه نكبته .

الرسالة الموجهة إلى كليهما كانت مؤلفة من ثلاث أوراق مكتوبة باليد ، بخط كحروف المطبعة ، وكانت دون توقيع ، وتبدأ بمقدمة مفاجئة : «تقبلا منا نحن الاكسترادي‌تابليين تحية احترام» . والشيء الوحيد الذي لم يكن يسمح بالارتياب في صحة الرسالة هو أسلوبها المقتضب ، والمباشر والخالي من الأخطاء ، والخاص ببابلو اسكوبار . تبدأ الرسالة بالاعتراف باختطاف الصحفيين اللذين يتمتعان ، حسب الرسالة «بحالة صحية جيدة وظروف احتجاز حسنة يمكن اعتبارها طبيعية في مثل هذه الأحوال» . وما تبقى هو مذكرة سباب ضد ممارسات الشرطة التعسفية . وتطرح في النهاية ثلاث نقاط لاتراجع عنها للافراج عن الرهائن : الوقف الكامل للعمليات العسكرية ضدهم في ميدلين وبوغوتا ، سحب *فرقة النخبة* ، وهي الوحدة الشرطية الخاصة التي تعمل ضد تجارة المخدرات ، وإقالة قائدها وعشرين ضابطاً آخر تشير الرسالة إلى أنهم اقترفوا أعمال تعذيب وقتل بحق نحو أربعمئة شاب في الضاحية الشمالية الشرقية لميدلين . وأذا لم تنفذ هذه الشروط ، سيبدأ الاكسترادي‌تابليون حرب إبادة شاملة ، بعمليات تفجير في المدن الكبرى ، واغتيال قضاة وسياسيين وصحفيين . وكانت النتيجة التي تستخلصها الرسالة بسيطة : «إذا أدى ذلك إلى انقلاب عسكري فأهلا به ، لأنه لم يعد لدينا الكثير لنفقده»الرد الخطي ، دون أي حوارات مسبقة ، يجب أن يسلم خلال ثلاثة أيام في الفندق الدولي بميدلين ، حيث ستكون هناك غرفة محجوزة باسم هيرناندو سانتوس . أما الوسطاء من أجل الاتصالات التالية فسيختارهم الاكسترادي‌تابليون أنفسهم فيما بعد . تبنى سانتوس قرار طربيه بعدم نشر الرسالة أو أي رسالة تالية ، طالما لم يحصلا على خبر مؤكد . وانتهى طربيه

قائلاً : «لايمكننا أن نتطوع لحمل رسائل أحد إلى الرئيس . ولا أن نمضي أبعد مما تتيحه لنا اللياقة» .

اقترح طربيه على سانتوس أن يكتب كل منهما رداً ، ثم يصوغا الردين بعد ذلك في رسالة مشتركة . وهذا مافعلاه . وكانت النتيجة ، في جوهرها ، تصريحاً رسمياً بأنهما لا يملكان أي سلطة للتدخل في الشؤون الحكومية ، ولكنهما مستعدان لنشر أي خروقات للقوانين أو لحقوق الانسان يبلغهما عنها الاكسترادتيابليون ويرافقونها بالأدلة القاطعة . أما فيما يتعلق بالعمليات الشرطية ، فيقولان إنه ليست لديهما أية صلاحيات لوقفها ، ولايمكنهما كذلك أن يحاولا تدمير مكانة عشرين ضابطاً متهماً دون أدلة ، ولا أن يكتبا افتتاحيات صحفية ضد وضع يجهلانه .

حمل الرسالة الجوابية ألدو بوينابينتورا ، وهو موثق عقود عمومي ، و«ثور»* محموم منذ سنوات دراسته البعيدة في الليسيه الوطني في ثيباكيرا ، وصديق قديم لهيرناندو سانتوس ، يتمتع بثقته المطلقة . وما كاد يدخل الغرفة رقم ٣٠٨ ، المحجوزة في الفندق الدولي ، حتى اتصل به أحدهم هاتفياً :

- هل أنت السيد سانتوس ؟

فرد ألدو :

- لا ، ولكنني آت من طرفه .

- هل أحضرت المطلوب ؟

كانت للصوت رنة خاصة واثقة ، حتى أن ألدو تساءل إذا ما لم يكن المتحدث هو بابلو اسكوبار نفسه ومباشرة ، ثم قال له نعم . صعد إلى الغرفة شابان بملابس وسلوك رجال الأعمال . سلمهما ألدو الرسالة . شدّا على يده مع انحناءة لياقة وانصرفا .

وقبل انقضاء أسبوع على ذلك تلقى طربيه وسانتوس زيارة المحامي

---

* يقصد انه من مواليد برج الثور .(م)

الانتيوكيني غيدو بارّا مونتويا ، حاملاً رسالة جديدة من الاكسترادي‍تابليين . لم يكن المحامي بارّا مجهولاً في أوساط بوغوتا السياسية ، ولكنه كان يبدو دائماً وكأنه آت من الظلال . كان في الثامنة والأربعين من العمر ، وقد وصل مرتين إلى مجلس النواب كعضو مكمل في قائمة الليبراليين ، ومرة اخرى كعضو أساسي في قائمة التحالف الوطني الشعبي ، أصل حركة «م ـ ١٩» . وكان مستشاراً في المكتب القانوني لرئاسة الجمهورية خلال حكومة الرئيس كارلوس بيراس ريستريبو . وفي ميدلين ، حيث مارس المحاماة منذ شبابه ، جرى اعتقاله في العاشر من أيار ١٩٩٠ للاشتباه بتواطئه مع الارهاب ، وأُفرج عنه بعد أسبوعين لعدم توفر الأدلة . وبالرغم من هذه العثرات وغيرها ، فقد كان يعتبر حقوقياً مجرباً ومفاوضاً جيداً .

ومع ذلك ، فقد كان يبدو من الصعب التصور أن هناك شخصاً سيكون أقل منه اثارة للشبهة كمبعوث سري من قبل الاكسترادي‍تابليين . لقد كان رجلاً ممن يحملون المظاهر على محمل الجد . فقد كان يرتدي بدلة رمادية بلاتينية اللمعان ، وهو زي الاداريين التنفيذيين آنذاك ، ويختار قمصاناً ذات ألوان زاهية وربطات عنق شبابية يعقدها في عقدة كبيرة على الطريقة الايطالية . وكانت له أساليب احتفالية في الحديث ونبرة خطابية رنانة ، فهو يتجاوز اللطف إلى الافراط في البشاشة والمجاملة ، وهذه صفة انتحارية إذا كان يريد التودد إلى سيدين في الوقت نفسه . وقد فاضت بلاغته بحضور رئيس ليبرالي سابق ومدير أهم صحيفة في البلاد . «فخامة الدكتور طربيه ، عزيزي الدكتور سانتوس ، لكما ان تستفيدا من خدماتي مثلما تريدان» ، قال ذلك ثم ارتكب زلة من تلك التي قد تكلف المرء حياته :

ـ انني محامي بابلو اسكوبار .

فتلقف هيرناندو الهفوة فوراً :

ـ الرسالة التي تحملها إلينا هي منه إذن ؟

فرقع غيدو بارّا الوضع دون أن يرمش :

ـ لا ، إنها من الاكستراديتابليين ، ولكن ردكم يجب أن يوجه إلى اسكوبار لأنه يستطيع التأثير على المفاوضات .

لقد كان ذلك التمييز مهماً ، لأن اسكوبار لم يكن يترك أي أثر تستفيد منه العدالة . فالرسائل التي يمكن لها أن تورطه ، كما هي المفاوضات بشأن المخطوفين كان يكتبها بخط كحروف الطباعة ، ويوقعها باسم الاكستراديتابليين أو أي أسم شائع : مانويل ، غابرييل ، انطونيو . أما الرسائل التي ينصب فيها نفسه في موقع توجيه الاتهامات ، فكان يكتبها بخطه الطبيعي شديد الصبيانية ، ولايكتفي بتوقيعها باسمه وامضائه ، بل يمهرها كذلك ببصمة إبهامه . وفي فترة اختطاف الصحفيين ، كانت العقلانية تستدعي منه أن يضع وجوده بالذات موضع الشك . فمن المحتمل ألا يكون الاكستراديتابليون إلا مجرد اسم سري له ، ولكن العكس كان ممكناً أيضاً : فربما لم يكن اسم وهوية بابلو اسكوبار إلا غطاء للاكستراديتابليين . فبياناتهم ذات الأسلوب المثالي والاحتياطات الكاملة وصلت في تشابهها مع الحقيقة إلى حذ الاختلاط بها .

لقد بدا دائماً أن غيدو بارًا مهيأ للمضي إلى ماهو أبعد مما يقترحه الاكستراديتابليون خطياً . ولكن ، كان لابد من قراءة ذلك بعدسة مكبرة . فما كان يبحث عنه لزبائنه هو معاملة سياسية مماثلة لتلك التي تلقاها حركات حرب العصابات . كما أنه كان يطرح مواجهة مسألة تدويل قضية تجار المخدرات بهدف اللجوء إلى مشاركة الامم المتحدة في القضية . ولكنه حيال رفض سانتوس وطربيه الحاسم ، اقترح عليهما صيغاً عديدة بديلة . وهكذا بدأت عملية أخذ ورد لايقل طول أمدها عن خوائها ، وانتهت إلى التخبط في زقاق مسدود .

أجرى سانتوس وطربيه اتصالات شخصية مع رئيس الجمهورية منذ الرسالة الثانية . وقد استقبلهما غافيريا في الساعة الثامنة والنصف ليلاً في قاعة المكتبة الخاصة . كان أكثر صفاء من المعتاد ، وكانت لديه رغبة في

معرفة أخبار جديدة عن الرهائن . أطلعه طربيه وسانتوس على الرسالتين والرد عليهما ، وعلى وساطة غيدو بارّا . فقال الرئيس :

ـ مبعوث سيء . إنه ذكي جداً ، ومحامٍ جيد ، ولكنه خطير للغاية . وصحيح أيضاً أنه يلقى كل الدعم من اسكوبار .

قرأ الرسالتين بقوة التركيز التي تبهر الجميع : حيث يصبح وكأنه غير مرئي . وكانت تعليقاته جاهزة وكاملة لدى انتهاء القراءة ، مع التخمينات المناسبة التي لم تعد تستدعي منهما إضافة كلمة واحدة . أخبرهما أنه ليس لدى أي جهاز مخابرات أدنى فكرة عن مكان احتجاز الرهائن . وقد كان الجديد بالنسبة للرئيس تأكيده بإنهم محتجزون لدى بابلو اسكوبار .

لقد قدم غافيريا في تلك الليلة دليلاً على مهارته في وضع كل شيء موضع الشك قبل أن يتخذ قراراً نهائياً . فقد افترض إمكانية أن تكون الرسالتان مزيفتين ، وأن يكون غيدو بارّا يمارس لعبة لمصلحة آخرين ، بل وبامكانية أن يكون الأمر كله لعبة يقوم بها أحدٌ لا علاقة له باسكوبار . وقد خرج محاوراه وهما آقل حماسة مما كانا عليه عند دخولهما ، وبدا لهما أن الرئيس يعتبر قضية المخطوفين مشكلة خطيرة تخص الدولة ، مع هامش ضيق جداً للمشاعر الشخصية .

كانت هناك صعوبة أولية في التوصل إلى اتفاق تتمثل في أن اسكوبار كان يغير شروطه حسب تطور مشاكله ، لكي يؤخر حلّ مسألة الرهائن ويحصل على فوائد إضافية وغير متوقعة ، ريثما تتخذ الجمعية التأسيسية قراراً بشأن تسليم المطلوبين الى الولايات المتحدة ، وربما بالعفو عنهم أيضاً . كل هذا لم يكن واضحاً على الاطلاق في مراسلات اسكوبار الماكرة مع أُسر المخطوفين ، ولكنه كان واضحاً في المراسلات السرية التي كان يتبادلها مع غيدو بارّا لتوجيهه حول التحرك الاستراتيجي والامكانيات المنظورة للمفاوضات على المدى البعيد . فهو يقول له في إحدى الرسائل : «من المستحسن أن تنقل كل المخاوف إلى سانتوس حتى لا تتعقد أمورنا أكثر .

ذلك أنه يجب أن يُعلن خطياً وبقرار عالٍ أننا لن نُسلِّم بأي حال أو لأي جناية إلى أي بلد آخر » . كما كان يطالب بتحديد دقيق لمطلب الاعترافات التي يجب أن يقدمها من يسلمون أنفسهم . اضافة إلى نقطتين أساسيتين تتعلقان بالحراسة على سجنهم الخاص ، وتوفير الأمن لأسرهم وأتباعهم .

* * *

صداقة هيرناندو سانتوس مع الرئيس الأسبق طربيه التي كانت تستند على الدوام إلى قاعدة سياسية ، تحولت آنذاك إلى صداقة شخصية وحميمة . كان يمكن لهما أن يجلسا متقابلين لساعات طويلة في صمت مطبق . ولم يعد يمر يوم دون أن يتبادلا عبر الهاتف انطباعات حميمة ، وافتراضات سرية ، ومعطيات جديدة . وقد توصلا في أثناء ذلك إلى لغة ملغزة كاملة لتبادل الأخبار السرية فيما بينهما .

لم يكن ذلك صعباً . فهيرناندو سانتوس هو رجل مسؤوليات جسيمة ، يمكنه بكلمة واحدة أن ينقذ حياة إنسان أو أن يدمرها . وهو رجل انفعالي ، متشنج الأعصاب ، ذو وعي قبلي له ثقل كبير في قراراته . من عايشوه خلال أزمة اختطاف ابنه كانوا يخشون ألا يتمكن من تجاوز المحنة . لقد أمضى ليلة كاملة دون طعام ودون نوم ، وأبقى الهاتف في متناول يده طوال الوقت ، وكان يقفز إليه لدى أول رنين . وخلال شهور الألم تلك لم يعرف إلا القليل من اللحظات الاجتماعية ، وقد أخضع نفسه لبرنامج مساعدة سيكولوجية لكي يتحمل خبر موت ابنه الذي كان يظنه واقعاً لا محالة ، وعاش حبيس مكتبه أو غرفه ، مستسلماً لمراجعة مجموعته الرائعة من الطوابع البريدية والرسائل المحروقة الحوافي في حوادث جوية . كانت زوجته ايلينا كالديرون ، أم أبنائه السبعة ، قد ماتت قبل سبع سنوات ، وكان وحيداً حقاً . وكانت قد تفاقمت لديه مشاكل القلب الرؤية ، ولم يكن يبذل أدنى جهد لكبح بكائه . وقد كانت فضيلته المثالية في تلك الظروف شديدة

الدراماتيكية هي الإبقاء على الجريدة على هامش المأساة الشخصية .

كانت إحدى دعاماته الأساسية في تلك الفترة المريرة هي صلابة كنته ماريا فيكتوريا . إن ما استقر في ذاكرتها من أحداث الأيام التي تلت عملية الاختطاف مباشرة ، هو غزو أقارب زوجها وأصدقائه لبيتها ، حيث كانوا يشربون الويسكي أو القهوة وهم يستلقون على السجاجيد حتى ساعة متأخرة من الليل . وكانوا يتحدثون دائماً في الموضوع نفسه ، بينما كانت صدمة الاختطاف وصور المختطف نفسه تتلاشى شيئاً فشيئاً . وعندما رجع هيرناندو من ايطاليا ذهب مباشرة الى بيت ماريا فيكتوريا ، وحياها بتأثر مزق نياط قلبها ، ولكنه عندما أراد معالجة أمر سري حول الاختطاف ، طلب منها أن تتركه على انفراد مع الذكور . وقد انتبهت عندئذ ماريا فيكتوريا ذات الطبع الحاد والتأملات الناضجة إلى أنها كانت على الدوام رقماً هامشياً في أسرة الرجال تلك . بكت يوماً كاملاً ، ولكنها خرجت وهي مصممة بحزم على فرض شخصيتها ومكانتها في بيتها . لم يتفهم هيرناندو دوافعها وحسب ، بل أنب نفسه أيضاً على استهانته بها ، ووجد فيها أفضل دعم لأحزانه . ومنذ ذلك الحين حافظا على علاقة ثقة لا تُقهر ، سواء في التعامل المباشر ، أو عبر الهاتف ، أو الرسائل الخطية ، أو عبر شخص وسيط ، أو حتى عبر التخاطر ، ذلك أنهما في أشد المجالس العائلية تعقيداً كانا يكتفيان بتبادل النظرات ليعرف كل منهما مايفكر فيه الآخر وما يتوجب عليهما قوله . وقد خطرت لها أفكار جيدة جداً ، منها فكرة نشر ملاحظات افتتاحية في الجريدة دون أي رموز لمشاطرة باتشو أخباراً مسلية من الحياة الأُسرية .

* * *

أقل الضحايا وروداً إلى الذاكرة هما ليليانا روخاس أرياس ـ زوجة المصور اورلاندو اثيفيدو ـ ، ومارتا لوبى روخاس ـ والدة ريتشارد بيثرا ـ . ومع أنهما لم تكونا صديقتين مقربتين ، ولم تكن تجمعهما صلة قرابة ـ رغم

تشابه كنيتيهما ـ ، فقد جعلتهما عملية الاختطاف صديقتين لا تفارق إحداهما الأخرى . وقد قالت ليليانا : «لم يكن الألم هو الذي وحّدنا بقدر ما هي الرغبة في الرفقة» .

كانت ليليانا تُرضع ابنها إيرك ييسيد ، عمره سنة ونصف ، حين اتصلوا بها من تلفزيون كريبتون وأخبروها بأن كل فريق ديانا طربيه قد اختطف . كانت في الرابعة والعشرين من عمرها ، وقد تزوجت قبل ذلك بثلاث سنوات ، وكانت تعيش في الطابق الثاني من بيت حمويها في حي سان اندريس ، جنوبي بوغوتا . وقد قالت عنها إحدى صديقاتها : «إنها فتاة محبة للمرح ، ولاتستحق تلقي مثل هذا الخبر» . ولكنها كانت تتمتع بالأصالة فضلاً عن حبها للمرح ، فما إن استعادت تماسكها بعد الصدمة الأولى ، حتى وضعت طفلها قبالة التلفزيون عند بث نشرة الأخبار لكي يرى أباه ، وواظبت على عمل ذلك دون هوادة حتى نهاية الاختطاف .

لقد اتصلوا بها ، وبمارتا ، من التلفزيون وأخبروهما بأنهم سيواصلون مساعدتهما ، وعندما مرض ابن ليليانا تولوا مسؤولية نفقات العلاج . كما اتصلت بهما نيديا كينتيرو ـ أم ديانا ـ محاولة أن تبث فيهما طمأنينة لم تكن هي تمتلكها على الاطلاق . وقد وعدتهما بأن أي مسعى ستقوم به لدى الحكومة لن يكون من أجل ابنتها وحدها وإنما من أجل الفريق كله ، وطلبت منهما أن تنقلا إليها أي معلومات تحصلان عليها عن المخطوفين . وكان ذلك ماحدث .

كانت مارتا لوبي تعيش مع ابنتيها ، وهما في الرابعة عشرة والحادية عشرة من عمرهما آنذاك ، وتعتمد في إعالتها على ابنها ريتشارد . وعندما ذهب مع فريق ديانا أخبرها أن الرحلة ستستغرق ثلاثة أيام ، ولهذا بدأ القلق يساورها بعد الأسبوع الأول . وهي تعتقد بأن ذلك ـ حسب قولها ـ كان حدساً مسبقاً ، ولكنها كانت تتصل في الواقع بالتلفزيون في كل وقت ، إلى أن اخبروها بأن شيئاً غريباً قد حدث . وبعد قليل من ذلك أُعلن عن اختطافهم . ومنذ ذلك الحين أبقت المذياع مفتوحاً طوال النهار ، بانتظار عودة ابنها ،

وكانت تتصل بالتلفزيون كلما أشار عليها قلبها بعمل ذلك . وكانت تقلقها فكرة كون ابنها أفقر المخطوفين ، وتقول : «ولكنني لم أكن قادرة على عمل أي شيء سوى البكاء والصلاة» . وقد اقنعتها نيديا كينتيرو بأن هناك أشياء أخرى كثيرة يمكنها عملها لتحريرهم . ودعتها إلى مهرجاناتها الوطنية والدينية ، وبثت فيها من روحها النضالية . وقد كانت ليليانا أيضاً تفكر بأن اورلاندو هو أفقر المخطوفين ، وقد أوقعها ذلك في معضلة : فقد يكون آخر من يجري إعدامه لأنه الأقل قيمة ، وقد يكون الأول لأن إعدامه سيثير التأثر نفسه في الرأي العام ولكن النتائج ستكون أخف وطأة بالنسبة للخاطفين . وقد أغرقتها هذه الأفكار في بكاء لا تستطيع مقاومته ، استمر طوال فترة الاختطاف . وقد قالت : «في كل ليلة ، بعد أن ينام الطفل ، كنت أجلس لأبكي على الشرفة وأنا أنظر إلى الباب لأراه عائداً . وبقيت على تلك الحال لياليَ ولياليَ إلى أن رأيته من جديد» .

* * *

في أواسط شهر تشرين الأول ، نقل الدكتور طربيه بالهاتف إلى هيرناندو سانتوس واحدة من رسائله الملغزة : «لدي بعض الصحف الجيّدة إذا كان يهمك موضوع الثيران . وإذا أنت رغبت سأرسلها إليك» . وأدرك هيرناندو أن الأمر له علاقة بأخبار جديدة مهمة عن المخطوفين . وقد كان يتعلق فعلاً بشريط كاسيت وصل إلى بيت الدكتور طربيه ، يحمل خاتم بريد مونتيريا ، وفيه دليل على وجود ديانا ورفاقها على قيد الحياة . وهو ما كانت الأسرة قد طالبت به بإلحاح منذ عدة أسابيع . كان الصوت المعروف جيداً يقول : *بابا ، من الصعب أن أبعث إليك رسالة في هذه الظروف ، ولكن بعد الالحاح في الطلب سمحوا لنا بذلك* . وكانت هناك جملة واحدة تلقي الضوء على اسلوب العمل مستقبلاً : *إننا نرى ونسمع الأخبار باستمرار* .

قرر الدكتور طربيه عرض الرسالة على رئيس الجمهورية ومحاولة الحصول

على مؤشر جديد . وقد استقبلهما غافيريا عند انتهاء عمله اليومي بالضبط ، في مكتبة المنزل الخاص ، وكان في حالة استرخاء وثرثرة قلما يقدم عليها . أغلق الباب ، وقدم الويسكي ، وسمح لنفسه ببعض المُسارّة السياسية . يبدو أن عملية استسلام المطلوبين قد تجمدت بسبب عناد الاكسترادي‌تابليين . والرئيس مستعد لتحريكها ببعض التوضيحات الحقوقية للمرسوم الأصلي . وقد عمل على ذلك طوال فترة بعد الظهر ، وهو واثق من التوصل إلى حلّ في تلك الليلة بالذات . ووعدهما بأنه سيقدم لهما الخبر الطيب في اليوم التالي .

رجعا إليه في اليوم التالي ، حسب الاتفاق ، فوجدا نفسيهما أمام رجل مختلف ، متشكك ومتجهم ، خاضا معه منذ الجملة الأولى حديثاً دون مستقبل . قال لهما غافيريا : « إنها لحظة حرجة جداً . لقد أردت مساعدتكما ، وقد فعلت ماهو ممكن ، ولكن جاءت اللحظة التي لم يعد فيها بإمكاني عمل شيء » . كان واضحاً أن هناك شيئاً جوهرياً قد تبدل في نفسه . وقد أدرك طربيه ذلك على الفور ، ولم تكن قد انقضت عشر دقائق عندما نهض عن المقعد بهدوء وقور ، وقال له دون أي ظل من الضغينة : « أيها الرئيس ، إنك تتصرف وفق مايمليه عليك الواجب ، ونحن نتصرف كأبوين . إنني أفهمك وأتوسل إليك ألا تفعل شيئاً يمكنه أن يسبب لك المشاكل كرئيس دولة » . ثم أنهى كلامه مشيراً إلى الكرسي الرئاسي :

- لو كنتُ أنا من يجلس هناك لتصرفت على هذا النحو .

نهض غافيريا بشحوب مؤثر وودعهما عند المصعد . ونزل معهما ضابط من مرافقي الرئيس وفتح لهما باب السيارة في فناء البيت الخاص . لم يقل أي منهما كلمة واحدة إلى أن خرجا إلى بداية الليل التشريني الماطر والكئيب . وكانت ضوضاء حركة المرور في الشارع تصلهما خافتة عبر زجاج السيارة المصفح .

زفر طربيه بعد تأمل طويل :

- ليس هناك مايمكن عمله في هذا الجانب . بين الليلة الماضية واليوم

حدث شيء لايستطيع قوله لنا .

تلك المقابلة الدراماتيكية مع الرئيس حسمت أمر ظهور دونيا نيديا كينتيرو في مقدمة المشهد . لقد كانت زوجة الرئيس السابق طربيه ايالا ، خالها ، وأنجبت منه أربعة أبناء ، أكبرهم ديانا . وقبل سبع سنوات من عملية الاختطاف ، أُلغي زواجها من الرئيس السابق بواسطة الكرسي الرسولي ، وتزوجت من زوجها الثاني ، البرلماني الليبرالي غوستافو بالكاثار مونثون . وبسبب خبرتها كسيدة أولى ، كانت تعرف الحدود الرسمية التي تقيد رئيساً سابقاً ، وخصوصاً في تعامله مع خلف له . وكانت نيديا قد قالت : «الشيء الوحيد الذي يجب عمله هو جعل الرئيس غافيريا يرى واجباته ومسؤولياته» . وكان هذا هو ماحاولت هي نفسها تحقيقه ، ولكن دون أوهام كبيرة .

كانت نشاطاتها العامة ، حتى قبل الاعلان رسمياً عن الاختطاف ، قد بلغت مستويات لاتصدق . فقد نظمت احتلالا لنشرات الأخبار الاذاعية والتلفزيونية في كل انحاء البلاد بواسطة جماعات من الاطفال كانوا يقرؤون إلتماساً لتحرير الرهائن . وفي يوم ١٩ تشرين الأول «يوم المصالحة الوطنية» تمكنت من إقامة صلوات في الساعة الثانية عشرة ظهراً في المدن والبلدات للابتهال من أجل الوئام بين الكولومبيين . وفي بوغوتا ، أقيمت الصلاة في ساحة بوليفار ، وجرت في الوقت نفسه مظاهرات سلام ترفع مناديل بيضاء في العديد من الاحياء ، وأضرمت شعلة ستبقى متأججة إلى أن يعود الرهائن سالمين معافين . وبمسعى منها أصبحت جميع نشرات الأخبار التلفزيونية تبدأ بثها بعرض صور جميع الرهائن ، وعدد الأيام التي مضت على احتجازهم ، وكانت ترفع صور من يتم تحريرهم . وبمبادرة منها أيضاً صارت تنطلق دعوة لتحرير الرهائن عند بدء مباريات كرة القدم في كل أرجاء البلاد . كما أن ملكة جمال البلاد لعام ١٩٩٠ ، ماريبيل غوتيريث ، بدأت خطاب الشكر بنداء من أجل إطلاق سراح المخطوفين .

كانت نيديا تحضر الاجتماعات العائلية لأسر المخطوفين الآخرين ،

وتستمع إلى المحامين ، وتقوم بمساع سرية من خلال «مؤسسة التضامن من أجل كولومبيا» التي ترأسها منذ عشرين سنة ، ولكنها كانت تشعر على الدوام بأنها تدور في حلقة مفرغة . لقد كان ذلك الوضع لايطاق بالنسبة لطبعها الحازم والحاد ، وحساسيتها المتبصرة . وكانت تتابع بلهفة مساعي الجميع إلى أن أدركت أنهم قد وصلوا إلى طريق مسدود . فليس بإمكان طربيه ولا هيرناندو سانتوس ولا أي شخص آخر رفيع المقام أن يضغط على الرئيس لكي يتفاوض مع الخاطفين . وبدا لها هذا اليقين بصورة سافرة ونهائية حين أخبرها الدكتور طربيه باخفاق زيارته الأخيرة للرئيس . عندئذ اتخذت القرار بالعمل بنفسها ، وفتحت جبهة ثانية دون كوابح للبحث عن أقصر السبل لتحرير أبنتها .

في تلك الأيام تلقت مكاتب «مؤسسة التضامن من أجل كولومبيا» في ميدلين اتصالاً من مجهول يقول فيه إن لديه أخباراً عن ديانا . وقال إن زميلاً قديماً له في مزرعة قريبة من ميدلين أسقط قصاصة ورق في سلة خضرواته يقول فيها إن ديانا موجودة هناك . وإن حراس المخطوفين يغرقون في البيرة حين يشاهدون مباراة بكرة القدم إلى أن يغيبوا عن الوعي ، ويفقدون أي قدرة للرد على أي عملية لإنقاذ الرهائن . ومن أجل مزيد من الضمانات يعرض ارسال رسم تخطيطي للبيت الريفي . لقد كانت رسالة مقنعة جداً إلى حد جعلت معه نيديا تسافر إلى ميدلين للرد عليها . وقد قالت فيما بعد : «طلبت من ناقل الخبر ألا يخبر أحداً بتلك المعلومات وبينت له الخطر الذي ستتعرض له ابنتي ، بل وحراسها أيضاً ، إذا ما حاول أحد القيام بعملية إنقاذ» .

ولكن خبر وجود ديانا في ميدلين أوحى لها بفكرة زيارة مارتا نيفيس وانخيليتا اوتشوا ، شقيقتي لويس وفابيو وخوان دافيد اوتشوا ، المتهمين بالاتجار بالمخدرات والإثراء غير المشروع ، والمعروفين بصداقتهم الشخصية مع بابلو اسكوبار . «لقد ذهبت إليهما وأنا راغبة بحرارة في أن تساعداني على الاتصال باسكوبار» ، هذا ماقالته نيديا بعد سنوات ، متذكرة تلك الأيام

المريرة . حدثتها الشقيقتان اوتشوا عن المظالم التي يتعرض لها أفراد أسرتهما ، وأظهرتا التعاطف معها ، ولكنهما قالتا إنهما لاتستطيعان عمل أي شيء حيال اسكوبار .

كانت مارتا نيفيس تعرف ما الذي يعنيه الاختطاف . فقد اختُطفت هي نفسها على يد حركة « م ـ ١٩ » في عام ١٩٨١ لطلب فدية كثيرة الأصفار من أسرتها . ولكن اسكوبار ردّ على ذلك بتشكيل جماعة همجية ـ الموت للخاطفين ـ وتمكن من تحريرها بعد ثلاثة شهور من الحرب الدامية ضد « م ـ ١٩ » . وكانت أختها انخليتا تعتبر نفسها كذلك ضحية العنف البوليسي ، وقد شاركت الشقيقتان في سرد أخبار مؤثرة عن ممارسات الشرطة التعسفية ، وانتهاكها حرمة البيوت ، وخرقها الذي لا حصر له لحقوق الانسان .

لم تفقد نيديا اندفاعها لمواصلة النضال . وأرادت منهما في نهاية المطاف أن توصلا رسالة منها إلى اسكوبار . وكانت قد بعثت له رسالة سابقة من خلال المحامي غيدو بارّا ، ولكنها لم تتلق رداً عليها . رفضت الشقيقتان اوتشوا بعث رسالة أخرى لأن ذلك ينطوي على المجازفة بأن يتهمهما اسكوبار فيما بعد بإلحاق ضرر به . ومع ذلك ، فقد تحسستا عند انتهاء الزيارة اندفاع نيديا التي رجعت إلى بوغوتا وهي موقنة من أنها قد تركت الباب موارباً في اتجاهين : أحدهما نحو تحرير ابنتها والآخر نحو الاستسلام السلمي للأخوة اوتشوا الثلاثة . ولهذا بدا لها أنه من المناسب اطلاع الرئيس شخصياً على مساعيها .

استقبلها الرئيس فوراً . وفتحت نيديا الموضوع مباشرة بالحديث عن شكاوى الأختين اتشوا من تعسف الشرطة . تركها الرئيس تتكلم ، واكتفى في أثناء ذلك بتوجيه بعض الأسئلة المتفرقة ، إنما المناسبة . وكان هدفه الواضح هو أن يضفي على الاتهامات الأهمية نفسها التي تضفيها عليها نيديا . أما بالنسبة لقضيتها الشخصية ، فكانت نيديا تريد ثلاثة أمور : أن يتم تحرير المخطوفين ، وأن يمسك الرئيس بزمام القضية للحيلولة دون القيام بعملية

انقاذ تكون لها عواقب وخيمة ، وأن يمدد المهلة الممنوحة لاستسلام الاكستراديتابليين . وكانت الضمانة الوحيدة التي قدمها إليها الرئيس هي أنه سواء، في حالة ديانا أو أي مخطوف آخر ، لن تجري أية محاولة للانقاذ بالقوة إلا بتفويض من أسر المخطوفين . وقال :

ـ هذه هي سياستنا .

ومع ذلك ، فقد تساءلت نيديا عما إذا كان الرئيس واثقاً تماماً من أن أحداً لن يحاول ذلك دون تفويض منه .

وقبل انقضاء شهر عادت نيديا إلى اللقاء ثانية مع الاختين أوتشوا في بيت صديقة مشتركة . وزارت كذلك إحدى شقيقات زوجة بابلو اسكوبار التي حدثتها بإسهاب عن أعمال التعسف التي كانت هي واخوتها ضحية لها . وقد حملتها نيديا رسالة إلى اسكوبار من ورقتين ونصف من الحجم الرسمي ، دون هوامش تقريباً ، وبخط منمنم وأسلوب مضبوط ومعبر توصلت إليه بعد مسودات كثيرة . وكان الهدف المرجو من الرسالة هو الوصول إلى قلب اسكوبار . فهي تبدأ بالقول إنها لا تتوجه إلى المقاتل القادر على أي شيء في سبيل الوصول إلى أهدافه ، وإنما إلى بابلو الإنسان ، «هذا الكائن الحساس الذي يعبد أمه ويقدم حياته من أجلها ، والذي له زوجة وأبناء صغار أبرياء وعزل يرغب في حمايتهم» . وتشير إلى أن اسكوبار قد لجأ إلى اختطاف الصحفيين لكي يلفت اهتمام الرأي العام إلى قضيته ، ولكنها ترى أنه قد حقق ذلك وأكثر منه . وفي المحصلة ـ تختتم الرسالة ـ «أَظهر نفسك بمظهر الكائن البشري الذي هو أنت ، وقم بعمل عظيم وانساني يتفهمه العالم بأسره . . أعد إلينا المخطوفين» .

بدت شقيقة زوجة اسكوبار متأثرة فعلاً وهي تقرأ الرسالة ، وقالت كما لو أنها تحدث نفسها في إحدى توقفاتها عن القراءة : «كوني على ثقة مطلقة من أن هذه الرسالة ستؤثر فيه كثيراً . إن كل ما تفعلينه يؤثر فيه ، وهذا يُدوّر لمصلحة ابنتك» . وأخيراً ، طوت الرسالة ثانية . ووضعتها في المغلف وأغلقته

هي نفسها ، ثم قالت لنيديا باخلاص لا يترك مجالاً للشك :

ـ إذهبي وأنت مطمئنة . ستصل الرسالة إلى بابلو في هذا اليوم بالذات .

رجعت نيديا تلك الليلة إلى بوغوتا مفعمة بالأمل بنتائج الرسالة ، وقررت أن تطلب من الرئيس مالم يجرؤ طربيه على طلبه : وقف عمليات الشرطة في أثناء التفاوض على إطلاق سراح الرهائن . وقد فعلت ذلك ، فقال لها الرئيس غافيريا دون ديباجات إنه لا يستطيع إصدار مثل هذا الأمر . وقد قال فيما بعد : لقد طرحنا السياسة القضائية كبديل . أما وقف العمليات فما كان سينفع في تحرير الرهائن ، وإنما في وقف مطاردتنا لاسكوبار » .

أحست نيديا بأنها في مواجهة رجل من حجر لا تهمه حياة ابنتها . وكان عليها أن تكبح موجة عارمة من الغضب بينما كان الرئيس يشرح لها أن موضوع قوى الأمن العام غير خاضع للتفاوض ، وأن هذه القوى لاتحتاج إلى طلب الإذن لممارسة عملها ، وأنه لايمكنه أن يصدر لها الأوامر بعدم العمل ضمن حدود القانون . وكانت الزيارة كارثة حقيقية .

إزاء عدم جدوى مساعيهما مع رئيس الجمهورية ، قرر طربيه وسانتوس طرق أبواب أخرى ، ولم يخطر ببالهما باب أفضل من *الأعيان* . كانت هذه الجماعة مؤلفة من الرئيسين السابقين ألفونسو لوبيث ميتشيلسين وميسايل باسترانا ، ومن البرلماني دييغو مونتانيا كوييار والكردينال ماريو ريفويو برافو ، أسقف بوغوتا . وقد اجتمع ذوو المخطوفين معهم في شهر تشرين الأول ، في بيت هيرناندو سانتوس . بدؤوا بالحديث عن لقاءاتهم بالرئيس غافيريا . وكان الشيء الوحيد الذي أثار اهتمام لوبيث ميتشيلسين من كل تلك الأحاديث هو إمكانية تعديل المرسوم بتوضيحات قانونية محددة لفتح أبواب جديدة لسياسة إخضاع المطلوبين . وقال : « يجب تركيب رأس لهذا القانون » . وأبدى باسترانا ما يشير إلى أنه من أنصار البحث عن صيغ للضغط على المطلوبين من أجل تسليم أنفسهم . ولكن بأية أسلحة ؟ وعندئذ قام هيرناندو سانتوس بتذكير مونتانيا كوييار بأنه قادر على تعبئة قوى رجال

حرب العصابات لمصلحتهم .

وبعد تبادل للرأي . طويل ودقيق المعلومات ، صاغ ميتشيلسين المحصلة الأولى بالقول : «فلنجار الاكستراديتابليين في لعبتهم» . وطرح بناء عى ذلك اصدار رسالة علنية عامة لاطلاع الجميع على أن *الأعيان* سيكونون الناطقين باسم أسر المخطوفين . وكان الاتفاق بالاجماع على تولي لوبيث ميتشيلسين صياغة الرسالة .

بعد يومين من ذلك كانت المسودة الأولى جاهزة ، وقد تليت في اجتماع جديد حضره غيدو بارّا مع محامٍ آخر من محامي اسكوبار . وقد ورد في تلك الوثيقة للمرة الأولى الطرح الذي يرى أنه يمكن اعتبار الإتجار بالمخدرات جناية جماعية ، ذات طبيعة Sui generis * ، مما يفتح طريقاً غير مطروق للمفاوضات . وقد قفز غيدو بارّا وهو يهتف مبهوراً :

ـ جناية Sui generis . هذه فكرة عبقرية!

وانطلاقاً من ذلك بدأ يصوغ المفهوم على طريقته باعتباره امتيازاً إلهياً على الحدود الغائمة مابين الجناية الجماعية والجناية السياسية ، مما يفسح المجال للحلم بأن يحصل الاكستراديتابليون على المعاملة السياسية نفسها التي تلقاها حركات حرب العصابات . بعد القراءة الأولى أضاف كل واحد لمسة منه . وأخيراً طلب أحد محاميي اسكوبار أن يسعى *الأعيان* للحصول على رسالة من الرئيس غافيريا يضمن فيها حياة اسكوبار بطريقة واضحة ودون التباس .

فقال هيرناندو سانتوس وقد أثار الطلب استغرابه :

ـ آسف ، ولكنني لن أحشر نفسي في أمر كهذا .

وقال طربيه :

ـ وأنا أقل حماسة بكثير لمثل هذا الطلب .

---

* Sui generis : باللاتينية في الأصل . والعبارة تعني : وحيدة من نوعها .

ورفض ميتشيلسين ماطرحه المحامي رفضاً قاطعاً . فطلب المحامي عندئذ أن يؤمنوا له مقابلة مع الرئيس ليعطيهم كلمته بضمان حياة اسكوبار . فقال لوبيث :

ـ هذا موضوع لايناقش هنا .

وقبل أن يجتمع *الأعيان* لصياغة مسودة بيانهم ، كان بابلو اسكوبار قد أطلع على أكثر نواياهم خفية . وهذه هي الطريقة الوحيدة لتفسير ارساله تعليمات متطرفة إلى غيدو بارّا في رسالة مستعجلة ، كتب إليه فيها : «إنني أخولك صلاحية البحث عن طريقة يدعوك بها *الأعيان* إلى تبادل للأفكار» . وأورد على الفور مجموعة من القرارات المتخذة من قبل الاكسترادي‌تابليين لاستباق أي مبادرة مختلفة .

كانت رسالة *الأعيان* قد أصبحت جاهزة خلال أربع وعشرين ساعة ، وكان فيها شيء جديد مهم بالمقارنة مع المساعي السابقة : «لقد توصلت مساعينا الحميدة إلى أبعاد جديدة لاتقتصر على إنقاذ عابر للرهائن ، بل للتوصل إلى سلام شامل لجميع الكولومبيين» . وكان ذلك تحديداً جديداً لا يمكن له إلا أن يزيد الآمال . وقد بدا الأمر جيداً للرئيس غافيريا ، ولكنه رأى أنه من المناسب توضيح الحدود الفاصلة لتفادي أي فهم خاطئ حول الموقف الرسمي . فأوعز إلى وزير العدل ليصدر تحذيراً يبين فيه أن سياسة الخضوع هي السياسة الحكومية الوحيدة بشأن استسلام الارهابيين .

أما اسكوبار فلم يعجبه سطر واحد من بيان *الأعيان* ، فما إن قرأه في الصحف يوم ١١ تشرين الأول ، حتى بعث إلى غيدو بارّا رداً حانقاً لكي يشيعه في صالونات بوغوتا . يقول فيه : «إن رسالة *الأعيان* أقرب إلى الاستهتار . إنهم يطلبون منا أن نطلق سراح الرهائن بسرعة لأن الحكومة تتأخر في دراسة وضعنا . أتعتقدون أننا سنسمح لهم بخداعنا مرة أخرى ؟» ويقول إن موقف الاكسترادي‌تابليين هو الموقف نفسه الذي ضمنوه رسالتهم الأولى . «وليس هناك ما يستدعي تبديله ، لأننا لم نحصل على رد إيجابي

على طلبنا في رسالتنا الأولى . فهذه صفقة وليست لعبة لمعرفة من هو الأكثر ذكاء، ومن هو الأكثر غباء » .

والحقيقة أن اسكوبار كان حينذاك يسبق *الأعيان* بعدة سنوات ضوئية . فقد كان يسعى عندئذ إلى أن تخصص الحكومة قطعة أرض خاصة وآمنة ـ معسكر سجن . كما كان يقول هو نفسه ـ مثل التي خُصصت لحركة « م ـ ١٩ » في أثناء إجراءات التسليم . وكان قد أرسل إلى غيدو بارّا قبل أكثر من أسبوع من ذلك رسالة مفصلة حول السجن الخاص الذي يريده لنفسه . ومنها يقول إن المكان المثالي ، على بعد اثني عشر كيلومتراً من ميدلين ، هو مزرعة من أملاكه مسجلة باسم مستعار ، ويمكن لبلدية انفيغادو أن تستأجرها لتهينها كسجن . ثم يقول : « وحيث أن ذلك يتطلب نفقات ، فان الاكستراديتابليين سيدفعون أجرة تتناسب مع التكاليف » . وينهي الرسالة بفقرة محيرة : « إنني أخبرك بكل هذا لأنني أرغب في أن تلتقي مع عمدة انفيغادو وتقول له إنك قادم من طرفي وتشرح له الفكرة . ولكنني أريدك أن تتحدث معه لكي يسحب ورقة علنية من وزير العدل بأن يقول للوزير إنه يعتقد بأن الاكستراديتابليين لم يرحبوا بالمرسوم ٢٠٤٧ لأنهم يخشون على أمنهم ، وإن بلدية انفيغادو ، مساهمة منها في توفير السلام لشعب كولومبيا ، مؤهلة لتنظيم سجن خاص يوفر الحماية والأمن لمن يسلمون أنفسهم . تحدث إليهما وجهاً لوجه وبوضوح لكي يتحدثا بدورهما مع غافيريا ويقترحا عليه المعسكر المذكور» . وقد كان الهدف المعلن في الرسالة هو اجبار وزير العدل على الرد علناً . « وأنا أعرف أن ذلك سيكون قنبلة » ، هذا ما تقوله رسالة اسكوبار . وتنتهي بأكبر قدر من البرود : « بهذا سنقودهم إلى مانريد » .

ومع ذلك ، فقد رفض الوزير العرض بالصيغة التي طرح فيها ، ووجد اسكوبار نفسه مضطراً إلى تخفيف لهجته في رسالة أخرى قدم فيها للمرة الأولى أكثر مما طالب به . وقد تعهد مقابل توفير المعسكر السجن ، بحل

النزاعات بين مختلف الكارتيلات والعصابات والزمر ، وضمان أن يسلم أكثر من مئة تاجر مخدرات تائب أنفسهم ، وشق الطريق الحاسم أخيراً من أجل استتباب السلام . ويقول : « لسنا نطالب بالعفو ، ولا بالحوار ولابأي شيء مما يقولون إنهم لايستطيعون تقديمه » . لقد كان عرضاً بسيطاً للاستسلام ، « طالما أن الجميع في هذه البلاد يطالبون بالحوار والتعامل السياسي » . بل إنه أبدى إزدراء حتى لما كان أعلى ما لديه : « أنا لن أواجه أي مشكلة في تسليمي إلى دولة أخرى ، لأنني أعرف أنهم إذا ما توصلوا إلى القبض عليّ حياً فسوف يقتلونني ، مثلما فعلوا بآخرين » .

وكان تكتيكه آنذاك يتمثل في قبض خدمات ضخمة مقابل إيصال بريد المخطوفين . فهو يقول في رسالة أخرى : « قل للسيد سانتوس إنه إذا أراد التأكد من وجود ابنه فرانثيسكو على قيد الحياة ، فلينشر أولا تقرير (اميركاس ووتش) ، ومقابلة مع مديره جوان ميندين ، وتقريراً عن المجازر وعمليات التعذيب والاختفاء في ميدلين » . ولكن هيرناندو سانتوس كان قد تعلم في ذلك الحين كيف يتحكم في الوضع . وصار يدرك أن ذلك الذهاب والاياب باقتراحات واقتراحات مضادة يسبب له استنزافاً كبيراً ، ولكنه يؤثر بالقدر نفسه على خصومه ومن بينهم غيدو بارّا الذي أصبح في نهاية شهر تشرين الأول في حالة عصبية يصعب عليه معها الصمود . وكان رد هيرناندو سانتوس إلى اسكوبار بأنه لن ينشر سطراً واحداً ولن يستقبل مبعوثه مالم يحصل على دليل قاطع بأن ابنه مايزال حياً . وقد أيده ألفونسو لوبيث ميتشيلسين بالتهديد باستقالة *الأعيان* .

وقد كان لذلك مفعوله . فبعد أسبوعين اتصل غيدو بارّا بهيرناندو سانتوس من إحدى استراحات البغالين . وقال له : « إنني قادم على الطريق العام مع زوجتي ، وسأكون في بيتك الساعة الحادية عشرة . إنني أحمل لك ألذ حلوى ، وليست لديك فكرة كيف استمتعتُ بما ستستمتع به حضرتك بعد قليل » . لقد ذهب هيرناندو بعيداً في تفكيره حين ظن بأنه سيأتيه بابنه

فرانثيسكو . ولكن ما جاءه به هو صوته فقط مسجلاً على ميني كاسيت . وقد احتاجوا لأكثر من ساعتين كي يسمعوه ، لأنه لم تكن لديهم آلة التسجيل المناسبة . وأخيراً اكتشف أحدهم أنه يمكنهم سماعه على المجيب الآلي في لهاتف .

لقد كان بامكان باتشو سانتوس أن يتفوق في مهن كثيرة ، باستثناء مهنة استاذ اللفظ والإلقاء . فقد كان يريد التحدث دائماً بسرعة أفكاره نفسها ، وكانت أفكاره تتدفق متعجلة ومتدافعة . ولكن المفاجأة في تلك الليلة أنه كان على عكس ذلك تماما . فقد تحدث ببطء ، بصوت متكلف وبناء متقن . وكانت هناك رسالتان في الواقع ـ واحدة للأسرة وأخرى للرئيس ـ سجلهما في الأسبوع السابق .

إن مكر الخاطفين بجعل باتشو يسجل بصوته عناوين الصحيفة كدليل على تاريخ تسجيل الرسالة ، كان خطأ لابد أن اسكوبار لم يغفره . ولكنه منح المحرر القضائي في صحيفة التيمبو ، لويس كانيون ، فرصة التألق في خبطة صحفية عظيمة حين أعلن قائلاً :

ـ إنهم يحتجزونه في بوغوتا .

وبالفعل ، فطبعة الصحيفة التي قرأها باتشو كانت تحتوي على عنوان نشر في اللحظة الأخيرة ، ولم يظهر إلا في الطبعة المحلية التي يقتصر توزيعها على المنطقة الشمالية من المدينة . لقد كانت تلك المعلومة بقيمة التبر ، وكان يمكن لها أن تكون حاسمة لوأن هيرناندو سانتوس لم يعارض القيام بعملية إنقاد مسلحة .

لقد كانت لحظة انبعاث بالنسبة إليه ، خصوصاً وأن مضمون الرسالة قدم له اليقين بأن ابنه الأسير موافق على أسلوبه في إدارة مشكلة الاختطاف . أضف إلى ذلك أن الأسرة كانت تعتقد دائماً بأن باتشو هو أكثر أخوته قابلية للعطب بسبب مزاجه الناري والمتقلب ، ولم يكن هناك من يتصور أنه مايزال بكامل قواه العقلية وبكل تلك السيطرة على نفسه بعد ستين يوماً من الأسر .

جمع هيرناندو الأسرة كلها في بيته وأسمعهم الرسالة المسجلة حتى الارهاق . رقصوا دون همّ ، وتكلموا بأصوات صارخة ليسمع بعضهم بعضاً وسط صخب الموسيقى ، وصفقوا طرباً عند بزوغ الفجر . وكان غيدو وحده هو الغارق في عذاباته . بكى . فدنا منه هيرناندو ليشجعه ، وتعرف على رائحة الخوف في العرق الذي يبلل قميصه .

قال له غيدو بارّا من بين دموعه :

ـ تذكّر أن من سيقتلني ليست الشرطة . سيقتلني بابلو اسكوبار لأنني أصبحت أعرف أكثر مما يجب .

لم تتأثر ماريا فيكتوريا بقوله . وبدا لها أن بارّا يريد التلاعب بعواطف هيرناندو ، وأنه يستغل ضعفه ليقدم له شيئاً من جانب لكي يحصل على شيء أكبر من الجانب الآخر . ولابد أن غيدو بارّا كان قد انتبه إلى عدم تأثرها في إحدى لحظات تلك الليلة ، لأنه قال لهيرناندو : «هذه المرأة مثل كتلة من جليد» .

كانت الأوضاع قد بلغت هذه النقطة في السابع من تشرين الثاني ، عندما اختطفوا ماروخا وبياتريث . وعندئذ مادت الأرض تحت أقدام *الأعيان* . ففي الثاني والعشرين من تشرين الثاني ـ ومثلما كان قد أعلن من قبل ـ طرح دييغو مونتانيا كوييار على زملائه *الأعيان* حلّ الجماعة ، فسلموا إلى رئيس الجمهورية في جلسة رسمية حصيلة استنتاجاتهم حول مطالب الاكسترادِيتابليين الجوهرية .

إذا كان الرئيس غافيريا يأمل في أن يؤدي مرسوم الخضوع إلى استسلام جماعي فوري لتجار المخدرات ، فلابد أنه قد أصيب بخيبة أمل ، لأن الأمر لم يكن كذلك . فردود فعل الصحافة ، والأوساط السياسية ، والحقوقيين البارزين ، وحتى بعض الطروحات القيمة لمحامي الاكستراديتابليين ، أجمعت كلها على أن المرسوم ٢٠٤٧ بحاجة إلى تعديل . فهو أولاً ، يترك المجال واسعاً أمام إمكانية أن يفسر كل قاضٍ على

طريقته أمر تسليم المطلوبين (إلى الولايات المتحدة) . والنقيصة الأخرى كانت تتمثل في أن الأدلة القاطعة ضد تجار المخدرات كانت في الخارج ، ولكن كل عناصر التعاون مع الولايات المتحدة كانت قد تأزمت ، وكانت المهلة الممنوحة للحصول على تلك الأدلة قصيرة جداً . وكان الحل ـ الذي لم يكن وارداً في المرسوم ـ هو في إطالة المهلة وفي أن تنقل إلى رئاسة الجمهورية مسألة التفاوض لإحضار الأدلة إلى البلاد .

لم يجد ألبيرتو بيياميثار كذلك في المرسوم الدعم الحاسم الذي كان ينتظره . وقد كانت محاوراته وتبادله الرأي مع سانتوس وطربيه واجتماعاته الأولى مع محامي بابلو اسكوبار قد أتاحت له تكوين فكرة شمولية عن الوضع . وقد كان انطباعه الأول هو أن مرسوم الخضوع ، الصائب إنما الناقص ، لايترك له إلا هامشاً ضيقاً جداً للعمل على إطلاق سراح مخطوفتيه . وفي أثناء ذلك كان الوقت يمضي دون أي خبر منهما ودون أدنى دليل على أنهما ماتزالان على قيد الحياة . وكانت فرصته الوحيدة هي رسالة بعثها من خلال غيدو بارّا ، يؤكد فيها لكلتيهما بأنه لن يقوم بأي عمل آخر سوى السعي لإطلاق سراحهما . وقد كتب لماروخا في تلك الرسالة : «أعرف أنك في وضع فظيع ، ولكن اطمئنني» .

الحقيقة هي أن بيياميثار كان في الغيوم . فقد كان قد طرق واستنفد كل الأبواب ، وكانت فرصته الوحيدة في شهر تشرين الأول الطويل وهي وعد رافائيل باردو له بأن الرئيس يفكر في إصدار مرسوم تكميلي وتوضيحي للمرسوم ٢٠٤٧ . وكان يقول له : «هذا المرسوم أصبح جاهزاً» . لقد كان رافائيل باردو يمر عليه في بيته مساء كل يوم تقريباً ويطلعه باستمرار على مساعيه ، ولكنه لم يكن هو نفسه واثقاً جداً من السبيل الذي سيسلكه . وكانت النتائج التي استخلصها من المحادثات البطيئة مع سانتوس وطربيه هي أن المفاوضات كانت متعرقلة . ولم يكن يثق بغيدو بارّا . فقد كان يعرفه منذ أيام طوافه في مجلس الشيوخ ، وكان يرى فيه انتهازياً وغامضاً . ولكنه كان

الورقة الوحيدة ، سواء أخيراً أم شراً ، المتاحة له ، وقد قرر أن يلعبها حتى النهاية . ولم تكن هناك أي ورقة أخرى ، وكان مرور الوقت يثقل عليه .

وبناء على طلبه ، حدد طربيه وسانتوس موعداً للقاء مع غيدو بارّا ، شريطة أن يحضره كذلك الدكتور سنتياغو أوربي ، وهو محامٍ آخر من محامي اسكوبار مشهور بجديته . بدأ غيدو بارّا الحديث بعباراته المعتادة عالية التحليق ، لكن بيياميثار أنزله إلى الأرض منذ اللحظة الأولى بحركة بارعة بالرداء* على الطريقة السانتانديرية ، وقال له :

ـ لا تأتِ لتحدثني بهذا البراز . فلندخل في صلب الموضوع . إنك تحول كل شيء إلى مخاضة وحل في تنقلك طالباً السفالات ، وهنا لا يوجد إلا شيء واحد : على هؤلاء المطلوبين ببساطة ، أن يسلموا أنفسهم ويعترفوا بارتكابهم جريمة ما يتم ادخالهم السجن على أساسها لمدة اثني عشر عاماً . هذا ما يقوله القانون وانتهى . ومقابل ذلك يستفيدون من تخفيض الأحكام وتُضمن حياتهم . وماسوى ذلك هو ترهات من عندك .

لم يجد غيدو بارّا بداً من مجاراته ، فقال له :

ـ انظر يا دكتور ، مايجري هنا هو أن الحكومة تقول إنها لن تسلمهم إلى الولايات المتحدة ، والجميع يرددون ذلك ، ولكن أين يرد ذلك واضحاً في المرسوم ؟

كان بيياميثار متفقاً معه على ذلك . فإذا كانت الحكومة تقول إنها لن تسلمهم ، لأن هذا هو توجه القانون ، فإن المهمة هي في اقناع الحكومة بتصحيح النواحي الغامضة . وما سوى ذلك ـ التفسيرات المختلفة للجناية Sui generis ، أو رفض الاعتراف بجريمة ، أو عدم أخلاقية الوشاية ـ ماهو إلا لهو بلاغي يمارسه غيدو بارّا . فقد كان واضحاً في تلك اللحظة أن المطلب

---

* « الحركة البارعة بالرداء » هي ترجمتنا لكلمة (Capotazo) وهي حركة في مصارعة الثيران يقوم بها المصارع بالرداء لتفادي الثور أو لجعله يقف جامداً في مكانه .

الحقيقي الحاسم للاكسترادیتابليين هو ـ مثلما يشير اسمهم بالذات ـ عدم تسليمهم (إلى الولايات المتحدة) . وقد بدا له أنه من غير المستحيل إضافة هذا التفصيل المحدد إلى المرسوم . ولكنه طلب من غيدو بارّا قبل ذلك الصراحة والدقة نفسيهما اللتين يطالب بهما الاكسترادیتابليون . فهو يريد أن يعرف أولا مدى الصلاحيات التي يملكها بارّا للتفاوض ، وثانياً ، كم من الوقت يجب أن يمضي بعد تعديل المرسوم من أجل إطلاق سراح الرهائن . وقد كان غيدو بارّا رسمياً بقوله :

ـ بعد أربع وعشرين ساعة سيكونون خارجاً .

فقال بيياميثار :

ـ جميعهم بالطبع .

ـ أجل جميعهم .

- ٥ -

بعد مضي شهر على اختطاف ماروخا وبياتريث ، كان نظام أسرهما غير المعقول قد تصدع . فلم يعد يتوجب عليهن أن يطلبن الإذن للنهوض ، وأصبحت كل واحدة منهن تسكب القهوة أو تبدل القناة التلفزيونية حين تشاء . بقي الحديث داخل الغرفة يدور همساً ، ولكن الحركات صارت أكثر عفوية . ولم تعد ماروخا مضطرة إلى خنق سعالها بالوسادة ، مع أنها واصلت اتخاذ بعض الاحتياطات في أدنى الحدود كيلا يُسمع صوتها خارج الغرفة . وبقيت وجبتا الغداء والعشاء على حالهما : الفاصولياء نفسها ، والعدس نفسه ، وبقايا اللحم المقدد نفسها مع حساء معلب عادي .

كان الحراس يتبادلون الحديث فيما بينهم بكثرة ودون أي احتياطات أخرى سوى الهمس . فهم يتحدثون عن الأخبار الدموية ، وعن المبالغ المالية التي كسبوها مقابل قنص رجال الشرطة في ليالي ميدلين ، وعن مآثرهم الذكورية ومآسيهم الغرامية . وكانت ماروخا قد توصلت إلى إقناعهم بأن التصرف الأكثر واقعية في حال وقوع عملية إنقاذ مسلحة هو أن يوفروا لهن الحماية حتى يضمنوا لأنفسهم على الأقل معاملة كريمة ومحاكمة رحيمة . وكان الحراس في أول الأمر يبدون غير مبالين بذلك ، فهم قدريون لا سبيل إلى إصلاحهم ، ولكن تكتيك تليينهم توصل إلى جعلهم يتوقفون عن تصويب أسلحتهم إلى الأسيرات وهن نائمات ، وإلى لف الأسلحة بقطعة قماش سميك

ووضعها وراء التلفزيون . وقد أدى هذا الارتباط المتبادل والمعاناة المشتركة في النهاية إلى فرض بعض المظاهر الإنسانية على العلاقات بين الحراس والأسيرات .

لم تكن ماروخا بطبيعتها ، تخفي شيئاً يمكن أن يسبب لها المرارة . فكانت تفرِّج عن نفسها بالشجار مع الحراس ، المخلوقين للقتال ، وتواجههم بتصميم يبعث على القشعريرة : «اقتلني» . وكانت في أحيان أخرى تفرِّج عن نفسها بالمواجهة مع مارينا ، لأن ملاطفتها للحراس كانت تثير حفيظة ماروخا ، وأوهامها المرعبة تخرجها عن طورها . فقد كانت ترفع نظرها أحياناً ، ودون أي سبب ، لتتفوه بتعليق محبط للعزيمة أو بتكهن مشؤوم . وقد قالت في إحدى المرات :

ـ وراء هذا الفناء يوجد مشغل لتصليح سيارات القتلة . وهم موجودون هناك ليلاً نهاراً ، مسلحون بالبنادق ، وجاهزون للمجيء لقتلنا .

لكن الصدام الأكثر خطورة بينهما جرى في مساء أحد الأيام عندما أطلقت مارينا شتائمها المعتادة ضد الصحفيين ، لأنهم لم يذكروها في برنامج تلفزيوني عن المخطوفين . وقالت :

ـ جميعهم أبناء عاهرة .

فواجهتها ماروخا وردت عليها بغضب :

ـ لا أسمح لك بقول هذا . عليك التحدث باحترام .

لم تقل مارينا شيئاً . وفيما بعد ، اعتذرت من ماروخا في إحدى لحظات الصفاء . والواقع أنها كانت تعيش في عالم خاص منفصل . فقد كانت في الرابعة والسبعين من عمرها تقريباً ، وكان لها فيما مضى جمال باهر ، وعينان سوداوان واسعتان ، وشعر فضي مازال يحتفظ ببريقه حتى في تلك المحنة . وكانت مجرد عظم وحسب . حين جاءت بياتريث وماروخا كان قد مضى عليها قرابة شهرين دون أن تتكلم مع أحد سوى حراسها ، وقد احتاجت لوقت وجهد كي تعتاد على وجودهما . كان الخوف قد ترك عليها آثاره :

ففقدت عشرين كيلو غراماً من وزنها ، وكانت معنوياتها في الحضيض . لقد كانت شبحاً .

تزوجت وهي شابة فتية من مُدلِّك معروف جيداً في عالم الرياضة ، له جسم ضخم وقلب كبير ، أحبها دون تحفظ وأنجبت منه أربع بنات وثلاثة أبناء . وكانت هي من يمسك بزمام كل شيء في بيتها ، وفي بعض البيوت الأخرى ، فقد وجدت نفسها مضطرة للاهتمام بمشاكل أسرة انتيوكية كبيرة العدد . فكانت مثل أم ثانية لجميع اخوتها ، سواء بسطوتها أو بسهرها عليهم ، ولكنها كانت تهتم كذلك بأي غريب يلامس قلبها .

وكانت ، بدافع استقلاليتها المنطلقة أكثر مما هو بدافع الحاجة ، تبيع سيارات وبوليصات تأمين على الحياة ، ويبدو أنها كانت مستعدة لبيع أي شيء لمجرد أنها كانت تريد الحصول على مال خاص بها لتنفقه . ومع ذلك ، فان من عرفوها عن قرب كانوا يتألمون لأن امرأة لها كل مزاياها الطبيعية كانت ترزح في الوقت نفسه تحت برج المصيبة . فقد أصيب زوجها بالعجز طوال نحو عشرين سنة أمضاها في تلقي العلاج النفسي ، ومات اثنان من اخوتها في حادث سير فظيع ، وقضى أخ ثالث لها نحبه في أزمة قلبية ، وسُحق آخر تحت عمود إشارة ضوئية في حادث غامض في الشارع ، واختفى آخر إلى الأبد بميوله التشردية .

لقد كان وضعها كمخطوفة غير قابل للحل . وهي نفسها كانت تشاطر الجميع الفكرة الشائعة بأنهم قد اختطفوها لتكون لديهم رهينة ذات وزن يستطيعون قتلها دون أن يحبطوا المفاوضات من أجل الاستسلام . ولكن واقع بقائها ستين يوماً في غرفة المحكوم عليهم بالاعدام ، ربما يكون قد شجعها على التفكير في أن جلاديها يلمحون إمكانية الحصول على فائدة ما مقابل حياتها .

ما كان يلفت الانتباه مع ذلك هو أنها ، حتى في أسوأ اللحظات ، كانت تقضي ساعات طويلة وهي مستغرقة في العناية الدقيقة بأظفار يديها وقدميه .

فقد كانت تبردها وتشذبها وتلمعها بطلاء ذي لون طبيعي ، فتبدو وكأنها أظفار إمرأة أصغر سناً . وكانت تولي اهتماماً مماثلاً لنزع شعر حاجبيها وساقيها . وقد صارت ماروخا وبياتريث تساعدانها بعد انقضاء فترة المشاحنات الأولى . وتعلمتا توجيهها والتحكم بها . فكانت تدخل في محادثات طويلة مع بياتريث عن أناس تحبهم أو تكرههم ، بوشوشات لا تنتهي تثير حفيظة الحراس . وكانت ماروخا تحاول مواساتها ، وتتألم هي وبياتريث لأنهما الوحيدتان اللتان تعرفان أنها على قيد الحياة ، فضلاً عن السجانين ، ولكنهما لاتستطيعان إخبار أحد بذاك .

أحد الأحداث القليلة المريحة للنفس في تلك الأيام كان المجيء المفاجئ للزعيم المقنَّع الذي زارهم في اليوم الأول . لقد جاء سعيداً متفائلاً بإمكانية الإفراج عنهما قبل التاسع من كانون الأول ، الموعد المنتظر لانتخابات الجمعية التأسيسية . وقد كان للخبر مغزى شديد الخصوصية بالنسبة إلى ماروخا ، فذلك اليوم هو عيد ميلادها ، وقد أحست بسعادة مبكرة وهي تفكر بأنها قد تحتفل بالمناسبة مع أسرتها . ولكن ذلك لم يكن إلا وهماً زائلاً : فبعد أسبوع من ذلك ، لم يكتف الزعيم نفسه بالقول لهما إنهما لن تخرجا في التاسع من كانون الأول ، بل وإن عملية الاختطاف ستطول : فهي لن تنتهي في أعياد الميلاد ولا في رأس السنة الجديدة . لقد كانت ضربة قاسية لكلتيهما . أصيبت ماروخا ببداية التهاب في الأوردة سبب لها آلاماً مبرحة في الساقين . وأصيبت بياتريث بأزمة اختناق وبنزيف في قرحتها المَعِديّة . وفي إحدى الليالي ، وكانت تتلوى من الألم ، توسلتْ إلى لامبارون ليخرق أنظمة الأسر ويسمح لها بالذهاب إلى الحمام في تلك الساعة . وقد سمح لها بذلك بعد تفكير طويل ، وبعد أن بيّن لها أنه يجازف بتعريض نفسه للخطر . ولكن ذهابها إلى الحمام لم يجدها نفعاً . واصلت نحيبها الخافت مثل كلب جريح ، وهي تشعر بأنها تموت ، إلى أن أشفق عليها لامبارون وحصل لها بمساعدة «الوكيل» على جرعة بوسكابينا .

على الرغم من الجهود التي بذلتها الرهينات حتى ذلك الحين ، فإنه لم يكن لديهن أية دلائل مؤكدة عن مكان وجودهن . ولكنهن من خلال خوف الحراس من أن يسمع الجيران أصواتهن ، ومن خلال الضجة والأصوات التي تصل إليهن من الخارج ، كن يفكرن في أنهن في قطاع مديني . ويمكن للديك المجنون الذي يصيح في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل أن يكون تأكيداً لتصورهن ذاك ، لأن الديكة الحبيسة في طوابق عالية تفقد عادة إحساسها بالوقت . وكثيراً ما كن يسمعن أصواتاً مختلفة تصرخ منادية من مكان قريب جداً الاسم نفسه : « رافانيل » . وكانت الطائرات قصيرة المدى تمر على ارتفاع منخفض وطائرات الهليكوبتر تحلق على مقربة منهن حتى انهن كن يشعرن بها فوق البيت تماما . وكانت مارينا تصر على روايتها التي لم تتأكد مطلقاً بأن ضابطاً كبيراً من الجيش يشرف على سير عملية الاختطاف . وقد كانت هذه الرواية في نظر ماروخا وبياتريث مجرد وهم آخر من أوهام مارينا ، ولكن كلما كانت تأتي طائرة الهليكوبتر ، كانت أنظمة الأسر العسكرية تستعيد صرامتها : فالنظام يسود البيت وكأنه ثكنة عسكرية ، ويُقفل الباب من الداخل بالرتاج ومن الخارج بقفل ؛ وينتشر الهمس وتكون الأسلحة مهيأة دائماً ، وتصبح وجبات الطعام أقل سوءاً .

جرى استبدال الحراس الأربعة الذين كانوا معهن بأربعة آخرين في أوائل شهر كانون الأول . وكان بين هؤلاء حارس مختلف وغريب الأطوار ، يبدو وكأنه خارج من أحد أفلام القسوة . كانوا يسمونه الغوريلا ، وكان يشبه *الغوريلا* حقاً : فهو ضخم الجسم ، له قوة مصارع وبشرة سوداء داكنة يغطيها شعر أجعد . وكان صوته جهورياً جداً لا يتمكن من السيطرة عليه للتكلم همساً ، ولم يكن هناك من يجرؤ على طلب ذلك منه . فقد كان واضحاً احساس الحراس الآخرين بالدونية أمامه . وبدلاً من البنطلونات القصيرة التي كان يلبسها جميع الحراس ، كان هو يلبس سروال جمباز ضيق . وكان يضع طاقية تغطي وجهه ويرتدي قميصاً قطنياً ضيقاً يُظهر صدره المكتمل وميدالية

الطفل الإلهي المعلقة في عنقه ، وذراعيه البديعين مع السوارين الجلديين البرازيليين في المعصمين لاجتذاب الفأل الطيب ، ويديه الضخمتين اللتين تبدو خطوط الحظ في راحتيهما باهتتي اللون وكأنها قد رُسمت بالحديد المحمى . وكانت الحجرة لا تكاد تتسع له ، وكلما تحرك فيها كان يخلف أثراً من الفوضى . لقد كانت زيارة مشؤومة بالنسبة للرهينات اللواتي تعلمن التحكم في الحراس السابقين . وخصوصاً بالنسبة لبياتريث التي كسبت كراهيته على الفور .

كانت السمة المميزة للحراس ، وللرهائن أيضاً ، في تلك الأيام هي الضجر . فكمقدمة لاحتفالات عيد الميلاد ، أقام أصحاب البيت صلاة تساعية بمساعدة كاهن صديق ، ساذج أو متواطئ . فصلوا ، وغنوا أغنيات الميلاد معاً ، ووزعوا حلوى على الأطفال ، ورفعوا أنخاباً من نبيذ التفاح الذي كان المشروب الرسمي للأسرة . وأخيراً ، رقوا البيت برشه بماء مبارك . وقد احتاجوا إلى كميات كبيرة من ذلك الماء اضطروا إلى جلبها في غالونات بترول . وعندما انصرف الكاهن ، دخلت المرأة إلى الغرفة ورشت التلفزيون والفراش والجدران بالماء . وقد فوجئت الرهينات الثلاث ولم يفهمن ما الذي تفعله . فكانت المرأة تقول لهن وهي ترش الماء بيدها : « إنه ماء مبارك . لكي لايصيبنا سوء » . وقد رسم الحراس إشارة الصليب وجثوا على ركبهم وتلقوا الرذاذ المطهر بورع ملائكي .

تلك الحماسة للصلوات والحفلات التي تميز الانتيوكيين لم تتوقف لحظة واحدة طوال شهر كانون الأول . ومع أن ماروخا قد اتخذت الاحتياطات حتى لا يعلم الخاطفون بأن التاسع من ذلك الشهر هو يوم عيد ميلادها : ثلاث وخمسون سنة من الروح ، ومع أن بياتريث قد عاهدتها على حفظ السر ، إلا أن السجانين علموا بذلك من خلال برنامج خاص في التلفزيون خصصه أبناء ماروخا لها في اليوم السابق .لم يخف الحراس تأثرهم وهم يشعرون بأنهم جزء من حميمية ذلك البرنامج بطريقة ما . فكان أحدهم يقول : « كم هو شاب

الدكتور بيياميثار يا دونيا ماروخا ، وكم هو أنيق ، وكم يحبك» . ويبدو أنهم كانوا يأملون في أن تعرّفهم ماروخا على بناتها ليخرجوا معهن . لقد كانت رؤية ذلك البرنامج في الأسر على أي حال أشبه بأن يكون المرء ميتاً ويشاهد الحياة من العالم الآخر دون أن يشارك فيها ودون أن يعلم الأحياء به . وفي اليوم التالي ، في الساعة الحادية عشرة صباحاً ، ودون أي إشعار مسبق ، دخل «الوكيل» وزوجته إلى الغرفة ومعهما زجاجة شمبانيا محلية ، وكؤوس للجميع ، وقالب حلوى بدا وكأنه مغطى بطبقة من معجون أسنان . هنأا ماروخا بتأثر عظيم وغنيا لها في كورال مع الحراس أغنية عيد ميلاد سعيد . وأكل الجميع وشربوا ، وتركوا ماروخا وسط صراع من المشاعر المتقاطعة .

* * *

استيقظ خوان بيتا يوم السادس والعشرين من تشرين الثاني على خبر أنه سيخرج طليقاً بسبب سوء حالته الصحية . لقد شله الرعب حين سمع الخبر ، ففي تلك الأيام بالذات كان يشعر بأن صحته قد أصبحت أفضل مما كانت عليه في أي وقت مضى ، وفكر في أن إخباره بذلك ليس إلا حيلة من أجل تسليم الجثة الأولى إلى الرأي العام . ولهذا ، حين جاء الحارس بعد ساعات وطلب منه أن يستعد للخروج إلى الحرية ، أصيب بنوبة هلع . وقد قال : «لقد كنت أفضل أن أموت على طريقتي ، ولكن إذا كان هذا هو قدري فما عليَّ إلا أن أتقبله» . أمروه بأن يحلق ذقنه ويرتدي ملابس نظيفة ، وقد فعل ذلك وهو موقن من أنه يرتدي الملابس لجنازته . أعطوه التعليمات التي عليه التقيد بها بعد اطلاق سراحه ، وخصوصاً طريقة تشويش المقابلات الصحفية بحيث لا تتوصل الشرطة إلى معلومات تتيح لها القيام بعمليات إنقاذ بالقوة . وبعد الظهيرة بقليل تجولوا به عدة جولات في السيارة في أحياء ميدلين المتشابكة ، وأطلقوه دون مراسم عند إحدى النواصي .

بعد تحريره ، نقلوا هيرو بوس وحيداً إلى بيت في حي جيد ، قبالة

مدرسة ايروبك للآنسات . وكان صاحب البيت خلاسي محب للحفلات والتبذير . وكانت امرأته التي في نحو الخامسة والثلاثين من عمرها ، والحامل في الشهر السابع ، تتزين منذ الفطور بمجوهرات غالية وظاهرة بمبالغة . وكان لهما طفل عمره سنوات قليلة يعيش مع جدته في بيت آخر ، وكانت غرفته تغص بشتى أنواع الألعاب الميكانيكية ، وفيها أقام هيرو بوس . وبسبب الطريقة التي تبنياه بها ، هيأ نفسه لحبس طويل .

لابد أن صاحبي البيت قد أمضيا وقتاً ممتعاً مع ذلك الألماني الذي يشبه شخصيات أفلام مارلين ديتريش ، والذي يبلغ طوله مترين وعرضه متر ، ومازال مراهقاً في الخمسين من عمره ، له مزاج ساخر يؤكده الخبراء ، ويتحدث باسبانية مقلية في الرطانة الكاريبية لزوجته كارمن سانتياغو . وكان قد تعرض لأخطار كبيرة في عمله كمراسل للصحافة والاذاعة الألمانية في أمريكا اللاتينية ، بما في ذلك عمله في ظل النظام العسكري في تشيلي ، حيث عاش إحدى لياليه مؤرقاً بتهديد الإعدام في الصباح . وهكذا ، فقد كان جلده مدبوغاً بما يكفي للاستمتاع بالجانب الفولكلوري من عملية اختطافه .

ولم يكن الأمر يحتمل أكثر من ذلك في بيت كان يصل إليه بين فترة وأخرى مبعوث يحمل خُرْجاً مملوءاً بأوراق البنكنوت من أجل النفقات ، ومع ذلك كان صاحبا البيت يعيشان في ضيق دائم . فقد كانا يبذران كل شيء على الحفلات وشراء الترهات ، فلا يبقى لديهما خلال أيام ما يشتريان به الطعام . وفي نهاية كل أسبوع كانا يقيمان حفلات أكل هائلة للأخوة وأبناء العمومة والأصدقاء الحميمين . ويحتل الأطفال في أثناء ذلك البيت كله . وقد تأثروا في المرة الأولى لرؤية المارد الألماني وتعاملوا معه وكأنه ممثل في المسلسلات التلفزيونية لكثرة ما كانوا قد شاهدوه في التلفزيون . وقد طلب منه ما لايقل عن ثلاثين شخصاً لا علاقة لهم بالاختطاف أن يهدي إليهم صورة ويوقّع لهم اوتوغرافات ، وأكلوا ورقصوا كذلك معه بوجوه سافرة في بيت المجانين ذاك الذي عاش فيه حتى نهاية أسره .

الديون التي تراكمت على صاحبي البيت أوصلتهما إلى الجنون ، واضطروا إلى رهن التلفزيون والبيتامكس والغراموفون ، وكل شيء من أجل إطعام المخطوف . ثم راحت مجوهرات المرأة تختفي من عنقها ، ومن ذراعيها ، ومن أذنها إلى أن لم يبق لديها واحدة منها . وفي فجر أحد الأيام أيقظ الرجل هيرو بوس ليقرضه نقوداً ، لأن آلام المخاض فاجأت زوجته وليس معه نقود يدفعها للمستشفى . وقد أقرضه هيرو بوس آخر خمسين ألف بيزو يحملها .

أطلقوا سراحه في الحادي عشر من كانون الأول ، بعد خمسة عشر يوماً من تحرير خوان بيتا . وقد اشتروا له زوجاً من الأحذية لم ينفعه ، لأنه ينتعل أحذية قياس سبعة وأربعين ، وكان أكبر قياس وجدوه بعد بحث طويل هو أربعة وأربعين . واشتروا له بنطالاً وقميصاً أصغر من قياسه المعتاد بنمرتين لأنه كان قد فقد سبعة عشر كيلوغراماً من وزنه . وأعادوا إليه معدات التصوير والحقيبة مع دفاتر ملاحظاته المخبأة في بطانتها ، ودفعوا له الخمسين ألف بيزو التي كان قد دفعها لعملية الولادة وخمسة عشر ألف بيزو آخرى كان قد أقرضهم إياها من قبل ليسددوا ديونهم في السوق . وعرضوا عليه مبالغ أكبر من ذلك بكثير ، ولكن الشيء الوحيد الذي طلبه هو أن يؤمنوا له مقابلة مع بابلو اسكوبار . ولكنهم لم يردوا على طلبه مطلقاً .

الزمرة التي رافقته في الأيام الأخيرة ، أخرجته من البيت في سيارة خصوصية . وبعد عدة جولات للتضليل في أرقى أحياء ميدلين ، تركوه وهو يحمل امتعته على ظهره على بعد نصف كوادرا من جريدة *الكولومبي* ، مع بيان يعترف فيه الاكستراديتابليون بنضاله للدفاع عن حقوق الإنسان في كولومبيا وعدد من بلدان أمريكا اللاتينية ، ويؤكدون قرارهم في الترحيب بسياسة الخضوع دون أي شروط أخرى سوى الضمانات القانونية بتوفير الأمان لهم ولأسرهم . وقد قدم هيرو بوس ، الصحفي حتى النهاية ، آلة تصويره إلى أول عابر سبيل وطلب منه أن يلتقط له صورة تحرره .

* * *

علمت ديانا واثوثينا بالخبر من المذياع ، وقال لهما حراسهما إنهما ستكونان التاليتين . ولكنهم كانوا قد قالوا لهما ذلك مرات كثيرة حتى انهما ما عادتا تصدقان . وتحسباً لاحتمال تحرير واحدة منهما فقط ، كتبت كل منهما رسالة إلى ذويها لترسلها مع التي ستخرج . ولكن شيئاً لم يحدث لهما منذ ذلك الحين ، ولم تعودا تعرفان أي شيء إلا بعد يومين ـ في فجر الثالث عشر من كانون الأول ـ حين استيقظت ديانا على همسات وتحركات غريبة في البيت . وخفقة الإحساس بإنهم سيطلقون سراحهما جعلتها تقفز من السرير . نبهت اثوثينا ، وقبل أن يخبرهما أحد بشيء بدأتا بإعداد أمتعتهما .

وقد روت ديانا في يومياتها ، وكذلك اثوثينا ، وقائع تلك اللحظات الدراماتيكية . كانت ديانا تستحم عندما أخبر أحد الحراس اثوثينا دون أية احتفالية ، بأنها ستغادر . هي وحدها . وقد روت اثوثينا ما جرى في الكتاب الذي نشرته بعد قليل من خروجها ببساطة تدعو إلى التقدير .

«ذهبت إلى الغرفة وارتديت ملابس المغادرة التي كانت جاهزة على الكرسي ، بينما كانت دونيا ديانا ماتزال في الحمام . وعندما خرجتْ ورأتني ، نظرتْ إليَ وقالت :

» ـ هل سنخرج يا اثو ؟

» كانت عيناها تلمعان وهي تنتظر الجواب بلهفة . ولم أعد أستطيع قول شيء . فأحنيت رأسي ، وتنفست بعمق وقلت :

» ـ لا . سأخرج وحدي .

» فقالت ديانا :

» ـ يا للسعادة . كنت أعرف أن الأمر سيكون على هذا النحو » .

وقد سجلت ديانا في يومياتها : «أحسست بوخزة في قلبي ، ولكنني قلت لها إنني سعيدة من أجلها ، وأن تذهب وهي مطمئنة» . سلمتْ إلى اثوثينا الرسالة الموجهة إلى نيديا والتي كانت قد كتبتها من قبل تحسباً لعدم إطلاق سراحها . وفي هذه الرسالة تطلب من أمها أن تحتفل بعيد الميلاد مع

أبنائها . وحيث أن اثوثينا أخذت تبكي ، فقد عانقتها ديانا لتهدئتها . ثم رافقتها بعد ذلك حتى السيارة ، وهناك تعانقتا مرة أخرى . نظرت اثوثينا إليها ثانية من وراء الزجاج ، ولوحت لها ديانا بيدها مودعة .

بعد ساعة من ذلك ، وبينما هي في السيارة التي كانت تقودها إلى مطار ميدلين لتطير من هناك إلى بوغوتا ، سمعت اثوثينا من المذياع صحفياً يسأل زوجها عما كان يفعله حين علم بخبر إطلاق سراحها . فرد زوجها بالحقيقة :

ـ كنت أكتب قصيدة لاثوثينا .

وهكذا تحقق حلم كليهما باجتماع شملهما يوم ١٦ كانون الثاني ليحتفلا معاً بالذكرى الرابعة لزواجهما .

* * *

أما ريتشارد واورلاندو من جهتهما ، فقد تعبا من النوم على الأرض في زنزانتهما العفنة ، وأقنعا حراسهما بأن ينقلاهما إلى غرفة أخرى . نقلوهما إلى غرفة النوم التي كانوا يسجنون فيها الخلاسي المقيد الذي ما عادا يعرفان أي خبر عنه . وقد اكتشفا بذعر أن فرشة السرير ملطخة ببقع كبيرة من الدم الحديث يمكن لها أن تكون من آثار تعذيب بطيء أو طعنات مدية مفاجئة .

لقد علما من التلفزيون والمذياع بأخبار تحرير الرهائن . وقال لهما حراسهما أن التاليين سيكونان هما . وفي اليوم السابع عشر من كانون الأول ، في ساعة مبكرة جداً ، دخل إلى حجرة أورلاندو مسؤول من الخاطفين كانا يعرفانه باسم «الختيار» ، وقد تبين فيما بعد أنه دون باتشو نفسه المسؤول عن ديانا . قال لأورلاندو :

- رتب نفسك بصورة لائقة ، لأنك ستذهب .

استطاع بالكاد أن يحلق ذقنه ويرتدي ملابسه ، ولم يُتحْ له الوقت ليخبر ريتشارد الذي كان في البيت نفسه . أعطوه بياناً للصحافة ، ووضعوا على عينيه نظارة لشخص ضعيف البصر جداً ، حتى لا يرى شيئاً ، وتجول به

«الختيار» وحده في عدد من أحياء ميدلين ، وبعد أن أعطاه خمسة آلاف بيزو ليستأجر بها تكسي ، أنزله في ساحة صغيرة لم يستطع تحديدها لأنه لا يعرف المدينة جيداً . كانت الساعة التاسعة من صباح يوم اثنين بارد وصافٍ . لم يستطع اورلاندو أن يصدق : فحتى تلك اللحظة ـ وبينما هو يشير إلى سيارات الأجرة المشغولة ـ كان مقتنعاً بأن قتله سيكون بالنسبة للخاطفين أقل كلفة من المجازفة بإطلاق سراحه حياً . ومن أول هاتف وجده أسرع للاتصال بزوجته .

كانت ليليانا حينئذ تحمم الطفل ، فأسرعت لترد على الهاتف ورغوة الصابون تغطي يديها . سمعت صوتاً غريباً وهادئاً :

ـ هذا أنا يا نحيلتي .

فظنت أن أحداً يريد السخرية منها ، وكانت على وشك أن تضع السماعة عندما تعرفت على الصوت ، فصرخت «آي ، رباه!» . وقد كان اورلاندو مستعجلاً جداً بحيث لم يقل لها إلا أنه مايزال في ميدلين وإنه سيرجع إلى بوغوتا هذا المساء . لم تجد ليليانا لحظة هدوء واحدة طول النهار لقلقها من عدم تعرفها على صوت زوجها . كان خوان بيتا قد اخبرها عندما أُطلق سراحه بأن زوجها أورلاندو قد تغير في الأسر إلى حد صار يصعب التعرف عليه ، ولكن لم يخطر ببالها مطلقاً أن يكون التغير قد طال حتى الصوت . وقد كان تأثرها أكبر في مساء ذلك اليوم في المطار ، حين شقت طريقها وسط حشد الصحفيين ولم تتعرف على الرجل الذي قبلها . ولكنه اورلاندو بعد أربعة شهور من الأَسر ، بديناً ، شاحباً ، وبشارب داكن وخشن . وكان كل منهما قد قرر بينه وبين نفسه البدء بانجاب ابن آخر فور لقائهما . «ولكن الناس كانوا كثيرين جداً حولنا ، فلم نستطع عمل ذلك في اليوم الأول» قالت ليليانا ذلك وهي تكاد تموت من الضحك . «ثم لم نستطع في اليوم التالي بسبب الرعب» . ولكنهما عوضا الساعات الضائعة على أحسن وجه : وبعد تسعة شهور من اليوم الثالث كان لديهما ابن ذكر آخر ، وفي السنة التالية توأم .

* * *

هبة عمليات التحرير ـ التي كانت هبة تفاؤل بالنسبة للرهائن الآخرين وذويهم ـ أقنعت باتشو سانتوس بأنه ليس هناك أي مؤشر عقلاني على وجود أي تقدم لمصلحته . كان يفكر في أن بابلو اسكوبار لم يفعل شيئاً سوى التخلص من الأوراق الصغرى لكي يضغط من أجل العفو وعدم التسليم إلى الولايات المتحدة في الجمعية التأسيسية ، وقد أبقى لنفسه ثلاثة أوراق آس : ابنة رئيس سابق ، وابن مدير أهم صحيفة في البلاد ، وشقيقة زوجة لويس كارلوس غالان . أما بياتريث ومارينا فقد أحستا بتجدد الأمل ، مع أن ماروخا فضلت عدم خداع نفسها بتفسيرات عابرة . كانت حماستها فاترة ، ثم انهارت تماماً مع اقتراب أعياد الميلاد . لقد كانت تكره الاحتفالات الاضطرارية . وهي لم تصنع في حياتها مذوداً أو شجرة عيد ميلاد على الاطلاق ، ولم تكن توزع الهدايا أو ترسل البطاقات ، ولم يكن هناك ما يسبب لها الغم أكثر من جوقات ليلة الميلاد الجنائزية حيث الجميع يغنون لأنهم حزينون أو يبكون لأنهم سعداء . أعدَّ «الوكيل» وزوجته عشاء فظيعاً . وقد بذلت بياتريث ومارينا جهودهما للمشاركة ، لكن ماروخا تناولت قرصي منوِّم ، واستيقظت دون احساس بالندم .

في يوم الاربعاء التالي كان برنامج الكسندرا التلفزيوني الأسبوعي مخصصاً للاحتفال بليلة الميلاد في بيت نيديا ، مع أسرة طربيه بكاملها حول الرئيس الأسبق ؛ ومع أقرباء لبياتريث وماروخا وألبيرتو بيياميثار . وقد كان الأطفال في مقدمة المشهد : ابنا ديانا وحفيد ماروخا ـ ابن الكسندرا ـ وقد بكت ماروخا تأثراً ، ففي المرة الأخيرة التي رأته فيها كان لايكاد يتقن التلعثم ببضع كلمات ، وهاهو ذا الآن قادر على التعبير عن نفسه . وقد أوضح بيياميثار في النهاية ، بصوت متقطع وبكثير من التفاصيل ، مسار ووضع مساعيه . ولخصت ماروخا البرنامج كله بجملة دقيقة : «لقد كان جميلاً ورهيباً» .

رسالة بيياميثار رفعت من معنويات مارينا مونتويا . فتأنسنت فجأة

وأظهرت كبر قلبها . أصبحت تستمع إلى الأخبار وتناقشها باهتمام كبير وبتوجه سياسي لم تعرفاه لديها . وفي تحليلها للمراسيم الصادرة توصلت إلى أن إمكانيات تحريرهن أصبحت أكبر من أي وقت مضى . وقد بدأت صحتها تتحسن إلى حد أنها صارت تتجاهل قوانين الحبس وتتحدث بصوتها الطبيعي ، الجميل وحسن الجرس .

كانت ليلة الحادي والثلاثين من كانون الأول هي ليلتهن العظيمة . فقد حملت إليهن داماريس الفطور مع خبر أنهم سيحتفلون برأس السنة الجديدة احتفالاً نظامياً ، وستكون هناك شمبانيا محلية وفخذ خنزير . وفكرت ماروخا في أنها ستكون الليلة الأكثر حزناً في حياتها ، فهي المرة الأولى التي تقضي فيها رأس السنة بعيداً عن أسرتها ، وقد غرقت في الكآبة . وبياتريث من جهتها انهارت لدى سماعها الخبر . لقد كانت معنويات الاثنتين تنفع لأي شيء ماعدا الحفلات . أما مارينا بالمقابل فقد تلقت الخبر بسعادة ، ولم تدخر حجة لبث الحماسة فيهما ، بل وفي الحراس أيضاً . وقد قالت لماروخا وبياتريث :

ـ علينا أن نكون منصفات . فهم بعيدون عن أسرهم ، وعلينا أن نجعلهم يقضون رأس السنة بأكثر مايمكن من المرح .

كانوا قد أعطوها ثلاثة قمصان نوم في ليلة اختطافها ، ولكنها لم تستخدم إلا واحداً منها ، وكانت تحتفظ بالاثنين الآخرين في كيس أمتعتها الشخصية . وعندما أحضروا ماروخا وبياتريث فيما بعد ، أصبحت الرهائن الثلاث يستخدمن بيجامات التعرق الرياضية كزي للسجن ، وكن يغسلنها كل خمسة عشر يوماً .

ولم يعد أحد يتذكر قمصان النوم حتى يوم الحادي والثلاثين من كانون الأول ، حين خطت مارينا خطوة أخرى في حماستها ، وقالت لهما : «سأقترح عليكما أمراً . لدي هنا ثلاثة قمصان نوم سنرتديها لكي يكون حظنا جيداً بقية السنة» . ثم سألت ماروخا :

ـ أخبريني يا ابنتي ، أي لون تريدين ؟

قالت ماروخا إن الأمر سيان لديها . وأكدت لها مارينا أن اللّون الأخضر يناسبها . وأعطت لبياتريث قميص النوم الوردي واحتفظت لنفسها بالأبيض . ثم أخرجت من حقيبتها علبة مساحيق تجميل واقترحت أن تجمل كل واحدة منهن الأخرى . «حتى نبدو جميلات هذه الليلة» ، مثلما قالت . وماروخا التي وجدت في التنكر بقميص النوم مايكفي ، رفضت استخدام المساحيق بمزاج معكر . وقالت :

أنا أكتفي بوضع قميص النوم . أما أن أطلي نفسي بالمساحيق مثل مجنونة . وأنا في هذا الوضع ؟ لا ، هذا غير ممكن يا مارينا .

فهزت مارينا كتفيها :

ـ أما أنا فسأفعل .

ولأنه لم تكن لديهن مرآة ، فقد قدمت أدوات التجميل إلى بياتريث وجلست على السرير لكي تجملها . فعلت بياتريث ذلك بدقة وبمزاج طيب ، على ضوء مصباح السرير الخافت : لمسة أحمر خفيف لاخفاء شحوب البشرة الدائم ، وأحمر غامق على الشفتين ، وظل على الجفون . وقد فوجئت بياتريث وماروخا بالجمال الذي مازال يمكن أن تظهر به تلك المرأة التي كانت مشهورة بفتنتها الشخصية وجمالها . واكتفت بياتريث بربط شعرها مثل ذيل الحصان وبمسحة التلميذة التي لها .

في تلك الليلة أظهرت مارينا ظرافتها الانتيوكية التي لا تُقاوَم . وقد حذا الحراس حذوها وقال كل واحد ما يشاء بالصوت الذي منحه إياه الله ، باستثناء «الوكيل» الذي بقي يتكلم همساً حتى وهو في ذروة سكره . وقد تشجع لامبارون بعد الكؤوس التي شربها ، وتجرأ على إهداء بياتريث زجاجة عطر رجالي ، وقال لهن : «لكي تتعطرن جيداً عندما ستتلقين ملايين المعانقات يوم إطلاق سراحكن» . لم يتغاض «الوكيل» الجلف عن ذلك وقال إنها هدية حب مقموع . فكان ذلك سبب رعب آخر أضيف إلى مخاوف بياتريث الكثيرة .

إضافة إلى المخطوفات الثلاث ، كان هناك «الوكيل» وزوجته ، والحراس الأربعة المناوبون . ولم تستطع بياتريث تحمل الغصة التي في حلقها . وأمضت ماروخا الوقت في الحنين والخجل ، ولكنها لم تستطع مع ذلك إخفاء تقديرها لمارينا الرائعة التي أعاد إليها المكياج شبابها ، وهي بقميص النوم الأبيض ، وشعرها الثلجي وصوتها اللذيذ . لم يكن من الممكن تصور أن تكون سعيدة ، ولكنها تمكنت من جعلهم يصدقون أنها كذلك .

كانت تمزح مع الحراس الذين كانوا يرفعون الأقنعة ليشربوا . وفي بعض الأحيان كان الحر يثقل عليهم ، فيطلبون من السجينات أن يدرن ظهورهن لكي يتنفسوا . وفي الساعة الثانية عشرة تماما ، عندما دوت صفارات المطافئ وأجراس الكنائس ، كان الجميع محشورين في الغرفة الضيقة ، يجلسون على السرير ، وعلى الفرشة ، ويتعرقون في حر الكور . وصدح النشيد الوطني في التلفزيون . عندئذ نهضت ماروخا ، وأمرت الجميع بالوقوف لينشدوا معها النشيد الوطني . ثم رفعت كأسها من نبيذ التفاح ليشربوا نخب سلام كولومبيا . وانتهت الحفلة بعد نصف ساعة من ذلك ، حين نفدت الزجاجات ، ولم يبق في الأطباق سوى عظم فخذ الخنزير وفضلات سلطة البطاطا .

قابلت الرهينات استبدال فريق الحراس بتنهيدة فرج ، فقد عاد الحراس الذين استقبلوهما في الليلة الأولى لاختطافهما ، وكانتا قد اعتادتا على التعامل معهم . وكانت ماروخا هي الأكثر انشراحاً ، لأن حالتها الصحية كانت تؤثر على معنوياتها وتبقيها مكتئبة . لقد كان الرعب يتحول في أول الأمر إلى آلام شاردة في كل أنحاء جسمها تجبرها على اتخاذ أوضاع لا إرادية . ولكن الآلام تحولت إلى أوجاع محددة فيما بعد بفعل النظام غير الانساني الذي فرضه الحراس . ففي أوائل شهر كانون الأول منعوها من الخروج إلى الحمام يوماً كاملاً كعقاب لها على تمردها ، وعندما سمحوا لها بذلك لم يكن بإمكانها عمل أي شيء من حاجاتها الجسدية . وكانت تلك بداية التهاب مزمن في المثانة ، أصبح فيما بعد نزيفاً استمر حتى نهاية أسرها .

وماريِنا التي كانت قد تعلمت من زوجها ممارسة التدليك للرياضيين ، بذلت جهودها لإصلاح الأمور بقواها الضئيلة . وكانت ماتزال لديها بقايا من حماستها في رأس السنة . فكانت تحتفظ بالتفاؤل ، وتروي الطرائف : لقد كانت حية . وقد عاد إليها الأمل والسعادة حين ورد اسمها وصورتها في حملة تلفزيونية لمصلحة المخطوفين . فقد استعادت احساسها بذاتها ، وبأنها موجودة . لقد تواصل ظهورها بصورة دائمة في الفترة الأولى من الحملة ، إلى أن اختفت يوماً دون أي تفسير . ولم يكن لدى ماروخا ولا بياتريث قسوة قلب كافية ليقلن لها بأنه ربما يكون اسمها قد شطب من القائمة لأن أحداً لم يكن يعتقد بأنها مازالت على قيد الحياة .

لقد كان تاريخ الحادي والثلاثين من كانون الأول يوماً مهماً بالنسبة إلى بياتريث ، لأنها كانت قد حددته كموعد أقصى للإفراج عنها . وقد حطمتها خيبة الأمل إلى حد لم تعد معه زميلتاها في السجن تعرفان ما الذي يمكنهما عمله من أجلها . وجاء وقت لم تعد فيه ماروخا قادرة على النظر إليها لأنها كانت تفقد السيطرة على نفسها وتنفجر في البكاء . فأصبحت كل منهما تتجاهل الأخرى في حيز لا تزيد مساحته كثيراً عن مساحة حمّام . وصار الوضع لايطاق .

أطول تسلية كانت تمارسها الرهينات طوال الساعات اللانهائية التي تلي الحمام ، هي التدليك البطيء لسيقانهن بمرهم مرطب كان السجانون يوفرونه لهن بكميات كافية للحيلولة دون اصابتهن بالجنون . وفي أحد الأيام لاحظت بياتريث أن المرهم آخذ بالنفاد ، فسألت ماروخا :

- وما الذي سنفعله عندما ينفد المرهم ؟

فردت عليها ماروخا بنبرة استياء :

- نطلب المزيد . ثم أضافت بفظاظة أشد : - وإلا فإننا سنرى . أليس صحيحاً ؟

فصرخت بها بياتريث في انفجار غضب مفاجئ :

ـ لا تردي علي بهذه الطريقة . أنت تعرفين أنني هنا بسببك!

لقد كان الانفجار الذي لا مفر منه . وفي لحظة واحدة أفضت بكل ما اختزنته طوال نهارات التوتر المكبوح وليالي الرعب . والمفاجئ في الأمر هو أن ذلك لم يحدث من قبل وبسخط أكبر . فقد كانت بياتريث تبقي نفسها على هامش كل شيء ، تعيش مكبوحة ، وتبتلع الضغائن دون أن تتذوقها . وكان أقل ما قد يحدث خطورة بالطبع هو أن تأتي عبارة عادية تقال دون قصد لتكشف ، عاجلاً أو آجلاً ، كل العدوانية المكبوتة في داخلها بفعل الرعب . ومع ذلك ، فإن الحارس المناوب لم يفهم الأمر على هذا النحو ، وحيال خشيته من وقوع مشادة كبيرة ، هددهما بسجن بياتريث وماروخا في غرفتين منفصلتين .

استولى الذعر على كلتيهما ، فالخوف من الاعتداءات الجنسية كان ماثلاً على الدوام . لقد كانتا مقتنعتين بأنهما طالما بقيتا معاً فسيكون من الصعب على الحراس الإقدام على محاولة اغتصابهما ، ولهذا فإن فكرة الفصل بينهما كانت مرهوبة أكثر من أي شيء آخر . ومن جهة أخرى ، كان الحراس يناوبون اثنين اثنين ، ولم يكن الحارسان المناوبان متماثلين في الأهواء ، ويبدو أن كلاً منهما كان يراقب الآخر كجزء احتياطي من نظامهم الداخلي لتفادي حوادث خطيرة مع الرهائن .

ولكن قمع الحراس كان يخلق أجواء وبيلة في الغرفة . فمن كانوا يقومون بالحراسة في شهر كانون الأول أحضروا جهاز بيتامكس وكانوا يعرضون أفلام عنف تضم شحنة قوية من الجنس ، ويأتون بين الحين والآخر بأفلام بورنوغرافية . فكانت الحجرة تُشبع للحظات بتوتر لا يطاق . وحين كانت الرهينات يذهبن إلى الحمام ، كان يتوجب عليهن عدم اغلاق الباب تماماً ، وقد فاجأن ، في أكثر من مناسبة ، أحد الحراس وهو يتلصلص عليهن . وكان أحدهم يصر على تثبيت الباب بيده حتى لا ينغلق تماما بينما هن في الحمام ، وكاد أن يفقد أصابعه حين أغلقت بياتريث ـ عمداً ـ الباب بقوة . وكان من

المشاهد المؤذية الأخرى مجيء حارسين شاذين جنسياً ضمن فريق الحراسة الثاني ، وكانا يبقيان في حالة استثارة دائمة بمداعباتهما الخبيثة . كما أن مراقبة لامبارون المفرطة لأدنى حركة تقوم بها بياتريث ، وأهداءه إليها زجاجة العطر ، وتلميح «الوكيل» في ليلة عيد الميلاد ، كلها كانت أموراً تزيد من قلقهن . وكانت الحكايات التي يتبادلها الحراس فيما بينهم عن اغتصابهم لنساء مجهولات ، وعن ممارساتهم الجنسية الشاذة ، وتلذذهم السادي ، تحدث في الجو خلخلة مخيفة .

بناء على طلب ماروخا ومارينا ، أحضر «الوكيل» طبيباً ليكشف على بياتريث ، في الثاني عشر من شهر كانون الثاني ، قبيل منتصف الليل . كان رجلاً شاباً ، يرتدي ملابس جيدة وأفضل منها تهذبه ، وكان يضع قناعاً من حرير أصفر يتناسب مع ملابسه الأنيقة . من الصعب الإيمان بجدية طبيب مقنَّع ، ولكن ذلك الطبيب أثبت منذ البداية أنه يعرف عمله جيداً . لقد كان فيه نوع من الأمان الذي يبعث على الطمأنينة . وقد أحضر معه حقيبة من جلد فاخر ، كبيرة مثل حقائب السفر ، فيها سمّاعة طبية ، ومقياس للضغط وجهاز لتخطيط القلب يعمل بالبطارية ، ومخبر نقال لإجراء التحاليل الطبية في البيوت وأدوات أخرى لحالات الطوارئ . فحص الرهينات الثلاث بدقة وعمق ، وأجرى لهن تحاليل بول ودم في مخبره النقال .

وبينما كان يفحص ماروخا ، قال لها خفية : «أشعر أنني أكثر الناس خجلاً في العالم لأني مضطر لأن أرى حضرتك وأنت في هذا الوضع . أريد أن أقول لك أنه جيء بي إلى هنا بالقوة . لقد كنت صديقاً ونصيراً للدكتور لويس كارلوس غالان ، وأدليت بصوتي له في الانتخابات . أنت لا تستحقين مثل هذه المعاناة ، ولكن حاولي أن تتجاوزيها . الهدوء مفيد جداً لصحتك» . قدرت ماروخا عالياً توضيحاته ، ولكنها لم تستطع تجاوز استغرابها من مرونته الأخلاقية . وقد كرر بعد ذلك الخطاب نفسه على بياتريث .

التشخيص أظهر أن كلتيهما تعانيان من إجهاد شديد وبداية سوء

تغذية ، ولهذا أمر بتحسين وموازنة الوجبات . وقد وجد لدى ماروخا مشاكل في الدورة الدموية والتهاباً في المثانة ، ووصف لها علاجاً يرتكز إلى الفاستون ، ومدر للبول وأقراص مهدئة . ووصف لبياتريث دواءً مهدئاً لتسكين آلام القرحة المعدية . أما مارينا ـ والتي كان قد عادها من قبل ـ فاكتفى بأن قدم لها نصائح لكي تهتم بصحتها ، ولكنه لم يلق لديها استجابة كبيرة . وأمر النساء الثلاث بأن يمشين بخطوات سريعة لمدة ساعة على الأقل يومياً .

منذ ذلك الحين قدموا لكل واحدة منهن علبة أقراص مهدئة فيها عشرين حبة لكي يتناولن واحدة في الصباح ، وأخرى في الظهيرة ، وثالثة قبل النوم . وفي حالة الضرورة القصوى يمكنهن استبدال تلك الحبوب بأقراص من دواء منوِّم يتيح لهن الهروب من أهوال السجن الكثيرة . فربع حبة منه تكفي لفقدان الوعي قبل العدّ حتى العدد أربعة .

منذ الساعة الواحدة من فجر ذلك اليوم بدأن يمشين في الفناء المظلم بمرافقة الحراس المذعورين وتحت حدقة رشاشاتهم منزوعة الأمان . لقد أُصبن بالدوار مع الجولة الأولى ، وخصوصاً ماروخا التي اضطرت إلى الاستناد إلى الجدران حتى لا تقع أرضاً . وبمساعدة الحراس ، وأحياناً بمساعدة داماريس ، انتهى بهن الأمر إلى الاعتياد على المشي . وبعد أسبوعين أصبح بإمكان ماروخا الدوران في الفناء ألف مرة عداً ؛ أي ما يساوي كيلومترين اثنين . تحسنت حالتهن المعنوية على أثر ذلك ، وتحسن معها الانسجام المنزلي فيما بينهن .

كان الفناء هو المكان الوحيد الذي تعرفن عليه في البيت فضلاً عن الغرفة . وقد كن يمارسن المشي فيه والظلام مخيم ، ولكنهن في الليالي المنيرة كن يتمكن من رؤية حوض غسيل كبير شبه مهدم ، وملابس منشورة لتجف على أسلاك ، وركام صناديق مكسرة وامتعة عتيقة خارج الاستخدام . وفوق مظلة حوض الغسيل كان هناك طابق ثانٍ له نافذة مغلقة وزجاج مغبر

تغطيه ستائر من ورق الجرائد . وكانت السجينات يعتقدن أن الحراس ينامون هناك بعد انتهاء نوبات حراستهم . وكان ثمة باب باتجاه المطبخ ، وباب آخر باتجاه غرفة المخطوفات ، وبوابة كبيرة من ألواح خشبية لا تصل إلى الأرض . وقد كانت تلك هي بوابة الخروج إلى العالم . وقد لاحظن فيما بعد أنها تؤدي إلى مرج هادئ ترتع فيه خراف وديعة ودجاجات متفرقة . وكان يبدو أنه من السهل فتح تلك البوابة والهرب ، ولكن كان يحرسها كلب حراسة ألماني لايمكن رشوته . ومع ذلك ، فقد تمكنت ماروخا من مصادقته إلى حد أنه لم يعد ينبح حين تدنو منه لتداعبه .

* * *

بقيت ديانا على انفراد مع نفسها بعد أن أطلقوا سراح اثوثينا . فكانت تشاهد التلفزيون ، وتسمع المذياع ، وتقرأ الصحف أحياناً ، وباهتمام أكبر من أي وقت آخر ، ولكن معرفة الأخبار دون أن يكون هناك من تناقشها معه كان أسوأ من عدم معرفتها . وبدت لها معاملة حراسها جيدة ، وكانت تعترف بالجهد الذي يبذلونه لإرضائها . فقد كتبت في يومياتها : «لست أرغب ، وليس من السهل عليَّ ، أن أصف ما أشعر به في كل دقيقة : الألم ، والغم ، وأيام الرعب التي أمضيتها» . لقد كانت تخشى على حياتها بالفعل ، وخصوصاً من عملية مسلحة لإنقاذها . واختُصر خبر تحريرها إلى جملة مخادعة : «عما قريب» . وكانت ترعبها فكرة أن تكون تلك الوعود مجرد تكتيك لا نهائي بانتظار التئام الجمعية التأسيسية واتخاذها قرارات محددة حول تسليم المطلوبين إلى دولة أجنبية وحول العفو عنهم . ودون باتشو الذي كان يبقى معها ساعات طويلة ، يناقش ، ويطلعها على الأوضاع بصورة جيدة ، أصبحت زياراته أكثر تباعداً . ولم يعودوا يأتونها بالصحف دون أي تفسير لذلك . واكتسبت الأخبار ، بما فيها أخبار التلفزيون ، إيقاع البلاد المشلولة بنزوح رأس السنة .

كانوا قد شغلوها طوال شهر بالوعد بأنها ستقابل بابلو اسكوبار شخصياً . وقد تدربت على موقفها ، وحججها ، ونبرة صوتها أمامه . وكانت واثقة من أنها ستكون قادرة على فتح مفاوضات معه . ولكن التأخر الأبدي قادها إلى نهايات من التشاؤوم لايمكن تصورها .

في أثناء ذلك الرعب ، كانت الصورة المهيمنة على تفكيرها هي صورة أمها التي ربما تكون قد ورثت عنها مزاجها العاطفي ، وإيمانها الديني الراسخ والحلم المنزلق بالسعادة . وقد كانت لديهما القدرة على التواصل المتبادل التي تكشفت في شهور الاختطاف القاتمة عن معجزة تبصُّرية . فكل كلمة من نيديا في الاذاعة أو التلفزيون ، وكل حركة أو اشارة عابرة منها كانت تنقل إلى ديانا رسالة متخيلة في ظلمة الأسر . وقد كتبت تقول : «لقد كنت أشعر دائماً بأنها ملاكي الحارس» . وكانت واثقة وسط كل تلك الاحباطات من أن النجاح الأخير سيكون لورع أمها وقوتها . وقد شجعها ذلك اليقين على الإيمان بوهم أنها ستحرر في ليلة عيد الميلاد .

وقد أبقاها هذا الوهم بدون استقرار خلال الحفلة التي أقامها لها أصحاب البيت في الليلة السابقة لعيد الميلاد ، وكان فيها شواء على شبكة حديدية ، وموسيقى سلسا ، وخمر ، ومفرقعات وبالونات ملونة . وقد فسرت ديانا ذلك كله على أنه حفلة وداع . بل وصل بها الأمر إلى أبعد من ذلك : فقد تركت حقيبتها جاهزة فوق السرير ، وكانت قد أعدتها منذ شهر تشرين الثاني حتى لا تضيع الوقت حين يأتون لاطلاق سراحها . كانت الليلة جليدية ، وكانت الرياح تعوي بين الأشجار مثل قطيع من الذئاب ، ولكنها فسرت ذلك على أنه فأل بأزمنة أفضل . وبينما كانوا يوزعون الهدايا على الأطفال فكرت في طفليها ، ولكنها عزّت نفسها بالأمل بأن تكون معهم في الليلة التالية . وقد أصبح الحلم أبعد منالاً عندما أهدى إليها سجانوها سترة جلدية مبطنة من الداخل ، وفسرت ذلك بأنهم ربما اختاروا هذه السترة عن قصد لكي تستطيع تحمل العاصفة . كانت واثقة من أن أمها قد انتظرتها على العشاء مثل كل

سنة ، وأنها قد علقت اكليل نبات الدبق على الباب وعليه لوحة من أجلها تقول : *أهلاً وسهلاً* . وكان ذلك هو ماحدث بالفعل . وبقيت ديانا واثقة جداً من تحررها . فانتظرت إلى مابعد انطفاء آخر فتات العيد في الأفق وأشرق عليها صباح يوم جديد من الشكوك .

في يوم الاربعاء التالي كانت تجلس وحيدة قبالة التلفزيون تمسح القنوات ، عندما تعرفت على الشاشة فجأة على ابن الكسندا اوربي الصغير . لقد كان ذلك هو برنامج إنفوكي المخصص لعيد الميلاد . وقد كانت مفاجأتها أكبر عندما اكتشفت أن تلك هي حفلة ليلة الميلاد التي طلبت من أمها اقامتها في الرسالة التي بعثتها مع اثيوثينا . كانت هناك أسرة ماروخا وبياتريث ، وأسرة طربيه بكاملها : طفلا ديانا ، واخواتها ، وأبوها في الوسط ، ضخماً وحزيناً . وقد قالت نيديا : «لم نكن ننوي الاحتفال ، ولكنني قررت مع ذلك تنفيذ رغبة ديانا فنصبت في ساعة واحدة شجرة عيد الميلاد ومذوداً في مدخنة المدفأة» . وبالرغم من نية الجميع في عدم ترك أي ذكرى حزينة لدى المخطوفين ، فقد كانت الحفلة أقرب إلى مأتم حدادي منها إلى احتفال . ولكن نيديا كانت واثقة من أن ديانا ستتحرر في تلك الليلة ، وقد علقت لها على الباب الخارجي الزينة الخاصة بعيد الميلاد مع اللوحة المذهبة : *أهلاً وسهلاً* . وكتبت ديانا في مذكراتها : «إنني اعترف بألمي لأني لم أستطع الذهاب في ذلك اليوم لأكون مع الجميع . ولكنني تحمست كثيراً ، وأحسست بأنني قريبة منهم جميعاً ، وسعدت لرؤيتهم مجتمعين» . لقد فتنها نضج ابنتها ماريا كارولينا ، وأقلقها انزواء ميغيليتو الصغير ، وتذكرت بذعر أنه لم يعمَّد بعد ؛ وأحزنها حزن أبيها وتأثرت من الأعماق لحال أمها التي وضعت في المذود هدية خاصة لها وعلقت تحية الترحيب بها على الباب .

وبدلاً من أن يستولي اليأس على ديانا لخيبة أملها بعيد الميلاد ، كان رد فعلها تمرداً ضد الحكومة . لقد كانت متحمسة تقريباً في حينه للمرسوم ٢٠٤٧ الذي استندت إليه أوهام شهر تشرين الثاني . وكانت تبعث فيها

الحماسة مساعي غيدو بارًا ، وتحركات *الأعيان* ، والآمال المعقودة على الجمعية التأسيسية ، وإمكانيات ضبط سياسة الخضوع . ولكن احباط عيد الميلاد أطاح بحواجز تفهمها . فصارت تتساءل مستنكرة لماذا لم تخطر للحكومة أي إمكانية للحوار لا تكون محكومة بضغط المخطوفين المطلق . وقد أوضحت تماماً أنها كانت تعي على الدوام صعوبة العمل في ظل الابتزاز ، وكتبت تقول : « إنني من سلالة طربيه في هذا المجال ، ولكنني أعتقد أن الأمور قد سارت بالمقلوب مع مرور الوقت » . لم تكن قادرة على فهم سلبية الحكومة حيال ماكانت ترى فيه استهزاءً من جانب الخاطفين . ولم تكن تفهم سبب عدم تهديدهم بقوة أكبر لكي يسلموا أنفسهم ، طالما تم تحديد سياسة لذلك ، وجرت تلبية بعض طلباتهم المعقولة . وكتبت في يومياتها : « طالما لم يتم الضغط عليهم ، سيشعرون براحة أكبر في استغلال أقصى ما يمكنهم من الوقت ، لأنهم يعرفون بأنهم يملكون في يدهم أهم سلاح للضغط » . وبدا لها أن وساطات المساعي الحميدة قد أخذت تتحول إلى لعبة شطرنج يحرك فيها كل طرف أحجاره ليرى من الذي سيتوصل إلى « كش مات » . وتتساءل : « ولكن ، أي حجر في هذه اللعبة أنا ؟ . وترد على التساؤل دون تهرب : « إنني أفكر دائماً بأننا مجرد بيادق » . وعن جماعة *الأعيان* ـ المتوفاة ـ قالت مطلقة عليها رصاصة الرحمة : « لقد بدؤوا بعمل انساني مشرف ، وانتهوا إلى تقديم خدمات للاكسترادیتابليين » .

* * *

أحد الحراس الذين كانوا ينهون وردية شهر كانون الثاني دخل مندفعاً إلى غرفة باتشو سانتوس ، وقال له :

ـ هذا الأمر يمضي نحو الأسوأ . سيدأون بقتل الرهائن .

وسيكون ذلك حسب قوله انتقاماً لمقتل الأخوين بريسكو . وقد كان البيان جاهزاً وسيُعلن في الساعات التالية . وسيقتلون مارينا مونتويا أولاً ، ثم

رهيناً كل ثلاثة أيام بهذا الترتيب : ريتشارد بييثرا ، بياتريث ، ماروخا ، ديانا . وانتهى الحارس إلى القول بطريقة تنطوي على بعض العزاء :

ـ ستكون أنت الأخير . ولكن لا تقلق ، فهذه الحكومة لاتتحمل أكثر من ميتين اثنين .

أجرى باتشو المذعور حساباته وفق معطيات الحارس : لقد بقي أمامه ثمانية عشر يوماً في الحياة . عندئذ قرر أن يكتب إلى زوجته وابنيه ، دون مسودة ، رسالة من ست أوراق كاملة من دفتر مدرسي ، بخط من حروف صغيرة منفصلة كحروف الطباعة ، ولكنه مقروء أكثر من المعتاد ، بنبض ثابت وبوعي بأنها ليست رسالة وداع وحسب وإنما وصية أيضاً .

« كل ما أرغب فيه هو أن تنتهي هذه المأساة ، وليس مهماً كيف ستكون النهاية ، بأسرع ما يمكن حتى يتوفر لنا جميعاً السلام » ، بهذه الكلمات بدأ رسالته . ووجه أعظم شكره إلى ماريا فيكتوريا التي ترعرع ـ حسب قوله ـ معها كرجل ، وكمواطن وكأب ، والشيء الوحيد الذي يندم عليه هو أنه أولى لمهنة الصحافة اهتماماً أكبر من اهتمامه بالحياة المنزلية ، وكتب : « وبهذا الاحساس بالندم سأنزل إلى القبر » . أما بالنسبة لابنيه حديثي الولادة تقريباً فانه يشعر بالطمأنينة لتأكده من أنهما برعاية أفضل يدين . « حدّثيهما عني عندما يصبح بإمكانهما فهم ما حدث ، وهكذا سيتمثلان دون دراماتيكية آلام موتي غير الضرورية » . ويشكر أباه على الكثير الذي قدمه له في حياته ، ويطلب منه فقط « رتب لهما كل شيء قبل أن تأتي لتنضم إليّ ، حتى تجنب ابني أوجاع الرأس الكثيرة في هذا النهب القادم » . وبهذه الطريقة دخل في الحديث حول نقطة يعتبرها « مملة ولكنها جوهرية » من أجل المستقبل : تأمين ابنيه والوحدة الأسرية ضمن *التيمبو* . والجزء الأول من الموضوع يعتمد إلى حد بعيد على بوليصات التأمين على الحياة التي اشترتها الجريدة لزوجته وابنيه . ويقول لأبيه : « أطلب منك أن تطالبهم بأن يعطوك ماعرضوه علينا ، فمن العدل ألا تذهب تضحياتي في سبيل الصحيفة أدراج الرياح بالكامل » .

أما بالنسبة لمستقبل الصحيفة المهني والتجاري والسياسي ، فإن قلقه الوحيد هو من النزاعات والخلافات الداخلية ، لإدراكه أن العائلات الكبيرة لاتعرف الدعاوى الصغيرة . « سيكون من المحزن جداً بعد هذه التضحية ، أن تنتهي *التيمبو* إلى الانقسام أو إلى الوقوع في أيد آخرى » . وتنتهي الرسالة بشكر وعرفان آخر موجه إلى ماريافي على ذكرى الأوقات الطيبة التي عاشاها معاً .

تلقى الحارس الرسالة متأثراً وقال له :

ـ اطمئن يا بابيتو ، سأتولى أمر أيصالها .

والحقيقة أنه لم يكن قد بقي عندئذ لباتشو سانتو ثمانية عشر يوما مثلما قدّر ، وإنما بضع ساعات قليلة . فقد كان الأول في القائمة ، وكان أمر قتله قد صدر في اليوم السابق . وقد علمت ماتا نيفيس اوتشوا بالأمر في اللحظة الأخيرة بصدفة طيبة ـ من خلال طرف ثالث ـ فأرسلت إلى اسكوبار إلتماساً بالعفو ، لقناعتها بأن تلك الميتة ستشعل البلاد . لم تعرف مطلقاً إذا ماكان اسكوبار قد تلقى الإلتماس ، ولكن الأمر الصادر ضد باتشو سانتو لم يعلن مطلقاً ، وصدر بدلاً منه أمر لا رجعة عنه ضد مارينا مونتويا .

يبدو أن مارينا قد هجست بذلك منذ بدايات شهر كانون الثاني فلأسباب لم توضحها مطلقاً ، كانت قد قررت ممارسة المشي اليومي برفقة « الكاهن » ، صديقها القديم الذي كان قد رجع مع أول تبديل للحراس في بداية السنة . كانا يمشيان لمدة ساعة بعد إغلاق التلفزيون ، ثم تخرج بعد ذلك ماروخا وبياتريث للمشي ومعهما حارسيهما . وفي إحدى تلك الليالي رجعت مارينا وهي مذعورة جداً ، لأنها رأت رجلاً يرتدي السواد ويضع قناعاً أسود ، وكان ينظر إليها في الظلام من عند حوض الغسل . وفكرت ماروخا وبياتريث بأن ذلك ليس إلا واحداً من تهيؤاتها المتواترة ، ولم تهتما بالأمر . وقد تأكدتا من ذلك الانطباع في تلك الليلة نفسها ، إذ لم يكن هناك أي ضوء يتيح رؤية رجل يرتدي السواد في الظلام المخيم على حوض الغسل . ولو كان الأمر صحيحاً ، فلابد أن يكون الرجل معروفاً جيداً في البيت لأنه لم يستثر

كلب الحراسة الألماني الذي كان يفزع من ظله . وقال «الكاهن» إنه لابد أن يكون مجرد رؤيا تراها هي وحدها .

ومع ذلك ، فقد رجعت بعد يومين أو ثلاثة أيام من فسحة المشي وهي في حالة من الهلع الحقيقي . فقد عاد الرجل ، بالسواد المطلق ، وكان يراقبها مطولاً باهتمام مرعب دون أن يهتم بأنها كانت تنظر إليه أيضاً . وعلى خلاف الليالي السابقة ، كانت تلك الليلة مقمرة وكان الفناء مضاء بنور أخضر خيالي . وقد روت مارينا ذلك أمام «الكاهن» الذي كذَّبها ، ولكن بحجج شديدة الإلتواء جعلت ماروخا وبياتريث لا تعرفان من تصدقان . منذ ذلك اليوم لم تعاود مارينا الخروج للمشي . وقد كانت الشكوك مابين تخيلاتها والواقع مؤثرة إلى حد بدأت ماروخا معه تعاني من هذيان واقعي ، فقد فتحت عينيها في إحدى الليالي ورأت «الكاهن» على ضوء المصباح الخافت ، يجلس القرفصاء كعادته ، ورأت قناعه قد تحول إلى جمجمة . وكان تأثر ماروخا أشد وقعاً ، لأنها ربطت تلك الرؤيا بذكرى موت أمها الذي يصادف يوم الثالث والعشرين من كانون الثاني الوشيك .

أمضت مارينا نهاية الأسبوع في السرير ، ينهكها ألم قديم في العمود الفقري كان يبدو منسياً . وعاودها مزاجها النزق الذي كانت عليه في الأيام الأولى . ولأنها لم تعد قادرة على الاعتماد على نفسها ، وضعت ماروخا وبياتريث نفسيهما في خدمتها . فكانتا تأخذانها إلى الحمام محمولة تقريباً . وتقدمان لها الطعام والشراب في فمها ، وترتبان الوسادة وراء ظهرها لكي ترى التلفزيون وهي في السرير . وتدللانها ، وتحبانها حقاً ، ولكنهما لم تشعرا بازدرائها لهما مثلما فعلت في تلك الأيام ، فقد كانت مارينا تقول لهما :

- انظرا كم أنا مريضة وأنتما لاتساعدانني . مع أنني ساعدتكما كثيراً .

ولم تكن تتمكن في بعض الأحيان إلا من تعزيز إحساسها الذي يعذبها بالخذلان . والواقع أن السكينة الوحيدة لمارينا في أزمة تلك الأيام الأخيرة

كانت في الصلوات المتواصلة التي تهمس بها دون توقف لساعات ، فضلاً عن العناية بأظفارها . وبعد بضعة أيام ، وكانت قد ملّت كل شيء ، تمددت مستنفَدة في سريرها وتنهدت :

ـ حسن ، فليكن ما يقدره الرب .

وفي مساء يوم ٢٢ زارهن كذلك *الدكتور* الذي كان يأتي في الأيام الأولى . تحدث سراً مع الحراس واستمع باهتمام إلى تعليقات ماروخا وبياتريث حول حالة مارينا الصحية . ثم جلس أخيراً على حافة السرير ليتحدث معها . ولابد أنه كان حديثاً جدياً وسرياً ، فقد كان همسهما خافتاً جداً بحيث لم يسمع أحد كلمة واحدة مما قالاه . خرج الدكتور من الغرفة بمزاج أفضل مما كان عليه عند مجيئه ، ووعدهن بالرجوع قريباً .

بقيت مارينا مكتئبة في السرير . وكانت تبكي أحياناً . حاولت ماروخا أن تشجعها ، فكانت مارينا تشكرها بالايماء لكي لا تقطع صلواتها ، ويكون ردها الدائم تقريباً عاطفياً ، بالضغط على يد ماروخا بيدها المتيبسة . وكانت تعامل بالعاطفة نفسها بياتريث التي كانت علاقتها بها أكثر دفئاً . أما العادة الوحيدة التي كانت تبقيها حية فهي عادة برد أظفارها .

في الساعة العاشرة والنصف من ليل يوم الأربعاء ٢٣ ، وكن قد بدأن بمشاهدة برنامج *إنفوكي* في التلفزيون وهن متيقظات لأي كلمة مختلفة ، أو أي نكتة عائلية ، أو لأدنى اشارة ، أو أي تبدلات خفيفة في كلمات أغنية يمكن لها أن تخبئ رسالة مشفرة . ولكن لم يُتح لهن الوقت لذلك . فما أن بدأ الجزء الموسيقي من البرنامج حتى فُتح الباب في موعد غير معهود ودخل « الكاهن » ، بالرغم من أنه لم يكن مناوباً في تلك الليلة ، وقال :

ـ جئنا من أجل الجدة ، سنأخذها إلى مزرعة أخرى .

قال ذلك وكأنه يوجه دعوة لقضاء يوم الأحد . تجمدت مارينا في السرير وكأنها منحوتة من الرخام ، وكانت شاحبة بشدة ، حتى في شفتيها ؛ وكان شعرها مجعداً . عندئذ توجه إليها « الكاهن » بعاطفته كحفيد ، وقال لها :

ـ اجمعي أشياءك أيتها الجدة . لديك خمس دقائق .

أراد مساعدتها على النهوض . وفتحت مارينا فمها لتقول شيئاً ولكنها لم تتمكن من ذلك . ثم نهضت دون مساعدة ، وحملت كيس أمتعتها الشخصية وخرجت باتجاه الحمام بخفة متسرنمة تبدو وكأنها لا تطأ الأرض . وواجهت ماروخا « الكاهن » بصوت حازم :

ـ هل ستقتلونها ؟

فقال « الكاهن » بغضب :

ـ هذه أمور لايمكن السؤال عنها . ولكنه مالبث أن استعاد السيطرة على نفسه فوراً : ـ لقد قلت لك إنها ستذهب إلى مزرعة أفضل . كلمة شرف .

حاولت ماروخا أن تمنعهم بأي طريقة من أخذها . وحيث أنه لم يكن هناك أي مسؤول ، وهو أمر نادر في شأن قرار بهذه الأهمية ، فقد طلبت أن يتصلوا بأحد المسؤولين باسمها لتناقشه في الأمر . ولكن الحوار انقطع لدى دخول حارس آخر ليأخذ المذياع والتلفزيون . فصلهما من مأخذ الكهرباء دون أن يقدم أي تفسير ، فتلاشى آخر وميض احتفالي في الغرفة . طلبت منهما ماروخا أن يسمحا لهما بإنهاء مشاهدة البرنامج على الأقل . وكانت بياتريث أكثر عدوانية ، ولكن دون جدوى . فقد حملا المذياع والتلفزيون بعد أن قالا لمارينا إنهما سيعودان لأخذها بعد خمس دقائق . بقيت ماروخا وبياتريث وحدهما في الغرفة ، لا تعرفان ماذا تصدقان ولا من تصدقان ، بل ولا تعرفان إلى أي مدى كان لذلك القرار الغامض علاقة بمصيرهما .

تأخرت مارينا في الحمام أكثر من خمس دقائق بكثير . ورجعت إلى الغرفة وهي ترتدي بيجامة التعرق الوردية كاملة ، والجورب الرجالي البني والحذاء الذي كانت تلبسه يوم اختطافها . كانت البيجاما نظيفة ومكوية . وكانت على الحذاء خضرة الرطوبة وبدا واسعاً على قدميها ، فقد تقلص حجم قدميها نمرتين خلال أربعة شهور من المعاناة . كانت مارينا ماتزال شاحبة ومغطاة بعرق جليدي ، ولكن كان مايزال لديها كذلك بصيص من الأمل . فقد قالت :

ـ من يدري إذا ما كانوا سيطلقون سراحي!

ودون أي اتفاق مسبق ، قررت ماروخا وبياتريث أنه مهما كان المصير الذي ينتظر مارينا ، فإن التصرف الأكثر مسيحية في تلك الظروف هو خداعها . فقالت لها بياتريث :

ـ من المؤكد أنهم سيفعلون ذلك .

وقالت ماروخا بابتسامتها المشرقة الأولى :

ـ لابد أنك ستخرجين . يا للروعة!

وقد كان رد فعل مارينا مفاجئاً . فقد سألتهما بين المزاح والجد عما تريدان أن تنقله إلى أسرتيهما . فارتجلتا الطلبات على أحسن وجه ممكن . وبينما كانت مارينا تضحك من نفسها ، طلبت من بياتريث أن تعيرها زجاجة العطر الرجالي التي أهداها إليها لامبارون في عيد الميلاد . أعطتها بياتريث العطر ، فرشت مارينا منه وراء أذنيها بحركة أناقة أصيلة ، ورتبت شعرها الثلجي الذاوي بلمسات خفيفة من أصابعها ، ودون مرآة . وبدت أخيراً وكأنها مستعدة لأن تكون حرة وسعيدة .

الواقع أنها كانت على حافة الدوار . طلبت سيجارة من ماروخا وجلست تدخنها على السرير بانتظار أن يأتوا ليأخذوها . دخنت السيجارة ببطء ، وبأنفاس عميقة مغمومة ، بينما كانت ترصد مليمتراً فمليمتراً ذلك الكهف البائس الذي لم تجد فيه لحظة واحدة من الرحمة ، وحيث لم يمنحوها في النهاية حتى وقار الموت في سريرها .

ولكي تمنع بياتريث نفسها من البكاء ، عادت تكرر عليها بجدية الرسالة التي تريد منها أن تنقلها لأسرتها : «إذا أتيحت لك الفرصة لرؤية زوجي وأبنائي ، فقولي لهم إنني في حالة جيدة ، وإنني أحبهم كثيراً» . ولكن مارينا كانت في غير ملكوت هذا العالم . فردت عليها حتى دون أن تنظر إليها :

ـ لا تطلبي مني هذا . فأنا أعرف أنه لن تتاح لي مثل هذه الفرصة .

جاءتها ماروخا بكأس ماء وقرصي منوِّم كانا كافيين لجعلها تنام ثلاثة

أيام متتالية . وكان على ماروخا أن تساعدها على شرب الماء ، لأن مارينا لم تصب في ايصال الكأس إلى فمها بسبب ارتعاش يديها . وعندئذ رأت أعماق عينيها المتألقتين ، وكان ذلك كافياً لجعلها تدرك أن مارينا لاتخدع نفسها . فقد كانت تعرف جيداً من تكون ، وبكم هم مدينون لها ، وإلى أين سيأخذونها ، وإذا كانت قد سايرت الصديقتين الأخيرتين اللتين بقيتا لها في الحياة ، فإنما فعلت ذلك أيضاً بدافع الشفقة .

أحضروا لها قناعاً جديداً ، من صوف وردي ، يتناسب مع لون البيجاما الرياضية . وقبل أن يضعوه على رأسها ودّعت ماروخا بعناق وقبلة . وقد باركتها ماروخا قائلة لها : «اطمئني» . ثم ودعت بياتريث بعناق وقبلة أيضاً ، وقالت لها : «فليباركك الرب» . أما بياتريث المخلصة لنفسها حتى اللحظة الأخيرة ، فقد احتفظت بالأمل ، وقالت لها :

ـ كم هو رائع أنك ستذهبين للقاء أسرتك .

اسلمت مارينا نفسها إلى الحراس دون دمعة واحدة . وضعوا القناع على رأسها معكوساً ، جاعلين ثقوب العينين والفم من الخلف ، حتى لا تتمكن من الرؤية . أمسكها «الكاهن» من كلتا يديها ، بعناية حفيد ، وأخرجها من البيت وهو يمشي القهقرى . وتركتهم مارينا يقودونها وهي تمشي بخطوات واثقة . ثم أقفل الحارس الآخر الباب من الخارج .

بقيت ماروخا وبياتريث متجمدتين قبالة الباب المقفل ، دون أن تدريا من أين ستباشران الحياة ، إلى أن سمعتا صوت المحركات في المرآب ، ثم راح الصوت يتلاشى في الأفق . وعندئذ فقط أدركتا بأنهم قد أخذوا منهما المذياع والتلفزيون كي لا تعرفا نهاية تلك الليلة .

* * *

- ٦ -

في فجر اليوم التالي ، الخميس ٢٤ كانون الثاني ، عُثر على جثة مارينا مونتويا في أرض خلاء إلى الشمال من بوغوتا . كانت شبه جالسة على العشب الذي مايزال رطباً من الرذاذ المبكر ، وكانت مسندة إلى سياج الأسلاك الشائكة وذراعاها مفتوحتان على شكل صليب . القاضي ٧٨ في التحقيق الجنائي الذي أشرف على رفع الجثة وصفها بأنها امرأة في نحو السبعين من عمرها ، ذات شعر فضي غزير ، ترتدي بيجامة تعرق رياضية وردية وجورباً رجالياً بني اللون . وتحت البيجامة تحمل عوذة هي عبارة عن صليب من البلاستيك . وكان هناك من جاء قبل ممثلي العدالة وسرق حذاءها .

كان رأس الجثة مغطى بقناع متيبس بفعل الدم الجاف ، وموضوع بالعكس ، فثقوب العينين والفم في الخلف ، وكان القناع شبه ممزق بثقوب دخول وخروج ست طلقات أُطلقت من مسافة تزيد على خمسين سنتمتراً ، ذلك أنها لم تترك أثراً كالوشم على القماش والبشرة . وكانت الجروح موزعة على الجمجمة والجانب الأيسر من الوجه ، وهناك جرح في الجبهة يبدو واضحاً أنه كان طلقة الرحمة . ومع ذلك ، فانهم لم يعثروا قرب الجثة المبللة بالعشب البري سوى على خمسة أغلفة رصاصات من عيار تسعة مليمترات . وقد أخذ لها القسم الفني في الشرطة القضائية خمس مجموعات من بصمات أصابعها .

كان بعض تلاميذ مدرسة سان كارلوس ، على الرصيف المقابل قد طافوا

حول الجثة مع بعض الفضوليين الآخرين . وكان من بين الذين شهدوا عملية رفع الجثة بائعة أزهار في المقبرة الشمالية . كانت قد خرجت باكراً لتسجل ابنتها في مدرسة قريبة . وقد بهرتها الجثة بملابسها الداخلية ذات النوعية العالية ، وبشكل يديها المعتنى بهما ، وبالوجاهَة الملحوظة على الرغم من الثقوب التي في الوجه . وفي مساء ذلك اليوم بالذات ، حين جاءت بائعة الجملة التي تزودها بالأزهار لتلبية طلبات محلها في المقبرة الشمالية ـ على بعد خمسة كيلومترات من مكان الحادث ـ وجدتها تعاني ألماً شديداً في الرأس وفي حالة خمود مثيرة للذعر . وقد قالت صاحبة المحل لبائعة الجملة :

ـ لا يمكنك أن تتصوري كم هو محزن رؤية تلك السيدة ملقاة فوق العشب . كان لابد من رؤية ملابسها الداخلية ، وهيئة السيدة العظيمة التي لها ، وشعرها الأبيض ، ويديها الرقيقتين بأظفارهما المشذبة جيداً .

استولى الذعر على بائعة الجملة لحالة الإنهاك التي بدت فيها زبونتها ، فقدمت لها قرصاً مسكناً لآلام الرأس ، ونصحتها بألا تفكر في أمور حزينة ، وألا تتألم خصوصاً ، لمشاكل الآخرين . ولكن أياً منهما لن تعرف إلا بعد أسبوع من ذلك أنهما عاشتا حادثة فريدة . فقد كانت بائعة الجملة هي مارتا دي بيريث ، زوجة لويس غيلليرمو بيريث ، ابن مارينا .

تلقى معهد الطب الشرعي الجسد في الساعة الخامسة والنصف من مساء يوم الأحد ، وترك في مستودع الجثث حتى اليوم التالي ، فالقتلى المصابون بأكثر من رصاصة واحدة لايتم تشريح جثثهم في الليل . وكانت هناك جثتان أخريان لرجلين عثر عليهما في الصباح تنتظران التعرف عليهما وتشريحهما أيضا . وخلال الليل أُحضرت جثتان أخريان لرجلين بالغين ، عثر عليهما في العراء ، وجثة طفل في الخامسة من عمره .

الدكتورة باتريثيا ألفاريث التي قامت بتشريح جثة مارينا مونتويا منذ الساعة السابعة والنصف من صباح يوم الجمعة ، وجدت في معدتها بقايا أطعمة معروفة ، وتبين لها أن الوفاة قد حدثت في فجر يوم الخميس . وقد

دهشت هي أيضاً لنوعية الثياب الداخلية الراقية وللأظفار المشذبة والمطلية جيداً . استدعت رئيسها الدكتور بيدرو موراليس الذي كان يقوم بعملية تشريح أخرى على طاولة مجاورة ، فساعدها في اكتشاف علامات أخرى مؤكدة تشير إلى وضع صاحبة الجثة الاجتماعي . أجريا لها فحص الأسنان والتقطوا لها صوراً وصوراً شعاعية وثلاثة أزواج أخرى من بصمات الأصابع . وأخيراً أجروا لها اختبار امتصاص ذري ولم يجدا آثاراً لبقايا عقاقير ، على الرغم من حبتي المنوِّم اللتين أعطتها إياهما ماروخا قبل ساعات من الوفاة .

بعد إنهاء الإجراءات الأولية أُرسلت الجثة إلى المقبرة الجنوبية ، حيث كان قد حُفر قبل ثلاثة أسابيع من ذلك قبر جماعي لدفن نحو منتي جثة . وهناك دفنوها مع جثث الرجال الأربعة المجهولين وجثة الطفل .

* * *

كان من الواضح في شهر كانون الثاني الفظيع ذاك أن البلاد قد وصلت إلى أسوأ وضع يمكن تصوره . فمنذ عام ١٩٨٤ ، حين اغتيل الوزير لارا بونييا ، عانينا كل أنواع الأحداث الفظيعة ، ولكن الوضع لم يصل إلى نهايته ، ولم يبق الأسوأ لما هو آت . فكل عوامل العنف كانت تنفلت وتزداد حدة .

بين المخاطر الكثيرة التي رجت البلاد ، أعتبرت تجارة المخدرات هي الأشد سمِّية وقسوة . فقد جرى اغتيال أربعة مرشحين رئاسيين قبل الحملة الانتخابية لعام ١٩٩٠ . فكارلوس بيثارو ، مرشح حركة « م ـ١٩ » ، اغتاله قاتل وحيد على متن طائرة تجارية ، بالرغم من أنه كان قد بدّل حجزه أربع مرات ، وفعل ذلك بسرية مطلقة وباتخاذ كل احتياطات التضليل . والمرشح السابق ارنيستو سامبير نجا من الموت بعد إصابته برشة من إحدى عشرة رصاصة ، ووصل إلى رئاسة الجمهورية بعد خمس سنوات من ذلك ، وكانت ماتزال في جسده أربع رصاصات تسبب صفير أجهزة الإنذار المغناطيسية في بوابات المطارات . وقد فجروا لدى مرور الجنرال ماثا ماركيز سيارة ملغومة

فيها ثلاثمئة وخمسون كيلوغراماً من الديناميت ، وقد فرّ من سيارته ذات التصفيح الخفيف وهو يسحب معه واحداً من حراسه الجرحى . وروى الجنرال ماحدث بالقول : «لقد شعرت فجأة بأنني أفقد التوازن وكأنني محمول على قمة موجة عاتية» . وقد أصيب باضطراب شديد اضطره إلى الاستعانة بالعلاج النفسي ليتمكن من استعادة توازنه الانفعالي . ولم يكن قد استكمل العلاج ، بعد سبعة شهور من ذلك ، حين انفجرت شاحنة محملة بطنين من الديناميت ودمرت في انفجارها الكارثي مبنى شعبة الإدارة الأمنية الضخم ، وكانت الحصيلة سبعين قتيلاً وسبعمئة وعشرين جريحاً ، وأضراراً مادية لاتقدر . كان الارهابيون قد انتظروا بدقة لحظة دخول الجنرال إلى مكتبه ، ولكنه لم يُصب بخدش واحد وسط تلك الكارثة . وفي تلك السنة بالذات ، انفجرت قنبلة في طائرة للركاب بعد خمس دقائق من اقلاعها ، وسببت موت مئة وسبعة أشخاص ، بينهم اندريس اسكابي ـ صهر باتشو سانتوس ـ ، ومغني التينور الكولومبي خيراردو اريبانو . وكانت الرواية التي شاعت تقول إن العملية كانت موجهة ضد ثيسر غافيريا . يا للخطأ المشؤوم ، فغافيريا لم تكن لديه أي نية للسفر على تلك الطائرة . بل أكثر من ذلك : فقد كان فريق الأمن في حملته الانتخابية قد حظر عليه السفر على طائرات الخطوط النظامية ، وحين أراد عمل ذلك في إحدى المرات ، اضطر إلى التراجع ازاء فزع الركاب الآخرين الذين حاولوا النزول من الطائرة وعدم المجازفة بالطيران معه في الرحلة نفسها .

الحقيقة أن البلاد كانت محكومة بالعيش ضمن دائرة جهنمية . فالاكسترادیتابليون من جهة يرفضون تسليم أنفسهم أو تخفيف العنف لأن الشرطة لم تكن تمنحهم أي هدنة . وكان اسكوبار قد استنكر عبر كل الوسائل اقتحام الشرطة في أي وقت لقرى ميدلين ، والقائها القبض على عشرة أحداث لا على التعيين ، وإعدامهم دون أي تحقيقات في الحانات أو الزرائب . فقد كانوا يفترضون أن الغالبية يعملون في خدمة بابلو اسكوبار ، أو أنهم من

أنصاره ، أو أنهم سيصبحون كذلك في أي لحظة بالاقناع أو بالقوة . ولم يكن الإرهابيون يتوقفون عن ارتكاب المذابح ضد رجال الشرطة وعن الاغتيالات وعمليات الاختطاف . من جهة اخرى ، كانت أقدم وأقوى حركات حرب العصابات ، مثل جيش التحرير الوطني ، والقوات المسلحة الثورية ، قد بدأت الرد بكل الأعمال الإرهابية على اقتراح السلام الأول الذي تقدمت به حكومة ثيسر غافيريا .

كان الصحفيون هم إحدى أكثر الفئات تأثراً بتلك الحرب العمياء ، فقد كانوا ضحايا الاغتيالات والاختطاف ، بل والانشقاق كذلك بسبب التهديد أو الرشوة . ففي الفترة ما بين أيلول ١٩٨٣ وكانون الثاني ١٩٩١ اغتالت كارتيلات المخدرات ستة وعشرين صحفياً من مختلف وسائل الإعلام في البلاد . فمدير جريدة *الاسبيكتادور* غيلليرمو كانو ، أكثر الرجال العُزّل بعداً عن السلاح ، جرى ترصده واغتياله على يد قاتلين عند بوابة صحيفته يوم السابع عشر من كانون الأول عام ١٩٨٦ . لقد كان يقود بنفسه شاحنته الصغيرة بالرغم من أنه كان أحد أكثر الرجال المهددين بالموت في البلاد ، بسبب افتتاحياته الانتحارية ضد تجارة المخدرات ، وكان يرفض استخدام سيارة مصفحة أو مرافقة حراس له . ومع ذلك ، فقد حاول أعداؤه مواصلة قتله بعد موته . فالنصب الذي أقيم تكريماً لذكراه في ميدلين نُسف بالديناميت . وبعد شهور من ذلك فجروا شاحنة محملة بثلاثمئة كيلوغرام من الديناميت فحولت مطابع الجريدة إلى كومة من الأنقاض .

لقد دخل إلى الثقافة الوطنية مخدر أشد ضرراً وخطورة من المخدرات المسماة هيرونينية : إنه المال السهل . وقد شاعت فكرة أن القانون هو العقبة الكبرى أمام السعادة ، وأنه لافائدة ترجى من تعلم القراءة والكتابة ، وأنه يمكن للمرء أن يعيش كمجرم حياة أفضل وأكثر أمناً من حياة الناس المحترمين . وباختصار : حالة الفساد الاجتماعي التي تميز أي حرب خفية .

لم تكن أعمال الاختطاف أمراً جديداً في تاريخ كولومبيا المعاصر . فلم ينجُ

أي من الرؤساء الأربعة في السنوات السابقة من تجربة اختطاف تُعرض عهده للاهتزاز وعدم الاستقرار . والحقيقة ، حسب علمنا ، أن أياً من الرؤساء الأربعة لم يخضع لمطالب الخاطفين . ففي شباط ١٩٧٦ ، في ظل حكومة الرئيس ألفونسو لوبيث ميتشيلسين ، قامت حركة « م ـ ١٩ ـ » باختطاف رئيس اتحاد شغيلة كولومبيا خوسيه راكيل ميركادو . وقد حوكم من قبل خاطفيه وحكم عليه بالموت لخيانته الطبقة العاملة ، ونُفذ فيه حكم الموت باطلاق رصاصتين على عنقه ازاء رفض الحكومة الاستجابة لمجموعة من الشروط السياسية .

وقام بعد ذلك ستة عشر عنصراً من نخبة حركة « م ـ ١٩ » نفسها باحتلال سفارة جمهورية الدومينيكان في بوغوتا ، أثناء احتفالها بالعيد الوطني في ٢٧ شباط ١٩٨٠ ، في ظل حكومة الرئيس خوليو ثيسر طربيه . وقد احتظفوا طوال واحد وسبيعين يوماً بكل أفراد السلك الدبلوماسي في كولومبيا تقريباً رهائن ، بمن في ذلك سفراء الولايات المتحدة واسرائيل والفاتيكان . وطالب الخاطفون بفدية مقدارها خمسون مليون دولار ، واطلاق سراح ثلاثمئة وأحد عشر عضواً من منظمتهم كانوا معتقلين ، وقد رفض الرئيس طربيه التفاوض ، إنما تم الإفراج عن الرهائن في الثامن والعشرين من نيسان دون أية شروط صريحة ، وخرج الخاطفون من البلاد تحت حماية الحكومة الكوبية بناء على طلب من حكومة كولومبيا . وقد أكد الخاطفون في أحاديث خاصة أنهم قد تلقوا خمسة ملايين دولار نقداً ، جمعتها الجالية اليهودية في كولومبيا من أعضاء محفلها في العالم بأسره .

وفي السابع من تشرين الثاني ١٩٨٥ ، احتلت جماعة من حركة «م ـ ١٩ » مبنى محكمة العدل العليا شديدة الازدحام في إحدى أكثر الساعات ازدحاماً ، وطالبت أعلى محكمة في الجمهورية بمحاكمة الرئيس بيليساريو بيتانكور لعدم تنفيذه وعده بإقرار السلام . رفض الرئيس التفاوض ، واقتحم الجيش المبنى بالدم والنار بعد عشر ساعات ، وبحصيلة غير محددة من المفقودين وخمسة وتسعين قتيلاً مدنياً ، منهم تسعة قضاة من محكمة العدل

العليا ، ورئيسها ألفونسو رييس ايتشانديا .

والرئيس فيرخيليو باركو من جهته ، وعند نهاية ولايته تقريباً ، أساء حل مشكلة اختطاف ألفارو دييغو مونتويا ، ابن سكرتيره العام . وقد انفجر غضب بابلو اسكوبار بعد سبعة شهور من ذلك بين يدي خليفته ، الرئيس ثيسر غافيريا ، الذي بدأ ولايته بالمشكلة الكبرى المتمثلة باختطاف عشرة أشخاص بارزين .

ومع ذلك ، فقد كان غافيريا قد توصل في الشهور الخمسة الأولى من ولايته إلى أجواء أقل اضطراباً لمسايرة العاصفة . فقد توصل إلى اتفاق سياسي من أجل عقد جمعية تأسيسية ، مخولة من قبل محكمة العدل العليا بسلطات كافية لاتخاذ قرارات حول أي موضوع دون أي حدود . بما في ذلك بالطبع حول أشد الموضوعات سخونة : تسليم الوطنيين إلى دولة أجنبية والعفو عن المطلوبين . ولكن عمق المشكلة ، سواء بالنسبة للحكومة أو تجار المخدرات . وحركات حرب العصابات ، كان يتمثل في أنه طالما بقيت كولومبيا دون نظام قضائي فعال ، فإنه سيكون من شبه المستحيل التوصل إلى سياسة سلام تضع الدولة إلى جانب الأخيار ، وتترك جانب الأشرار للمجرمين من كل لون . ولكن شيئاً من ذلك لم يكن سهلاً في تلك الأيام ، وأصعب من ذلك كان الإعلام حول أي شيء بموضوعية من هذا الجانب أو ذاك ، كما لم يكن سهلاً تربية الأطفال وتعليمهم الفرق بين الخير والشر .

لم تكن مصداقية الحكومة تصل إلى مستوى نجاحاتها السياسية المرموقة ، وإنما كانت متدنية إلى مستوى أجهزتها الأمنية المنتقَدة بشدة من جانب منظمات حقوق الإنسان الدولية . بينما كان بابلو اسكوبار بالمقابل قد حقق مصداقية لم تتوصل إلى مثلها على الإطلاق حركات حرب العصابات في أفضل أيامها . وقد وصل الأمر بالناس إلى تصديق أكاذيب الاكسترادينابليين أكثر من تصديقهم حقائق الحكومة .

* * *

في الرابع عشر من شهر كانون الأول صدر المرسوم ٣٠٣٠ الذي عدّل المرسوم ٢٠٤٧ وألغى كل المراسيم السابقة . وكان من المستجدات التي تضمنها المرسوم الجديد قضية المراكمة القانونية للأحكام القضائية . وهذا يعني : إذا كان هناك شخص قد حوكم على عدة جرائم ، سواء في المحاكمة نفسها أم في محاكمات تالية ، فإنه لايجري جمع السنوات التي حكم عليه بها في ادانات مختلفة وإنما يُكتفى بأطول الأحكام أمداً للتكفير عن كل الجرائم . كما ثُبّتت مجموعة من الإجراءات والمهل المتعلقة بنقل الأدلة من الخارج إلى محاكمات تجري في كولومبيا . ولكن ، أُبقي على العلامتين الكبريين للاستسلام : الشروط غير الواضحة لعدم تسليم المطلوبين إلى دولة أخرى والمهلة المحددة للجرائم القابلة للعفو . وبكلمة اخرى : أُبقي على الاستسلام وعدم الوضوح كمطلبين لاغنى عنهما لمسألة عدم تسليم المطلوبين ولتخفيض الأحكام ، وبقي ذلك مرتبطاً بأن تكون الجرائم قد اقترفت قبل الخامس من ايلول ١٩٩١ . لقد أعرب بابلو اسكوبار عن عدم موافقته في رسالة ساخطة . وكان لرد فعله هذه المرة سبب آخر توخى عدم إعلانه على الملأ : إنه التعجيل بتبادل الأدلة مع الولايات المتحدة ، مما سيسهل عمليات تسليم المطلوبين .

كان بيبا ميثار أحد أكثر المتفاجئين بالمرسوم . فمن خلال اتصالاته اليومية مع مستشار الرئيس الأمني رافائيل باردو كانت لديه مبررات لانتظار مرسوم أكثر يسراً في التعامل . ولكن المرسوم كان نقيض ذلك ، وقد بدا له أكثر تشدداً من المرسوم الأول . ولم يكن هو وحده من فكر هكذا . فقد كان عدم الرضى شاملاً لدرجة أنه منذ اليوم التالي لصدور المرسوم الثاني بُدئ بالتفكير في واحد ثالث .

أحد التكهنات السهلة حول أسباب تصلب المرسوم ٣٠٣٠ هو أن القطاع الأكثر تشدداً في الحكومة ـ وحيال هجمة البيانات الداعية للمصالحة والإفراج المجاني عن أربعة صحفيين ـ اقنع الرئيس بأن اسكوبار قد حوصر . بينما لم

يكن في الواقع أكثر قوة مما كانه في ذلك الحين ، بحبسه الرهيب للمخطوفين وبإمكانية إقدام الجمعية التأسيسية على إلغاء اتفاقية تسليم المطلوبين ومطالبتها بإقرار العفو .

وكان الأخوة اوتشوا الثلاثة بالمقابل قد تبنوا فوراً خيار الخضوع . وقد فُسر ذلك على أنه شرخ في قمة الكارتيل . على الرغم من أن عملية استسلامهم كانت قد بدأت في الواقع منذ صدور المرسوم الأول ، في أيلول ، حين طلب سيناتور انتيوكيي معروف من رافائيل باردو أن يستقبل شخصاً لايريد التعريف بنفسه مسبقاً . وكان ذلك الشخص هو مارتا نيفيس اوتشوا ، التي بدأت بتلك الخطوة الجريئة إجراءات استسلام اخوتها الثلاثة بفارق شهر بين كل واحد وآخر . وهذا ماحدث . ففابيو ، أصغر الأخوة ، سلم نفسه في الثامن عشر من كانون الأول ؛ وفي الخامس عشر من كانون الثاني ، حين بدا ذلك أقل احتمالاً ، سلم خورخي لويس نفسه ؛ وفي السادس عشر من شباط أقدم خوان دافيد على تسليم نفسه . بعد خمس سنوات من ذلك وجهت جماعة من الصحفيين الامريكيين السؤال إلى خورخي لويس ، وكان جوابه الحاسم : «لقد سلمنا أنفسنا لننجو بجلدنا» . واعترف بأن وراء استسلامهم كان ضغط نساء الأسرة الذي لايقاوم ، واللواتي لم يشعرن بالأمان إلى أن انقذنهم بوضعهم في سجن ايتاغوي المصفح ، في إحدى ضواحي ميدلين الصناعية . لقد كان تصرفاً عائلياً ينم عن الثقة بالحكومة التي كان مايزال بإمكانها في ذلك الوقت تسليمهم أحياء إلى الولايات المتحدة .

* * *

دونيا نيديا كينتيرو ، المتيقظة على الدوام لنُذرها الخفية ، لم تستهن بأهمية استسلام الأخوة اوتشوا . فبعد ثلاثة أيام من استسلام فابيو ذهبت لمقابلته في السجن مع ابنتها ماريا فيكتوريا ، وحفيدتها ماريا كارولينا ، ابنة ديانا . وقد استقبلها في البيت الذي يقيم فيه خمسة أشخاص من آل اوتشوا ،

عملاً ببروتوكول «أبناء البلد»* القبلي : الأم ، ومارتا نيفيس مع شقيقة أخرى ، ورجلين شابين . أخذوها إلى سجن ايتاغوي ، وهو بناء مصفح في نهاية طريق صاعد تزينه أزهار عيد الميلاد الورقية الملونة .

وكان بانتظارها في غرفة السجن ، فضلاً عن فابيو الشاب ، أبوه دون فابيو اوتشوا ، وهو بطريرك يزن مئة وخمسين كيلوغراماً ، وله ملامح طفل في السبعين من عمره ، يربي خيولاً كولومبية رشيقة ، وهو الملهم الروحي لأسرة واسعة جداً من الرجال الجسورين ، والنساء ثابتات الأعنة . كان يحب ترؤس الزيارات الأسرية وهو جالس على كرسي كالعرش ، معتمراً قبعة الفروسية الأبدية ، وبأسلوب احتفالي يتناسب تماماً مع طريقته في التكلم ببطء وتثاقل ، ومع حكمته الشعبية . وإلى جواره كان ابنه المتوقد والسليط ، ولكنه لم يكد يتدخل بكلمة واحدة بينما كان أبوه يتكلم .

أطرى دون فابيو أولاً على الشجاعة التي تحرك فيها نيديا السماء والأرض لتنقذ حياة ابنتها ديانا . أما إمكانية مساعدتها بالتدخل لدى بابلو اسكوبار فقد صاغها بخطابية بارعة : سيفعل بكل سرور كل ما يمكنه عمله ، ولكنه لا يظن أنه قادر على عمل شيء يذكر . وفي نهاية الزيارة ، طلب فابيو الابن من نيديا أن تصنع معروفاً وتشرح لرئيس الجمهورية أهمية تمديد مهلة الاستسلام في مرسوم الخضوع . فأوضحت له نيديا أنها لاتستطيع عمل ذلك ، بينما يستطيعون هم عمله من خلال رسالة يبعثون بها إلى السلطات المختصة . لقد كانت تلك هي طريقتها للحيلولة دون أن يستخدموها كمراسلة لهم لدى الرئيس . وقد فهم فابيو الابن ذلك ، وودعها بعبارة مشجعة : «مادامت هناك حياة فهناك أمل» .

لدى عودة نيديا إلى بوغوتا ، سلمتها اثوثينا رسالة ديانا التي تطلب منها فيها أن تحتفل بعيد الميلاد مع ابنيها ، واستعجلها هيرو بوس بالذهاب

---

* أبناء البلد : هي ترجمتنا لكلمة (Paisas) التي يتنادى بها أهالي ميدلين ومنطقة أنتوكيا (انطاكية) في كولومبيا .

إليه في كارتاخينا من أجل حديث شخصي . وقد اطمأنت نيديا على صحة ابنتها حين رأت الحالة الصحية الجيدة للألماني بعد ثلاثة شهور من الأسر . لم يكن هيرو بوس قد رأى ديانا منذ الأسبوع الأول للاختطاف ، ولكن كان هناك تبادل دائم للمعلومات مابين الحراس وعناصر الخدمات الآخرين ، وكان بعض تلك المعلومات يتسرب إلى الرهائن ، وقد كان يعرف أن ديانا في حالة جيدة . وأن إحساسها الوحيد بالخطر الكبير والوشيك دائماً هو خوفها من عملية انقاذ مسلحة . وقال لها هيروبوس : «لايمكنك أن تتصوري الخطر الماثل دائماً في أن يقتلوا المرء . ليس بسبب مجيء رجال القانون ، حسب قولهم ، وإنما لأنهم خائفون على الدوام ، حتى أنهم يحسبون أن أدنى ضجة هي عملية مداهمة عسكرية» . وكانت نصيحته الوحيدة هي منع أي محاولة لعملية انقاذ مسلحة والتوصل إلى تعديل مهلة الاستسلام في المرسوم .

في نفس اليوم الذي رجعت فيه نيديا إلى بوغوتا ، أعربت عن مخاوفها لوزير العدل . وزارت وزير الدفاع الجنرال أوسكار بوتيرو برفقة ابنها البرلماني خوليو ثيسر طربيه كينتيرو ، وطلبت منه مغمومة ، باسم جميع المخطوفين ، بأن يستخدموا رجال الاستخبارات وليس عمليات الانقاذ المسلحة . كان الارهاق يستنفدها بصورة عاصفة ، وكان حدسها باقتراب المأساة يزداد وضوحاً . لقد كان قلبها يؤلمها ، وكانت تبكي في كل الأوقات . بذلت أقصى جهودها للسيطرة على نفسها ، ولكن الأخبار السيئة لم تمنحها الفرصة . سمعت من المذياع رسالة من الاكستراديتابليين يهددون فيها بأنهم سيلقون أمام القصر الرئاسي جثث المخطوفين ملفوفة بأكياس إذا ما لم يعدّل المرسوم الثاني . اتصلت نيديا برئيس الجمهورية وهي في حالة يأس قاتل . وقد رد عليها رافائيل باردو لأن الرئيس كان في اجتماع للمجلس الأمني .

- أرجوك أن تسأل الرئيس وأعضاء المجلس عما إذا كانوا يريدون أن تُرمى لهم عند الباب جثث المخطوفين في أكياس من أجل أن يعدلوا المرسوم .

وكانت ماتزال في هذه الحالة الانفعالية بعد ساعات من ذلك ، حين طلبت من الرئيس شخصياً أن يعدّل المهلة الممنوحة في المرسوم . وكانت الأخبار قد وصلت إلى الرئيس بأن نيديا تشكو من عدم تحسسه آلام الآخرين ، فبذل جهده ليبدو صبوراً وواضحاً . أوضح لها أن المرسوم ٣٠٣٠ قد صدر للتو ، وأنه لابد من إعطائه الوقت على الأقل لرؤية كيف سيتصرف . ولكن نيديا رأت أن حجج الرئيس ليست الا ذرائع لتبرير عدم إقدامه على عمل ما كان يتوجب عليه عمله في الوقت المناسب .

وقد ردت عليه نيديا بعد أن ملت التعقل والتروي :

ـ إن تعديل الموعد النهائي ليس ضرورياً من أجل إنقاذ الرهائن وحسب ، وإنما كذلك لأنه الشيء الوحيد الذي مازال ضرورياً للتوصل إلى أن يسلم الارهابيون أنفسهم . حرِّك الموضوع . وسيعيدون ديانا .

لم يتراجع غافيريا عن موقفه . لقد كان مقتنعاً بأن المهلة المحددة هي العقبة الكبرى أمام سياسته في إجبار المطلوبين على الاستسلام ، ولكنه كان يعارض تعديلها حتى لا يتوصل الاكستراديتابليون إلى تحقيق ما أرادوه من عمليات الاختطاف . فالجمعية التأسيسية ستجتمع بعد أيام قليلة وسط توقعات غامضة ، ولايمكنه أن يسمح بأن يكون ضعف الحكومة سبباً في منح العفو لتجار المخدرات . وسيقول غافيريا فيما بعد : « لم تكن الديمقراطية في خطر على الاطلاق عند اغتيال أربعة مرشحين رئاسيين أو عند أي عملية اختطاف سابقة . ولكنها كانت في خطر حقيقي في تلك اللحظات التي وُجد فيها الميل أو المجازفة أو الإشاعة نحو تبني إمكانية العفو عن المطلوبين » . هذا يعني : المجازفة غير المعقولة بأن يختطف الخاطفون وعي الجمعية التأسيسية أيضاً . وكان غافيريا قد اتخذ قراره : إذا حدث ذلك ، ووافقت الجمعية التأسيسية على العفو ، فان قراره الحاسم والذي لا رجعة عنه سيكون إسقاط الجمعية التأسيسية .

كانت نيديا تفكر منذ بعض الوقت بأنه لابد للدكتور طربيه من القيام

بعمل في مصلحة المختطفين يهز البلاد : كأن ينظم مظاهرة حاشدة أمام القصر الرئاسي ، أو توقف عن العمل على المستوى الوطني ، أو احتجاج رسمي يقدم إلى الأمم المتحدة . ولكن الدكتور طربيه كان يهدئ من اندفاعها . وقد قالت نيديا فيما بعد : «لقد كان هكذا دائماً ، بسبب مسؤولياته ،ورصانته . ولكن المرء يعرف أنه كان يموت ألماً من الداخل» . وكان هذا اليقين يزيد من غمها بدل أن يهدئها . وفي أثناء ذلك كان أن قررت كتابة رسالة خاصة إلى رئيس الجمهورية « تدفعه للتحرك في الاتجاه الذي يراه هو ضرورياً » .

أصاب القلق الدكتور غوستافو بالكاثار من تدهور حالة زوجته نيديا ، فأقنعها في ٢٤ كانون الثاني بالذهاب لبضعة أيام إلى بيته في تابيو - على بعد ساعة بالسيارة عن بوغوتا في منطقة السهب - لعلها تجد الراحة من كربها . لم تكن قد ذهبت إلى هناك منذ اختطاف ابنتها ، وهكذا حملت معها تمثال العذراء وشمعدانين يكفي كل منهما لخمسة عشر يوماً ، وكل ما يمكن لها أن تحتاجه حتى لاتنفصل عن الواقع . أمضت ليلة بلا نهاية في عزلة السهب الجليدية ، وكانت في أثناء ذلك تبتهل جاثية للسيدة العذراء أن تحمي ديانا تحت ناقوس زجاجي لايمكن اختراقه ، حتى لا يسيء أحد احترامها ، وكي لا تشعر بالخوف ، ولكي يرتد عنها الرصاص . وفي الساعة الخامسة فجراً ، بعد إغفاءة قصيرة ومتقطعة ، بدأت تكتب على طاولة المطبخ رسالة روحها الموجهة إلى رئيس الجمهورية . فاجأها شروق الشمس وهي تدون مسودة أفكار هاربة ، وكانت تبكي ، وتمزق المسودات دون أن تتوقف عن البكاء ، وتنسخها للمرة الأخيرة وسط بحر من الدموع .

وعلى عكس ما كانت قد قررته هي نفسها مسبقاً ، وجدت أنها تكتب أكثر الرسائل عقلانية وصرامة . بدأتها بالقول : «لست أنوي كتابة وثيقة علنية . إنني أريد الوصول إلى رئيس بلادي ، بالاحترام الواجب ، وأن أقوم أمامه ببعض التأملات الرصينة وأتوجه إليه بتوسل مكروب وعقلاني» . وبالرغم من الوعود الرئاسية المتكررة بعدم الإقدام مطلقاً على محاولة تحرير ديانا

بعملية مسلحة ، إلا أن نيديا سجلت ذلك خطياً في توسل يستبق الأحداث : «إن البلاد كلها تعرف ، مثلما تعرفون أنتم ، أنه إذا ما جرى اصطدام مع الخاطفين خلال إحدى عمليات البحث الجارية ، فان ذلك قد يؤدي إلى وقوع مأساة رهيبة» . ولقناعتها بأن عقبات المرسوم الثاني قد أوقفت عمليات الإفراج عن الرهائن التي بدأها الاكستراديتابليون قبل أعياد الميلاد ، نبهت نيديا الرئيس بذعر جديد وصاح : إذا لم تتخذ الحكومة قراراً فورياً لإزاحة تلك العقبات ، فإن الرهائن سيتعرضون لخطر بقاء الموضوع بين يدي الجمعية التأسيسية . وكتبت تقول : «هذا يعني أن القلق والكرب اللذين لا تقتصر معاناتهما علينا نحن ذوي الرهائن ، وإنما تشمل البلاد بأسرها ، سيمتدان إلى شهور لا نهائية قادمة» . واختتمت الرسالة بتوقير مهذب : «انطلاقاً من قناعاتي ، ومن الاحترام الذي أكنه لك باعتبارك أعلى سلطة في الأمة ، فإنني غير قادرة على التلميح إليك بمبادرة من بنات أفكاري . ولكنني أميل مع ذلك إلى التوسل إليك ، دفاعاً عن حياة أناس أبرياء ، ألا تستهتر بالخطر الذي يمثله عامل الوقت» . وبعد الانتهاء من الرسالة ونسخها بخط جيد ، شغلت ورقتين وربع ورقة ثالثة من الحجم الرسمي . وتركت نيديا ملاحظة في السكريتارية الخاصة للرئاسة ليشيروا عليها إلى أين يتوجب عليها أن تبعث الرسالة .

في صباح ذلك اليوم بالذات تسارعت العاصفة بنبأ موت زعماء عصابة آل بريسكو : الأخوين دافيد ريكاردو وارماندو ألبيرتو بريسكو لوبيث ، المتهمين باغتيال سبعة من قادة الدولة في تلك السنوات ، وبأنهم العقل المدبر لعمليات الاختطاف ، ومنها عملية اختطاف ديانا طربيه وفريقها . لقد مات أحدهما باسم مزيف هو فرانثيسكو مونيوث سيرنا ، ولكن اثوثينا ليفانو التي رأت صورته في الصحف ، تعرفت فيه على دون باتشو ، الرجل الذي كان يتابع شؤونها وشؤون ديانا خلال أسرهما . لقد كان موته وموت أخيه ، في لحظات الاضطراب تلك ، خسارة لايمكن تعويضها بالنسبة إلى اسكوبار ، ولن يتأخر في إعلان ذلك عمنياً .

قال الاكستراديتابليون في بيان متوعد إن دافيد ريكاردو لم يُقتل في معركة وإنما صرعته الشرطة باطلاق النار عليه أمام أبنائه وزوجته الحبلى . وعن أخيه ارماندو . أكد البيان أنه لم يُقتل في معركة كذلك مثلما قالت الشرطة . وإنما تم اغتياله في مزرعة في ريونيغرو . بالرغم من اصابته بالشلل نتيجة محاولة اغتيال سابقة . ويضيف البيان أن مقعده ذا العجلات ظهر بوضوح في نشرة أخبار التلفزيون المحلي .

هذا هو البيان الذي تحدث الحراس عنه إلى باتشو سانتوس . وقد أذيع يوم ٢٥ كانون الثاني مع الإعلان عن أنه سيتم إعدام رهينتين بفارق ثمانية أيام بين كلٍ منهما ، وأن أمر الإعدام الأول قد صدر بحق مارينا مونتويا . وكان الخبر مفاجئاً ، فالجميع كانوا يفترضون أن مارينا قد اغتيلت فور اختطافها في شهر أيلول .

لقد قالت نيديا متذكرة تلك الجولة الفظيعة : «هذا هو ماكنت أعنيه حين أرسلت إلى الرئيس الرسالة عن المخطوفين . فأنا لم أكن متهورة . ولامزاجية ، ولابحاجة إلى علاج نفساني . فمن سيقتلونها هي ابنتي ، وربما كان السبب هو أنني لم استطع أن أحرك من بإمكانهم الحيلولة دون ذلك» .

لم يكن يأس ألبيرتو بيياميثار أخف وطأة . «لقد كان ذلك اليوم هو أفظع يوم عشته في حياتي» ، هذا ما قاله آنذاك ، وهو مقتنع بأن الإعدامات لن تتأجل . من سيكون الضحية ؟ أهي ديانا ، أم باتشو ، أم ماروخا . أم بياتريث . أم ريتشارد ؟ إنها قرعة موت لم يكن يريد حتى مجرد تصورها . اتصل بالرئيس غافيريا وهو حانق :

- يجب على حضرتك أن توقف عمليات الملاحقة المسلحة .

فرد عليه غافيريا بهدونه الباعث على القشعريرة :

- لا يا ألبيرتو . فأنا لم ينتخبونني لأفعل ذلك .

أغلق بيياميثار الهاتف مختنقاً باحتدامه بالذات . وتساءل : « ماذا سأفعل الآن ؟ » . وكخطوة أولى طلب مساعدة الرئيسين السابقين ألفونسو

لوبيت ميتشيلسين وميسايل باسترانا والمونسينيور داريو كاتسرييون ، أسقف بيريرا . وقد أدلوا جميعهم بتصريحات علنية تعرب عن الاشمئزاز من الاكستراديتابليين وتطالب بالحفاظ على حياة الرهائن . ووجه لوبيث ميتشيلسين عبر الاذاعة الوطنية نداء الى الحكومة وإلى اسكوبار لوقف الحرب والبحث عن حل سياسي .

* * *

في ذلك الحين كانت المأساة قد حدثت . فقبل دقائق من فجر الحادي والعشرين من كانون الثاني ، كتبت ديانا الصفحة الأخيرة من يومياتها : « إننا نقترب من الشهر الخامس ، ولا أحد سوانا يعرف ما الذي يعنيه هذا الذي نحن فيه . لست أريد أن أفقد الأمل في العودة إلى البيت سليمة معافاة » .

لم تكن وحدها . فبعد اطلاق سراح اثوثينا واورلاندو طلبت من الخاطفين أن يجمعوا بينها وبين ريتشارد ، وقد استجابوا لطلبها بعد عيد الميلاد . وكان ذلك من حسن حظ كليهما . فقد صارا يتبادلان الحديث حتى الإنهاك ، ويستمعان إلى المذياع حتى الفجر ، وهكذا اكتسبا عادة النوم في النهار وممارسة الحياة في الليل . لقد علما بمصرع الأخوين بريسكو من خلال محادثة بين حارسين . كان احدهما يبكي . وكان يبدو على الآخر أنه مقتنع باقتراب النهاية ، فسأله زميله وهو يعني المخطوفين دون أي ريب : «وما الذي سنفعله بالبضاعة الآن ؟» فرد عليه الذي كان يبكي دون أي تفكير :

ـ سنجهز عليهم .

ديانا وريتشارد لم يجدا إلى النوم سبيلاً بعد تناول الفطور في ذلك اليوم . قبل أيام من ذلك كانوا قد أخبروهما بإنهم سينقلونهما إلى بيت آخر . ولم يهتما بذلك ، فخلال أقل من شهر أمضياه معاً ، كانوا قد نقلوهما إلى مخبأين قريبين تحسباً من هجمات واقعية أو متخيلة تقوم بها الشرطة . وقبل

الساعة الحادية عشرة بقليل من صباح يوم الخامس والعشرين من كانون الثاني ، كانا في غرفة ديانا يتحدثان همساً عن الحوار الذي سمعاه بين الحارسين ، عندما سمعا هدير طائرة هليكوبتر من جهة ميدلين .

كانت أجهزة الاستخبارات في الشرطة قد تلقت في الأيام الأخيرة عدة اتصالات مجهولة عن تحركات أناس مسلحين على درب سابانيتا ـ بلدية كوبا كابانا ـ وخصوصاً في مزارع ألتو دي لا كروث ، وفيللا دل روساريو ، ولابولا . ربما كان حراس ديانا وريتشارد يريدون نقلهما إلى مزرعة ألتودي لاكروث ، وهي الأكثر أماناً ، لأنها على قمة عالية ووعرة يمكن السيطرة منها على كل الوادي حتى ميدلين . نتيجة تلك الاتصالات الهاتفية ومؤشرات أخرى توصلت إليها الشرطة نفسها ، كانت قوات الشرطة على وشك مداهمة البيت . لقد كانت عملية حربية واسعة شارك فيها نقيبان ، وتسعة ضباط آخرون ، وسبعة ضباط صف ، وتسعة وتسعون جندياً ، بعضهم براً وبعضهم الآخر في أربع طائرات هليكوبتر مزودة بمدافع . ومع ذلك ، لم يهتم حراس الرهينين بطائرات الهليكوبتر ، لأنها كانت تمر بكثرة دون أن يحدث أي شيء . وفجأة أطل أحدهم من الباب وأطلق الصرخة المرعبة :

ـ لقد داهمنا القانون!

تعمدت ديانا وكذلك ريتشارد التأخر بقدر استطاعتهما لأن الوقت كان مناسباً لمجيء الشرطة : فالحراس الأربعة كانوا من أقل الحراس قسوة ، وكانوا يبدون خائفين جداً بحيث يصعب عليهم الدفاع عن أنفسهم . نظفت ديانا أسنانها بالفرشاة وارتدت قميصاً أبيض كانت قد غسلته في اليوم السابق ، وانتعلت حذاءها الرياضي ولبست بنطال البلوجينز الذي كانت ترتديه يوم اختطافها ، فوجدته واسعاً عليها لأنها فقدت من وزنها . واستبدل ريتشارد قميصه وجمع أجهزة التصوير التي كانوا قد أعادوها إليه في تلك الأيام . كان الحراس يبدون وكأنهم قد أصيبوا بمس من الجنون مع تصاعد هدير طائرات الهليكوبتر التي كانت تحلق فوق البيت ، وتبتعد باتجاه

الوادي ، ثم عادت أخيراً على ارتفاع تكاد معه أن تلامس قمم الأشجار . أخذ الحراس يستعجلون الرهينين صارخين ويدفعونهما باتجاه بوابة الخروج . ألبسوهما قبعتين بيضاوين لكي يبدوا من الجو مثل فلاحي المنطقة . وألقوا على ديانا شالاً أسود ولبس ريتشارد السترة الجلدية . أمرهما الحراس بأن يجريا نحو الجبل . وكانوا هم أنفسهم يركضون أيضاً متباعدين وأسلحتهم مهيأة ليطلقوا النار عندما تصبح الحوامات في متناول اسلحتهم . بدأت ديانا وريتشارد الصعود عبر درب حجري . وكان المرقى عسيراً جداً ، بينما كانت الشمس المتأججة تسقط كالرصاص من منتصف السماء . شعرت ديانا بالإنهاك بعد أمتار قليلة حين كانت الطائرات قد أصبحت مرئية . ومع الرشة الأولى من الرصاص انبطح ريتشارد أرضاً . وصرخت به ديانا : «لاتتحرك . تظاهر بالموت» . وفي اللحظة نفسها سقطت إلى جواره على بطنها ، وصرخت :

ـ لقد قتلوني . لا أستطيع تحريك ساقيّ .

لم تكن قادرة على ذلك بالفعل ، ولكنها لم تكن تشعر بأي ألم في الوقت نفسه . طلبت من ريتشارد أن يتفحص ظهرها لأنها قبل أن تسقط أرضاً أحست بما يشبه الشحنة الكهربائية في ظهرها . رفع ريتشارد قميصها ورأى عند مستوى قمة العظم الحرقفي الأيسر ثقباً صغيراً جداً ، واضحا ودون دم .

وحيث أن تبادل الرصاص قد استمر ، وكان يقترب أكثر فأكثر ، فقد ألحت ديانا بيأس على ريتشارد أن يتركها هناك ويهرب ، ولكنه بقي إلى جوارها بانتظار نجدة لانقاذها . وفي أثناء ذلك ، وضع في يدها تمثالاً صغيراً للعذراء كان يحمله في جيبه دائماً ، وصلى معها . توقف إطلاق النار فجأة وظهر على الدرب الضيق شرطيان من فرقة النخبة وهما يشهران سلاحيهما .

رفع ريتشارد ذراعيه وهو راكع إلى جانب ديانا وقال لهما : «لاتطلقا النار!» . فنظر إليه أحد الشرطيين بوجه تملأه دهشة عظيمة وسأله :

ـ أين بابلو ؟

فقال ريتشارد :

ـ لست أدري . أنا ريتشارد بيثيرا ، الصحفي . وهذه ديانا طربيه ، وهي جريحة .

قال أحد الشرطيين :

ـ أثبت ذلك .

فأراهما ريتشارد بطاقة هويته . وساعده الشرطيان مع بعض الفلاحين الذين ظهروا فجأة من الغابة على نقل ديانا فوق حمالة صنعوها بصورة مرتجلة من شرشف ، ووضعوها في إحدى طائرات الهليكوبتر . كان الألم قد اشتد بصورة لاتطاق ، ولكنها كانت هادئة وصاحية ، وكانت تعرف أنها ستموت .

* * *

بعد نصف ساعة من ذلك ، تلقى الرئيس الأسبق طربيه مكالمة هاتفية من مصدر عسكري ، ليخبره بأن ابنته ديانا وفرانثيسكو سانتوس قد أُنقذا بعملية قامت بها فرقة النخبة . فاتصل على الفور بهيرناندو سانتوس الذي أطلق صرخة نصر عند سماعه الخبر ، وأمر عاملي مقاسم الهاتف في جريدته بأن ينقلوا الخبر الى كل أفراد الأسرة المشتتين . ثم اتصل بعد ذلك بشقة ألبيرتو بيياميثار . ونقل إليه الخبر مثلما وصله ، فصرخ بيياميثار « يا للروعة! » . وكانت بهجته صادقة . ولكنه ما لبث أن انتبه على الفور إلى أنه بعد تحرير باتشو وديانا ، فان الشخصين اللذين يمكن إعدامهما بين الرهائن المتبقين ، هما ماروخا وبياتريث (زوجته وأخته) .

وبينما هو يجري اتصالات هاتفية مستعجلة ، فتح المذياع وتأكد من أن الخبر لم يبث على الأثير بعد . وكان سيتصل برافائيل باردو حين عاد جرس الهاتف يرن . وكان المتكلم مرة أخرى هو هيرناندو سانتوس ليقول له بجزع أن طربيه قد أعاد تصحيح الخبر الأول . فالشخص الذي أطلق سراحه ليس

فرانثيسكو سانتوس ، وإنما المصور ريتشارد بيثيرا ، كما أن ديانا مصابة بجرح بليغ . ومع ذلك فان هيرناندو سانتوس لم يكن منزعجاً من الخطأ قدر انزعاجه من طربيه الذي سبب له فرحة مزيفة .

* * *

لم تكن مارتا لوبي روخاس في بيتها عندما اتصلوا بها من التلفزيون ليطلعوها على خبر تحرير ابنها ريتشارد . كانت قد ذهبت إلى بيت اخوتها ، وكانت تتبع الأخبار بدقة لدرجة أنها حملت معها المذياع النقال الذي لم يعد يفارقها . ولكنه وللمرة الأولى منذ الاختطاف ، تعطل في ذلك اليوم .

في سيارة التاكسي التي حملتها إلى التلفزيون ، بعد أن أخبرها أحدهم بنجاة ابنها أعادها صوت الصحفي خوان غوساين إلى الواقع : لقد تأكد أن ديانا طربيه قد فارقت الحياة ، ولكن ليس هناك أي شيء واضح عن مصير ريتشارد بيثيرا . عندئذ بدأت مارتا لوبي الابتهال بصوت خافت : « رباه اجعل الرصاص يمر بجانبه ولا يصيبه » . في تلك اللحظة كان ريتشارد يحاول الاتصال من ميدلين ببيته ليخبرها بأنه قد نجا ، فلم يجدها . ولكن صرخة غوساين المنفعلة أعادت الروح إلى مارتا لوبي :

ـ خبر مستعجل! خبر مستعجل! المصور ريتشارد بيثيرا على قيد الحياة .

انفجرت مارتا لوبي بالبكاء ، ولم تستطع السيطرة على نفسها إلا في ساعة متأخرة من الليل ، حين استقبلت ابنها في مكاتب تلفزيون كريبتون . وهي تتذكر اليوم ذلك اللقاء : « لقد كان عظماً وحسب . . شاحباً ، ملتحياً ، ولكنه حي » .

* * *

كان رافائيل باردو قد تلقى الخبر قبل دقائق من ذلك ، من خلال صديق صحفي كان يريد تأكيداً لرواية عن عملية الإنقاذ . وقد اتصل بالجنرال ماثا

ماركيز ثم بمدير الشرطة الجنرال غوميث باديّا ، ولم يكن أي منهما يعرف شيئاً عن أي عملية انقاذ . وبعد لحظة اتصل به غوميث باديّا وأخبره أن العملية كانت مواجهة طارئة مع *فرقة النخبة* خلال عملية بحث عن اسكوبار . وقال غوميث باديّا إن الوحدات المشاركة لم تملك أي معلومات مسبقة عن وجود مختطفين في المكان .

منذ أن تلقى الدكتور طربيه الخبر من ميدلين ، كان يحاول الاتصال بنيديا في بيت تابيو الريفي ، ولكن الهاتف كان معطلاً هناك . فأرسل قائد حرسه في شاحنة صغيرة ليخبرها بأن ديانا قد نجت وأنها موجودة في مستشفى ميدلين من أجل إجراء فحوصات روتينية . تلقت نيديا الخبر في الساعة الثانية بعد الظهر ، وبدلاً من أن تطلق صرخة البهجة مثلما فعل بقية أفراد الأسرة ، اتخذت وضع الألم والذهول ، وهتفت :

ـ لقد قتلوا ديانا!

وفي طريق عودتها إلى بوغوتا ، وبينما هي تسمع الأخبار من المذياع ، تفاقم قلقها . وستقول فيما بعد : «واصلت البكاء . ولكن بكائي حينئذ لم يعد صراخاً مثلما كان من قبل ، وإنما دموع فقط» . توقفت في بيتها لاستبدال ملابسها قبل أن تذهب إلى المطار حيث كانت تنتظر الأسرة طائرة «فوكير» رئاسية هرمة ، تطير بفضل نعمة إلهية بعد نحو ثلاثين سنة من الأعمال الشاقة . وكان الخبر المتداول حينئذ يقول إن ديانا موضوعة تحت العناية المشددة ، ولكن نيديا لم تكن تصدق شيئاً مما يقوله أي كان باستثناء ماتقوله غريزتها . اتجهت مباشرة إلى الهاتف وطلبت التحدث إلى رئيس الجمهورية . وقالت له :

ـ لقد قتلوا ديانا أيها السيد الرئيس . وهذا من عملك ، إنه ذنبك ، إنه نتيجة روحك المتحجرة .

ابتهج الرئيس لأنه يستطيع نقض أقوالها بخبر طيب . فقال بصوت هادئ جيداً :

ـ لا ياسيدتي . يبدو أن عملية قد جرت ولا أحد لديه معلومات واضحة عن ذلك حتى الآن . ولكن ديانا على قيد الحياة .

فردت عليه نيديا :

ـ غير صحيح . لقد قتلوها .

ولكن الرئيس الذي كان على اتصال مباشر مع ميدلين لم تكن لديه أية شكوك :

ـ وكيف عرفتِ ذلك ؟

وردت نيديا بقناعة مطلقة :

ـ لأن قلب الأم يقول لي ذلك .

وقد كان قلبها صائباً . فبعد ساعة من ذلك ، كانت ماريا ايما ميخيا ، المستشارة الرئاسية لشؤون ميدلين ، تصعد إلى الطائرة التي حملت آل طربيه ، وقدمت إليهم الخبر المشؤوم . لقد ماتت ديانا نزفاً ، بعد عدة ساعات من الجهود الطبية التي كانت غير مجدية رغم كل شيء . لقد غابت عن الوعي في طائرة الهليكوبتر التي نقلتها من مكان اللقاء مع الشرطة إلى المستشفى ، ولم تستعد وعيها منذ ذلك الحين . كان هناك كسر في عمودها الفقري على مكستوى الخصر ، أحدثته رصاصة متفجرة عالية السرعة ومن العيار المتوسط انفجرت متشظية داخل جسدها فأحدثت شللاً شاملاً ما كانت ستشفى منه على الاطلاق .

كانت صدمة نيديا أكبر حين رأتها في المستشفى ، عارية على طاولة العمليات الجراحية ، إنما مغطاة بشرشف يقطر دماً ، وبوجه لا يعكس أي تعبير وبشرة بلا لون بسبب النزيف الكامل . وكان هناك شق جراحي هائل في صدرها ، حيث أدخل أحد الأطباء يده ليدلك القلب .

فور خروجها من غرفة العمليات ، وبالرغم من الألم واليأس ، دعت نيديا إلى مؤتمر صحفي قاس في المستشفى نفسه . وبدأته بالقول : « هذه قصة موت معلن » . ولقناعتها بأن ديانا كانت ضحية عملية عسكرية صدرت

الأوامر بتنفيذها من بوغوتا ـ حسب المعلومات التي قُدمت لها منذ وصولها إلى ميدلين ـ قامت بسرد مفصل لكل توسلات الأسرة وتوسلاتها هي نفسها إلى رئيس الجمهورية كي يمنع الشرطة من محاولة الانقاذ بالقوة . قالت إن جون واجرام الاكستراديتابليين هو المسؤول عن موت ابنتها ، ولكن مسؤولية مماثلة تقع على عاتق الحكومة وعلى عاتق رئيس الجمهورية بالذات . وخصوصاً الرئيس نفسه «الذي خالف باسترخاء وبفتور وعدم مبالاة تقريباً ، كل التوسلات التي طُلبت منه بعدم محاولة انقاذ المخطوفين وعدم تعريض حياتهم للخطر» .

هذا التصريح الحاسم الذي نشرته مباشرة كل وسائل الاتصال ، أثار رد فعل تضامني لدى الرأي العام ، واستياء من جانب الحكومة . استدعى الرئيس سكرتيره العام ميغيل سيلفا ، ومستشاره الأمني رافانيل باردو ، ومستشاره الصحفي ماوريثيو بارغاس . وكان هدف الاجتماع صياغة استنكار حاسم لتصريحات نيديا . ولكن تأملاً أكثر عمقاً قادهم في النتيجة إلى أنه لايمكن مواجهة آلام أم . هكذا فهم الرئيس غافيريا الأمر ، وألغى هدف الاجتماع وأصدر أمره بالقول :

ـ فلنذهب إلى الجنازة .

لم يذهب هو وحده وإنما الحكومة بكاملها .

لاحقه حقد نيديا دون هوادة . فقد أرسلت مع شخص لم تعد تتذكره رسالتها المتأخرة إلى الرئيس ـ بعد أن عرفت أن ديانا قد ماتت ـ ربما لكي يبقى عبء الإنذار المبكر عالقاً في ضميره إلى الأبد . وقد قالت : «لم أكن انتظر رداً منه» .

بعد انتهاء صلاة الجسد الحاضر في الكتدرائية ـ وهو جناز حاشد قلما حدث مثله ـ نهض الرئيس من مقعده واجتاز وحيداً الممر الأوسط تلاحقه كل العيون . ووميض فلاشات المصورين ، وكاميرات التلفزيون ، ومدّ يده إلى نيديا وهو واثق من أنها ستبقيها ممدودة في الفراغ . ولكن نيديا

صافحت اليد بفتور جليدي . وقد كان ذلك في الواقع مطمئناً لها ، لأن ما كانت تخشاه هو آن يعمد الرئيس إلى معانقتها . ولكنها بالمقابل قدرت عالياً قبلة العزاء من زوجته آنا ميلينا .

لم تكن تلك هي النهاية بعد . فما أن استراحت من التزامات الحداد ، حتى طلبت نيديا مقابلة مع الرئيس لكي تطلعه على أمر بالغ الأهمية حول موت ديانا يجب أن يعرفه قبل أن يلقي خطابه في ذلك اليوم . نقل سيلفا الرسالة بحذافيرها ، وعندئذ ابتسم الرئيس الابتسامة التي لن تراها نيديا مطلقاً ، وقال :

ـ إنها آتية لتوبخني . ولكن فلتأت ، طبعاً .

استقبلها كالعادة . وقد دخلت نيديا إلى المكتب بالفعل وهي ترتدي السواد ، وبهيئة مختلفة : فقد كانت بسيطة ومحزونة . ودخلت مباشرة في الموضوع الذي جاءت من أجله ، وجعلت الرئيس يرى ذلك منذ الجملة الأولى :

ـ لقد جئت لأقدم لك خدمة .

وكانت المفاجأة في أنها بدأت بالفعل بتقديم اعتذاراتها لأنها اعتقدت أن الرئيس نفسه هو الذي أصدر الأمر بشن العملية التي قُتلت فيها ديانا . ولكنها أصبحت تعرف الآن أنه لم يكن مطلعاً حتى على تلك العملية . وهي تريد أن تخبره كذلك بأنهم كانوا يخدعونه في ذلك اليوم ، فليس صحيحاً أن العملية كانت مكرسة للبحث عن بابلو اسكوبار ، وإنما من أجل انقاذ الرهائن الذين تم الكشف عن مكان احتجازهم من خلال تعذيب أحد القتلة الذين كانت الشرطة قد اعتقلتهم . وأوضحت نيديا أن ذلك القاتل قد ظهر فيما بعد كواحد ممن قتلوا خلال المعركة .

لقد روت القصة بحماس ودقة ، وبأمل ايقاظ اهتمام الرئيس ، ولكنها لم تلمح أي علامة شفقة في وجهه «لقد كان مثل كتلة من الجليد » هذا ما قالته فيما بعد وهي تتذكر ذلك اليوم . ودون أن تعرف السبب أو في أي لحظة ، ودون أن تتمكن من تفادي ذلك . أجهشت بالبكاء . عندئذ انكشف مزاجها

الذي كانت تخفيه ، وغيرت موضوع الحديث وأسلوبها في الكلام . فطالبت الرئيس بتوضيح لا مبالاته وفتوره في عدم تنفيذ واجبه الدستوري بإنقاذ حياة الرهائن . وانتهت إلى القول :

ـ فكر ملياً ، لو أن طفلتك هي التي كانت في تلك الظروف ، فما الذي كنت ستفعله عندئذ ؟

حدقت في عينيه مباشرة ، ولكنها كانت منفعلة جداً حينئذ بحيث لم يستطع الرئيس مقاطعتها . وسيروي هو نفسه ماحدث فيما بعد : « كانت تسألني ، ولكنها لا تترك لي متسعاً للرد » . وقد سدت عليه نيديا الطريق فعلاً بأسئلة اخرى : « ألا تعتقد أيها السيد الرئيس بأنك قد أخطأت في إدارتك لهذه المشكلة ؟ » وأبدى الرئيس للمرة الأولى ظلاً من الشك ، وسيقول بعد ذلك بسنوات : « لم أتألم مطلقاً مثلما تألمت حينذاك » . ولكنه رمش فقط في ذلك اليوم ، وقال بصوته الطبيعي :

ـ هذا ممكن .

نهضت نيديا واقفة ، ومدّت إليه يدها بصمت ، وخرجت من المكتب قبل أن يتمكن من فتح الباب لها . عندئذ دخل ميغيل سيلفا إلى غرفة المكتب ووجد الرئيس مذهولاً جداً بقصة القاتل الميت . ولكن رد فعله كان في اتخاذه القرار بكتابة رسالة خاصة إلى النائب القضائي العام لفتح تحقيق في القضية وإقرار العدالة .

* * *

معظم الأشخاص يتفقون على أن الهدف من العملية كان القبض على بابلو اسكوبار أو على أحد زعماء العصابة المهمين ، ولكن العملية ، حتى ضمن هذا المنطق ، كانت حماقة واخفاقاً لاسبيل إلى إصلاحه . فحسب رواية الشرطة الفورية ، فان ديانا قد ماتت أثناء عملية بحث بدعم من طائرات هليكوبتر وقوات برية . ودون أية معرفة مسبقة وجدوا أنفسهم في مواجهة القوة التي تحتجز ديانا

طربيه والمصور ريتشارد بييثرا . وفي أثناء الهرب ، أطلق أحد الخاطفين النار على ظهر ديانا وتسبب في كسر عمودها الفقري . وخرج المصور من العملية سليماً . وقد تم نقل ديانا إلى مستشفى ميدلين العام في طائرة هليكوبتر للشرطة ، وماتت هناك في الساعة الرابعة وخمس وثلاثين دقيقة مساء .

أما رواية بابلو اسكوبار فكانت مختلفة تماماً ، وتتفق في نقاطها الجوهرية مع الرواية التي ذكرتها نيديا للصحافة . فحسب روايته ، قامت الشرطة بالهجوم وهي تعرف أن المختطفين موجودين في المكان . وقد انتزعوا المعلومات تحت التعذيب من اثنين من رجاله حددهما باسميهما الحقيقيين ورقمي بطاقتي هويتهما . وكان هذان الرجلان ، حسب بيانه ، قد وقعا في قبضة الشرطة وأُخضعا للتعذيب ، وقد رافق أحدهما قادة العملية الهجومية في إحدى طائرات الهليكوبتر . وقال اسكوبار إن ديانا قد قُتلت على يد الشرطة وهي تهرب من المعركة ، بعد أن تحررت من خاطفيها . وقال أخيراً ، إنه قد قُتل في الاشتباك ثلاثة فلاحين أبرياء قدمتهم الشرطة للصحافة على أنهم قتلة تم القضاء عليهم في المعركة . ولا بد أن هذا التقرير قد منح اسكوبار الرضا الذي كان يأمله من استنكاره لخرق حقوق الإنسان على يد الشرطة .

* * *

الشاهد الوحيد المتوفر هو ريتشارد بييثرا ، وقد حوصر من قبل الصحفيين في ليلة المأساة نفسها في إحدى قاعات المديرية العامة للشرطة في بوغوتا . وكان مايزال بالسترة الجلدية السوداء التي كان يرتديها عند اختطافه ، وبقبعة القش التي أعطاه إياها الحراس ليبدو مثل فلاح . ولم تكن حالته المعنوية هي الأمثل لتقديم معلومات توضح القضية .

الانطباع الذي خلّفه لدى أكثر زملائه تفهماً هو أن اضطراب الأحداث لم يسمح له بتكوين رأي قاطع حول الخبر . وتصريحه بأن الطلقة التي قتلت ديانا أطلقها متعمداً أحد الخاطفين ، لم تجد أرضاً صلبة تستند إلى أي

برهان جلي . أما الاعتقاد العام ، بعيداً عن كل التكهنات ، فهو أن ديانا قد قُتلت بحادث وسط النيران المتبادلة . ومع ذلك ، فإن التحقيق النهائي يبقى من مسؤولية النائب العام في استجابته للرسالة التي بعثها إليه الرئيس غافيريا بعد الأمور التي أطلعته عليها نيديا كينتيرو .

* * *

المأساة لم تنته عند هذا الحد . فحيال القلق العام حول مصير مارينا مونتويا ، أصدر الاكستراديتابليون بياناً في الثلاثين من كانون الثاني ، اعترفوا فيه بأنهم قد أصدروا أمراً بإعدامها منذ اليوم الثالث والعشرين من الشهر نفسه . ولكن : «ولأسباب تتعلق بالسرية والاتصال ، لا تتوفر لدينا ـ حتى تاريخه ـ معلومات حول ما إذا كان قد تم إعدامها أم أُطلق سراحها . فاذا كانت قد أُعدمت فإننا لا نفهم الأسباب التي جعلت الشرطة تتكتم على جثتها . واذا كان قد أُطلق سراحها ، فإن الكلمة لأسرتها» . عندئذ فقط ، وبعد سبعة أيام من صدور الأمر باغتيالها ، بدأ البحث عن جثتها .

الطبيب الشرعي بيدرو موراليس الذي كان قد شارك في تشريح الجثة ، قرأ بيان الاكستراديتابليين في الصحف ، وخيل إليه أن جثة مارينا مونتويا هي جثة السيدة ذات الثياب الراقية والأظفار المشذبة . وقد كانت كذلك بالفعل . ومع ذلك ، ما إن تم التحقق من هوية الجثة ، حتى اتصل أحدهم قائلاً إنه من وزارة العدل ومارس الضغط بمكالمة هاتفية على معهد الطب الشرعي حتى لا يُعرف علناً أن الجثة موجودة في قبر جماعي .

كان لويس غيلليرمو بيريث مونتويا ، ابن مارينا ، خارجاً لتناول الغداء عندما سمع من المذياع الخبر الأول . وفي معهد الطب الشرعي عرضوا عليه صورة المرأة المشوهة بطلقات الرصاص وقد تكبد مشقة في التعرف عليها . وكان عليهم في المقبرة أن يتخذوا إجراءات بوليسية خاصة لأن الخبر كان قد أذيع على الاثير ، وقد اضطروا إلى شق الطريق وسط حشد من الفضوليين لكي

يصل لويس غيلليرمو بيريث إلى الحفرة .

وفق أنظمة الطب الشرعي فان جسد أي شخص مجهول يجب أن يدفن بعد طبع رقمه المتسلسل على الصدر والذراعين والساقين ليتم التعرف على الجثة في حال تفككها . ويجب أن تكون ملفوفة ببلاستيك أسود ، مثل البلاستيك المستخدم لجمع القمامة ، وأن تربط من الرسغين والمعصمين بحبال متينة . ولكن جسد مارينا مونتويا ـ مثلما رآه ابنها ـ كان عارياً ومغطى بالوحل ، ومطروحاً كيفما اتفق في القبر الجماعي ، ودون الوشم النظامي المحدد في القانون . وكانت إلى جانبها جثة الطفل الذي دفن في الوقت نفسه ملفوفة ببيجامة التعرق الوردية اللون .

وفي صالة التشريح ، بعد غسل الجثة بخرطوم ماء مضغوط ، تفحص الابن اسنانها ، ومرّ بلحظة تردد , فقد بدا له أنه يذكر أن مارينا قد فقدت ضرساً أيسر ، بينما كانت أسنان الجثة كاملة . ولكنه عندما فحص يديها ووضعهما فوق يديه لم يبق لديه أي أثر من الشك : فقد كانت الأيدي متماثلة . ولكن ارتياباً آخر ألح عليه ، وربما سيبقى إلى الأبد : فقد كان لويس غيلليرمو بيريث مقتنعاً من أنه تم التعرف على جثة أمه منذ العثور عليها ، وأنها قد أرسلت إلى القبر الجماعي دون أي إجراءات أخرى حتى لايبقى أي أثر يمكن له أن يثير قلق الرأي العام أو يزعج الحكومة .

* * *

لقد كان موت ديانا ـ حتى قبل العثور على جثة مارينا ـ ضربة نهائية لحالة البلاد . فحين رفض غافيريا تعديل المرسوم الثاني ، لم يقدم تنازلاً أمام فظاظة بيباميثار أو توسلات نيديا . وكانت حجته ، باختصار ، هي أنه لايمكن محاكمة المراسيم من خلال تأثيرها على عمليات الاختطاف وإنما من خلال تأثيرها على المصلحة العامة ، كما أن اسكوبار لا يمارس الاختطاف من أجل الضغط على عملية استسلامه وإنما من أجل عدم تسليمه إلى الولايات

المتحدة والحصول على العفو . هذه التأملات نفسها هي التي قادته بعد ذلك إلى إدخال تعديل نهائي على المرسوم . لقد كان من الصعب عليه أن يعدّل موعد المهلة الممنوحة بعد معارضته لتوسلات نيديا وللكثير من آلام الآخرين ، ولكنه قرر مواجهة الأمر .

تلقى بيياميثار الخبر من رافائيل باردو . وقد بدت له فترة الانتظار لا نهائية . لم يكن قد نعم بدقيقة أمان واحدة . فقد كان يعيش بالمذياع والتلفزيون ، وتكون راحته عظيمة حين لا يكون هناك خبر خبيث . كان يتصل بباردو في كل وقت ليسأله : « كيف يمضي الأمر ؟ » أو « إلى أين سيصل هذا الوضع ؟ » وكان باردو يسكّنه بجرعات من العقلانية . وفي كل ليلة كان يرجع إلى البيت وهو في الحالة نفسها . وكان يقول : « يجب إصدار هذا المرسوم والا فإنهم سيقتلون الجميع هنا » ، وكان باردو يهدئه . وأخيراً ، في ٢٨ كانون الثاني ، كان باردو هو الذي اتصل به ليقول له إن المرسوم النهائي ينتظر توقيع الرئيس . وسبب التأخير هو أنه يتوجب على جميع الوزراء أن يوقعوا عليه ، وأنهم لايجدون أثراً في أي مكان لوزير الاتصالات ألبيرتو كاساس سانتا ماريا . وأخيراً استطاع رافائيل باردو تحديد مكانه واتصل به هاتفياً ليقول له بموهبته كصديق قديم له :

ـ أيها السيد الوزير ، إما أن تكون هنا خلال نصف ساعة لتوقع المرسوم ، وإلا لن تعود وزيراً منذ الآن .

وفي ٢٩ كانون الثاني صدر المرسوم ٣٠٣ ، وفيه تم حلّ كل العقبات التي كانت تحول حتى ذلك الحين دون استسلام تجار المخدرات . ومثلما افترضوا في الحكومة ، فانه لم يكن ممكناً على الاطلاق كبح الاعتقاد الشائع بأن صدور المرسوم هو نتيجة تأنيب الضمير لموت ديانا . وكان هذا بدوره يؤدي ، كالعادة ، إلى مفارقات أخرى : فقد فكر البعض بأنه منحة إلى تجار المخدرات نتيجة ضغط الرأي العام المنفعل ، وفهمه آخرون على أنه تصرف رئاسي لابد منه ، وإن جاء متأخراً على أي حال بالنسبة لديانا طربيه . ولكن الرئيس

غافيريا وقّعه مع ذلك وهو مقتنع به ، وكان يعلم أن التأخر قد يُفسر على أنه دليل على انعدام الرحمة ، وأن القرار المتأخر سيعتبر عملاً يدل على الضعف .

في الساعة السابعة من صباح اليوم التالي ، ردّ الرئيس على بيياميثار ، بعد أن كان هذا الأخير قد اتصل به في اليوم السابق ليشكره على إصدار المرسوم . وقد استمع غافيريا بصمت مطلق لمبرراته ، وشاطره غمه الذي كان يشعر به يوم ٢٥ كانون الثاني قائلاً له :

ـ لقد كان يوماً عصيباً على الجميع .

عندئذ اتصل بيياميثار بالمحامي غيدو بارّا بضمير مطمئن ، وقال له : « لايمكنك أن تتفاصح الآن بالقول إن هذا المرسوم ليس بالمرسوم الجيد » وكان غيدو بارّا قد قرأه بعمق ، فقال :

ـ جيد . لم تعد هناك أي مشكلة . تأمل كم من الأشياء كنا سنتجنبها لو أن هذا حدث من قبل .

أراد بيياميثار أن يعرف ماذا ستكون الخطوة التالية :

فقال له غيدو بارّا :

ـ لم يعد هناك أي شيء . إنها مسألة ثمان وأربعين ساعة .

أعلن الاكسترادي‌تابليون على الفور أنهم سيتخلون عن تنفيذ الإعدامات المعلنة نزولاً عند طلب عدة شخصيات في البلاد . ربما كانوا يشيرون بذلك إلى النداءات الإذاعية التي وجهها إليهم لوبيث ميتشيلسين ، وباسترانا وكاستربيون . إنما كان يمكن تفسير ذلك على أنه قبول بالمرسوم . وجاء في البيان : « سنحترم حياة الرهائن الذين مازالوا في قبضتنا » . وكمنحة خاصة ، أعلنوا كذلك أنهم سيطلقون سراح رهين في الساعات الأولى من هذا اليوم . بيياميثار الذي كان آنذاك مع غيدو بارّا ، قفز مصعوقاً وصرخ به :

ـ كيف يقولون واحداً فقط . لقد قلت لي بأن الجميع سيخرجون .

فقال له :

ـ اهدأ يا ألبيرتو . إنها مسألة ثمانية أيام .

- ٧ -

لم تكن ماروخا وبياتريث قد علمتا بأمر القتيلتين . فدون تلفزيون ولا مذياع ، ودون أي معلومات اخرى سوى معلومات العدو ، كان من المستحيل تخمين الحقيقة . وقد قوضت تناقضات الحراس أنفسهم رواية نقل مارينا إلى مزرعة أخرى ، بحيث صار أي تخمين آخر يؤدي إلى الطريق المسدود نفسه : فإما أنها طليقة وإما أنها ميتة . وهذا يعني أنهما كانتا ، من قبل ، الوحيدتين اللتين تعرفان أن مارينا مازالت على قيد الحياة ، أما الآن فهما الوحيدتان اللتان لاتعرفان أنها قد ماتت .

تحول السرير الخاوي إلى شبح أمام عدم تأكدهما مما فعلوه بمارينا . كان «الكاهن» قد رجع بعد نصف ساعة من اقتيادها . دخل مثل ظلٍ وانزوى في أحد الأركان . سألته بياتريث مباشرة :

- ماذا فعلتم بمارينا ؟

فأخبرها «الكاهن» بأنه حين خرج معها كان ينتظره في المرآب زعيمان جديدان لم يدخلا الغرفة . وحين سألهما إلى أين سيأخذانها ، رد عليه أحدهما غاضباً : «لا أحد هنا يوجه أسئلة يا ابن أعظم عاهرة» . وأمراه بعد ذلك بالرجوع إلى البيت وبأن يترك مارينا مع باراباس ، الحارس الآخر المناوب .

كانت الرواية تبدو مقنعة للوهلة الأولى . فليس من السهل أن يكون قد

أتيح للكاهن الوقت للذهاب والرجوع خلال ذلك الوقت القصير لو أنه شارك في الجريمة ، ولم يكن من السهل الاقتناع بإن قلبه سيطاوعه في قتل إمرأة منهارة كان يحبها كما يبدو مثل جدته وكانت هي تدلله مثل حفيدها . أما باراباس بالمقابل فكان مشهوراً بدمويته وقسوة قلبه ، وكان هو نفسه يفاخر بجرائمه . وقد أصبحت الشكوك أكثر اثارة للقلق عند الفجر ، حين استيقظت ماروخا وبياتريث على نواح حيوان جريح ، لقد كان الكاهن ينتحب . لم يشأ تناول الفطور ، وسُمع وهو يزفر عدة مرات : « كم مؤلم أنهم قد أخذوا الجدة! » ومع ذلك ، فإنه لم يلمح مطلقاً إلى أنها قد ماتت . وحتى العناد الذي كان يصر به « الوكيل » على عدم إعادة التلفزيون والمذياع ، كان يزيد الشكوك باغتيالها .

وبعد غيابها عدة أيام عن البيت ، رجعت داماريس في حالة معنوية أضافت عنصراً آخر على البلبلة . ففي أثناء المشي في فجر أحد الأيام ، سألتها ماروخا أين كانت ، وردت عليها داماريس بالصوت نفسه الذي كانت ستقول به الحقيقة : « كنت أعتني بدونيا مارينا » ثم أضافت على الفور بنبرة أكثر عرضية ، بأن باراباس لم يرجع لأنه المسؤول عن أمنها . ومنذ ذلك الحين ، صارت داماريس كلما خرجت إلى الشارع لأي سبب ، تعود بأخبار جديدة تكون أقل إقناعاً كلما كانت حماستها أشد في الكلام . وكانت كل تلك الأخبار تنتهي بصيغة طقسية :

ـ دونيا ماروخا في حالة رائعة .

لم يكن لدى ماروخا سبب يجعلها تصدق داماريس أكثر مما تصدق الكاهن ، أو أي واحد من الحراس ، ولكن لم يكن لديها سبب كذلك لعدم تصديقهم في ظروف يبدو فيها كل شيء محتملاً . فإذا كانت مارينا ما تزال حية ، فليس هناك مبرر لابقاء الرهينتين دون أخبار ودون ما يسليهما ، اللهم إلا إذا كانوا يريدون أن يخفوا عنهما حقائق أخرى أسوأ بكثير .

لم يكن هناك ماهو أكثر بلبلة بالنسبة لمخيلة ماروخا التائهة . لقد كانت

تخفي مخاوفها حتى ذلك الحين عن بياتريث ، لخشيتها من ألا تستطيع تحمل الحقيقة . ولكن بياتريث كانت بمنجى من أي عدوى . فقد رفضت منذ البداية أن تتقبل أي شكوك بموت مارينا . وكانت أحلامها تساعدها في ذلك . فقد كانت تحلم بأن أخاها ألبرتو ، واقعياً كما هو في الحياة ، يروي لها تفاصيل مساعيه ، ويخبرها أن الأمور تجري على مايرام ، وانه لم يبق إلا القليل جداً لإطلاق سراحهما . وكاتن تحلم بأبيها يطمئنها بأن بطاقات الاعتماد التي نسيتها في حقيبتها قد أصبحت في أيد أمينة . لقد كانت رؤى معاشة إلى حد لاتستطيع معه أن تميزها عن الواقع في ذكرياتها .

في تلك الأيام كان هناك حارس شاب في السابعة عشرة من عمره ، يقول إن اسمه جوناس ، وكان على وشك إنهاء فترة عمله في حراسة ماروخا وبياتريث . لقد كان يستمع إلى الموسيقى منذ الساعة السابعة صباحاً من آلة تسجيل ترافق صوتها خنّة . وكانت له أغنيات مفضلة يكررها حتى الإنهاك بصوت يبعث على الجنون . وفي أثناء ذلك ، وكجزء من الكورس ، كان يصرخ بأعلى صوته : «حياة ابنة عاهرة ، لست أدري ما الذي جعلني أحشر نفسي في هذا كله» . وفي لحظات الهدوء كان يحدث بياتريث عن أسرته . ولكنه كان يصل إلى شفير الهاوية فقط مطلقاً زفرة عميقة : «لوعرفتم من هو أبي!» ولم يقل من هو أبوه مطلقاً ، ولكن هذا اللغز وغيره كثير من ألغاز الحراس كانت تسهم في زيادة أجواء الغموض في الغرفة .

لابد أن «الوكيل» المسؤول عن حفظ الانسجام البيتي ، قد أبلغ رؤساءه بأجواء القلق المخيمة ، فقد ظهر في تلك الأيام اثنان منهم وأبديا ميلاً إلى المصالحة . رفضا مرة أخرى إعادة المذياع والتلفزيون ، ولكنهما حاولا بالمقابل تحسين ظروف الحياة اليومية ووعدا بإحضار كتب ، ولكنهما لم يحضرا إلا القليل منها ، ومن بينها رواية لكورين تييادو . وجاءتهما مجلات تسلية ، ولكن أياً منها لم تكن حديثة الصدور . وضعوا مصباحاً كهربائياً كبيراً حيث كان المصباح الأزرق من قبل ، وأمروا بإشعاله لمدة ساعة في السابعة

صباحاً ولساعة أخرى في السابعة ليلاً لكي تتمكن ماروخا وبياتريث من القراءة ، ولكنهما كانتا قد اعتادتا على العتمة إلى حد لم تستطيعا معه تحمل الإنارة القوية . كما إن المصباح كان يسخن هواء الغرفة إلى حد لايطاق .

أسلمت ماروخا نفسها لخمود اليانسين . فكانت تتظاهر بالنوم ليلاً ونهاراً على الفرشة ، مديرة وجهها إلى الجدار حتى لا تضطر إلى التكلم . وكانت لا تكاد تأكل . أما بياتريث ، فقد احتلت السرير الفارغ ، ولجأت إلى الكلمات المتقاطعة والأحاجي في المجلات . لقد كان الواقع فظاً ومؤلماً ، ولكنه كان الواقع : فقد أصبح هناك في الغرفة متسع لأربعة أشخاص أكثر مما كان لخمسة أشخاص ، وصار التوتر أقل ، والهواء الذي يتنفسونه أكثر .

أنهى جوناس فترته في أواخر شهر كانون الثاني وودّع الرهينتين مقدما لهما دليلاً على ثقته بهما : « أريد أن أخبركما بشيء شريطة ألا يعرف أحد من الذي أخبركما » ، قال لهما ذلك محذراً ، ثم أفلت الخبر الذي كان ينهشه من الداخل .

ـ لقد قتلوا دونيا ديانا طربيه .

أيقظهما الخبر بعنف . فكانت تلك اللحظة بالنسبة إلى ماروخا أكثر لحظات أسرها فظاعة . وحاولت بياتريث ألا تفكر في الأمر الذي صار محتماً : « إذا كانوا قد قتلوا ديانا ، فسأكون أنا التالية » . وهي في نهاية المطاف ، ومنذ بداية السنة الجديدة ، حين لم يطلقوا سراحهما في نهاية السنة الفائتة ، كانت قد قالت : « إما أن يطلقوا سراحي وإما أن أسلم نفسي للموت » .

في أحد تلك الأيام ، وبينما كانت ماروخا تلعب الدومينو مع أحد الحراس ، راح الغوريلا يلمس عدة مواقع من صدره باصبعه السبابة ويقول : « أشعر بشيء قبيح هنا . ماذا عساه يكون ؟ » . فقطعت ماروخا اللعب ، ونظرت إليه بكل الاحتقار الذي تستطيعه وقالت : « إما انها غازات أو أزمة قلبية » . أفلت الغوريلا رشاشه على الأرض ، ونهض مذعوراً ، ثم وضع يده المفتوحة بأصابعها المبسوطة على صدره ، وأطلق صرخة مدوية :

ـ اللعنة ، قلبي يؤلمني!

انهار فوق بقايا الفطور ، وبقي مطروحاً على بطنه . كانت بياتريث تعرف أنه يكرهها ، وأحست بدافع المساعدة المهني ، ولكن «الوكيل» وزوجته دخلا في تلك اللحظة وقد أفزعتهما الصرخة وجلبة السقوط . الحارس الآخر الذي كان ضنيلاً وضعيفاً ، حاول أن يعمل شيئاً ، ولكن مسدسه الرشاش كان يعوقه ، فسلمه إلى بياتريث قائلا لها :

ـ ستكونين مسؤولة أمامي عن دونيا ماروخا .

لم يتمكن هو والوكيل وداماريس من حمل الحارس المطروح على الأرض . فسحبوه كيفما استطاعوا إلى الصالة . بياتريث التي كانت تحمل المسدس الرشاش في يدها ، وماروخا المذهولة ، نظرتا إلى رشاش الحارس الآخر المهجور على الأرض ، وهزهما الوسواس نفسه . كانت ماروخا تعرف كيفية إطلاق النار من مسدس ، وقد شرحوا لها يوماً كيفية استخدام الرشاش ، ولكن صحوة من العناية الإلهية منعتها من التقاط الرشاش عن الأرض . أما بياتريث من جهتها ، فكانت متآلفة مع الممارسات العسكرية . ففي تدريبات استمرت خمس سنوات ، مرتين كل اسبوع ، تدرجت من رتبة ملازم إلى ملازم أول ، ووصلت إلى رتبة نقيب في المستشفى العسكري حيث كانت تعمل . وكانت قد اجتازت دورة خاصة في المدفعية . ولكنها أدركت هي أيضاً أنهما تملكان كل الأوراق الخاسرة . وقد لقيت كلتاهما العزاء في فكرة أن الغوريلا لن يرجع مطلقاً . ولم يرجع بالفعل .

* * *

عندما شاهد باتشو سانتوس جنازة ديانا واختفاء أثر مارينا مونتويا في التلفزيون ، أدرك أنه لم يبق له خيار آخر سوى الهرب . وكانت قدتكونت لديه حتى ذلك الحين فكرة عن المكان الذي هو فيه . فمن خلال محادثات الحراس وإهمالهم ، ومن خلال فنون الصحفي الأخرى ، استطاع التوصل إلى

أنه في بيت على ناصية ، في أحد الأحياء الفسيحة والشعبية غربي بوغوتا . وكانت غرفته هي الأولى في طابق ثانٍ ونافذتها المختومة بألواح خشبية تطل على الخارج . وانتبه إلى أنه في بيت مستأجر ، وربما كان عقد الإيجار غير شرعي ، لأن صاحبة البيت كانت تأتي في بداية كل شهر وتقبض قيمة الإيجار . وكانت الشخص الوحيد الغريب الذي يدخل إلى البيت ويخرج منه ، وقبل أن يفتح لها الحراس الباب الخارجي كانوا يصعدون ويقيدون باتشو إلى السرير ، ويجبرونه بالتهديد على البقاء في صمت مطبق ، ويطفئون المذياع والتلفزيون .

وكان قد توصل إلى أن النافذة المغلقة في الغرفة تطل على حديقة ، وأن هناك بوابة للخروج في نهاية ممر ضيق حيث توجد المرافق الصحية . وكان يتمتع بمطلق الحرية في استخدام الحمام دون أي حراسة . وبمجرد اجتياز الممر فقط ، إنما عليه أن يطلب قبل ذلك أن يفكوا قيوده . وكانت الكوة الوحيدة في الحمام هي نافذة يمكن رؤية السماء منها ، فهي عالية جداً ، لن يكون من السهل الوصول إليها ، ولكن قطرها كافٍ للخروج منها . ولم تكن لديه حتى ذلك الحين فكرة عن المكان الذي تؤدي إليه . وفي الغرفة المجاورة ، المقسومة بحاجز معدني أحمر ، كان ينام الحراس غير المناوبين . وحيث أن عددهم كان أربعة حراس فقد كانوا يتناوبون الحراسة اثنين كل ست ساعات . ولم تكن أسلحتهم ظاهرة للعيان أبداً في الحياة اليومية ، مع أنهم كانوا يحملونها معهم على الدوام . وكان واحد منهم فقط ينام على الأرض إلى جوار السرير الزوجي .

وقد توصل كذلك إلى أنه قريب من مصنع ، فقد كان يسمع صفارته عدة مرات في اليوم ، ومن خلال الغناء الجماعي والصخب في الباحة عرف أنه قريب من مدرسة . وفي إحدى المرات طلب أن يأتوه ببيتزا ، فجاؤوا بها خلال أقل من خمس دقائق ، وهكذا عرف أن هناك من يصنعها ويبيعها في مكان قريب جداً . وكانوا يشترون له الصحف دون ريب من الجهة الأخرى للشارع ومن

محل كبير ، لأنهم يبيعون هناك كذلك مجلتي *التايم ونيوزويك* . وكانت توقظه خلال الليل رائحة الخبز الطازج المنبعثة من فرن قريب . ومن خلال أسئلة مخادعة تمكن أن يعرف من الحراس أنه في دائرة قطرها مئة متر في محيط البيت ، توجد صيدلية ، وورشة لإصلاح السيارات ، وحانتان ، ومطعم شعبي ، واسكافي يصلح الأحذية وموقفا باص . من هذه المعلومات وغيرها من التفاصيل الكثيرة التي جمعها بصورة متفرقة ، حاول أن يركّب أجزاء السبل التي سيستخدمها للهرب .

لقد قال له أحد الحراس يوماً إنه في حالة مداهمة القانون لهم ، فإن لديهم أوامر بالدخول قبل كل شيء إلى الغرفة واطلاق ثلاث رصاصات عليه عن قرب : رصاصة في الرأس ، وثانية في القلب ، وأخرى في الكبد . ومذ عرف ذلك تمكن من الاحتفاظ بزجاجة مياه غازية سعتها ليتر ، وأبقاها في متناول يده لكي يستخدمها كمدقة للدفاع عن نفسه . لقد كانت تلك الزجاجة هي السلاح الوحيد المتوفر .

وقد منحه الشطرنج ـ الذي علمه إياه أحد الحراس بموهبة بارزة ـ امكانية جديدة لقياس الوقت . وكان حارس آخر ، من ناوبوا على حراسته في شهر تشرين الأول ، خبيراً في المسلسلات التلفزيونية وقد دربه على إدمان متابعتها دون الاهتمام بما إذا كانت جيدة أو سيئة . والسر في ذلك يكمن في عدم الاهتمام بحلقة اليوم وإنما التدرب على تخيل المفاجآت التي ستتضمنها حلقة الغد . وكانا يريان معاً برنامج الكسندرا ، ويستمعان إلى نشرات أخبار الاذاعة والتلفزيون .

كان حارس آخر قد انتزع منه عشرين ألف بيزو كان يحملها في جيبه يوم اختطافه ، وكتعويض عن ذلك وعده بأن يأتيه بكل مايطلبه ، وخصوصاً الكتب : وقد أحضر له عدداً من كتب ميلان كونديرا ، والجريمة والعقاب ، وسيرة حياة الجنرال سانتاندير من تأليف بيلار مورينو دي انخل . وربما كان الكولومبي الوحيد من جيله الذي سمع باسم خوسيه ماريا بارغاس بيلا ،

الكاتب الكولومبي الأوسع شهرة في العالم في أوائل القرن ، وقد تأثر بكتبه إلى حد ذرف الدموع . لقد قرأ كل مؤلفاته تقريباً ، وكان يسرقها له أحد الحراس من مكتبة جده . وقد تبادل مراسلات مسلية مع أم حارس آخر استمرت عدة أشهر إلى أن حظر مسؤولو الأمن ذلك . وكانت وجبة القراءة تكتمل بالصحف اليومية التي يأتونه بها بعد الظهر وهي غير مطوية . وكان لدى الحارس الذي يأتيه بالصحف حقد في الاحشاء ضد الصحفيين ، وخصوصاً ضد مقدم برامج مشهور في التلفزيون . فقد كان يصوب إليه رشاشه حين يظهر على الشاشة ويقول :

ـ إنني مستعد لقتله مجاناً .

لم ير باتشو زعماء الخاطفين مطلقاً . كان يعرف أنهم يأتون من وقت لآخر ، وإن كانوا لم يصعدوا أبداً إلى الغرفة ، فقد كانوا يعقدون اجتماعات للرقابة في مقهى في تشابينيرو . ولكنه استطاع أن يقيم مع الحراس بالمقابل علاقة طوارئ . لقد كانوا يملكون سلطة التحكم بالحياة والموت ، ولكنهم اعترفوا له على الدوام بالحق في مناقشة بعض ظروف الحياة . وفي كل يوم تقريباً كان يكسب بعض تلك الظروف أو يخسر أخرى غيرها . فقد خسر حتى النهاية التخلص من شرط النوم مقيداً ، ولكنه كسب ثقتهم في أثناء لعبة «الريميس» ، وهي لعبة صبيانية ذات خدع بسيطة تتلخص في ترتيب أوراق اللعب في مجموعات من ثلاث أوراق متماثلة أو في مجموعات متسلسلة من عشر أوراق . وكان هناك زعيم غير مرئي يرسل إليهم كل خمسة عشر يوماً مئة ألف بيزو كسلفة يتقاسمونها فيما بينهم ليلعبوا . وكان باتشو يخسر دائماً . وبعد ستة أشهر فقط اعترفوا له بأنهم كانوا يمارسون الخداع ، وأنهم إذا كانوا قد سمحوا له بالربح في بعض المرات ، فلأنهم كانوا يريدونه ألا يفقد الحماسة . لقد كانت الخدع عبارة عن لعبة خفة يد كالتي يمارسها المشعوذون .

هكذا كانت تمضي حياته حتى بداية السنة الجديدة . فمنذ اليوم الأول

أدرك أن الاختطاف قد يطول ، وكانت علاقته بالحراس قد جعلته يفكر في أنه سيتمكن من التحمل . ولكن موت ديانا وماريna هزم تفاؤله . فالحراس أنفسهم الذين كانوا يشجعونه في السابق ، صاروا يعودون من الشارع بمعنويات منهارة . وكان كل شيء يبدو متوقفاً بانتظار انعقاد الجمعية التأسيسية التي ستتخذ موقفاً من تسليم المطلوبين إلى الولايات المتحدة والعفو عنهم . عندئذ لم تعد لديه شكوك في أن خيار الهرب كان ممكناً . ولكن بشرط واحد : أن يلجأ إلى تلك المحاولة حين يرى أن كل الخيارات الأخرى قد أُغلقت .

كان الأفق قد أُغلق أيضاً أمام ماروخا وبياتريث بعد الأوهام التي راودتهما في شهر كانون الأول ، ولكنه انفتح من جديد في أواخر شهر كانون الثاني مع الاشاعات القائلة بامكانية الإفراج عن رهينتين . كانتا في تلك الأثناء تجهلان عدد الرهائن المتبقين أو إذا ما كان هناك بعض الرهائن الجدد . اعتبرت ماروخا أن من سيطلق سراحها ستكون بياتريث . وفي ليلة الثاني من شباط ، في أثناء المسير في الفناء ، أكدت داماريس ذلك . لقد كانت واثقة من الأمر لدرجة أنها اشترت من السوق قلم أحمر شفاه وأصبغة وظلاً للجفون ، وبعض صغائر التجميل الاخرى من أجل يوم خروجهما . وقد نزعت بياتريث شعر ساقيها خشية ألا تجد متسعاً من الوقت في اللحظة الأخيرة .

ومع ذلك ، فإن زعيمين زاراهما في اليوم التالي لم يحددا بصورة مؤكدة من هي التي سيطلق سراحها ، بل ولم يحددا إذا ما كان سيتم فعلاً الإفراج عن احداهما . كان يبدو عليهما علو المقام . فقد كانا مختلفين وأكثر قدرة على التواصل من كل من سبقوهما . وقد أكدا بأنه قد تم الإعلان في بيان للاكسترادیتابليين أنه سيجري الإفراج عن رهينين ، ولكن قد تكون ظهرت بعض العوائق غير المنتظرة . فتذكرت الأسيرتان عندئذ الوعود السابقة بتحريرهما في التاسع من كانون الأول التي لم تنجز أيضاً .

بدأ الزعيمان الجديدان بخلق جو من التفاؤل . فكانا يدخلان في أي

وقت بصخب ليس له أساس جدي ، ويقولان : «الأمور تمضي على مايرام» . ويعلقان على أخبار اليوم بحماسة طفولية ، ولكنهما يرفضان إعادة المذياع والتلفزيون ليتسنى للمخطوفتين معرفة الأخبار مباشرة . وفي إحدى الليالي ودّعهما أحد الزعيمين ، بخبث أو بحماقة ، بعبارة كان يمكن لها أن تقتلهما رعباً لمعناها المزدوج : «اطمئنا يا سيدتيَ ، فالأمر سيكون سريعاً جدا» .

كان توتراً استمر أربعة أيام ، راحوا خلالها يقدمون لهما فتات الخبر شيئاً فشيئاً . في اليوم الثالث قالوا إنهم سيطلقون سراح رهين واحد فقط . وإن هذا الرهين قد يكون بياتريث لأنهم سيحتفظون بفرانثيسكو سانتوس وماروخا لأمر أكبر . وكان مايثير غمهما هو أنهما لا تستطيعان مقارنة هذه الأخبار مع الاخبار في الخارج . وخصوصاً مع ألبرتو الذي ربما كان يعرف أفضل من الزعيمين نفسيهما الأسباب الحقيقية لذلك التردد .

وأخيرا ، في السابع من شباط ، جاءا في وقت أبكر من المعتاد وكشفا اللعبة : ستخرج بياتريث . وعلى ماروخا أن تنتظر أسبوعاً آخر . وقد قال أحد المقنّعين : «ماتزال هناك بعض التفاصيل» . وأصيبت بياتريث بنوبة ثرثرة أرهقت الزعيمين ، ثم «الوكيل« وزوجته ، وأخيراً الحراس . لم تولها ماروخا أي اهتمام ، وقد أحست بجرح حقد أصم ضد زوجها ، بسبب الفكرة العابرة بأنه فضل تحرير أخته قبلها . وقعت فريسة الحقد طوال بعد الظهر ، وبقيت جذواته ساخنة لعدة أيام .

أمضت تلك الليلة وهي تلقن بياتريث كيف يجب عليها أن تروي لألبيرتو بيياميثار تفاصيل الاختطاف ، والطريقة التي يجب عليه التصرف بها من أجل أمن الجميع . فأي خطأ ، مهما بدا بريئاً ، يمكنه أن يكلف حياة بشرية . وهكذا ، فإنه على بياتريث أن تقص على اخيها الرواية المقتضبة والصادقة للوضع دون التقليل أو المبالغة في شيء يمكن أن يجعله أقل معاناة أو أكثر قلقاً : الحقيقة مثلما هي . وما يتوجب عليها عدم قوله هو أي معلومات قد تتيح تحديد المكان الذي هما فيه . استاءت بياتريث لهذا الطلب :

ـ أتعنين أنك غير واثقة من أخي ؟

فقالت ماروخا :

ـ بل أثق به أكثر من أي أحد في الدنيا . ولكن ما أقوله هو عهد بيني وبينك فقط ، ولا أحد سوانا . وأنت مسؤولة بألا يعرف أحد هذا المكان .

لقد كان خوفها يستند إلى أساس واقعي . فهي تعرف طبع زوجها المندفع ، وكانت تريد من أجل مصلحة كليهما ومصلحة الجميع أن تتفادى عملية إنقاذ تقوم بها قوى الأمن العام . وكانت هناك رسالة أخرى تريد نقلها إلى ألبيرتو لكي يستفسر إذا ما كانت للدواء الذي تتناوله أية آثار جانبية . وأمضتا بقية تلك الليلة في إعداد نظام أكثر فعالية لترميز الرسائل عبر الإذاعة والتلفزيون ، وتحسباً لاحتمال السماح بتبادل الرسائل الخطية في المستقبل . ومع ذلك ، فقد كانت تملي في أعماق روحها وصية : ما الذي يجب عمله لأبنائها ، ولتحفها الأثرية ، وأشيائها العادية التي تحتاج لاهتمام خاص . وقد كانت محتدة إلى حد دفع أحد الحراس الذين سمعوها إلى الإسراع بالقول لها :

ـ اطمئني . فأنت لن يحدث لك شيء .

في اليوم التالي انتظرتا بجزع أكبر ، ولكن شيئاً لم يحدث . وواصلتا الحديث في المساء . وأخيراً ، في الساعة السابعة ليلاً ، فُتح الباب فجأة ودخل الزعيمان المعروفان ، وثالث جديد ، وتوجهوا مباشرة إلى بياتريث :

ـ لقد جئنا من أجلك ، جهزي نفسك .

ارتعبت بياتريث لتلك الإعادة المرعبة لما حدث في الليلة التي أخذوا فيها مارينا : الباب نفسه الذي انفتح ، الجملة نفسها التي يمكن أن يفهم منها أنها ستخرج إلى الحرية أو إلى الموت ، واللغز نفسه حول مصيرها . لم تفهم لماذا قالوا لمارينا ، ثم لها : «لقد جئنا من أجلك» بدلاً من يقولوا ما كانت تتلهف إلى سماعه : «سنُطلق سراحك» . حاولت أن تدفعهم إلى قول ذلك بمكر ، فسألتهم :

ـ هل ستطلقون سراحي مثل مارينا ؟

تشنج الزعماء الثلاثة ، ورد عليها أحدهم بزمجرة خشنة :

ـ لا توجهي أسئلة! فماذا يدريني أنا بهذا!

وقال آخر أكثر إقناعا :

ـ لا علاقة بين حالة وأخرى . هذه سياسة .

الكلمة التي كانت بياتريث تتلهف لسماعها ـ حرية ـ لم تُقل . ولكن الجو كان مشجعاً . لم يكن الزعماء مستعجلين . أحضرت لهم داماريس التي كانت ترتدي تنورة تلميذة مرطبات غازية وقالب حلوى للوداع . وقد تحدثوا عن خبر اليوم الذي كانت الأسيرتان تجهلانه : ففي بوغوتا ، وفي عمليتين منفصلتين ، جرى اختطاف الصناعيين لورينثو كينغ ماثويرا وادواردو بويانا ، ويبدو أن الخاطفين هم من الاكسترادِيتابليين . ولكنهم أخبروهما كذلك بأن بابلو اسكوبار يتلهف لتسليم نفسه بعد كل ذلك الوقت من العيش في مهب الريح . بل وفي أنفاق المجاري كما يقال . ووعدوا بإعادة المذياع والتلفزيون إلى ماروخا في تلك الليلة بالذات لكي تتمكن من رؤية بياتريث محاطة بأفراد أسرتها .

بدا تحليل ماروخا عقلانياً . فقد كانت تشك حتى ذلك الحين في إعدام مارينا ، ولكن لم يبق لديها في تلك الليلة أي شك في اختلاف الطقوس في كلتا الحالتين . فمن أجل مارينا لم يحضر زعماء لتهدئة الخواطر قبل عدة أيام من أخذها . ولم يأت زعماء كذلك لأخذها ، وإنما أرسلو قاتلين عاديين لايتمتعان بأية سلطات ولديهما خمس دقائق فقط لتنفيذ الأمر . والوداع بالحلوى والنبيذ الذي أقاموه لبياتريث سيكون تكريماً جهنمياً لو أنهم سيقتلونها . وفي اليوم الذي أخذوا فيه مارينا انتزعوا منهما التلفزيون والمذياع حتى لاتعلمان بأمر إعدامها ، وهم يعرضون عليها الآن إعادتهما لمحو آثار ذلك الخبر السيء بخبر جديد طيب . واستنتجت ماروخا عندئذ دون مزيد من اللف والدوران أن مارينا قد أُعدمت وأن بياتريث ستخرج طليقة .

منحها الزعماء عشر دقائق لترتب نفسها ريثما يذهبون هم لتناول القهوة . ولم يكن بإمكان بياتريث أن تتحاشى فكرة أنها قد عادت لتعيش الليلة الأخيرة التي عاشتها مارينا . طلبت مرآة لتتجمل . فأحضرت لها داماريس مرآة كبيرة لها إطار مذهب . فسارعت ماروخا وبياتريث لرؤية نفسيهما بعد ثلاثة شهور أمضتاها دون مرآة . وقد كانت تلك واحدة من أكثر تجارب الأسر رعباً . فقد خيل لماروخا أنها لن تتعرف على نفسها لو أنها التقت بنفسها في الشارع . وقد قالت فيما بعد «لقد متُّ رعباً ، فقد رأيت نفسي مهزولة ، مجهولة ، وكأنني قد تنكرت في شخصية مسرحية» . ورأت بياتريث نفسها شاحبة ، ووزنها أقل بعشرة كيلوغرامات ، وشعرها طويل وذاوٍ ، فصاحت مذعورة : «هذه ليست أنا!» . في مرات كثيرة سابقة ، وما بين المزاح والجد ، كانت تعبر عن الشعور بالخجل إذا ما أطلقوا سراحها وهي في تلك الحالة السيئة ، ولكنها لم تتصور مطلقاً أنها قد أصبحت بذلك السوء في الواقع . وقد ساء الوضع أكثر بعد ذلك ، لأن أحد الزعماء الثلاثة أشعل المصباح الكبير ، فأصبح جو الغرفة أكثر شؤماً .

أمسك أحد الحراس المرآة لتتمكن بياتريث من تسريح شعرها . وأرادت أن تجمل وجهها بالمساحيق ، ولكن ماروخا منعتها ، وقالت لها مستنكرة : «كيف يخطر لك ذلك! هل تفكرين بوضع هذه المساحيق وأنت بهذا الشحوب ؟ سيكون مظهرك مريعاً» . وقد عملت بياتريث بنصيحتها . وقد تعطرت هي كذلك بالعطر الرجالي الذي أهداها إياه لامبارون . وأخيراً ابتلعت حبة مهدئ دون ماء .

كانت ملابسها التي كانت ترتديها يوم الاختطاف في كيسها مع أمتعتها الشخصية ، ولكنها فضلت البقاء ببيجاما التعرق الوردية الأقل استخداماً . ترددت في انتعال حذائها المسطح الذي كان قد تجعد وهو تحت السرير ، كما أنه لم يكن يتناسب مع البيجاما . فأرادت داماريس أن تقدم لها حذاء رياضياً ولكن مظهره كان بائساً جداً . فرفضته بياتريث بحجة أنه ضيق على

قدميها . وهكذا انتعلت حذاءها المسطح ، وربطت شعرها على شكل ذيل بشريطة مطاطية . وأخيراً ، بفضل كل ذلك البؤس ، بدت بمظهر تلميذة مدرسية .

لم يضعوا لها قناعاً مثل مارينا ، وإنما حاولوا أن يغمموا عينيها بشريط لاصق عريض حتى لا تستطيع التعرف على الطريق أو الوجوه . ولكنها اعترضت لإدراكها بأنهم عند انتزاعه سينتزعون معه حاجبيها ورموشها ، وقالت لهم : « انتظروا . سوف أساعدكم » . ووضعت عندئذ قطعة قطن كبيرة فوق كل عين وثبتوا القطن بالشريط اللاصق .

كان الوداع سريعاً ودون دموع . لقد كانت بياتريث على وشك البكاء ، ولكن ماروخا حالت دون ذلك بفتور محسوب لكي تمنحها الشجاعة ، وقالت لها : « قولي لألبيرتو أن يطمئن ، وأنني أحبه كثيراً ، وأحب أبنائي كثيراً » . ودعتها بقبلة . وكلتاهما تألمتا . بياتريث لأنها أحست برعب في اللحظة الأخيرة بأنه ربما كان من الأسهل عليهم أن يقتلوها بدل أن يطلقوا سراحها . وماروخا بسبب الرعب المزدوج من أن يقتلوا بياتريث ، ومن بقائها وحيدة مع الحراس الأربعة . ولكن الشيء الوحيد الذي لم يخطر ببالها هو أن يقوموا بإعدامها بعد أن يطلقوا سراح بياتريث .

أُغلق الباب ، وبقيت ماروخا متجمدة دون أن تدري من أين ستواصل حياتها ، إلى أن سمعت صوت المحركات في المرآب ، وصدى السيارات الذي راح يتلاشى في الليل . استولى عليها إحساس هائل بالهجران . وعندئذ فقط تذكرت أنهم لم ينفذوا وعدهم بإعادة التلفزيون والمذياع لتعرف نهاية تلك الليلة .

كان « الوكيل » قد ذهب مع بياتريث ، ولكن زوجته وعدتها بإجراء اتصال هاتفي لطلب الاذن بإحضار التلفزيون والمذياع قبل نشرة أخبار الساعة التاسعة والنصف . ولكنهم لم يحضروهما . توسلت ماروخا إلى الحراس ليسمحوا لها بمشاهدة تلفزيون البيت ، ولكنهم لم يتجرؤوا ، هم أو

« الوكيل » ، على ارتكاب مثل هذا الخرق الخطير للنظام . وقبل انقضاء ساعتين دخلت داماريس لتروي لها بصخب أن بياتريث قد وصلت سليمة إلى بيتها ، وأنها كانت حذرة جداً في تصريحاتها ، فهي لم تقل شيئاً يمكنه إلحاق الضرر بأحد . وجميع أفراد الأسرة ، بمن فيهم ألبيرتو بالطبع ، كانوا حولها . ولم يكن بيتها يتسع للناس الكثيرين .

بقي الشك ينهش ماروخا بإمكانية عدم صحة ذلك . أصرت على أن يعيروها مذياعاً . فقدت السيطرة على نفسها ، وتصدت للحراس دون أي تقدير للعواقب . ولكن العواقب لم تكن خطرة ، لأن الحراس أنفسهم كانوا شهوداً على المعاملة الجيدة التي عامل بها الزعماء ماروخا ، وفضلوا تهدئتها بإجراء مسعى آخر للسماح لها بإعارتها جهاز مذياع . وبعد ذلك انضم إليهم « الوكيل » وأقسم لها إنه قد ترك بياتريث سليمة معافاة في مكان آمن ، وأن البلاد بأسرها قد شاهدتها وسمعتها وهي تلتقي بأسرتها . ولكن ما كانت ماروخا تريده هو مذياع لتسمع بنفسها صوت بياتريث . فوعدها « الوكيل » باحضاره ، ولكنه لم ينفذ وعده . في الساعة الثانية عشرة ، وكانت منهوكة من التعب والغضب ، تناولت ماروخا قرصي منوِّم ، ولم تستيقظ إلا في الساعة الثامنة من صباح اليوم التالي .

* * *

كان الخبر صحيحاً . فقد جرى اقتياد بياتريث إلى المرآب عبر الفناء . وطرحوها على أرضية سيارة لاشك في أنها سيارة جيب ، لأنهم اضطروا إلى مساعدتها في الوصول إلى موطئ القدم عند بابها . في البدء مضت السيارة متعثرة في مقاطع وعرة . وسرعان ما بدأت تنساب بنعومة على طريق معبد بالاسفلت ، وكان هناك رجل يجلس إلى جوار بياتريث ويهددها دون حاجة لذلك . وقد لاحظت من صوت الرجل بأنه في حالة عصبية لايمكن لقسوته أن تخفيها ، وأنه ليس واحداً من الزعماء الثلاثة الذين كانوا في البيت .

قال لها الرجل :

ـ سيكون بانتظارك الكثير من الصحفيين . فكوني حذرة جداً . أي كلمة زائدة قد تكلف زوجة أخيك حياتها . تذكري أننا لم نتحدث معك مطلقاً ، وانك لم تري أحداً منا ، وأن مشوارنا هذا قد استغرق أكثر من ساعتين .

استمعت بياتريث إلى هذه التهديدات بصمت ، وإلى تهديدات كثيرة أخرى بدا لها أن الرجل يكررها دون أي داعٍ ، وإنما لكي يهدئ نفسه فقط . ومن خلال حديث جرى بينهم بثلاثة أصوات مختلفة ، تبين لها أن أيا من تلك الأصوات لم يكن معروفاً لها ، باستثناء صوت «الوكيل» الذي كان لايكاد يتكلم . هزتها فجأة موجة من القشعريرة : فما يزال أكثر النُذر شؤماً ممكن الحدوث .

قالت وهي لاترى ، ولكن بسيطرة كاملة على صوتها :

ـ أريد أن أطلب منكم معروفاً . لدى ماروخا مشكلة في الأوعية الدموية ونريد أن نرسل لها دواء . هل يمكنكم إيصاله إليها ؟

فقال الرجل :

ـ بالتأكيد . لاتقلقي بهذا الخصوص .

وقالت بياتريث :

ـ ألف شكر . سأتبع تعليماتكم . لن أسبب لكم أي ضرر .

ساد صمت طويل كانت تتخلله أصوات سيارات مسرعة ، وشاحنات ثقيلة ، ونتفٌ من الموسيقى والصراخ . وتكلم الرجال فيما بينهم همساً . ثم توجه أحدهم إلى بياتريث قائلاً :

ـ هناك دوريات كثيرة على هذا الطريق . إذا أوقفتنا إحداها سنقول أنك زوجتي ، وبهذا الشحوب البادي عليك نستطيع القول إننا نأخذك إلى المستشفى .

ولم تستطع بياتريث التي ازدادت اطمئناناً أن تقاوم اغواء المزاح :

ـ مع هذه العصابة التي على عينيَ ؟

فقال الرجل :

ـ لقد أجريت لك عملية جراحية في العينين . سأُجلسك إلى جانبي وأحيط كتفيك بذراعي .

لم يكن قلق الخاطفين دون أساس . ففي تلك اللحظة بالذات كانت تشتعل سبع حافلات نقل عام في مواقع مختلفة من بوغوتا بفعل قنابل حارقة وضعها رجال حرب عصابات المدن . وفي الوقت نفسه كانت القوات المسلحة الثورية الكولومبية تنسف برج الطاقة الكهربائية في بلدة كاكيثا في محيط العاصمة ، ويحاولون السيطرة على البلدة . ولهذا السبب جرت بعض التحركات لقوى الأمن العام في بوغوتا ، ولكنها لم تكن ظاهرة بوضوح . وهكذا فإن حركة المرور في المدينة في الساعة السابعة كانت مماثلة لما هو عليه الحال في أي يوم آخر : كثافةٌ وصخبٌ ، واشارات ضوئية بطيئة ، وطفرات مفاجئة لتفادي الاصطدامات ، ولعنات تطال الأمهات . وكان التوتر ملحوظاً حتى في صمت الخاطفين .

قال أحدهم :

ـ سنتركك في مكان ما . عليك أن تنزلي بسرعة وتعدي حتى ثلاثين . وبعد ذلك تنزعين العصابة عن عينيك ، وتسيرين دون أن تلتفتي إلى الوراء ، وتركبين أول تكسي يصادفك .

أحست بأنهم يضعون في يدها ورقة نقدية مجعدة ، وقال لها الرجل : «هذا من أجل التكسي . إنها من فئة الخمسة آلاف» . فدست بياتريث الورقة النقدية في جيبها ، حيث وجدت حبة مهدئ أخرى لم تكن تبحث عنها ، فابتلعتها . بعد نصف ساعة من المسير بالسيارة توقفوا . وأصدر الصوت نفسه عندئذ الحكم الأخير :

ـ إذا قلت للصحافة أنكِ كنتِ مع دونيا مارينا مونتويا ، فسوف نقتل دونيا ماروخا .

كانوا قد وصلوا . وارتبك الرجال وهم يحاولون إنزال بياتريث دون أن

ينزعوا العصابة عن عينيها . كانوا عصبيين إلى حد أنهم كانوا يعرقلون بعضهم بعضاً ، ويصدرون أوامر متناقضة ولعنات بذيئة . أحست بياتريث بالأرض الراسخة تحت قدميها ، فقالت :

ـ كفى . إنني بخير .

بقيت واقفة على الرصيف إلى أن رجع الرجال إلى السيارة وانطلقوا على الفور . وعندئذ فقط سمعت أن هناك سيارة أخرى خلفهم انطلقت في أثرهم في الوقت نفسه . لم تنفذ الأمر بالعدّ حتى ثلاثين . تقدمت خطوتين وهي تمد ذراعيها ، ولاحظت عندئذ أنها لابد أن تكون في وسط الشارع . فنزعت الضماد عن عينيها دفعة واحدة ، وتعرفت عندئذ على حي نورمانديا ، لأنها اعتادت الذهاب إلى هناك في أزمنة اخرى ، حيث يوجد بيت صديقة لها كانت تبيع المجوهرات . نظرت إلى النوافذ المضاءة في محاولة لاختيار واحدة منها تبعث الثقة في نفسها ، ذلك أنها لم تشأ أن تركب سيارة تكسي وهي في تلك الملابس المزرية ، وإنما أرادت أن تتصل ببيتها لكي يأتوا بحثاً عنها . ولم تكن قد حسمت أمرها عندما توقفت أمامها سيارة تكسي صفراء حسنة المظهر . وسألها السانق الشاب الأنيق :

ـ تكسي ؟

صعدت بياتريث ، وعندما أصبحت داخل السيارة فقط انتبهت إلى أن مجيء تكسي في الوقت المناسب لايمكن أن يكون صدفة . ومع ذلك ، فان يقينها بأن تلك هي الحلقة الأخيرة من عملية اختطافها ، منحها شعوراً غريباً بالأمان . سألها السائق عن العنوان ، فأخبرته بصوت هامس . لم يفهم لأنه لم يسمعها إلى أن سألها عن العنوان للمرة الثالثة . وعندئذ ردت عليه بصوتها الطبيعي .

كانت الليلة باردة وصافية ، مع بعض النجوم في السماء . وقد تبادل السائق وبياتريث بعض الكلمات التي لابد منها فقط ، ولكنه لم يرفع بصره عنها من خلال المرآة العاكسة . وكلما كانا يقتربان من البيت ، كانت

بياتريث تشعر بأن الاشارات الضونية تزداد عدداً وتصبح أبطأ . وقبل كوادرتين من المنزل طلبت من السائق أن يسير ببطء لمغافلة الصحفيين الذين حدثها الخاطفون عنهم . ولكن لم يكن هناك أحد منهم . تعرفت على البناء الذي فيه بيتها ، واستغربت أنه لم يسبب لها الانفعال الذي كانت تنتظره .

كان عداد التكسي يشير إلى سبعمئة بيزو . وحيث أن السائق لم يكن يملك ما يكفي ليعيد إليها بقية الخمسة آلاف ، فقد دخلت بياتريث إلى البيت لتطلب المساعدة ، فأطلق البواب العجوز صرخة فرح وعانقها بجنون . في أيام الأسر اللانهائية ولياليه المرعبة كانت بياتريث قد تصورت مسبقاً أن هذه اللحظة ستكون انفعالاً زلزالياً يطلق كل قوى جسدها وروحها . ولكن كل شيء كان على العكس تماماً : فقد كان قلبها الذي كممته الحبوب المهدئة أشبه ببركة راكدة ، بطيئة وعميقة ، لايكاد يكون فيها شعور . عندئذ تركت البواب ليتولى أمر دفع الحساب للتكسي ، وقرعت جرس بيتها .

فتح لها الباب ابنها الأصغر غابرييل . وسُمع صوته في كل أرجاء البيت وهو يصرخ « ماماااااااا! » فهرعت ابنتها كاتالينا ذات الخمسة عشر عاماً وهي تصرخ ، وتعلقت بعنقها . ولكنها أفلتتها مذعورة على الفور :

ـ ولكن ، لماذا تتكلمين هكذا يا ماما ؟

كان ذلك هو التفصيل السعيد الذي حطم جو الهيبة . وستحتاج بياتريث لعدة أيام ، وهي وسط الحشود التي كانت تأتي لزيارتها ، لكي تتخلص من عادة التكلم همساً .

كانوا ينتظرونها منذ الصباح . فقد أخبرتهم ثلاث مكالمات هاتفية ـ لاشك أنها من الخاطفين ـ بأنه سيتم أطلاق سراحها . وكان صحفيون لاحصر لعددهم يتصلون ليسألوا إذا ما كانوا يعرفون الساعة التي سيطلق فيها سراحها . وبعد منتصف النهار بقليل أكد الخبر ألبيرتو بيياميثار ، وكان قد أخبره به هاتفياً غيدو بارّا . كانت الصحافة مستنفرة . وقد اتصل صحفي قبل

ثلاث دقائق من وصول بياتريث ، وقال لغابرييل بصوت واثق ومُسكّن : «اطمئن ، سيفلتونها اليوم» . وكان غابرييل يضع السماعة عندما رن جرس الباب .

كان الدكتور غيريرو قد انتظرها في شقة بيياميثار ، لأعتقاده بأنه سيتم الإفراج عن ماروخا أيضاً وستذهبان معاً إلى هناك . انتظر حتى نشرة أخبار السابعة وشرب في أثناء ذلك ثلاثة كؤوس من الويسكي . وحين لم تأتيا ظن أنه مجرد خبر كاذب آخر مثل غيره من الأخبار الكثيرة في تلك الأيام ، ورجع إلى بيته . ارتدى بيجامته ، وسكب كأساً آخر من الويسكي ، ثم د س نفسه في الفراش وضبط المذياع على إذاعة *راديو* ريكويردوس لينام على هديل أغنيات البوليرو . لم يعد إلى القراءة منذ بدأت جلجلته . وعندما بدأ يغفو سمع صرخة غابرييل .

خرج من غرفة النوم بسيطرة على النفس مثالية . وتعانق هو وبياتريث ـ المتزوجان منذ خمس وعشرين سنة ـ عناقاً لا تعجل فيه ، وكأنه عناق بعد رحلة قصيرة ، ودون أن يذرفا دمعة واحدة . لقد فكرا كلاهما كثيراً في تلك اللحظة ، ولكثرة تفكيرهما فيها عاشاها وكأنها مشهد مسرحي تدربا عليه ألف مرة ، يمكن له أن يهز مشاعر الجميع باستثناء البطلين اللذين يؤديانه .

ما إن دخلت بياتريث إلى البيت حتى تذكرت ماروخا ، الوحيدة دون أخبار في الغرفة البائسة . اتصلت هاتفياً ببيت ألبيرتو بيياميثار ، وكان هو نفسه من ردّ بعد الرنين الأول بصوت مستعد لأي شيء . عرفت بياتريث صوته ، وقالت :

ـ مرحباً . أنا بياتريث .

وانتبهت إلى أن أخاها قد عرفها قبل أن تقدم نفسها . سمعت تنهيدة عميقة وخشنة ، مثل تنهيدة قط ، وسألها على الفور دون أن يطرأ أي تبدل على صوته :

ـ أين أنت ؟

فقالت بياتريث :

- في بيتي .

قال بيبا ميثار :

- جيد . سأكون عندك بعد عشر دقائق . وفي آثناء ذلك لاتكلمي أحداً .

وصن بدقة . لقد فاجأته مكالمة بياتريث حين كان على وشك الاستسلام . ففضلاً عن تشوقه لرؤية أخته وسماع الخبر الأول والوحيد القادم مباشرة من زوجته الأسيرة ، كان يحركه التعجل لتهينة بياتريث قبل وصول الصحفيين والشرطة . وقد أوصله في الوقت المحدد تماما أبنه اندريس الذي له ميول لا تقاوم لقيادة السيارات بسرعة كبيرة .

كانت الخواطر قد هدأت . وكانت بياتريث في الصالة مع زوجها وأبنائها ، ومع أمها وشقيقتيها ، وكانوا جميعهم يستمعون بحرص إلى روايتها . بدت لألبيرتو شاحبة بسبب الحبس الطويل وأكثر شباباً مما كانت عليه في السابق ، ورأى مظهر تلميذة المدرسة الذي كانت عليه ببيجامة التعرق الرياضية وشعرها المربوط على شكل ذيل حصان وبحذائها المسطح . أرادت أن تبكي ، ولكنه منعها من ذلك وهو متلهف لمعرفة أخبار ماروخا . وقالت له بياتريث : «تأكد أنها في حالة حسنة . الأمور شاقة هناك ، ولكن بالإمكان تحملها ، وماروخا شجاعة جداً» . وحاولت على الفور أن تحلّ مسألة القلق التي كانت تعذبها منذ نحو خمسة عشر يوماً . فسألته :

- هل تعرف رقم هاتف مارينا ؟

وفكر بيياميثار بأن الحقيقة ربما تكون أقل الأمور فظاظة ، فقال لها :

- لقد قتلوها .

اختلط الألم من الخبر المشؤوم لدى بياتريث مع رعب سابق . فلو أنها علمت بالخبر قبل ساعتين لما كانت تحملت رحلة التحرر . بكت حتى التخمة . وفي أثناء ذلك اتخذ بيياميثار الاحتياطات للحيلولة دون دخول أحد قبل الاتفاق على الرواية العامة التي ستقدمها عن اختطافها بحيث لا تعرض

حياة المختطفين الآخرين للخطر .

إن الحديث عن تفاصيل الأسر ستتيح إمكانية تكوين فكرة عن البيت الذي يوجد السجن فيه . ومن أجل حماية ماروخا ، يتوجب على بياتريث أن تقول للصحافة إن رحلة العودة قد استمرت أكثر من ثلاث ساعات انطلاقاً من مكان أرضه رجراجة . بالرغم من أن الحقيقة كانت مختلفة : المسافة الحقيقية ، والمرتفعات في الطريق ، وموسيقى مكبرات الصوت التي كانت تدوي في نهاية الأسبوع حتى الفجر تقريباً ، وهدير الطائرات ، والمناخ وكلها أشياء تدل على أن المكان في حي من أحياء المدينة . وكان يكفي من جهة أخرى ، استجواب أربعة أو خمسة خوارنة في المنطقة لاكتشاف البيت ولمعرفة من الذي رقى البيت منهم .

ويمكن لأخطاء أكثر بلاهة أن توفر مؤشراً للقيام بمحاولة إنقاذ مسلحة بأقل قدر من المجازفة . فالتوقيت يجب أن يكون في السادسة صباحاً ، بعد تبديل نوبة الحراسة ، ذلك لأن حراس النوبة الجديدة لا ينامون جيداً في الليل ويستلقون على الأرض مستنفدي القوى دون أي اهتمام بأسلحتهم . وثمة تفصيل مهم آخر هو جغرافية البيت ، وخصوصاً بوابة الفناء ، حيث شاهدتا في أحد الأيام حارساً مسلحاً ، والكلب الذي يمكن رشوته أكثر مما يوحيه نباحه ، كان من المستحيل معرفة إذا ما كان هناك حول المكان حزام أمني اضافي ، بالرغم من أن فوضى النظام الداخلي لا تشجع على الاعتقاد بذلك ، وهو أمر يمكن تحريه على أي حال بعد تحديد البيت . لقد تضاءلت الثقة أكثر من أي وقت مضى بعمليات الإنقاذ المسلحة بعد نكبة ديانا طربيه ، ولكن بيياميثار أبقى الأمر ضمن حساباته إذا ما وصل الأمر إلى نقطة تنعدم معها الخيارات الأخرى . وكان ذلك السر على أي حال هو الوحيد الذي لم يطلع عليه رافائيل باردو .

سببت هذه المعلومات أزمة ضمير بالنسبة إلى بياتريث . فقد كانت قد عاهدت ماروخا على عدم تقديم أي تلميح يسمح بمحاولة مداهمة البيت ،

ولكنها اتخذت القرار الخطير بتقديم تلك المعلومات إلى أخيها حين تأكدت من أنه كان يعي مثل ماروخا ، ومثلها هي نفسها ، عدم ملاءمة الحل المسلح . خصوصاً وأن تحرير بياتريث ، على الرغم من كل العراقيل ، قد أثبت أن الطريق مفتوح أمام المفاوضات . وكان هذا هو الوضع في اليوم التالي ، بعد أن استراحت ونامت جيداً ، ثم عقدت مؤتمراً صحفياً في بيت اخيها ، حيث سارت وسط غابة من الازهار . قدمت إلى الصحفيين وإلى الرأي العام فكرة واقعية عما كانت عليه فظاعة الأسر ، دون أن تقدم أي معلومة لمن كانوا يرغبون في العمل لحسابهم دون أن يأخذوا في الاعتبار الخطر الذي تتعرض له حياة ماروخا .

وفي يوم الأربعاء التالي ، قررت الكسندرا ارتجال برنامج بهيج ، وهي مقتنعة بأن ماروخا قد علمت بأمر المرسوم الجديد . وكان بيياميثار ، كلما تقدمت المفاوضات خلال الأسابيع الأخيرة ، يجري تعديلات بارزة في بيته لتجده زوجته حسب ذوقها عند إطلاق سراحها . لقد وضع مكتبةً حيث كانت هي ترغب في وضعها ، وغيّر أماكن بعض الأثاث ، وعدداً من اللوحات . ووضع في مكان ظاهر حصان سلالة تانغ الذي كانت ماروخا قد احضرته من جاكارتا كتذكار حياتها . وفي اللحظة الأخيرة تذكروا أنها كانت تشكو من عدم وجود بساط جيد في الحمام ، فأسرعوا بشرائه . هذا البيت المتحول ، المشع ، كان مسرح البرنامج التلفزيوني الاستثنائي الذي أتاح لماروخا أن تتعرف على الديكور الجديد في بيتها قبل أن تعود اليه . لقد كان البرنامج جيداً ، مع أنهم لم يعرفوا إذا ما كانت ماروخا قد شاهدته .

استعادت بياتريث عافيتها بسرعة . وقد احتفظت في كيس السجن بكل الملابس التي كانت ترتديها عند خروجها ، وفيه بقيت حبيسة رائحة الغرفة المقززة التي مازالت توقظها فجأة في منتصف الليل . استعادت التوازن المعنوي بمساعدة زوجها . والشبح الوحيد الذي جاءها يوماً من ذلك الماضي هو صوت «الوكيل» الذي اتصل بها مرتين بالهاتف . في المرة الأولى كانت

صرخة شخص يائس :

ـ الدواء! الدواء!

تعرفت بياتريث على الصوت وتجمد الدم في عروقها ، ولكن أنفاسها أسعفتها لتسأل بالنبرة نفسها :

ـ أي دواء! أي دواء!

فصرخ «الوكيل».

ـ دواء السيدة .

عندئذ فهمت أنه يريد الدواء الذي تتناوله ماروخا من أجل أوعيتها الدموية .

ـ فاستون . ـ قالت بياتريث ذلك ثم سألته على الفور وقد استعادت السيطرة على نفسها : ـ وكيف الحال ؟

وقال «الوكيل» :

ـ أنا بخير . شكراً جزيلاً .

فصححت بياتريث :

ـ لست أعنيك أنت ، بل هي .

قال «الوكيل» :

ـ آه ، اطمئني . السيدة بخير .

أغلقت بياتريث السماعة بقوة وانفجرت تبكي بتقزز الذكريات الفظيعة : الطعام الكريه ، نتانة الحمام ، الأيام المتماثلة دائماً ، ووحدة ماروخا المرعبة في الغرفة النتنة . ولكنهم على أي حال ، أدخلوا في القسم الرياضي من إحدى نشرات أخبار التلفزيون إعلاناً غامضاً : *تناول باستون* . لقد غيرو كتابة أحد حروف الكلمة ليتجنبوا إقدام مختبر طبي ما على الاحتجاج لاستخدام اسم أحد منتجاته لأهداف غير واضحة .

أما اتصال «الوكيل» الثاني فقد جاء بعد عدة أسابيع ، وكان مختلفاً تماماً . لقد تأخرت بياتريث في التعرف على الصوت بسبب استخدام خدعة

ما . ولكن الأسلوب كان أقرب إلى الأبوية حين قال لها :

ـ تذكري ما تحدثنا عنه . أنت لم تكوني مع دونيا مارينا . ولم تكوني مع أحد على الاطلاق .

ـ اطمئنن . قالت بياتريث ذلك وأغلقت الخط .

اتصل غيدو بارًا المنتشي بالنجاح الأول لمساعيه بألبيرتو بيياميثار ليخبره بأن اطلاق سراح ماروخا هو مسألة ثلاثة أيام . ونقل بيياميثار ذلك إلى ماروخا عبر مؤتمر صحفي نقلته الإذاعة والتلفزيون . كما أن قصص ببياتريث حول ظروف الحبس جعلت الكسندرا تتأكد من أن رسائلها تصل إلى وجهتها . وهكذا أجرت مقابلة لمدة نصف ساعة مع بياتريث روت خلالها كل ماكانت ماروخا تود معرفته : كيف أطلقوا سراحها ، وكيف هم الأولاد ، والبيت ، والأصدقاء ؛ وماهي الآمال التي تؤيد إمكانية إطلاق سراحها .

منذ ذلك الحين بدؤوا يضمنون البرنامج كل أنواع التفاصيل ، بما في ذلك الملابس التي يرتدونها ، والأشياء التي يشترونها ، والزيارات التي يتلقونها . فكان أحدهم يقول مثلاً : «لقد شوى مانويل فخذ الخنزير» . وكان هذا الكلام يعني لماروخا وحدها أن ترتيب بيتها مازال على حاله مثلما تركته . وبالرغم من التفاهة التي تبدو عليها كل هذه الأشياء ، فقد كانت ترفع من معنويات ماروخا لأنها تعني لها : أن الحياة مستمرة .

ومع ذلك ، فقد كانت الأيام تمر دون أن تظهر أدلة على اقتراب اطلاق سراحها . فقد كان غيدو بارًا يدخل في شروحات غامضة متشابكة وحجج صبيانية ؛ وصار لايرد على الهاتف ؛ ثم اختفى بعد ذلك . دعاه بييا ميثار إلى الالتزام بما اتفقا عليه . فأسهب بارًا في المقدمات . قال إن الأمور قد تعقدت بسبب تعاظم المجازر التي تقترفها الشرطة في قرى ميدلين . وتعلل بأنه ما لم تضع الحكومة حداً لتلك الأساليب الوحشية فإنه سيكون من الصعب إطلاق سراح أي رهين . فلم يسمح له بييا ميثار بالوصول إلى النهاية ، بل قال له :

ـ لم يكن هذا جزءاً من الاتفاق . فكل شيء كان يرتكز على توضيح

المرسوم ، وهاهو قد أصبح واضحاً . هذا دين شرف ، وليس بالامكان اللعب معي .

فقال بارّا :

ـ أنت لاتعرف مدى الورطة في كون المرء محامياً لهؤلاء الناس . فمشكلتي ليست في تلقي أتعابي أو عدم تلقيها ، وإنما في أن أنهي الأمور جيداً وإلا سيقتلونني . فماذا تريدني أن أفعل ؟

قال بيبا ميثار :

ـ فلنوضح هذا الأمر دون مزيد من العهر . ما الذي يجري الآن ؟

ـ مادامت الشرطة لم توقف المجزرة ولم تعاقب المتسببين بها فليس هناك أي إمكانية لاطلاق سراح دونيا ماروخا . هذه هي المشكلة .

أعمى الغضب بيبا ميثار وانفلت في إطلاق الشتائم ضد اسكوبار ، وانتهى إلى القول :

ـ وأنت يجب أن تختفي من أمامي ، لأن من سيقتلك هو أنا .

اختفى غيدو بارّا ، ليس بسبب رد فعل بيبا ميثار العنيف ، وإنما كذلك بسبب غضب بابلو اسكوبار الذي لم يغفر له على ما يبدو تماديه في صلاحياته في المفاوضات . وهذا ما استطاع ادراكه هيرناندو سانتوس من رعب غيدو بارّا عندما اتصل به هاتفياً ليقول له إنه يحمل له رسالة رهيبة من اسكوبار وأنه لشدة فظاعتها لا يتجرأ على قراءتها ، وقال له :

ـ هذا الرجل مجنون . لن يهدئه شيء ، وأنا لم يبق أمامي سوى الاختفاء من الوجود .

أدرك هيرناندو سانتوس أن مثل ذلك القرار يعني قطع قناة اتصاله الوحيدة مع بابلو اسكوبار ، فحاول اقناع غيدو بارّا بالبقاء . ولكن دون جدوى . وكانت الخدمة الأخيرة التي طلبها غيدو بارّا منه هي مساعدته في الحصول على تأشيرة دخول إلى فنزويلا ووساطة لكي يتمكن ابنه من إنهاء البكالوريوس في المعهد الرياضي الحديث في بوغوتا . وتقول اشاعات لم

تتأكد مطلقاً إنه ذهب للالتجاء في دير في فنزويلا كانت إحدى شقيقاته راهبة فيه . ولم يعد أحد يعرف أي شيء عنه إلى أن عثر عليه مقتولاً في ميدلين يوم ١٦ نيسان ١٩٩٣ ، ومعه ابنه حامل البكالوريوس ، وكانا في صندوق سيارة بلا لوحات .

لقد احتاج بيبا ميثار لبعض الوقت كي يستعيد تماسكه بعد إحساسه الرهيب بالهزيمة . كان يثقل عليه الندم لأنه وثق بكلمة اسكوبار . وبدا له أنه قد خسر كل شيء . لقد كان خلال المفاوضات ينقل كل شيء أولا بأول إلى الدكتور طربيه وهيرناندو سانتوس ، اللذين فقدا أيضاً قنوات الاتصال مع اسكوبار . لقد كانوا يلتقون كل يوم تقريباً ، وقد توصل إلى أنه يجب ألا يخبرهما بمحنِهِ ، وإنما بالأخبار التي تشجعهما فقط . وقد رافق لساعات طويلة الرئيس الأسبق (طربيه) الذي تحمل موت ابنته بصبر مؤثر ، فقد انغلق على نفسه ورفض الإدلاء بأي نوع من التصريحات : لقد جعل نفسه غير مرني . أما هيرناندو سانتوس الذي كان أمله الوحيد في إنقاذ ابنه يستند إلى وساطة بارّا ، فقد سقط في حالة من الهزيمة العميقة . .

إن اغتيال مارينا ، وخصوصاً الطريقة الوحشية في الكشف عن الاغتيال وإعلانه ، كان سبباً في تأمل لايمكن تجنبه حول ما الذي يجب عمله في ماهو آت . فقد استُنفدت كل إمكانية للوساطة على طريقة *الأعيان* ، ومع ذلك فإنه لم يكن هناك كمايبدو أي وسيط فعال . وكانت الإرادة الطيبة والأساليب غير المباشرة تخلو من أي مغزى .

وراح بيبا ميثار الواعي لوضعه يفرّج عن نفسه مع مستشار الرئيس الأمني رافائيل باردو بالقول : «تصور ما أشعر به . لقد كان اسكوبار مصدر عذابي وعذاب أسرتي طوال هذه السنوات . فقد كان يهددني في أول الأمر ، ثم أقدم على اغتيالي في محاولة نجوت منها بأعجوبة . وواصل بعد ذلك تهديدي . واغتال غالان . ثم خطف زوجتي واختي ، وهو يسعى الآن لأن أدافع عن حقوقه» . ولكنه كان تفريج عن النفس لا جدوى منه ، لأن أوراق حظه

كانت ملقاة : فالطريق الصائب الوحيد من أجل اطلاق سراح المخطوفين كان في الذهاب للبحث عن الأسد في عرينه . وهذا يعني دون لف ولا دوران : إن الشيء الوحيد الذي بقي أمامه ليعمله ـ وعليه عمله دون مهرب ـ هو الطيران إلى ميدلين والبحث عن بابلو اسكوبار أينما كان لمناقشة القضية معه وجهاً لوجه .

كانت المشكلة في كيفية العثور على بابلو اسكوبار في مدينة يعذبها العنف . ففي الشهرين الأولين من عام ١٩٩١ جرت ألف ومئتا عملية اغتيال - عشرون عملية يومياً - وكانت تقع مجزرة كل أربعة أيام . فاتفاق بين الجماعات المسلحة كلها تقريباً قرر شن أكبر تصعيد شرس في إرهاب حرب العصابات عرفه تاريخ البلاد ، وكانت ميدلين هي مركز العمليات المدينية . لقد جرى اغتيال أربعمئة وسبعة وخمسين شرطياً خلال شهور قليلة . وكانت شعبة إدارة الأمن قد قالت إن ألفي شخص في ضواحي ميدلين يعملون في خدمة اسكوبار ، وإن عدداً كبيراً منهم مراهقون يعيشون على اقتناص رجال الشرطة . فمقابل كل ضابط يقتلونه يتلقون خمسة ملايين بيزو ، ومقابل كل شرطي مليون ونصف مليون بيزو ، وثمانمئة بيزو مقابل كل جريح . وفي ١٦ شباط ١٩٩١ قُتل ثلاثة ضباط صف ،وثمانية رجال شرطة في انفجار سيارة كانت تضم خمسين كيلوغراماً من المتفجرات قبالة ساحة مصارعة الثيران في ميدلين . ولقي تسعة مدنيين مصرعهم ، وجُرح مئة وثلاثة وأربعون آخرون لاعلاقة لهم بتلك الحرب .

وكانت فرقة *النخبة* المكلفة بالصراع الجبهي ضد تجارة المخدرات توسم من قبل بابلو اسكوبار بأنها التجسيد الكامل لكل الشرور . كان قد شكل هذه الفرقة الرئيس فيرخيليو باركو سنة ١٩٨٩ ، بعد أن يئس من اقرار

المسؤوليات بدقة في قوات كبيرة العدد مثل الجيش والشرطة . وقد أوكلت مهمة تشكيل الفرقة إلى الشرطة الوطنية لإبقاء الجيش بعيداً قدر الإمكان عن التصاعد الوبيل لتجارة المخدرات والمنظمات شبه العسكرية . ولم تكن الفرقة تضم في الأصل أكثر من ثلاثمئة عنصر ، بالإضافة إلى سرب خاص من طائرات الهليكوبتر وضع تحت تصرفها ، وجرى تدريب العناصر على يد الـ « سبيسيال اير سيرفيس » (SAS) التابع للحكومة البريطانية .

بدأت الفرقة الجديدة العمل في القطاع الأوسط لنهر ماجدالينا ، في وسط البلاد ، خلال ازدهار الجماعات شبه العسكرية التي أسسها الإقطاعيون للنضال ضد قوات حرب العصابات . ومن هناك انفصلت عن الفرقة فيما بعد جماعة متخصصة في عمليات المدن ، واستقرت في ميدلين كفرقة مرتزقة مطلقة الصلاحية للإدارة الوطنية للشرطة في بوغوتا دون أي حلقات وسيطة ، وبسبب طبيعتها بالذات لم تكن شديدة التدقيق في حدود صلاحياتها . وقد زرع ذلك البلبلة في صفوف المجرمين ، وكذلك في صفوف السلطات المحلية التي تقبلت على مضض وجود قوة تتمتع بإدارة ذاتية وتتهرب من سلطتها . وخاض الاكسترادیتابليون صراعاً دامياً ضد عناصر الفرقة واتهموهم بارتكاب كل صنوف التعسف المناهضة لحقوق الإنسان .

كان أهالي ميدلين يعرفون أن بلاغات تشهير الاكستراديتابليين حول الاغتيال وتعسف قوى الأمن العام لم تكن كلها دون أساس ، لأنهم كانوا يرونها تحدث في الشوارع ، بالرغم من عدم الاعتراف الرسمي في معظم الحالات . وكانت منظمات حقوق الإنسان المحلية والعالمية تحتج ، ولم يكن لدى الحكومة إجابات مقنعة . وتم بعد شهور إقرار عدم القيام بعمليات المداهمة إلا بوجود مندوب من النيابة العامة مع ما يفرضه ذلك من بيروقراطية على العمليات العسكرية .

وقد كان قليلاً ما يمكن للعدالة أن تفعله . فالقضاة والمأمورون القضائيون الذين كانت رواتبهم الهزيلة لا تكفي نفقات معيشتهم إلا بصعوبة

ولكنها لا تكفي لتعليم أبنائهم ، وجدوا أنفسهم أمام معضلة دون مخرج : فإما أن يُقتلوا وإما أن يبيعوا انفسهم لتجار المخدرات . ولكن المدهش والمؤثر هو أن الكثيرين منهم فضلوا الموت .

ربما كان ماهو أكثر كولومبية في ذلك الوضع هو قدرة أهالي ميدلين المذهلة على الاعتياد على كل شيء ، الجيد والسييء ، وبقدرة على الاستعادة ربما تكون الصيغة الأكثر قسوة للخوف . فمعظمهم لم يكونوا يعون كما يبدو أنهم يعيشون في المدينة التي كانت على الدوام أكثر مدن البلاد جمالاً ونشاطاً وكرم ضيافة ، والتي تحولت في تلك السنوات إلى واحدة من أكثر مدن العالم خطورة . لقد كان الارهاب المديني حتى ذلك الحين مجرد عنصر غريب في ثقافة العنف الكولومبية العريقة . فمقاتلو حرب العصابات التاريخيون ـ الذين مارسوا هذا النوع من الارهاب ـ مالبثوا أن أدانوه بحق ، باعتباره شكلاً غير شرعي للنضال الثوري . لقد تعلم الناس العيش في خوف مما يحدث ، ولكن ليس العيش في القلق مما يمكن أن يحدث : انفجار يمزق الأبناء في المدرسة ، أو يفتت الطائرة وهي في السماء ، أو انفجار الخضروات في السوق . فالقنابل التي تقتل الأبرياء على غير هدى ، والتهديدات الهاتفية المجهولة تجاوزت أي عنصر آخر من عناصر القلق في الحياة اليومية . ومع ذلك ، فإن الوضع الاقتصادي لمدينة ميدلين لم يتأثر وفق المعطيات الاحصائية .

لقد كان تجار المخدرات قبل سنوات من ذلك « موضة » تحيط بهم هالة خيالية . وكانوا يتمتعون بنجاة كاملة من أي عقاب ، بل واضلوا شيئاً من الشهرة الشعبية لأعمال الاحسان التي يقدمونها للأحياء الفقيرة حيث عاشوا طفولتهم كهامشيين . ولو أن أحدا أراد اعتقالهم آنذاك لكان بإمكانه أن يرسل لهم أي شرطي على الناصية القريبة . ولكن قسماً لابأس به من المجتمع الكولومبي كان ينظر إليهم بفضول واهتمام يشبه الرضى إلى حد بعيد . وكان هناك سياسيون ، وصناعيون ، وتجار وصحفيون ، بل ومحتالون عاديون

يحضرون الحفلات الدائمة في مزرعة نابولي ، قرب ميدلين ، حيث كان بابلو اسكوبار يقيم حديقة حيوانات فيها زرافات وأفراس نهر من لحم وعظم أُحضرت من افريقيا ، وكانت الطائرة التي نقل فيها أول شحنة كوكائين معروضة عند البوابة وكأنها نصب وطني .

ومع الثروة والسرية ، أصبح اسكوبار هو سيد الفناء الخلفي ، وتحوّل إلى أسطورة يسيطر على كل شيء من مكانه في الظل . وكانت بياناته ذات الأسلوب النموذجي والحذر تماماً تصل إلى التشابه مع الحقيقة التي تختلط بها . وفي أوج ازدهاره أقيمت مذابح صلوات عليها صورته ووضعت حولها الشموع في قرى ميدلين . ووصل البعض إلى حد الاعتقاد بأنه يحقق المعجزات . ولم يتح لأي كولومبي عبر التاريخ كله امتلاك وممارسة موهبة كموهبته في التحكم بالرأي العام . ولم يمتلك أحد قدرة أكبر منه على الإفساد . وأكثر شرط مثير للقلق وللدمار في شخصيته هو خلوه تماماً من التسامح للتمييز مابين الخير والشر .

كان هذا هو الرجل غير المرني وغير المحتمل الذي قرر بيبيا ميثار العثور عليه في أواسط شهر شباط ليعيد إليه زوجته . بدأ البحث عن وسيلة اتصال مع الاخوة اوتشوا في سجن ايتاغوي ذي المواصفات الأمنية العالية . وقد أعطاه رافائيل بياردو ـ بموافقة الرئيس ـ الضوء الأخضر ، ولكنه ذكّره بحدوده : فمساعيه ليست مفاوضات باسم الحكومة وإنما هي مهمة استطلاع . وقال له إنه لايمكن عقد أي اتفاق مقابل تقديم أي خدمات من جانب الحكومة ، ولكن الحكومة مهتمة باستسلام الاكسترادبتابليين ضمن إطار سياسة إخضاع المطلوبين . وانطلاقاً من هذا المفهوم الجديد خطر لبيبيا ميثار أيضاً تغيير رؤيته لمسعاه ، بحيث لا يركز جهوده على تحرير الرهائن ـ مثلما فعل ذلك حتى ذلك الحين ـ وإنما على استسلام بابلو اسكوبار . ويكون تحرير الرهائن مجرد تحصيل حاصل .

هكذا بدأ اختطاف آخر لماروخا وحرب مختلفة بالنسبة إلى بيبياميثار .

من المحتمل أن اسكوبار كان ينوي إطلاق سراحها مع بياتريث ، ولكن مأساة ديانا طربيه اضطرته إلى تغيير خططه . فاضافة إلى تحمليه وزر ميتة لم يأمر بتنفيذها ، كان اغتيال ديانا طربيه كارثة بالنسبة إليه ، لأنه انتزع منه ورقة ذات قيمة لاتقدر وأدى إلى تعقيد حياته . أضف إلى ذلك أن أعمال الشرطة اشتدت كثافة آنذاك إلى حد اضطر معه إلى النزول حتى القاع تماماً .

بعد موت مارينا ، بقي لديه ديانا وباتشو وماروخا وبياتريث . ولو أنه قرر قتل أحد منهم لاختار بياتريث . وبعد إطلاق سراح بياتريث وموت ديانا ، بقي لديه اثنان : باتشو وماروخا . وربما كان يفضل الاحتفاظ بباتشو لقيمته التبادلية ، ولكن ماروخا كانت قد اكتسبت ثمنا غير متوقع بسبب إصرار بيياميثار على إبقاء الإتصالات حية إلى أن تحسم الحكومة أمر إصدار مرسوم أكثر وضوحاً . كما أن خشبة النجاة الوحيدة التي بقيت لاسكوبار منذ ذلك الحين هي وساطة بيياميثار ، والشيء الوحيد الذي يضمن استمرارها هو الاحتفاظ بماروخا . لقد كان كل منهما محكوماً عليه بربط مصيره بالآخر .

بدأ بيياميثار اتصالاته بزيارة نيديا كينتيرو ليعرف منها تفاصيل تجربتها . فوجدها كريمة ، حازمة ، مع الحداد الهادئ . حدثته عن محادثاتها مع الأختين ، اوتشوا ، ومع أبيهما البطريك العجوز ، ومع فابيو في سجنه . وكانت تعطي انطباعاً بأنها قد تمثلت موت ابنتها الفظيع ، ولم تكن تتذكرها بألم أو برغبة في الانتقام وإنما ليكون موتها مفيداً للتوصل إلى السلام . وبهذه الروح أعطت إلى بيياميثار رسالة موجهة إلى بابلو اسكوبار تعرب فيها عن رغبتها في أن يكون لموت ديانا جدوى في عدم معاناة أي كولومبي آخر الألم الذي عانته هي نفسها . وتبدأ بالقول إن الحكومة لايمكنها وقف عمليات المداهمة ضد المجرمين ، ولكنها تستطيع تجنب محاولة إنقاذ الرهائن بالقوة ، ذلك أن ذوي الرهائن يعرفون ، والحكومة تعرف ، والجميع يعرفون أنه إذا ما حدث اصطدام مع الخاطفين في إحدى عمليات المداهمة فإن ذلك قد يؤدي إلى وقوع مأساة لايمكن إصلاحها ، مثلما حدث مع ابنتها . وتقول

الرسالة : «لهذا السبب أقف بين يديك لأتوسل بقلب مفعم بالألم ، وبالصفح والرحمة ، أن تطلق سراح ماروخا وفرانثيسكو» . وانهت رسالتها بطلب مفاجئ : «قدم لي مايؤكد أنك ام تكن تريد موت ديانا» . وبعد شهور من ذلك أعلن اسكوبار من سجنه عن ذهوله لأن نيديا كانت قد كتبت له تلك الرسالة دون عتاب أو حقد ، وكتب اسكوبار يقول : «كم يؤلمني أنني لم أمتلك الشجاعة للرد عليها» .

ذهب بيياميثار إلى سجن ايتاغوي لزيارة الأخوة اتشوا الثلاثة ، مزوداً برسالة نيديا والصلاحيات غير المكتوبة التي منحته أياها الحكومة . رافقه حارسان من شعبة إدارة الأمن ، وعززتهما شرطة ميدلين بستة حراس آخرين . وجد الأخوة اوتشوا الذين لم يكادوا يستقروا بعد في السجن ذي الاحتياطات الأمنية العالية ، حيث توجد ثلاث نقاط مراقبة متتالية ، بطينة ومكرورة ، وكان السجن بجدرانه الطينية الجرداء يعطي انطباعاً بأنه كنيسة لم ينته بناؤها . كانت الممرات مقفرة ، والسلالم ضيقة لها حواجز من أنابيب معدنية صفراء اللون ، وأجهزة الانذار ظاهرة للعيان ، وينتهي كل ذلك إلى جناح في الطابق الثالث حيث الأخوة اوتشوا الثلاثة يقضون سنوات سجنهم في صنع أسرجة متقنة : سروج للركوب وكل زينات ومعدات الفروسية الأخرى . وهناك كانت الأُسرة كلها معهم : الأبناء ، والصهران ، والأختان . وكانت مارتا نيفيس ، أكثرهم نشاطاً ، وماريا ليا زوجة خورخي لويس ، تقدمان التشريفات بكرم ضيافة أبناء البلد النموذجي .

ترافق وصول بيياميثار مع موعد تناول الغداء ، وقُدم الطعام في قاعة قرميدية في نهاية الفناء ، على جدرانها ملصقات لصور فنانين سينمائيين ، وفيها جهاز تمرينات بدنية للمحترفين وطاولة مائدة تتسع لإثني عشر شخصاً . وحسب اتفاق أمني ، كان إعداد الطعام يتم في مزرعة لا لوما القريبة ، حيث مقر اقامة الأسرة الرسمي ، وقد كان الطعام في ذلك اليوم نموذجاً لذيذاً للمطبخ الكريوللي . وفي أثناء تناول الطعام لم يكن هناك أي

كلام إلا عن الطعام نفسه ، وذلك وفق العادة الانتيوكية الصارمة .

وبعد الأكل ، وبكل رسميات المجلس العائلي ، بدأ الحوار . ولم يكن سهلاً كما ظن بيياميثار من خلال الانسجام على الغداء . بدأ هو نفسه الحديث بأسلوبه البطيء والمحسوب والواضح الذي لم يترك إلا هامشاً ضئيلاً للأسئلة لأنه بدا وكأنه قد أجاب عنها كلها مسبقاً . روى القصة الكاملة لمفاوضاته مع غيدو بارّا وعن قطيعته العنيفة معه ، وانتهى إلى قناعته بأن الاتصال المباشر مع بابلو اسكوبار فقط هو الذي سيمكنه من إنقاذ ماروخا . وقال :

ـ فلنحاول وقف هذه البربرية . فلنحاول ذلك بدل إرتكاب مزيد من الأخطاء . وكبداية ، اعلموا أنه لن يكون هناك أدنى احتمال من جانبنا لمحاولة إنقاذ الرهائن بالقوة . إنني أفضل الحوار ، ومعرفة ما الذي يجري ، وما الذي يسعون إليه .

أخذ الكلام خورخي لويس ، أكبر الاخوة ، بصوته المترنم . فروى نكبات الأسرة في فوضى الحرب القذرة ، وأسباب وصعوبات استسلامه ، والقلق الذي لايطاق من عدم إقدام الجمعية التأسيسية على حظر تسليم المطلوبين إلى الولايات المتحدة . وقال :

ـ لقد كانت حرباً شديدة القسوة علينا . لايمكنك أن تتصور ما عانيناه ، وما عانته الأسرة ، والأصدقاء . لقد مررنا بكل المحن .

وكانت معلوماته محددة : فأخته مارتا نيفيس اختُطفت ؛ وصهره ألونسو كارديناس اختُطف واغتيل عام ١٩٨٦ ؛ وعمه خورخي ايفان اوتشوا اختطف عام ١٩٨٣ ، وابنا عمه ماريو اوتشوا وغيلليرمو ليون اوتشوا اختطفا وقتلا .

حاول بيياميثار بدوره أن يثبت لهم أنه ضحية هذه الحرب مثلهم ، وأن يفهمهم بأن ما سيحدث منذ تلك اللحظة فصاعداً سيدفع ثمنه الجميع بالتساوي ، فقد قال : «ماحدث لي كان مماثلاً في قسوته على الأقل لما حدث لكم . فقد حاول الاكستراديتابليون اغتيالي عام ٨٦ ، واضطررت إلى الذهاب إلى الجهة الأخرى من العالم فتبعوني إلى هناك ، وهم يختطفون الآن

زوجتي واختي » . ولكنه لم يكن يتذمر ويشكو مع ذلك ، بل وضع نفسه على مستوى محدثيه . وانتهى إلى القول :

ـ هذا كله تعسف ، وقد حان الوقت لنبدأ بالتفاهم .

كانا هما وحدهما يتكلمان . أما بقية أفراد الأسرة فكانوا يستمعون بصمت مأتم كئيب ، بينما النساء يحاصرن الضيف برعايتهن دون أن يتدخلن في النقاش .

قال خورخي لويس :

ـ نحن لا نستطيع عمل أي شيء . لقد جاءت إلينا دونيا نيديا من قبل . وتفهمنا وضعها ، ولكننا قلنا لها الشيء نفسه . نحن لا نريد مشاكل .

فقال بيياميثار باصرار :

ـ ما دامت الحرب متواصلة فجميعكم في خطر ، حتى وأنتم داخل هذه الجدران الأربعة المصفحة . أما إذا انتهت الحرب الآن ، فسيعيش أبوكم وأمكم وكل أفراد أسرتكم بسلام . وهو ما لن يحدث طالما اسكوبار لم يستسلم للعدالة ومالم ترجع ماروخا وفرانثيسكو سالمين معافيين إلى بيتهما . ولكن كونوا على ثقة بأنه إذا تم قتلهما فانكم ستدفعون الثمن أيضاً ، وستدفعه اسرتكم ، والجميع .

طوال الساعات الثلاث التي استغرقها اللقاء في السجن ، أظهر كل منهما سيطرته للوصول إلى شفير الهاوية بالذات . وقدر بيياميثار واقعية ابن البلد لدى اوتشوا . وتأثر آل اوتشوا بالطريقة المباشرة والصريحة التي يقسم بها الزائر الموضوعات . كانوا قد عاشوا في كوكوتا ـ موطن بيياميثار ـ وقد تعرفوا على أناس كثيرين من هناك وكانوا يتفاهمون معهم على خير مايرام . وأخيراً تدخل الأخوان اتشوا الآخران في الحديث ، وكانت مارتا نيفيس تنفس الجو بظرافاتها البلدية . كان الرجال يبدون متصلبين في رفضهم التدخل في حرب يشعرون بأنهم صاروا بمنجى منها ، ولكنهم شيئاً فشيئاً أخذوا يصبحون أكثر مرونة .

وانتهى خورخي لويس إلى القول :

ـ حسن . سنوصل الرسالة إلى بابلو وسنخبره بأنك كنت هنا . ولكنني انصحك بأن تتكلم مع أبي . إنه في مزرعة لالوما ، وسيكون سعيداً بالتحدث مع حضرتك .

وهكذا ذهب بيياميثار إلى المزرعة مع الأسرة كلها ، ومع الحارسين اللذين جاء بهما من بوغوتا فقط ، ذلك أن الجهاز الأمني الذي يرافقه بدا للأخوة اوتشوا مبالغ فيه . وصلوا إلى بوابة المزرعة ، ثم ساروا على الأقدام مسافة كيلو متر تقريباً باتجاه البيت عبر طريق تحف به أشجار وارفة ومعتنى بها جيداً . جاء عدة رجال دون أسلحة ظاهرة وسدوا الطريق أمام الحارسين ودعوهما لتغيير الإتجاه . كانت هناك لحظة تململ ، ولكن أهل البيت طمأنوا الغرباء بأساليب طيبة ومبررات جيدة ، وقالوا لهم :

ـ تقدموا وكلوا شيئاً من هذا الإتجاه ، فالدكتور يريد التحدث مع دون فابيو .

في نهاية دغل الأشجار كانت الساحة الصغيرة ، وفي صدرها البيت الكبير المرتب . وعلى الشرفة المطلة على المراعي الممتدة إلى الأفق ، كان البطريك ؛ العجوز ينتظر الزائر . . وكان معه بقية أفراد العائلة ، جميعهم من النساء ، وجميعهن تقريباً بملابس الحداد على موتاهن في الحرب . ومع أنه كان موعد نوم القيلولة ، إلا أنهم كانوا قد أعدوا كل أصناف الطعام والشراب .

وانتبه بيياميثار منذ تبادل التحية إلى أنه قد صار لدى دون فابيو تقرير كامل عن الحديث الذي دار في السجن . وقد أدى ذلك إلى اختصار الديباجات . واكتفى بيياميثار بأن كرر عليه قوله بأنه يمكن لاشتداد الحرب أن يلحق ضرراً كبيراً بأسرته كبيرة العدد والمزدهرة ، وغير المتهمة بالمشاركة في القتل والارهاب . صحيح أن ثلاثة من أبنائه أصبحوا بمنجى في الوقت الراهن ، ولكن المستقبل مايزال غامضاً . ولهذا فانه يجب ألا يكون هناك من يهتم أكثر منهم في التوصل إلى السلام ، وهو ما لايمكن تحقيقه

طالما لم يحذُ اسكوبار حذو أبنائه الثلاثة .

استمع إليه دون فابيو باهتمام هادئ ، موافقاً بهز رأسه على ما كان يبدو له صواباً . ثم تكلم بعبارات موجزة وحاسمة ، مثل كتابات القبور ، وعبّر في خمس دقائق عما يفكر فيه . فقال إن أي شيء يمكن عمله سيبقى في النهاية بحاجة إلى العامل الأكثر أهمية : أي التكلم مع اسكوبار شخصياً . وقال : « ولهذا فإنه من الأفضل لك أن تبدأ من هناك » . وكان يعتقد بأن بيياميثار هو الشخص المناسب لمحاولة ذلك ، لأن اسكوبار لا يثق إلا برجال تكون كلمتهم من ذهب . وانتهى دون فابيو إلى القول :

ـ وأنت من هذا النوع من الرجال . والمشكلة هي في اثبات ذلك .

لقد بدأت الزيارة في السجن الساعة العاشرة صباحاً وانتهت الساعة السادسة مساء في لالوما ، وكان إنجازها الكبير هو كسر الجليد مابين بيياميثار وآل اوتشوا من أجل الهدف المشترك ـ المتفق عليه مع الحكومة ـ بجعل اسكوبار يسلم نفسه للعدالة . هذا اليقين منح بيياميثار الحماسة لينقل انطباعاته إلى رئيس الجمهورية . ولكنه حين وصل إلى بوغوتا وجد في انتظاره الخبر المشؤوم بأن الرئيس نفسه يعاني في لحمه الحي اختطافاً جديداً .

وهذا ماحدث : ابن عم الرئيس وصديق طفولته المفضل فورتوناتو غافيريا تروخيو ، تعرض للاختطاف من مزرعته في بيريرا على يد أربعة مقنّعين مسلحين ببنادق . لم يلغِ الرئيس التزامه بالاجتماع مع المجلس المحلي لحكام المناطق في جزيرة سان اندريس ، وانقضى مساء يوم الجمعة دون أن يتأكد مما إذا كان خاطفو ابن عمه هم الاكستراديتابليين . وقد استيقظ صباح يوم السبت مبكراً لممارسة الغوص ، وعندما طفا على سطح الماء أخبروه بنبأ العثور على جثة فورتوناتو وهي مصابة برصاصة بندقية في الصدر . فقد قاوم الخاطفين ـ الذين لم يكونوا من تجار المخدرات ـ وتسبب هؤلاء بموته ، ربما في حادث غير متعمد .

أول رد فعل للرئيس كان إلغاء المجلس المحلي والعودة فوراً إلى بوغوتا ، ولكن الأطباء منعوه من ذلك . فليس من المناسب الطيران قبل مرور أربع وعشرين ساعة من قضاء ساعة في الغوص على عمق ستين قدماً . انصاع غافيريا لرأي الأطباء ، ورأته البلاد كلها في ذلك اليوم في التلفزيون وهو يترأس المجلس بأكثر وجوهه كآبة . ولكنه تجاهل الرأي الطبي في الساعة الرابعة بعد الظهر ، ورجع إلى بوغوتا لينظم المأتم . وبعد مرور زمن على ذلك ، وبينما هو يتذكر ذلك اليوم باعتباره أحد أقسى الأيام في حياته ، قال بمزاح مرير :

ـ لقد كنت يومذاك الكولومبي الوحيد الذي ليس له رئيس يشكو إليه .

فور انتهاء خورخي لويس اوتشوا من تناول الغداء مع بيياميثار ، أرسل رسالة إلى اسكوبار ليستثير حماسته نحو بيياميثار . فصوره على أنه سانتاندري جديّ يمكن الأخذ بكلمته والثقة به . وكان ردّ اسكوبار فورياً : « قل لابن القحبة هذا ألا يحاول التكلم معي » . وعلم بيياميثار برد اسكوبار من خلال مكالمة هاتفية مع مارتا نيفيس وماريا ليا اللتين طلبتا منه مع ذلك أن يرجع إلى ميدنين لمواصلة البحث عن دروب . وقد ذهب في هذه المرة دون حراس . ركب تكسي من المطار إلى الفندق الدولي ، وبعد حوالي خمس عشرة دقيقة حمله سائق أرسله آل اوتشوا . كان السائق ابن بلد في نحو العشرين من عمره ، لطيف وساخر ، وقد بقي يراقبه طويلاً من خلال المرآة العاكسة ، ثم سأله أخيراً :

ـ هل أنت خائف جداً .

ابتسم له بيياميثار عبر المرآة . وواصل السائق القول :

ـ اطمئن يا دكتور . ثم أضاف بقدر لابأس به من السخرية : ـ لن يحدث لك شيء وأنت معنا . كيف يخطر لك غير هذا!

لقد منحت تلك المزحة بيياميثار الأمان والثقة اللذين لم يفقدهما لحظة واحدة في الرحلات التالية التي قام بها فيما بعد . لم يعرف مطلقاً إذا ما كانوا

يلاحقونه ، حتى عندما أصبح في مرحلة متقدمة جداً ، ولكنه كان يشعر دائماً بأنه في حماية ظل خارق للطبيعة .

يبدو أن اسكوبار لم يكن يشعر بأنه مدين بأي شيء لبيياميثار مقابل المرسوم الذي فتح له باباً مضموناً ضد تسليم المطلوبين إلى الخارج . مما لاريب فيه أنه في حساباته الدقيقة ، كمقامر قاس ، كان يرى أنه قد دفع ثمن الجميل السابق بتحرير بياتريث ، ولكن الدين التاريخي مازال على حاله . ومع ذلك ، فقد كان آل اوتشوا يرون أنه لابد لبيياميثار من مواصلة الالحاح .

وهكذا فقد تجاهل شتائم اسكوبار ، وقرر مواصلة السير قدماً . ودعمه آل اوتشوا في مساعيه . رجع إليهم مرتين أو ثلاث مرات ، وأقروا معاً استراتيجية للعمل . كتب خورخي لويس رسالة أخرى إلى اسكوبار ، طرح له فيها أن الضمانات من أجل تسليم نفسه قد مُنحت ، وأنهم سيحافظون على حياته ولن يسلموه إلى جهة أجنبية مهما كانت الأسباب . ولكن اسكوبار لم يرد على الرسالة . عندئذ قرروا أن يشرح بيياميثار نفسه خطياً لاسكوبار حقيقة وضعه ويعرض عليه اقتراحه .

كُتبت الرسالة في الرابع من أذار في سجن الأخوة اوتشوا ، بمساعدة خورخي لويس الذي كان يقول له ماهو مناسب وما يمكن أن يكون غير مناسب . بدأ بيياميثار الرسالة بالاعتراف بأن احترام حقوق الإنسان هو أمر أساسي من أجل التوصل إلى السلام . « ولكن هناك واقعاً مع ذلك لايمكن تجاهله : فالاشخاص الذين يخرقون حقوق الإنسان لايجدون حجة لمواصلة عمل ذلك أفضل من الإشارة إلى خروقات الآخرين لهذه الحقوق نفسها » . وهو ما يعرقل عمل الجانبين ، ويعطل ما توصل إليه هو نفسه في هذا المنحى طوال شهور من النضال من أجل تحرير زوجته . فأسرة بيياميثار كانت ضحية عنف متماد . لم تكن لها فيه أي مسؤولية : محاولة اغتياله هو شخصياً ، واغتيال عديله لويس كارلوس غالان ، واختطاف زوجته وأخته . وأضاف : « إنني أنا وشقيقة زوجتي غلوريا باتشون دي غالان لانفهم ولانستطيع أن نتقبل كل هذه

الاعتداءات غير المبررة والتي لا تفسير لها . » وبالمقابل : فإن إطلاق سراح ماروخا والصحفيين الآخرين هو أمر لابد منه من أجل السير على الطريق نحو سلام كولومبيا الحقيقي .

ردّ اسكوبار الذي جاء بعد أسبوعين من ذلك ، كان يبدأ بضربة سوط : « عزيزي الدكتور ، إنني متأسف جداً ، ولكنني لا أستطيع تلبية طلبك » . ويلفت الانتباه بعد ذلك مباشرة إلى الخبر القائل إن بعض أعضاء الجمعية التأسيسية من القطاع الرسمي ، وبموافقة ذوي المختطفين ، سيقترحون عدم مناقشة قضية تسليم المطلوبين إلى الولايات المتحدة مالم يتم إطلاق سراح المخطوفين . ويعتبر اسكوبار هذا الأمر عير مناسب لأنه لايمكن اعتبار عمليات الاختطاف ضغطاً على أعضاء الجمعية التأسيسية لأنها تمت قبل انتخابهم . وقد سمح لنفسه على أي حال بتوجيه تحذير مرعب حول الموضوع : « تذكر يا دكتور بيياميثار أن مسألة تسليم المطلوبين قد حصدت عدداً كبيراً من الضحايا ، وإضافة ضحيتين أخريين لن يغير كثيراً من عملية الصراع الدائرة » .

لقد كان تحذيراً مقصوداً بحذافيره ، ذلك أن اسكوبار لم يعد يأتي على ذكر تسليم المطلوبين كحجة للحرب بعد صدور المرسوم الذي قوض هذه الحجة لمن هو راغب في تسليم نفسه للعدالة ، وركز على موضوع خرق حقوق الإنسان من قبل قوات الشرطة التي تكافحه . لقد كان ذاك هو تكتيكه البارع : كسب المواقع بانتصارات جزئية ، ومواصلة الحرب بمبررات أخرى يمكن مضاعفتها إلى ما لا نهاية دون أن يضطر إلى تسليم نفسه .

لقد أظهر في الرسالة فعلاً تفهمه بأن الحرب التي يخوضها بيياميثار هي مثل حربه بالذات التي يخوضها من أجل حماية أسرته ، ولكنه يلح ويصر مرة أخرى على أن فرقة النخبة قد قتلت قرابة أربعمئة شاب في قرى ميدلين ، ولم يعاقبها أحد على ذلك . ويقول في الرسالة إن تلك الممارسات تبرر اختطاف الصحفيين كوسيلة ضغط لمعاقبة رجال الشرطة المسؤولين . ويبدي كذلك

استغرابه من عدم محاولة أي موظف حكومي الاتصال به مباشرة حول قضية المخطوفين . وينتهي على أي حال إلى القول إن أية نداءات أو توسلات من أجل الإفراج عن الرهائن لن تكون مجدية ، لأن اللعبة تطال حياة أسر الاكستراديتابليين وشركائهم . وينهي رسالته : « مالم تتدخل الحكومة وتستمع إلى طروحاتنا ، فإننا سوف نعدم ماروخا وفرانثيسكو ، وليس هناك أدنى شك في هذا » .

أثبتت الرسالة أن اسكوبار يبحث عن اتصالات مع موظفين حكوميين . ولم يكن استسلامه مستبعداً ، ولكنه سيكلف أكثر مما يمكن التفكير فيه ، وأنه مستعد لقبض الثمن دون أي حسومات عاطفية . فهم بيياميثار ذلك ، وزار رئيس الجمهورية في الأسبوع نفسه وأطلعه على التطورات . واكتفى الرئيس بتدوين ملاحظة باهتمام .

وفي تلك الأيام زار بيياميثار أيضاً النائب القضائي العام في محاولة لايجاد طريقة مختلفة للعمل ضمن الوضع الجديد . وقد كانت زيارة مثمرة جداً . فقد أخبره النائب العام بأنه سينشر في أواخر ذلك الأسبوع تقريراً حول موت ديانا طربيه ، وفيه يحمّل الشرطة مسؤولية العمل دون أوامر ودون حذر ، وأنه سيفتح ملفات مسؤوليات ضد ثلاثة ضباط من فرقة النخبة . وكشف له النقاب أيضاً عن أنه قد قام بالتحقيق مع أحد عشر شرطياً اتهمهم اسكوبار بأسمائهم ، وقد فتح ملف مسؤوليات بحقهم .

وقد نفذ ما وعد به . ففي الثالث من نيسان تلقى رئيس الجمهورية دراسة تقويمية من النيابة العامة للأمة حول الأحداث التي ماتت فيها ديانا طربيه . . وتقول الدراسة إن الإعداد للعملية العسكرية بدأ يتفاعل منذ ٢٣ كانون الثاني ، حين تلقت استخبارات الشرطة في ميدلين اتصالات ذات طبيعة متماثلة من مجهولين حول ظهور رجال مسلحين في المنطقة العليا من بلدة كوباكابانا . وكانت تلك النشاطات تتركز ـ حسب الاتصالات الهاتفية ـ في منطقة سابانيتا ، وخصوصاً في مزارع بييا دل روساريو ، ولابولا ، وألتو دي لا

كروث . وفي واحدة من تلك المكالمات على الأقل كان هناك ما يشير إلى أن الصحفيين المختطفين محتجزون هناك ، بل ويمكن أن يكون هناك الدكتور أيضاً . وهذا يعني : بابلو اسكوبار . وقد ورد ذكر هذه المعلومة في تحليل استخدم كركيزة للعمليات العسكرية في اليوم التالي ، ولكن لم يرد ذكر إمكانية أن يكون الصحفيون المخطوفون هناك . وقد صرح مدير الشرطة الوطنية ، الجنرال ميغيل غوميث باديبا ، بأنه تلقى معلومات في الرابع والعشرين من كانون الثاني مساء ، بأنه ستتم في اليوم التالي عملية تحقق من اخباريات ، وبحث وتفتيش ، «وهناك احتمال بإلقاء القبض على بابلو اسكوبار وجماعة من تجار المخدرات» . ولكن لم يجر حينئذ أيضاً ، كما يبدو ، ذكر إمكانية العثور هناك على الرهينين الأخيرين : ديانا طربيه وريتشارد بييثرا .

بدأت العملية العسكرية في الساعة الحادية عشرة من صباح يوم ٢٥ كانون الثاني ، حين خرج من مدرسة كارلوس هولغين في ميدلين الكابتن خايرو سالثيدو غارثيا مع سبعة ضباط وخمسة ضباط صف وأربعين شرطياً . وبعد ساعة من ذلك خرج الكابتن ادواردو مارتينث سولانيبا مع ضابطين وضابطي صف وواحد وستين شرطياً . وتشير الدراسة إلى أن الإشعار الرسمي للعملية لم يسجل خروج الكابتن هيلمير اثيكيل توريس بيلا ، المسؤول عن مداهمة مزرعة لالوبا ، حيث كانت في الواقع ديانا ومعها ريتشارد . ولكن الكابتن نفسه في عرضه الذي قدمه فيما بعد أمام النيابة العامة الوطنية ، أكد أنه قد خرج في الساعة الحادية عشرة مع ستة ضباط وخمسة ضباط صف وأربعين شرطياً . وقد خصص للعملية كلها أربع طائرات هليكوبتر مزودة بمدافع رشاشة .

وقد تمت مداهمة بيبا دل روساريو وألتو دي لا كروث دون أية عوائق . وفي الساعة الواحدة بعد الظهر بدأت مداهمة لابولا . وروى ضابط الصف ايفان دياث ألفاريث أنه كان ينزل من الأرض المنبسطة التي هبط فيها من

الهليكوبتر حين سمع سباباً عند سفح الجبل . فركض في ذلك الاتجاه . وتمكن من رؤية نحو تسعة أو عشرة رجال مسلحين ببنادق ورشاشات قصيرة يهربون بفوضى . وصرح ضابط الصف : « بقينا هناك بضع دقائق لنرى من أين يأتي الهجوم . وحينئذ سمعنا من أسفل شخصاً يطلب المساعدة » . وقال ضابط الصف إنه قد أسرع نحو الأسفل ووجد أمامه رجلاً يصرخ به : « أرجوك ساعدني » . فصرخ به ضابط الصف بدوره : « قف . من أنت ؟ » . فرد عليه الرجل بأنه ريتشارد ، الصحفي ، وأنه بحاجة لمساعدة لأن ديانا طربيه كانت جريحة هناك . وروى ضابط الصف أنه في تلك اللحظة ، ودون أن يعرف السبب ، خرجت منه عبارة : « اين بابلو ؟ » . وقد رد عليه ريتشارد : « أنا لا أعرف . ولكن أرجوك أن تساعدني » . عندئذ اقترب منه العسكري مع كل احتياطات الأمان ، وظهر في المكان عدد من رجال جماعته . وانتهى ضابط الصف إلى القول : « لقد كان العثور على الصحفيين هناك مفاجئاً لنا ، ذلك أن هدف عمليتنا لم يكن يتضمن ذلك » .

قصةهذا اللقاء تتفق نقطة نقطة تقريباً من الرواية التي قدمها ريتشارد بيبثرا للنيابة العامة . وقد وسع أقواله فيما بعد بالإشارة إلى أنه رأى الرجل الذي أطلق النار عليه وعلى ديانا ، وأنه كان واقفاً ، وكانت يداه إلى الأمام وإلى الجهة اليسرى ، وعلى مسافة نحو خمسة عشر متراً . وأنهى ريتشارد أقواله : « حين أزت الرصاصات ، كنت قد انبطحت أرضاً » .

أما الرصاصة الوحيدة التي تسببت في موت ديانا ، فقد أثبت الاختبار الفني أنها قد دخلت من المنطقة الحرقفية اليسرى وتابعت إلى الأعلى وإلى اليمين . وقد أثبتت طبيعة الأضرار أن المقذوف كان ذا سرعة عالية ، مابين ألف وثلاثة آلاف قدم في الثانية ، أي أسرع ثلاث مرات من سرعة الصوت . ولم يكن بالإمكان استخراجه ، لأنه كان قد تشظى إلى ثلاث شظايا ، مما خفف وزنه وبدّل شكله ، فتحول إلى شظية غير منتظمة الحواف واصلت طريقها محدثة اتلافاً ذا طبيعة مميتة من حيث الجوهر . لقد كان من شبه

المؤكد أنها رصاصة من عيار ٥٦ر٥ ملم ، وربما أُطلقت من بندقية ذات مواصفات فنية مشابهة ، إن لم تكن مطابقة ، لمواصفات بندقية AUG النمساوية التي عُثر عنيها في موقع الأحداث ، وهي ليست من الأسلحة النظامية التي تستخدمها الشرطة . وفي ملاحظة على الهامش يشير تقرير تشريح الجثة إلى أن « إمكانيات حياة ديانا تُقدر بنحو خمس عشرة سنة أخرى » .

الحدث الأكثر إثارة للريبة في العملية العسكرية هو وجود مدني مقيد كان في الطائرة نفسها التي نقلت ديانا الجريحة إلى ميدلين . وقد اتفق شرطيان على أنه كان رجلاً ذا مظهر فلاحي ، عمره مابين الخامسة والثلاثين والأربعين ، بشرته سمراء ، شعره قصير ، مربوع بعض الشيء ، طوله نحو متر وسبعين سنتمتراً تقريباً ، وكان يضع في ذلك اليوم على رأسه طاقية قماشية . وقالا إنهما قد اعتقلاه في سياق العملية العسكرية ، وكانا يحاولان الطلب منه التعريف بنفسه حين بدأت رمايات الرصاص ، فاضطر إلى تقييده واقتياده معهما إلى الهليكوبتر . وقد أضاف أحد الشرطيين بأنه سلمه إلى ضابط الصف الذي استجوبه في حضورهما وأطلق سراحه بالقرب من المكان الذي وجداه فيه . وقالا : « لم تكن للرجل أية علاقة بالأمر . ذلك أن اطلاق النار حدث في الأسفل بينما كان الرجل في أعلى الجبل معنا » . هذه الروايات تستبعد وجود الشخص المدني على متن طائرة الهليكوبتر ، ولكن طاقم الطائرة يؤكد العكس . وقد كانت هناك أقوال أكثر تحديداً . فالعريف الأول كارلوس ريوس راميريث ، الفني المختص بالمدفع الرشاش في الهليكوبتر ، لايراوده الشك في أن الرجل كان معهم على متن الطائرة ، وقد أعيد في ذلك اليوم نفسه إلى منطقة العمليات .

وقد استمر اللغز الغامض في اليوم السادس والعشرين من كانون الثاني ، حين ظهرت جثة المدعو خوسيه هومبيرتو فاثكيث مونيوث في بلدة خيراردوتا ، بالقرب من ميدلين . وكان قد قُتل بثلاث رصاصات من عيار ٩ ملم في الصدر ورصاصتين في الرأس . وكانت له سوابق خطيرة في ملفات

الاستخبارات باعتباره عضواً في كارتيل ميدلين . وقد وسم المحققون صورته بالرقم خمسة وخلطوها بصور مجرمين آخرين ، وعرضوا الصور كلها على من كانوا محتجزين مع ديانا طربيه . وقد قال هيرو بوس : «لم أتعرف على أي منهم ، ولكنني أعتقد أن الشخص الذي في الصورة ذات الرقم خمسة يشبه بعض الشيء أحد القتلة الذي رأيته بعد أيام من الاختطاف» . وصرحت اثوثينا ليبفانو كذلك بأن الرجل الذي في الصورة رقم خمسة ، ولكن دون شارب ، يشبه شخصاً كان يتناوب في الليل على حراسة البيت الذي كانت فيه ديانا في الأيام الأولى للاختطاف . وتعرف ريتشاردو بيثيرا كذلك على الرقم خمسة بأنه كان مقيداً في طائرة الهليكوبتر ، ولكنه أوضح : «يخيل إلي ذلك بسبب شكل وجهه ، ولكنني غير متأكد» . وقد تعرف عليه أيضاً اورلاندو اثيفيدو .

وأخيراً ، فقد تعرفت زوجة فاثكيث مونيوث على جثته ، وقالت وهي تحت القسم إنه في يوم ٢٥ كانون الثاني ١٩٩١ ، في الساعة الثامنة صباحاً ، خرج زوجها من البيت ليبحث عن سيارة تكسي ، وعندها انقض عليه راكبا دراجتين ناريتين يرتديان زي الشرطة وشخصان آخران بالملابس المدنية وأدخلاه بالقوة إلى سيارة . وقد تمكن هو من مناداتها صارخاً : «آنا لوسيا» . ولكنهم كانوا قد انطلقوا به . لم تؤخذ هذه الأقوال مع ذلك بعين الاعتبار لعدم وجود شهود آخرين على عملية الاختطاف .

«وفي النتيجة ــ يقول التقرير ــ ومع الأخذ في اعتبار الأدلة المقدمة ، فانه يمكن الجزم بأنه قبل تنفيذ مداهمة مزرعة لابولا كان بعض عناصر الشرطة الوطنية المكلفين بالعملية يعرفون من خلال السيد فاثكيث مونيوث ، وهو مدني كان في قبضتهم ، بأن بعض الصحفيين كانوا محتجزين في تلك الأماكن ، ومن المؤكد تماماً أنهم أقدموا على قتل المذكور بعد انتهاء الأحداث» . وقد عُثر كذلك في مكان الأحداث على قتيلين آخرين لايوجد تفسير لموتهما .

وقد استخلص مكتب التحقيقات الخاص في النتيجة أنه لا وجود لمبررات تؤكد أن الجنرال غوميث باديا ، ولا غيره من كبار ضباط الشرطة الوطنية

كانوا على علم بذلك . وأن السلاح الذي تسبب في جرح ديانا لم يستخدم من قبل أي عنصر من عناصر الفرقة الخاصة للشرطة الوطنية في ميدلين . وأنه على أعضاء جماعة العمليات في مزرعة لابولا أن يوضحوا مقتل ثلاثة أشخاص وجدت جثثهم هناك . وأنه سيفتح تحقيق رسمي انضباطي بحق القاضي ٩٣ في التحقيق الجنائي العسكري ، الدكتور دييغو رافائيل دي خيسوس كوليي نييتو وسكرتيرته ، بسبب خرقٍ للأنظمة من النوع الجوهري والمنهجي . وسيفتح كذلك تحقيق ضد أخصّائيي شعبة إدارة الأمن في بوغوتا .

بعد نشر هذا التقرير ، أحس بيياميثار بأنه يقف على أرض أشد صلابة ليكتب إلى اسكوبار رسالة ثانية . وقد بعثها كالعادة من خلال آل اوتشوا ، وأرسل معها رسالة أخرى إلى ماروخا راجياً إيصالها إليها . وقد انتهز الفرصة ليقدم إلى اسكوبار شرحاً مدرسياً عن السلطات الثلاث للدولة : التنفيذية ، والتشريعية والقضائية ، ولافهامه مدى الصعوبة التي يواجهها رئيس الجمهورية ضمن هذه الآلية الدستورية والشرعية ، في الإشراف على أجهزة معقدة وكبيرة العدد مثل القوات المسلحة . ومع ذلك ، فقد اعتبر اسكوبار محقاً في تشهيره بخروقات حقوق الانسان من جانب قوى الأمن العام ، وفي إصراره على طلب الضمانات لنفسه ولأسرته ولأناسه عندما يستسلمون . وقال له : « إنني أشاطرك الرأي في أن الصراع الذي نخوضه أنا وأنت له الجوهر نفسه : حماية حياة أسرتينا وذوينا ، والتوصل إلى السلام » . وعلى أساس هذه الأهداف المشتركة ، اقترح عليه تبني استراتيجية مشتركة .

ورد عليه اسكوبار بعد أيام وقد جَرحَ كبرياءه ذلك الدرس في القانون العام . فكتب يقول : « أنا أعرف أن البلاد مقسمة إلى رئيس ، ومجلس شيوخ ، وشرطة ، وجيش . ولكنني أعرف أيضاً أن الرئيس هو من يأمر » . أما بقية الرسالة فأربع صفحات مكرورة حول ممارسات الشرطة ، تضيف معطيات جديدة ولكنها لا تضيف أي حجج على الحجج السابقة . وقد أنكر أن يكون الاكسترادتيابليون قد أعدموا ديانا طربيه ، أو أنهم حاولوا عمل ذلك ،

لأنهم لو أرادوا ذلك لما كان عليهم إخراجها من البيت الذي كانت مختطفة فيه ولما كانوا ألبسوها السواد لكي تحسبها طائرات الهليكوبتر فلاحة من المنطقة ، وكتب : « إنها لاتساوي وهي ميتة ماتساويه وهي رهينة » . وفي النهاية ، دون خطوات وسيطة أو صيغ مجاملة ، ودّع بعبارة غير عادية : « لاتقلق من تصريحاتك إلى الصحافة طالباً تسليمي إلى الولايات المتحدة . فأنا أعرف أن كل شيء سينتهي على مايرام ، وأنك لا تحمل لي أي ضغينة لأن نضالك في الدفاع عن أسرتك ليس له أهداف تختلف عن نضالي دفاعاً عن أسرتي » . وقد ربط بيياميثار هذه الجملة بعبارة أخرى لاسكوبار كان قد قال فيها إنه يشعر بالخجل لاحتجازه ماروخا كرهينة لأن صراعه ليس معها وإنما مع زوجها . وهو ما كان قد قال له بيياميثار بطريقة أخرى : « كيف تحتجز زوجتي في حين أن الصراع بيننا نحن الأثنين ؟ » . وعرض عليه بالتالي أن يستبدله بماروخا ليتفاوضا شخصياً . ولكن اسكوبار لم يوافق .

كان بيياميثار قد ذهب حتى ذلك الحين أكثر من عشرين مرة إلى سجن الأخوة اوتشوا . وكان يستمتع بلآلئ المطبخ المحلي التي كانت نساء الأسرة في لالوما يحملنها إلى السجن مع كل الاحتياطات للحيلولة دون أي محاولة اغتيال . وكانت تلك الزيارات عملية تعارف متبادل ، وثقة مشتركة ، كانوا يكرسون أفضل ساعاتها لحل رموز كل جملة وكل حركة لمعرفة النوايا التالية لبابلو اسكوبار . وكان بيياميثار يرجع إلى بوغوتا على الدوام تقريباً في الطائرة الأخيرة من الجسر الجوي . ويكون بانتظاره في المطار ابنه اندريس الذي يرافقه أحياناً بتناول كأس مياه معدنية بينما هو يتخلص من توتراته برشفات بطيئة ووحيدة من الخمر . لقد نفذ وعده بعدم حضور أي احتفال في الحياة العامة ، وبعدم اللقاء مع الأصدقاء : لا شيء من هذا . وحين يزداد الضغط ، يخرج إلى الشرفة ويقضي ساعات وهو ينظر في الاتجاه الذي يعتقد أن ماروخا موجودة فيه ، ويرسل إليها طوال ساعات رسائل ذهنية ، إلى أن يغلبه النعاس . ولكنه يكون واقفاً على قدميه منذ الساعة السادسة صباحاً

ومستعداً للبدء من جديد . وحين كان آل اوتشوا يتلقون رداً على إحدى الرسائل ، أو شيئاً أكثر أهمية ، كانت مارتا نيفيس أو ماريا ليا تتصلان به هاتفياً ، وتكتفيان بجملة واحدة :

ـ دكتور : غداً في الساعة العاشرة .

وعندما لاتكون هناك مكالمات ، كان يكرس وقته وجهده لحملة *كولومبيا تطالب بهم* ، وهي حملة تلفزيونية تستند إلى المعلومات التي قدمتها بياتريث عن ظروف الاعتقال . وكانت صاحبة الفكرة هي نورا سانين ، مديرة الجمعية الوطنية لوسائل الاتصال (اسوميديوس) ، وقد وضعتها موضع التنفيذ ماريا دل روساريو اورتيز ـ صديقة ماروخا الحميمة وابنة أخت هيرناندو سانتوس ـ بالتعاون مع زوجها الذي يعمل في ميدان الدعاية ، وغلوريا دي غالان وبقية أفراد الأسرة : مونيكا ، الكسندرا ، خوانا واخوتهن .

وكانت الحملة عبارة عن استعراض يومي يقوم به نجوم السينما ، والمسرح ، والتلفزيون ، وكرة القدم ، والعلوم ، والسياسة ، يطالبون في رسالة واحدة بالإفراج عن المخطوفين وباحترام حقوق الإنسان . ومنذ أول بث لها أثارت الحملة تحركاً جارفاًلدى الرأي العام . وراحت الكسندرا تجوب البلاد من أقصاها إلى أقصاها مع مصور لتصيد اللقطات التلفزيونية . وخلال الشهور الثلاثة التي دامتها الحملة ، ظهرت نحو خمسين شخصية بارزة . ولكن اسكوبار لم يتأثر . وعندما قال الموسيقي البارز رافائيل بويانا أنه مستعد للركوع على ركبتيه طالباً إطلاق سراح الرهائن ، رد عليه اسكوبار : « يمكن لثلاثين مليون كولومبي أن يأتوا راكعين . ولكنني لن أطلق سراحهم » . ومع ذلك ، فقد أطرى في إحدى رسائله إلى بيياميثار على البرنامج ، لأنه لا يناضل من أجل إطلاق الرهائن فقط ، وإنما من أجل احترام حقوق الانسان كذلك .

إن السهولة التي كانت تتحرك بها بنات ماروخا وضيوفهن على شاشة التلفزيون كانت تثير قلق ماريا فيكتوريا ، زوجة باتشو سانتوس ، بسبب

خجلها الذي لايمكن تجاوزه من الظهور أمام الناس . فالميكروفونات التي تخرج أمامها فجأة ، وضوء البروجكتورات العاكسة ، وعين الكاميرا التي مثل عين قاضي التفتيش ، والأسئلة الدائمة نفسها التي تنتظر الإجابات نفسها ، كل ذلك كان يسبب لها غثيان هلع لاتتمكن من كبحه إلا بشق النفس . في يوم عيد ميلادها أعدوا ملاحظة تلفزيونية تحدث خلالها هيرناندو سانتوس بتدفق مهني ، ثم أمسكها من ذراعها وقال لها : «تفضلي حضرتك» . وقد كانت تتمكن من الفرار في معظم الأحيان ، ولكنها كانت تضطر أحيانا لمواجهة الكاميرا ، ولم تكن تظن أنها ستموت في أثناء ذلك وحسب ، بل كانت تشعر بأنها مضحكة وحمقاء حين ترى وتسمع نفسها على الشاشة .

وقد كان رد فعلها على تلك العبودية الاجتماعية معاكساً تماماً آنذاك . فقد اتبعت دورة في إدارة الأعمال وأخرى في الصحافة . وأصبحت متحررة واحتفالية بقرار خاص أخذته بنفسها . وتقبلت دعوات كانت تمقتها من قبل ، وصارت تذهب إلى محاضرات وحفلات موسيقية ، وارتدت ملابس فرحة وبدأت تسهر حتى ساعة متأخرة ، إلى أن هزمت تماماً صورة الأرملة المحزنة التي كانت عليها . وقد تفهم هيرناندو وأفضل أصدقائها سلوكها ذاك ، وأيدوها ، وساعدوها في الوصول إلى هدفها . ولكنها سرعان ما عانت من العقوبات الاجتماعية . فقد علمت أن كثيرين ممن يحتفون بها في حضورها ، ينتقدونها من وراء ظهرها . وصارت تصلها باقات أزهار دون بطاقات ، وعلب شيكولاته دون أسماء ، ومصارحات غرامية ، دون مرسلين . وقد استمتعت بوهم أن مرسلها هو زوجها الذي ربما يكون قد توصل إلى شق طريق سري إليها من عزلته . ولكن مرسل المطارحات الغرامية لم يلبث أن عرّف بنفسه عبر الهاتف : لقد كان شخصاً مهووساً . إنه امرأة . وقد أعلنت لها عبر الهاتف أيضاً ودون لف أو دوران : إنني مغرمة بكِ» .

في أحد أيام الحرية الخلاقة تلك التقت ماريا في صدفة بصديقة منجمة كانت قد تنبأت بمصير ديانا طربيه المأساوي . فأحست بالذعر لمجرد

التفكير في أنها قد تقدم لها نبوءة مشؤومة ولكن المنجمة طمأنتها . ثم التقت بها ثانية في أوائل شهر شباط ، فهمست في أذنها بصورة عابرة ، دون أن تكون قد طلبت منها أي شيء ودون أن تنتظر أي تعليق : «باتشوحي» . قالت ذلك بثقة كبيرة جعلت ماريا في تصدقها وكأنها رأت زوجها بأم عينها .

* * *

الحقيقة أنه في شهر شباط كان يبدو على اسكوبار أنه لايثق بالمراسيم الصادرة ، حتى عندما كان يقول إنه يثق بها . لقد كان عدم الثقة شرطاً حيوياً في شخصيته ، وكان من عادته القول إنه مايزال حياً بفضل ذلك . لم يكن يفوض أحداً في أي أمر جوهري . فهو زعيم نفسه العسكري ، وزعيم نفسه الأمني ، والاستخبارتي والاستخبارتي المضاد ، والاستراتيجي الارتجالي والمضلل الذي لامثيل له في المعلومات . في بعض الظروف العصيبة كان يستبدل حرسه الشخصي المؤلف من ثمانية رجال كل يوم . وكان يعرف أنواع تكنولوجيا الاتصالات ، والدخول على الخطوط ، وتتبع الذبذبات الالكترونية . وكان لديه موظفون يقضون اليوم كله في تبادل حوارات مجنونة في هواتفهم ليتشوش المتنصتون في خليط من الهذيانات المتشابكة ويفقدون القدرة على تمييز الرسائل الحقيقية . وعندما وزعت الشرطة رقمين هاتفيين لكي يقدم كل من يشاء معلومات عن مكان وجوده بسرعة ، استأجر مدارس الأطفال لكي يستبقوا الوشاة ويبقوا الخطين مشغولين على مدار أربع وعشرين ساعة . وكان لديه معين لاينضب من المكر في عدم ترك أي دليل على أعماله . لم يكن يستشير أحداً ، وكان يقدم استراتيجيات شرعية لمحاميه الخاصين الذين لايفعلون شيئاً سوى إعطاءها أرضية قانونية .

وكان رفضه مقابلة بيياميثار هو استجابة لخوفه من أن يكون قد أخفي تحت جلده جهازاً الكترونياً يتيح ملاحقته . وهذا الجهاز في الواقع هو مرسل ذبذبات دقيق جداً يعمل ببطارية متناهية الدقة ويمكن إلتقاط ذبذباته عن بعد

بواسطة جهاز استقبال خاص يتيح باستخدام الحاسوب تحديد مكان الذبذبات بصورة تقريبية . وكان اسكوبار يثق كثيراً بقدرة هذا الاختراع المعقد إلى حد لايعتقد معه بخرافية أن يثبّت أحدهم الجهاز تحت جلده . ويمكن استخدام جهاز قياس الذبذبات كذلك في تحديد إحداثيات موقع بث أذاعي ، أو موقع جهاز هاتف متنقل أو سلكي . ولهذا كان اسكوبار لايستخدم أجهزة الهاتف إلا في أضيق الحدود ، وإذا فعل ذلك فإنه يفضل استخدام الهاتف من سيارة متحركة . وكان يستخدم الملاحظات المكتوبة في اتصالاته . وإذا اضطر لمقابلة أحد فانه لايقابله حيث يكون هو وإنما يذهب بنفسه إلى حيث الآخر . وبعد انتهاء اللقاء يتنقل في اتجاهات غير متوقعة . أو إنه يلجأ إلى أقصى الطرف المقابل للتكنولوجيا : فيتنقل في ميكروباص يحمل لوحات واشارات مزيفة لخطوط المواصلات العامة ويلتزم بخط السير الروتيني ولكنه لايتوقف عند الموقف لأنه يكون ممتلئاً على الدوام بحراس «المعلم» . وقد كانت إحدى مداعبات اسكوبار ، حقاً ، أن يجلس في كرسي السائق بين حين وآخر .

لقد أصبحت إمكانية إقدام الجمعية التأسيسية على اتخاذ موقف مؤيد لعدم تسليم المطلوبين إلى دولة أجنبية والعفو عنهم ، أكثر احتمالاً في شهر شباط . وكان اسكوبار يعرف ذلك وقد ركز قواه في هذا الاتجاه وليس باتجاه الحكومة . ولابد أن ذلك قد بدا للرئيس غافيريا أشد قسوة مما يمكن الاعتقاد في الواقع . فكل الأمور المتعلقة بمراسيم إخضاع المطلوبين للعدالة كانت تتابع في إدارة التحقيق الجنائي ، وكان وزير العدل على أهبة الاستعداد دوماً للتعامل مع أي طارئ حقوقي . وكان بيياميثار لايعمل لحسابه الخاص وحسب ، بل وبالمجازفة بنفسه كذلك ، ولكن تعاونه الوثيق مع رافائيل باردو أبقى له قناة مباشرة مفتوحة مع الحكومة ، لاتلزمه بشيء ، وتفيده بالمقابل للتقدم في مفاوضاته . ولابد أن اسكوبار قد أدرك آنذاك بأن الرئيس غافيريا لن يكلف على الإطلاق موظفاً حكومياً للتفاوض معه ـ وكان ذلك هو حلمه

الذهبي ـ فتمسك بأمل أن تقوم الجمعية التأسيسية بتبرئته ، سواء باعتباره تاجر مخدرات تائب ، أو في ظل إحدى الجماعات المسلحة .

* * *

لم تكن حسابات حمقاء . فقبل عقد الجمعية التأسيسية كانت الأحزاب السياسية قد اتفقت على جدول أعمال مغلق ، وتمكنت الحكومة بمبررات قانونية من منع إدراج قضية تسليم المطلوبين في جدول الأعمال ، لأنها كانت بحاجة إلى هذه القضية كوسيلة ضغط في سياسة الإخضاع . ولكن عندما اتخذت محكمة العدل العليا قرارها المشهود بأنه يمكن للجمعية التأسيسية معالجة أي موضوع دون حدود ، برزت قضية تسليم المطلوبين من بين الأنقاض . ولم يأت أحد آنذاك على ذكر العفو ، ولكنه كان احتمالاً وارداً أيضاً : فهناك متسع لكل شيء حين تنعدم الحدود .

لم يكن الرئيس غافيريا ممن يتركون موضوعاً للتوجه إلى موضوع آخر . وخلال ستة شهور من حكمه كان قد فرض على مساعديه نظاماً للاتصال الشخصي بواسطة ملاحظات تكتب على قصاصات عَرَضيّة في عبارات موجزة تلخص كل شيء . لقد كان يكتفي في بعض الأحيان بكتابة اسم الشخص الذي سيتوجه إليه ، ويسلم القصاصة إلى أقرب شخص منه ، وحين تصل إلى المرسل إليه يفهم فوراً مايتوجب عليه عمله . وكان لهذا المنهج بالنسبة لمساعديه فوق ذلك فضيلة مرعبة هي أنه لايميز بين ساعات العمل وساعات الراحة . فغافيريا لم يكن يفهم الفرق بينهما ، ذلك أنه كان يفتقد إلى أدنى حد من الانضباط في عمله ، ويواصل إرسال قصاصته هذه حتى وهو في حفلة أو فور خروجه إلى السطح بعد جولة غوص للصيد تحت الماء . وقد قال أحد مستشاريه : « إن لعب التنس معه كان أشبه بجلسة لمجلس الوزراء » . وكان بإمكانه أن ينام قيلولة من خمس إلى عشر دقائق حتى وهو جالس وراء مكتبه . ويستيقظ بعدها وكأنه رجل جديد بينما مساعدوه ينهارون من

النعاس . ومهما بدا منهج القصاصات مربكاً ، إلا أنه كان يمتاز بالسرعة والنشاط مقارنة مع المذكرات الرسمية .

وقد كان هذا المنهج مفيداً جداً عندما حاول الرئيس وقف ضربة المحكمة العليا ضد تسليم المطلوبين بحجة أنه موضوع قانوني وليس دستورياً . وقد تمكن وزير الدولة هومبيرتو دي لا كايي من إقناع الأغلبية مسبقاً . ولكن اهتمامات الناس فرضت نفسها في النهاية على اهتمامات الحكومة ، فقد كان الناس قد حددوا تسليم المطلوبين جيداً باعتباره أحد عوامل الفوضى الاجتماعية ، وخصوصاً الإرهاب الوحشي . وهكذا ، بعد الكثير من الالتفاف وإعادة الالتفاف ، انتهى الأمر إلى إدراج المسألة ضمن أعمال اللجنة الحقوقية في الجمعية التأسيسية .

ووسط ذلك كله كان آل اوتشوا يهجسون مسبقاً بالمخاوف من أن اسكوبار ، المحاصر بشياطينه نفسها ، قد يقرر الإخلال بالأخلاق في كارثة ذات أبعاد قيامية . وقد كانت مخاوف نبوئية . ففي أوائل شهر آذار ، تلقى بيياميثار رسالة مستعجلة من آل اوتشوا : «احضر فوراً إلى هنا لأن أموراً خطيرة ستحدث» . كانوا قد تلقوا رسالة من بابلو اسكوبار يهدد فيها بتفجير خمسين طناً من الديناميت داخل الحرم التاريخي المسوّر لمدينة كارتا خينا دي إندياس ما لم يُعاقب رجال الشرطة الذين يعيثون فساداً في قرى ميدلين : مئة كيلوغرام من المتفجرات عن كل شاب قتل خارج المعارك .

كان الاكسترادیتابليون يعتبرون مدينة كارتا خينا دي إندياس مكاناً مقدساً لايمكن المس به حتى ٢٨ أيلول ١٩٨٩ ، حين زعزعت شحنة ديناميت مفاجئة ركائز فندق هيلتون وحولت الزجاج فيه إلى فتات ، وأدت إلى قتل طبيبين في مؤتمر كان يعقد في طابق آخر غير الذي حدث فيه الانفجار . ومنذ ذلك الحين أصبح واضحاً أن تلك المدينة التي تعتبر تراثاً إنسانياً لم تعد بمنجى من الحرب الدائرة . والتهديد الجديد لايسمح بلحظة واحدة من التردد .

علم الرئيس غافيريا بالخبر من بيياميثار قبل أيام قليلة من المهلة المحددة . وقد قال له بيياميثار ليسهل عليه العثور على حجة : «نحن لانناضل الآن من أجل ماروخا وإنما من أجل إنقاذ كارتاخينا» . فكان ردّ الرئيس أنه يشكره على هذه المعلومات وأن الحكومة ستتخذ الإجراءات المناسبة لمنع وقوع الكارثة . ولكنها لن تخضع بأي حال للابتزاز . وهكذا سافر بيياميثار مرة أخرى إلى ميدلين ، وتمكن بمساعدة آل اوتشوا من ثني اسكوبار عن عزمه . لم يكن ذلك سهلاً . فقبل أيام من المهلة ، أكد اسكوبار في ورقة متعجلة أنه لن يحدث للصحفيين المختطفين أي شيء في الوقت الراهن ، وأجّل تفجير القنابل في المدن الكبرى . ولكنه كان حازماً في الوقت نفسه : إذا ما تواصلت حملات الشرطة في ميدلين إلى مابعد شهر نيسان ، فلن يبقى حجر فوق حجر في مدينة كارتاخينا القديمة والعريقة .

- ٩ -

بينما هي وحدها في الغرفة ، أدركت ماروخا بأنها في أيدي الرجال الذين ربما يكونون قد قتلوا مارينا وبياتريث ، والذين يرفضون أن يعيدوا إليها المذياع والتلفزيون حتى لاتعرف الحقيقة . فانتقلت من الإلتماس المترجي إلى المطالبة الغاضبة ، وواجهت الحراس بالصراخ لكي يسمعها حتى الجيران ، ولم تعد تمشي وقررت في صباح أحد الأيام عدم العودة إلى تناول الطعام . فوجىء «الوكيل» والحراس بهذا الوضع الذي لم يحسبوا له حساباً من قبل ، ولم يعرفوا كيف يتصرفون . كانوا يتهامسون في مداولات غير مجدية ، ويخرجون لإجراء مكالمات هاتفية ثم يعودون وهم أكثر حيرة وارتباكاً . كانوا يحاولون تهدئة ماروخا بوعود وهمية أو تخويفها بالتهديدات ، ولكنهم لم يتمكنوا من كسر إرادتها في رفض الأكل .

لم تشعر من قبل بأنها سيدة نفسها مثلما شعرت آنذاك . كان واضحاً أن لدى حراسها تعليمات بعدم إساءة معاملتها ، وقد لعبت إلى أقصى حد ورقة أنهم يحتاجون إليها حية . وكان حسابها صائباً : فبعد ثلاثة أيام من إطلاق سراح بياتريث ، فُتح الباب في الصباح الباكر دون أي إشعار مسبق ، ودخل «الوكيل» ومعه المذياع والتلفزيون . وقال لماروخا : «ستعرفين الآن أمراً» ثم أطلعها على الخبر فوراً ودون دراماتيكية :

- دونيا مارينا مونتويا ماتت .

وعلى عكس ماكانت هي نفسها تنتظره ، سمعت ماروخا الخبر وكأنها تعرفه منذ الأزل . فالمفاجأة المذهلة بالنسبة إليها ستكون في القول لها إن مارينا حية . ومع ذلك ، حين وصلت الحقيقة إلى قلبها ، أدركت كم كانت تحبها وكم هي مستعدة لأن تقدم أي شيء كي لايكون ذلك الخبر صحيحاً . وقالت للوكيل :

ـ قتلة! أنتم جميعكم هكذا : قتلة!

في تلك اللحظة ظهر *الدكتور* عند الباب ، وأراد تهدئة ماروخا بخبر أن بياتريث سعيدة في بيتها ، ولكنها رفضت أن تصدق ذلك ما لم ترها بعينيها في التلفزيون أو تسمعها في المذياع . وبدا لها بالمقابل أن القادم الجديد قد أُرسل إليها لتفرج عن نفسها . فقالت له :

ـ أنت لم تعد تظهر هنا . إنني أفهم ذلك : لابد أنك تشعر بالعار لما فعلته بمارينا .

وقد احتاج هو للحظة حتى يستعيد السيطرة على نفسه من وقع المفاجأة . فحرضته ماروخا على الكلام قائلة :

ـ ماذا حدث لها ؟ هل كان محكوم عليها بالإعدام ؟

فأوضح لها عندئذ أن الأمر يتعلق بانتقام من خيانة مزدوجة . وقال : « ولكن وضع حضرتكِ مختلف » . ثم كرر ما كان قد قاله لها من قبل : « قضيتك سياسية » . استمعت إليه ماروخا بذلك الإفتتان الغريب الذي تبثه فكرة الموت فيمن يشعرون بأنهم سيموتون . ثم قالت له :

ـ أخبرني على الأقل كيف حدث ذلك . هل انتبهت مارينا إلى أنها ستموت ؟

فقال :

ـ أقسم لك إنها لم تنتبه .

وألحت ماروخا :

ـ كيف لا! كيف يمكن ألا تنتبه!

فقال بلهفة الراغب في أن تصدقه :

ـ قالوا لها إنهم سينقلونها إلى مزرعة أخرى . ثم طلبوا منها أن تنزل من السيارة . وواصلت التقدم وعندها أطلقوا النار على رأسها من الخلف . لم تستطع أن تنتبه إلى أي شيء .

إن صورة مارينا وهي تمشي بالقناع المقلوب على رأسها متلمسة طريقها نحو المزرعة الوهمية ستلاحق ماروخا على امتداد ليالٍ طويلة من الأرق . فأكثر من خوفها من الموت نفسه كانت تخاف صحو اللحظة الأخيرة . والشيء الوحيد الذي بثّ في نفسها بعض العزاء هو علبة حبوب المنوِّم التي كانت تدخرها مثل لآلئ ثمينة ، لكي تبتلع حفنات منها قبل أن تسمح لنفسها بالانقياد لهم بالحسنى إلى المسلخ .

في نشرة أخبار الظهيرة شاهدت بياتريث أخيراً ، كانت محاطة بذويها في شقة مملوءة بالأزهار تعرفت عليها فوراً بالرغم من التغيرات : فقد كانت شقتها . ومع ذلك ، فان بهجة رؤيتها قد أُفسدت بالاستياء من الديكور الجديد . بدت لها المكتبة الجديدة جيدة الصنع وفي المكان الذي كانت تريده لها ، ولكن ألوان الجدران والسجاد كانت لاتطاق . وحصان سلالة تانغ كان يعترض الطريق في أكثر الأماكن عرقلة . فتناست وضعها وبدأت تؤنب زوجها وأولادها وكأنهم يستطيعون سماعها وهم في الشاشة . صرخت بهم : «يالكم من أفظاظ! لقد فعلتم كل شيء على عكس ماكنت أريده!» واقتصرت رغبتها في الخروج إلى الحرية للحظة على لهفتها إلى تأنيبهم على ذلك الديكور السيء .

في عاصفة الأحاسيس والمشاعر المستعادة تلك ، أصبحت النهارات بالنسبة إليها لاتُعاش والليالي لاتنتهي . كان يبهرها النوم في سرير مارينا ، والتدثر ببطانيتها ، والتعذب برائحتها ، وحين تبدأ نومها تسمع في العتمة ، إلى جوارها في السرير نفسه ، همساتها التي كطنين نحلة . ولم يكن ذلك في إحدى الليالي أضغاث أحلام ، وإنما أعجوبة من الحياة الواقعية . فقد أمسكتها

مارينا من ذراعها بيدها الحية ، الدافئة والطرية ، وهمست في أذنها بصوتها الطبيعي : « ماروخا » .

لم تعتبر ذلك هذياناً لأنها كانت قد عاشت في جاكارتا تجربة خيالية اخرى . فقد اشترت من معرض للعاديات القديمة تمثالاً بديعاً لشاب بالحجم الطبيعي ، يضع إحدى قدميه على رأس طفل مهزوم . وكانت له حول رأسه هالة مثل القديسين الكاثوليك ، ولكنها كانت من النحاس الأصفر ، وكان شكلها والمادة المصنوعة منها توحي بأنها إضافة بخسة إلى التمثال . وبعد زمن من اقتنائه ووضعه في أفضل مكان في البيت ، علمتْ أنه يمثل إله الموت .

وفي إحدى الليالي حلمت ماروخا بأنها تحاول انتزاع الهالة عن التمثال لأنها بدت لها قبيحة جداً ، ولكنها لم تتمكن من ذلك . فقد كانت مثبتة إلى البرونز باللِحام . استيقظت منزعجة من الرؤيا السيئة ، وهرعت لرؤية التمثال في الصالة ، فوجدت الإله بدون التاج والهالة ملقاة على الأرض وكأن تلك هي نهاية الحلم . وقد اقتنعت ماروخا ـ العقلانية واللا أدرية ـ بفكرة أنها قد تكون هي نفسها في حالة سرنمة تائهة من الذاكرة ، انتزعت هالة إله الموت .

في بداية الأسر كانت تحافظ على تماسكها بالغضب الذي يثيره في نفسها إذعان مارينا . ثم بعد ذلك بالشفقة عليها وعلى مصيرها المرير وبرغبتها في تشجيعها على العيش . وقد تعزز تماسكها بتظاهرها بامتلاك قوة لا تمتلكها في الواقع حيث بدأت بياتريث تفقد السيطرة على نفسها ، وبإحساسها بضرورة الحفاظ على توازنها حين كانت الشدائد تثقل عليها . وكان لابد لأحداهن أن تتولى القيادة حتى لا يغرقن نهائياً ، فكانت هي القائدة في مكان كئيب ونتن ، طوله ثلاثة أمتار وعرضه نحو مترين ونصف ، تنام فيه على الأرض ، وتأكل فضلات المطبخ ، وليس لديها ما يؤكد أنها ستبقى على قيد الحياة في الدقيقة التالية . ولكن ، حين لم يبق أحد سواها في الغرفة ، لم يعد عليها أن تتصنع القوة : فقد أصبحت وحيدة في مواجهة نفسها .

إن يقينها بأن بياتريث قد أخبرت أسرتها بالأسلوب الذي يمكنهم

التوجه به إليها عبر الإذاعة والتلفزيون ، أبقاها متيقظة . وبالفعل ، فقد ظهر بيياميثار عدة مرات بصوته المشجع ، وكان أبناؤها يواسونها بمخيلتهم وظرفهم . وفجأة ، دون أي اعلان مسبق ، انقطع الاتصال طوال أسبوعين . عندئذ طغى عليها إحساس بالنسيان . انهارت . لم تعد تخرج للمشي . بقيت مستلقية ووجهها إلى الجدار ، غير عابئة بشيء ، لا تأكل ولا تشرب إلا مايكفي لأن لا تموت . وعادت تشعر بالآلام نفسها التي عانتها في شهر كانون الأول ، وبالتشنجات والوخزات نفسها في ساقيها والتي استدعت في المرة السابقة إحضار الطبيب . ولكنها في هذه المرة لم تُظهر حتى الشكوى .

أما الحراس المشغولون بخلافاتهم الشخصية ومنازعاتهم الداخلية ، فقد تجاهلوها . فكان الطعام يبرد في الطبق دون أن يبدو على «الوكيل» أو زوجته أنهما يعلمان شيئاً من ذلك . وصارت الأيام أطول وأجدب . وقد بلغ سوء الحال أنها كانت تحن أحياناً إلى أسوأ لحظات الأيام الأولى في الأسر . فقدت اهتمامها بالحياة . بكت . وحين استيقظت في صباح أحد الأيام لاحظت والهلع يسيطر عليها أن ذراعها اليمنى ترتفع من تلقاء ذاتها .

تبديل فريق الحراس في شهر شباط كان منحة من العناية الإلهية . فبدلاً من عصبة باراباس أرسلو أربعة شبان جدد ، جديدين ، منضبطين ومحبين للحديث . كانوا مهذبين ويتمتعون بطلاقة في التعبير مما جعلهم مصدر راحة لماروخا . دعوها من فورهم لتلعب معهم «نينتيندو» وتسليات تلفزيونية أخرى . وقد قرّب اللعب مابينهم . ولاحظت منذ البداية أنهم يتكلمون بالتعابير المعتادة ، وقد سهّل ذلك التواصل فيما بينهم . لاشك في أنهم قد دُربوا ليتغلبوا على مقاومتها وليرفعوا من معنوياتها بمعاملتهم المختلفة ، فقد بدؤوا بإقناعها باتباع التوصية الطبية بالمشي في الفناء ، وبأن تفكر في زوجها وأبنائها ، وبألا تفقد الأمل بأنها ستعود للقاء بهم عما قريب وهي في حالة جيدة .

لقد كان الجو مناسباً للتفريج عن النفس . ولإدراكها بأنهم هم أيضاً

أسرى . وربما يحتاجون إليها ، بدأت ماروخا تروي لهم تجاربها مع أبنائها الذكور الثلاثة الذين تجاوزوا مرحلة المراهقة . روت لهم أحداثاً ذات مغزى من تجربتها في تربيتهم وتعليمهم ، وحدثتهم عن عاداتهم وأذواقهم . كما حدثها الحراس الذين ازدادت ثقتهم بها عن حيواتهم .

جميعهم كانوا من حملة الشهادة الثانوية ، وكان واحد منهم قد أنهى على الأقل فصلاً دراسياً في الجامعة . وعلى العكس من الحراس السابقين . قالوا إنهم ينتمون إلى أسر من الطبقة المتوسطة ، ولكنهم بطريقة أو بأخرى كانوا موسومين بثقافة قرى ميدلين . أكبرهم سناً ، في الرابعة والعشرين ، كانوا ينادونه باسم *النملة* ، وكان طويلاً ومربوعاً ، ويميل إلى المحافظة . وقد قطع دراسته الجامعية حين مات أبوه في حادث سير ولم يجد مخرجاً آخر سوى الانضمام إلى القتلة . وواحد آخر يدعونه *القرش* ، كان يروي بسعادة أنه قد نجح في نصف الدراسة الثانوية بتهديد أساتذته بمسدس أطفال . أما أكثر أفراد الفريق مرحاً ، بل وأكثر جميع الحراس الذين مروا عليها ، فكانوا يدعونه *الخدروف* ، وكان يشبه الخدروف فعلاً . فقد كان بديناً جداً ، ساقاه قصيرتان وهشتان ، وميله إلى الرقص يصل حدود الجنون . لقد وضع في آلة التسجيل يوماً شريط موسيقي سلسا بعد الفطور ، وبقي يرقص دون توقف وباندفاع جنوني حتى نهاية نوبة حراسته . أما أكثرهم رسمية فهو ابن معلمة مدرسة ، وكان قارئاً للأدب والصحف ، ولديه اطلاع جيد على أوضاع البلاد . وكان تفسيره الوحيد لوجوده في تلك الحياة : « لأنها حياة ممتعة جداً » .

مع ذلك ، ومثلما شعرت ماروخا منذ البداية ، فإنهم لم يكونوا غير متحسسين للمعاملة الإنسانية . ولم يمنحها ذلك الحماسة للعيش من جديد وحسب ، بل والحيلة كذلك للحصول على منافع لم يكن الحراس ينتبهون إليها .

لقد قالت لهم :

ـ لا تظنوا أنني سأقوم بنذالات ضدكم . كونوا على ثقة من أنني لن أفعل

شيئاً ممنوعاً ، لأنني أعرف أن هذا الوضع سينتهي قريباً وعلى أحسن وجه . ولهذا لا ضرورة لأن تشددوا الضغط عليّ كثيراً .

وباستقلالية لم يمتلكها أي من الحراس السابقين ـ أو حتى قادتهم ـ تجرأ الحراس الجدد على التهاون في نظام الاحتجاز أكثر بكثير مما كانت ماروخا نفسها تأمل . فقد سمحوا لها بالتحرك في الغرفة ، والتكلم بصوت أقل تكلفاً ، والذهاب إلى الحمام دون التقيد بمواعيد ثابتة . وقد أعادت لها المعاملة الجديدة الحماسة للعناية بنفسها ، مستفيدة من تجربتها في جاكارتا . واستفادت كذلك جيداً من بعض دروس الرياضة التي قدمتها خصيصاً لها معلمة رياضة عبر برنامج الكسندرا التلفزيوني ، وكان عنوان ذلك البرنامج يوحي بأنه يحمل اسمها : *تمارين في الأماكن الضيقة* . وكان حماسها بالبرنامج كبيراً ، مما دفع أحد الحراس إلى سؤالها بشيء من الارتياب : «ألا يحمل هذا البرنامج رسالة ما إليك ؟» . وقد بذلت ماروخا جهداً كبيراً لاقناعه بعكس ذلك .

وفي تلك الأيام أيضاً أثار حماسها الظهور المفاجئ لبرنامج *كولومبيا تطالب بهم* ، الذي لم يبد لها جيد الفكرة ومتقن التنفيذ وحسب ، بل والبرنامج الأكثر ملاءمة لرفع معنويات الرهينين الأخيرين . لقد أحست من خلاله بأنها أفضل تواصلاً وأكثر قرباً من أناسها . وكانت تفكر في أنها كانت ستفعل الشيء نفسه كحملة ، وكدواء ، وكضربة لإبداء الرأي ، ووصل بها الأمر إلى حد الإصابة في مراهناتها مع الحراس حول الشخصية التي ستظهر على الشاشة في اليوم التالي . لقد راهنت في إحدى المرات على أن من سيظهر في اليوم التالي هي الممثلة الكبيرة وصديقتها العظيمة فيكي هيرنانديث ، وقد كسبت الرهان . وكانت جائزتها الأفضل على أي حال ، هي أن مجرد رؤية فيكي وسماع رسالتها قد منحاها واحدة من لحظات سعادتها القليلة في الأسر .

بدأت جولات المشي في الفناء تعطي ثمارها أيضاً . فكلب الرعاة

الألماني السعيد لرؤيتها مرة أخرى ، حاول أن يحشر نفسه من تحت البوابة لكي يمرح مع ماروخا ، ولكنها هدأته ببعض المداعبات خشية أن توقظ ظنون الحراس . كانت مارينا قد قالت لها إن البوابة تفضي إلى مرج هادئ فيه خراف ودجاج . وقد تأكدت ماروخا من ذلك بنظرة سريعة تحت ضوء القمر . ولكنها لاحظت حينئذ أيضاً وجود رجل مسلح ببندقية يقوم بالحراسة خارج السور . وهكذا أُلغي حلم الهرب بالتواطؤ مع الكلب .

في العشرين من شهر شباط ـ حين بدا أن الحياة قد استعادت ايقاعها ـ علموا من المذياع أنه تم العثور في أحد مراعي ميدلين على جثة الدكتور كونرادو بريسكو لوبيرا ، ابن عم زعيمي العصابة اللذين اختفيا قبل يومين من ذلك . ولقي ابن خاله ادغار دي خيسوس بوتيرو بريسكو مصرعه بعد أربعة أيام من ذلك . ولم يكن لأي من الأثنين سوابق إجرامية . وكان الدكتور بريسكو لوبيرا هو من عاد المختطف خوان بيتا باسمه الحقيقي ووجهه السافر ، وماروخا تتساءل إذا ماكان هو المقنّع نفسه الذي فحصها قبل أيام من ذلك .

ومثلما حدث عند مقتل الأخوين بريسكو في شهر كانون الأول ، فقد سببت هذه الأخبار أيضاً تأثيراً بين الحراس وازدادت عصبية «الوكيل» وأسرته . وفكرة أن الكارتيل سيُحصّل ثمن قتلاه من حياة أحد المخطوفين ، مثلما حدث لمارينا مونتويا ، خيمت على الغرفة مثل ظل مشؤوم . وفي اليوم التالي دخل «الوكيل» دون سبب وفي وقت غير معتاد وقال لماروخا :

ـ لست أريد اخافتك . ولكن هناك شيء غريب : فمنذ الليلة الماضية توجد فراشة متوقفة على بوابة الفناء .

ولم تفهم ماروخا التي لا تصدق ما لاتراه ، ما الذي يعنيه بذلك . فشرح لها «الوكيل» الأمر بحساب فظيع :

ـ عندما قتلوا الأخوين بريسكو الآخرين حدث الشيء نفسه : فقد بقيت فراشة سوداء ملتصقة بباب الحمام ثلاثة أيام .

تذكرت ماروخا هواجس مارينا القاتمة ، ولكنها تظاهرت بعدم الفهم . وسألته :

ـ وما الذي يعنيه هذا ؟

فقال «الوكيل» :

ـ لست أدري ، ولكنه يجب أن يكون نذير شؤم ، لأنهم في تلك المرة قتلوا دونيا مارينا .

وسألته ماروخا :

ـ وهل هي فراشة سوداء أم وردية هذه المرة ؟

فقال «الوكيل» :

ـ إنها رمادية .

قالت ماروخا :

ـ إنها فأل طيب إذن . فالفراشات السوداء هي نذير الشؤم .

لم يتحقق هدفه من اخافتها . فقد كانت ماروخا تعرف زوجها ، وتعرف طريقته في التفكير والسلوك ، ولم تكن تعتقد بأنه يمضي تائهاً بحيث يزعج أحلام فراشة نائمة . وكانت تعرف قبل كل شيء أنه هو وبياتريث على السواء ، لن يتركا أي معلومات تفيد في محاولة إنقاذ مسلحة تفلت منهما . ومع ذلك ، وحيث أنها قد اعتادت على تفسير ارتفاع وانخفاض أوضاعها على أنه انعكاس للعالم الخارجي ، فإنها لم تستبعد أن يكون لمصرع خمسة أشخاص من الأسرة نفسها عواقب رهيبة على الرهينين الأخيرين .

الإشاعة القائلة بأن لدى الجمعية التأسيسية بعض الشكوك حول مسألة تسليم المطلوبين . كانت في المقابل سبباً في تهدئة الاكسترادتيابليين . ففي ٢٨ شباط ، وخلال زيارة رسمية إلى الولايات المتحدة ، صرح الرئيس غافيريا بأنه نصير حاسم للحفاظ على اتفاقية تسليم المطلوبين مهما كان الثمن ، ولكنه لم يثر المخاوف : فعدم التسليم كان شعوراً وطنياً راسخاً جداً لا يتطلب رشاوى ولاتهديدات لفرضه .

كانت ماروخا تتابع تلك الأحداث باهتمام ، ضمن روتين تبدو معه الأيام وكأنها تكرار لليوم نفسه . وفجأة ، وبينما هي تلعب الدومينو مع الحراس ، أطبق *الخدروف* اللعبة ، وجمع أحجار اللعب لآخر مرة وهو يقول :

ـ غداً سنذهب .

لم تشأ ماروخا أن تصدق ذلك ، ولكن ابن المعلمة أكد الأمر قائلاً :

ـ هذا صحيح . غداً سيأتي فريق باراباس .

كانت تلك هي بداية ما ستتذكره ماروخا على أنه آذارها الأسود . فمثلما كان يبدو أن الحراس الذاهبين قد دُربوا لجعل ظروف الاحتجاز أكثر راحة ، فإن الذين سيأتون كانوا مدربين دون شك لجعل تلك الظروف لا تطاق . لقد كان مجيئهم أشبه بزلزال . فالراهب ، طويل وضامر ، وأكثر شروداً وذهولاً مما كان عليه في المرة الأخيرة . والآخرون على حالهم ، وكأنهم لم يغادروا أبداً . وكان باراباس يوجههم وهو يضع على جبهته عصابة قاتل سينمائي . ويصدر أوامر عسكرية للعثور على مخبأ شيء لا وجود له ، أو يتظاهر بأنه يبحث عنه لاخافة ضحيته . قلبوا الحجرة رأساً على عقب بأساليب همجية . فككوا السرير . وبعثروا الفرشة ثم أعادوا ملأها بصورة سيئة جداً بحيث أصبح من الصعب مواصلة النوم على فراش مليء بالعقد .

عادت الحياة اليومية إلى الأسلوب القديم في الابقاء على الأسلحة جاهزة للاطلاق إذا لم تُنفذ الأوامر فوراً . ولم يكن باراباس يكلم ماروخا إلا وهو يصوب مسدسه الرشاش إلى رأسها . فوجهته هي كعادتها مهددة بأنها ستشكوه إلى زعمائه . وقالت له :

ـ ليس صحيحاً أنني سأموت لمجرد أن رصاصة أفلتت منك . كن هادئاً وإلا سأشكوك .

ولكن هذا الأسلوب لم ينفعها هذه المرة . وبدا واضحاً مع ذلك أن الفوضى لم تكن لاخافتها وليست محسوبة . وإنما النظام نفسه كان متآكلاً من الداخل بسبب هبوط شديد في المعنويات . وحتى المشاجرات الكثيرة

وذات الألوان الفولكلورية بين «الوكيل» وداماريس أصبحت أكثر رهبة . فقد كان يأتي من الخارج في أي ساعة ـ هذا إذا أتى ـ ويكون في الغالب فاقداً الوعي من السكر ، ويكون عليه أن يواجه سيل الأسئلة اللجوجة التي توجهها زوجته باندفاع . وكان صراخهما وبكاء الطفلتين المستيقظتين في أي وقت يملأ البيت بالضجيج . فكان الحراس يسخرون منهما بتقليدهما في حركات مسرحية تزيد من حجم الفضيحة . وكان يبدو مستغرباً وسط تلك الضجة عدم مجيء أحد ولو بدافع الفضول .

وكان «الوكيل» وزوجته يفضفضان عن نفسيهما منفصلين أمام ماروخا . فداماريس لا تمنحه لحظة سلام واحدة بسبب غيرتها المبررة . و «الوكيل» يحاول اختراع طريقة عبقرية لتهدئة زوجته دون التخلي عن خياناته لها . ولكن مساعي ماروخا الحميدة لم تكن تستمر إلا إلى حين خروج «الوكيل» في المرة التالية .

وفي إحدى المشاجرات الكثيرة ، خدشت داماريس وجه زوجها بأظفارها التي كمخالب القط ، ولم تختف آثار الجراح إلا بعد وقت طويل . فوجّه هو إليها ضربة قذفت بها من النافذة . ولم تمت بمعجزة ، فقد تمكنت من التشبث في اللحظة الأخيرة ، وبقيت معلقة من الشرفة المطلة على الفناء . وكانت تلك هي النهاية . فقد أعدت داماريس حقائبها وغادرت البيت مع الطفلتين إلى ميدلين .

بقي البيت بين يدي الوكيل وحده الذي صار لا يأتي أحياناً إلا عند الغروب وهو يحمل بعض اللبن وأكياس البطاطا المقلية . وفي فترات متباعدة كان يأتي بفروج . فكان الحراس الذين أتعبهم الانتظار ينهبون المطبخ . وعند عودتهم إلى الغرفة يحملون معهم لماروخا قطعة بسكويت متبقية مع قطعة سجق نيئة . وجعلهم الضجر أشد نزقاً وخطورة . فكانوا يهذرون مطلقين اللعنات ضد آبائهم ، وضد الشرطة ، وضد المجتمع بأسره . ويتحدثون عن جرائمهم التي بلا طائل ، وعن انتهاكهم المتعمد للمقدسات لكي يثبتوا عدم

وجود الرب ، ووصلوا إلى حدود الجنون في رواية مآثرهم الجنسية . وكان أحدهم يقدم وصفاً دقيقاً للممارسات الشاذة التي يُخضع لها إحدى عشيقاته انتقاماً من سخريتها منه وإذلالها له . وفي ظل ذلك الإستياء وانعدام الرقابة عليهم ، انتهى بهم الأمر إلى تعاطي المخدرات من ماريجوانا وباثوكو ، إلى حد لم يعد معه التنفس ممكناً في الغمامة التي تملأ الغرفة . وكانوا يفتحون المذياع بأعلى صوت ، ويدخلون ويخرجون صافقين الأبواب بعنف ، ويتعثرون ، ويغنون ، ويرقصون ويقفزون بجنون في الفناء . وكان أحدهم يبدو وكأنه بهلوان محترف في سيرك للمجون . وكانت ماروخا تهددهم بأن ضجتهم المستنكرة ستلفت انتباه الشرطة ، فيردون عليها صارخين معاً في كورال :

ـ فلتأت الشرطة ولتقتلنا .

أحست ماروخا بأنها قد وصلت إلى أقصى الحدود ، وخصوصاً بسبب باراباس المعتوه الذي كان يتلذذ بايقاظها بوضع فوهة رشاشه على صدغها . بدأ شعرها بالتساقط . وكانت تمتلئ غماً منذ أن تفتح عينيها عند الفجر وترى الوسادة المغطاة بشعرها المتساقط .

كانت تعرف أن كل واحد من الحراس يختلف عن الآخرين ، ولكن يجمع ما بينهم الضعف المشترك من إنعدام الأمن وعدم الثقة المتبادلة . وكانت ماروخا تستثيرهم في خوفهم بالذات ، فتسألهم فجأة : « كيف يمكنكم العيش هكذا ؟ بماذا تؤمنون أنتم ؟ » ، « هل لديكم أي معنى للصداقة ؟ » وقبل أن يتمكنوا من الرد تسارع إلى محاصرتهم : « هل لكلمة واجب أي معنى عندكم ؟ » . فلا يردون ، ولكن الاجابات التي يتبادلونها فيما بينهم كانت مثيرة للقلق دون شك ، لأنهم بدل أن يتمردوا كانوا يبدون التذلل أمام ماروخا . وباراباس وحده هو الذي واجهها ، فقد صرخ بها في إحدى المرات : « اوليغارشية البراز! هل تظنون أنكم ستبقون تصدرون الأوامر إلى الأبد ؟ لا لم يعد بإمكانكم ذلك ، ياللعنة . . لقد انتهى أمركم! » ولكن ماروخا التي كانت

تخافه كثيراً تصدت له بالغضب نفسه وقالت صارخة :

ـ إنكم تقتلون أصدقاءكم ، وأصدقاؤكم يقتلونكم ، وينتهي بكم الأمر إلى قتل بعضكم بعضاً . من يفهمكم ؟ أحضر لي أحداً يوضح لي أي نوع من البهائم أنتم .

وربما ليأسه من عدم قدرته على قتلها ، وجه باراباس لكمة إلى الجدار آذت عظام معصمه . فأطلق صرخة متوحشة وانفجر في البكاء بغضب . ولم تسمح ماروخا للشفقة بأن تليّنها عليه . وقد أمضى «الوكيل» طوال ذلك المساء وهو يحاول تهدئتها وبذل جهوداً غير مجدية لتحسين العشاء .

كانت ماروخا تتساءل كيف يمكن لهم في ظل تلك الفوضى أن يواصلوا الاعتقاد بأن هناك أي جدوى من التحدث همساً ، ومن حبسها داخل الغرفة ، ومن تقنين استخدامها المذياع والتلفزيون لأسباب أمنية . سئمتْ من كل ذلك الجنون وتمردت على قوانين الأسر البالية ، فصارت تتكلم بصوتها الطبيعي ، وتذهب إلى الحمام كلما خطر ببالها . ولكن الخوف من الاعتداء عليها صار بالمقابل أشد حدة ، وخصوصاً حين كان «الوكيل» يتركها وحيدة مع الحارسين المناوبين . وقد وصلت المأساة إلى ذروتها في صباح أحد الأيام حين ظهر أحد الحراس فجأة دون قناع في الحمام حين كانت تفرك جسدها بالصابون تحت الدوش . تمكنت ماروخا من تغطية نفسها بالمنشفة وأطلقت صرخة رعب لابد أن أصداءها ترددت في الحي كله . تجمد الرجل في مكانه بوجه مرعب كوجه ميت وروحه معلقة بخيط رفيع خوفاً من رد فعل الجيران . ولكن أحداً لم يهرع إلى هناك ، ولم يُسمع أي نَفَس . وخرج الحارس سائراً إلى الخلف ، على رؤوس أصابعه ، وبوجه الميت الأشد رعباً بسبب الحقد .

ظهر «الوكيل» عندما لم يكن أحد ينتظره وبرفقته امرأة مختلفة تولت السلطة في البيت . ولكنهما بدلاً من أن يضبطا الفوضى ، ساهما كلاهما في مضاعفتها . فقد كانت المرأة تساعده في سكراته التي تنتهي عادة بالشجار وتبادل الضرب بالزجاجات . واصبحت مواعيد الطعام غير محتملة التوقع .

وكانا يذهبان في أيام الآحاد للاحتفال ويتركان ماروخا والحراس دون أي طعام حتى اليوم التالي . وفي فجر أحد الأيام ، بينما كانت ماروخا تمشي وحدها في الفناء ، ذهب الحراس الأربعة لنهب المطبخ ، وتركوا رشاشاتهم في الغرفة . عندئذ هزتها فكرة ، وتذوقتها وهي تحدث الكلب وتداعبه وتهمس له . وكان الحيوان السعيد يلحس يديها مهمهما بتواطؤ . وقد أخرجتها صرخة باراباس من أحلامها .

وكانت تلك هي نهاية الحلم . فقد استبدلوا الكلب بآخر له مظهر جزار . وحظروا المشي في الفناء ، وأخضعت ماروخا لنظام حراسة دائم . وكان ما خشيته آنذاك أن يقيدوها إلى السرير بسلسلة مغلفة ببلاستيك كان باراباس يطويها ويفردها مثل قضيب حديد مزيف . وقد استبقت ماروخا أي نوايا من هذا النوع قائلة :

ـ لو أنني أردت الذهاب من هنا لكنت ذهبت منذ وقت طويل . لقد بقيت وحيدة في مرات كثيرة ، ولم أهرب لأني لم أشأ ذلك .

ولابد أن أحدهم قد نقل شكاويها ، لأن «الوكيل» دخل في صباح أحد الأيام بمذلة مريبة ، وقدم لها كل أشكال الاعتذارات . قال إنه يموت خجلاً ، وإن الشباب سيحسنون التصرف منذ الآن ، وإنه قد بعث إلى زوجته ، وإنها سترجع . وكان هذا ماحدث فعلاً : فقد رجعت داماريس المعهودة نفسها ، وتنانيرها نفسها التي مثل تنانير عازفي القرب الاسكتلنديين ، وحساء العدس الكريه نفسه . وبالمظهر نفسه جاء زعيمان مقنّعان في اليوم التالي ، فأخرجوا الحراس من الغرفة بالضرب ، وفرضوا النظام . وقال أحد الزعيمين بتصميم رهيب : «لن يرجعوا مطلقاً وإلى الأبد» . وقد نفذ ما قاله .

في مساء ذلك اليوم بالذات أرسلوا فريق حملة الثانوية ، وكان ذلك مثل عودة سحرية إلى سلام شهر شباط : الزمن الراكد ، مجلات المنوعات ، موسيقى غانس روسيرز ، وأفلام ميل جيبسون عن القتلة المأجورين المدبوغين بالتحلل من قيود القلب . وكانت ماروخا تتأثر وهي ترى اولئك

القتلة المراهقين يستمعون ويشاهدون بالورع نفسه الذي يشاهد به أبناؤها تلك الأفلام .

في أواخر شهر آذار ، ودون أي إشعار مسبق ، حضر مجهولان وضعا على رأسيهما أقنعة استعاراها من الحراس حتى لا يتكلما معها وهما سافرا الوجهين . بدأ أحدهما ، دون أن يحييها تقريباً ، بقياس أبعاد الغرفة بشريط متريّ كالذي يستخدمه الخياطون ، بينما كان الآخر يحاول استرضاء ماروخا بالقول لها :

ـ يسعدني التعرف عليك يا سيدتي . لقد جئنا من أجل فرش أرضية الغرفة بالسجاد .

فصرخت ماروخا وقد أعماها الغضب :

ـ فرش الغرفة بالسجاد! اذهبوا إلى الجحيم! ما أريده هو الخروج من هنا . الآن بالذات!

ما أثار حفيظتها على أي حال ليس السجاد بحد ذاته ، وإنما مايمكن أن يعنيه ذلك : تأجيل غير محدود لإطلاق سراحها . وسيقول أحد الحراس فيما بعد ، إن تفسير ماروخا كان خاطئاً ، فربما كان المقصود بذلك أنها ستغادر قريباً وأنهم يجددون الغرفة لرهين آخر أعلى مكانة . ولكن ماروخا كانت واثقة من أن سجادة في ذلك الوقت لايمكن فهمها إلا على أنها ضياع سنة أخرى من حياتها .

* * *

كان على باتشو سانتوس كذلك أن يبتدع وسائل لإبقاء حراسه مشغولين ، ذلك أنهم حين يملون من لعب الورق ، ومن مشاهدة الفيلم نفسه عشر مرات متتالية ، ومن الحديث عن مآثرهم الذكورية ، كانوا يبدؤون الدوران في الغرفة مثل أسود حبيسة . وكانت تظهر من خلال ثقوب الأقنعة عيونهم المحمرة . والشيء الوحيد الذي يستطيعون عمله حينئذ هو الحصول

على إجازة لبضعة أيام . وهذا يعني : الامتلاء بالكحول والمخدرات طوال أسبوع من حفلات القصف المتتالية ، والرجوع في حالة أسوأ . لقد كانت المخدرات محظورة ويعاقب على تعاطيها بصرامة ، وليس ذلك في أثناء الخدمة فقط ، ولكن الأتباع كانوا يجدون على الدوام طريقة للتهرب من مراقبة رؤسائهم . والمخدر الروتيني الذي كانوا يتعاطونه هو الماريجوانا ، ولكنهم في الأوقات الصعبة كانوا يقدمون لبعضهم البعض وصفات من لفافات باثوكو أولمبية تجعل الخوف من حدوث أي أذى أمراً وارداً . فبعد أن أمضى أحد الحراس ليلة ساحرات في الخارج ، اندفع إلى الغرفة وأيقظ باتشو صارخاً . فرأى هذا قناع الشيطان ملتصقاً بوجهه تقريباً . رأى عينين حمراوين ، وشعراً غليظاً منتصباً يخرج من الأذنين ، وشم رائحة الكبريت الجحيمي . لقد كان أحد الحراس يريد أن ينهي الحفلة معه . «أنت لاتعرف كم أنا سفاح» ، قال له الحارس ذلك بينما هما يشربان كأساً مزدوجاً من الخمر في الساعة السادسة صباحاً . وروى له خلال الساعتين التاليتين سيرة حياته دون أن يطلب منه ذلك ، وإنما لمجرد اندفاع الضمير الذي لا كابح له . ثم ذاب أخيراً في سكرته . وإذا كان باتشو لم يهرب حينذاك ، فلأنه افتقد الحماسة في اللحظة الأخيرة .

أكثر القراءات التي كان يحصل عليها في حبسه تشجيعاً كانت الملاحظات الخاصة في جريدة *التيمبو* ، والتي كانت تُنشر من أجله فقط دون مواربة ودون تحفظات في صفحاتها الافتتاحية ، بمبادرة من زوجته ماريا فيكتوريا . وكانت إحدى تلك الملاحظات مرفقة بصورة حديثة لابنيه ، وقد كتب لهما بسخونة رسالة مليئة بتلك الحقائق الرهيبة التي قد تبدو مضحكة لمن لايعانيها : «إنني جالس في هذه الغرفة ، مقيد إلى السرير ، وعيناي تفيضان بالدمع» . ومنذ ذلك الحين كتب إلى زوجته وابنيه سلسلة من رسائل القلب التي لم يستطع إرسالها مطلقاً .

كان باتشو قد فقد كل أمل بعد موت مارينا وديانا ، حين اعترضت

إمكانية الهرب طريقه دون أن يكون قد بحث عنها . لم يكن لديه أي شك حينذاك بأنه في حي قريب من جادة بوياكا ، غربي المدينة . لقد كان يعرف المنطقة جيداً ، إذ أنه اعتاد تبديل طريقه والالتفاف من هناك للذهاب من الجريدة إلى بيته في ساعات ازدحام حركة المرور . وكان هذا هو الطريق الذي سلكه في ليلة اختطافه . لابد أن معظم مباني الحي هي مجموعات سكنية متشابهة ، حيث البيت نفسه مكرر مرات كثيرة : بوابة كراج ، وحديقة صغيرة ، وطابق ثانٍ يطل على الشارع ، وجميع النوافذ مزودة بقضبان حديدية مطلية باللون الأبيض . بل لقد توصل إلى ماهو أكثر من ذلك : فقد تمكن خلال أسبوع من أن يحدد بدقة بُعد محل البيتزا ، وتأكد من أن المصنع القريب ليس إلا مصنع بيرة بافاديا . ولكن كان هناك تفصيل يشوشه هو الديك المجنون الذي كان يصدح أول الأمر في أي وقت ، ولكنه أصبح مع مرور الشهور يصيح في الوقت نفسه من أماكن مختلفة : أحياناً من مكان ناءٍ في الثالثة بعد الظهر ، وأحياناً إلى جوار نافذته في الثانية فجراً .ولابد أن تشوشه سيكون أكبر لو قيل له أن ماروخا وبياتريث تسمعانه أيضاً في حي آخر بعيد جداً .

في نهاية الممر ، إلى يمين غرفته ، يمكن القفز من نافذة تطل على الفناء المغلق ، ويمكنه بعد ذلك تسلق سور تغطيه نباتات متسلقة إلى جوار شجرة كبيرة الأغصان . كان يجهل ماهو وراء السور ، ولكن بما أن البيت على الناصية ، فلابد من أن يكون هناك شارع . ومن المؤكد تقريباً أنه الشارع الذي يوجد فيه دكان المأكولات والصيدلية وورشة السيارات . وربما كان ذلك عاملاً سلبياً ، لأنه يمكن للورشة أن تكون واجهة يتستر وراءها الخاطفون . وبالفعل ، فقد سمع باتشو من ذلك الاتجاه مرة مناقشة حول كرة القدم بين صوتين كانا دون شك صوتي اثنين من حراسه . الخروج عبر السور على كل حال سيكون سهلاً ، ولكن مابعد ذلك لايمكن تصوره . ولهذا فان الخيار الأفضل هو الحمام ، خصوصاً بالميزة التي لايمكن تجاهلها في أنه المكان

الوحيد الذي يسمحون له بالذهاب إليه دون قيود .

كان واضحاً لديه أن الهرب يجب أن يتم في وضح النهار ، ذلك أنه لايذهب مطلقاً إلى الحمام بعد النوم ـ حتى ولو بقي مستيقظاً في الليل أمام التلفزيون أو ليكتب وهو جالس في السرير ـ ويمكن للاستثناء أن يفضح نواياه . أضف إلى ذلك أن المحلات تغلق في وقت مبكر ، والجيران يأوون إلى بيوتهم بعد نشرة أخبار الساعة السابعة ، وفي الساعة العاشرة لا تكون هناك نَفْسٌ واحدة في محيط البيت . وحتى في ليالي أيام الجمعة ، وهي ليالٍ صاخبة في بوغوتا ، لم يكن يُسمع إلا شخير مصنع البيرة البطيء أو الزعيق الآني لسيارة اسعاف في جادة بوياكا . أضف إلى ذلك أنه لم يكن من السهل في الليل العثور على ملجأ في الشوارع المقفرة ، حيث تكون أبواب المحلات والمنازل مغلقة بمزاليج وأقفال ثقيلة لمواجهة مخاطر الليل .

ومع ذلك ، فقد سنحت له فرصة في السادس من آذار ، وكان الوقت ليلاً . إذ جاء أحد الحراس وهو يحمل زجاجة خمر ودعاه ليشرب كأساً بينما هما يشاهدان في التلفزيون برنامجاً عن خوليو إغليسياس . شرب باتشو قليلاً لمجرد إرضاء الحارس فقط . أما الحارس الذي بدأ نوبة حراسته ذلك المساء ، فكان قد شرب عدة كؤوس قبل مجيئه ، وهوى فاقداً الوعي قبل أن يكمل الزجاجة ، ودون أن يقيد باتشو . ولكن هذا الأخير ، وكان ميتاً من النعاس ، لم ينتبه للفرصة التي نزلت عليه من السماء . لقد كان يرافقه عادة حارسه المناوب كلما أراد الذهاب إلى الحمام في الليل ، ولكنه فضّل عدم إقلاق سكرة حارسه السعيدة . وخرج إلى الممر المظلم بكل براءة ـ مثلما كان في الغرفة : حافياً وبالسروال الداخلي ـ ومر حابساً أنفاسه أمام الغرفة التي ينام فيها بقية الحراس . وكان أحدهم يشخر مثل حجر مدحلة . ولم يكن باتشو قد أدرك حتى ذلك الحين أنه يهرب دون أن يدري ، وأن أكثر ماهو صعوبة قد انقضى . فاجأته نوبة غثيان صعدت من معدته جمدت لسانه وعلكت قلبة . وسيقول فيما بعد : «لم يكن الخوف من الهرب وإنما الخوف

من عدم الجرأة على الهرب» . دخل الى الحمام المظلم وأحكم إغلاق الباب بتصميم من لن يعود . ولكن حارساً آخر ، كان مايزال نصف نائم ، دفع الباب وأضاء وجهه بمصباح يدوي . كلاهما بقيا مذهولين . وسأله الحارس :

ـ ماذا تفعل ؟

فرد عليه باتشو بصوت ثابت :

ـ إنني أشخ .

لم يخطر له أي جواب آخر . فهز الحارس رأسه دون أن يدري بماذا يفكر ، وقال له أخيراً :

ـ اوكي . هنيئاً .

وبقي عند الباب مسلطاً عليه حزمة ضوء المصباح دون أن يرمش ، إلى أن انتهى باتشو مما هو فيه وكأنه يفعل ذلك حقاً .

وخلال ذلك الأسبوع ، وفيما هو مهزوم تحت وطأة الإخفاق ، قرر الهرب بطريقة جذرية ولا سبيل إلى العودة عنها . فقد قال لنفسه : «سأُخرج الشفرة من ماكينة الحلاقة ، وأقطع أوردتي ، فيطلع الصباح عليّ وأنا ميت» . في اليوم التالي نشر الأب الفونسو ليانوس اسكوبار عموده الأسبوعي في جريدة *التيمبو* ، وكان موجهاً إلى باتشو سانتوس ، وفيه يأمره باسم الرب ألا يفكر في الانتحار . لقد كان المقال منذ ثلاثة أسابيع في درج مكتب هيرناندو يانتوس الذي كان يتردد في نشره ـ دون أن يدري لماذا ـ وقد قرر نشره في اليوم السابق ، في اللحظة الأخيرة ودون أن يدري لماذا أيضاً . ومازال باتشو حتى الآن يعود ليعيش في غيبوبة ذلك اليوم كلما روى هذه الحادثة .

* * *

زار زعيم ثان ماروخا في أوائل شهر نيسان ووعدها بالتوسط لكي يرسل لها زوجها رسالة كانت تحتاجها كدواء للروح والجسد . وكان الجواب لايصدق : «لاتوجد أي مشكلة» . ذهب الرجل في الساعة السابعة ليلاً

تقريباً . وفي حوالي الثانية عشرة والنصف ، بعد جولة المشي في الفناء ، طرق «الوكيل» طرقات مستعجلة على باب الغرفة الموصد من الداخل ، وسلمها الرسالة . لم تكن واحدة من الرسائل العديدة التي بعثها بيياميثار مع غيدو بارّا ، وإنما الرسالة التي بعثها مع خورخي لويس اوتشوا ، والتي أرفقتها أختها غلوريا باتشون دي غالان بملاحظة مواسية . وعلى ظهر ورقة الرسالة نفسها كتب بابلو اسكوبار ملاحظة بخط يده : «*أعرفُ أن هذا الأمر كان رهيباً بالنسبة إليك وإلى أسرتك ، ولكنني أنا وأسرتي عانينا أيضاً الكثير . ولكن لاتقلقي ، فأنا أعدك بأنه لن يصيبك أي شيء ، مهما حدث*» . ثم ينهي ملاحظته بعبارة سرية هامشية بدت لماروخا لاتُصدق : «*لاتهتمي بما تقوله بياناتي الصحفية ، فهي لممارسة الضغط فقط*» .

أما رسالة زوجها بالمقابل فقد أخمدت همتها بتشاؤمها . فهو يقول لها إن الأمور تجري جيداً ، ولكن عليها أن تتحلى بالصبر ، لأن الانتظار قد يطول أكثر . ولأن بيياميثار كان واثقاً من أنهم سيقرؤون الرسالة قبل تسليمها فقد أنهاها بعبارة موجهة إلى اسكوبار أكثر مما هي موجهة إلى ماروخا : «على المرء أن يقدم تضحيته من أجل سلام كولومبيا» . استشاطت ماروخا غضباً . لقد كانت قد التقطت في مرات كثيرة الرسائل الذهنية التي كان بيياميثار يبعثها إليها من شرفة منزله ، وكانت ترد عليه بكل روحها : «أخرجني من هنا ، فلم أعد أعرف من أنا بعد كل هذه الشهور دون النظر إلى نفسي في مرآة» .

وبوصول تلك الرسالة صار لديها سبب آخر لترد عليه بخط يدها قائلة إنه عن أي صبر يتحدث ، وعن أية لعنة ، بعد كل ما عاشته وعانته في ليالي الرعب حيث كانت توقظها فجأة إغماءة الموت . لقد كانت تجهل أنها رسالة قديمة ، مكتوبة مابين إخفاق المساعي مع غيدو بارّا والمقابلات الأولى مع آل اوتشوا ، حين لم يكن هناك أي بصيص من الأمل . لم يكن بالإمكان في تلك الأيام انتظار رسالة تفاؤل ، مثلما هو الحال في أيام استلامها الرسالة ، حيث كان قد تحدد طريق تحريرها .

ولحسن الحظ أن سوء التفاهم ذاك أفاد ماروخا في أن تعي أنه يمكن لغضبها ألاّ يكون بسبب الرسالة بقدر ماهو حقد أقدم عهداً وغير واعٍ ضد زوجها : فلماذا سمح ألبيرتو بأن يفرجوا عن بياتريث وحدها إذا كان هو من يدير العملية ؟ لم يكن قد أتيح لها طوال تسع عشرة سنة من الحياة المشتركة متسع من الوقت ، ولا مبرر ولا شجاعة لتطرح على نفسها مثل ذلك السؤال ، والجواب الذي قدمته لنفسها أعاد إليها وعي الحقيقة : لقد تحملت قسوة الاختطاف لأنها تعلم علم اليقين أن زوجها يكرس كل لحظة من حياته في محاولة تحريرها ، وأنه يفعل ذلك دون راحة ، بل ودون أمل لأنه يثق ثقة مطلقة بأنها تعرف ذلك . لقد كانت تلك الحالة ـ حتى دون أن يعلم هو ولا هي ـ ميثاق حب .

لقد تعارفا قبل تسعة عشر عاماً في اجتماع عمل عندما كانا كلاهما صحفيين شابين . وتقول ماروخا : «لقد اعجبني ألبيرتو دفعة واحدة . لماذا ؟ فلا تفكر مرتين : «بسبب مظهر الخذلان الذي كان عليه» . لقد كان الجواب الذي لايخطر على بال . فللوهلة الأولى كان بيياميثار يبدو نموذجاً للجامعي الاحتجاجي في تلك الحقبة : شعره يصل إلى كتفيه ، وذقنه لم تحلق منذ يومين ، ولديه قيمص واحد يغسله عندما يهطل المطر . ويقول اليوم وهو يموت من الضحك : «وكنت أستحم أحياناً» . وفي النظرة الثانية بدا محباً للقصف والحفلات ذا مزاج لعوب . ولكن ماروخا رأته دفعة واحدة من النظرة الثالثة كرجل يمكنه أن يفقد عقله من أجل امرأة جميلة ، وخصوصاً إذا كانت ذكية وحساسة ، وأكثر من ذلك إذا كان يفيض لديها الشيء الوحيد اللازم لتأديبه : يد فولاذية وقلب من الخَرشوف .

وعند سؤاله عما أعجبه فيها ، يرد بيياميثار بدمدمة . ربما لأن ماروخا ، فضلاً عن محاسنها الظاهرة ، لم تكن تملك أفضل أوراق الاعتماد للوقوع في حبها . فقد كانت في زهرة سنوات عمرها الثلاثين ، وكانت قد تزوجت في الكنيسة الكاثوليكية وهي في التاسعة عشرة من عمرها ، وأنجبت خمسة أبناء

من زوجها ـ ثلاث إناث وذكرين ـ وقد ولدوا بفارق خمسة عشر شهراً بين الواحد والآخر . وتقول ماروخا : «لقد أخبرته بكل شيء دفعة واحدة حتى يعرف بأنه يدخل في حقل ألغام» . واستمع هو اليها بدمدمة أخرى ، وبدلاً من أن يدعوها إلى الغداء ، طلب من صديق مشترك أن يدعوهما معاً . وفي اليوم التالي دعاها هو ومعها الصديق نفسه ، وفي اليوم الثالث دعاها وحدها ، أما في اليوم الرابع فتقابلا دون غداء . وهكذا واصلا اللقاء كل يوم بأفضل النوايا . وحين تسأل بيياميثار إذا ما كان يحبها أم إنه كان يريد مضاجعتها فقط ، يقول بلهجة سانتانديرية صافية : «لاتقل هذا . لقد كان الأمر جديا تماماً» . وربما لم يكن هو نفسه يتصور إلى أي حد كان الأمر جدياً .

كانت ماروخا تعيش حياة زوجية دون مفاجآت ، دون نعم واحدة ودون لا واحدة ، حياة زوجية مضبوطة ، ولكن ربما كانت تحتاج إلى غرام واحد من الالهام والمجازفة لكي تشعر أنها حيّة . فكرست وقتها لبيياميثار بذرائع من المكتب . إذ كانت تستنبط عملاً أكثر مما هو مترتب عليها . بما في ذلك في أيام السبت منذ الثانية عشرة ظهراً وحتى العاشرة ليلاً .. وفي أيام الآحاد والأعياد كانت ترتجل حفلات شبابية ، ومحاضرات عن الفن ، ونوادرِ سينمائية في منتصف الليل ، وأي شيء آخر لمجرد البقاء معه . أما هو فلم تكن لديه أية مشكلة : فقد كان عازباً وعلى أهبة الاستعداد ، يعيش على هواه ويأكل حسب لائحة الطعام في المطاعم ، ولديه الكثير من عشيقات أيام السبت إلى حد يبدو معه كمن ليس لديه أي واحدة . وكان ينقصه تقديم أطروحته الأخيرة ليصبح طبيباً جراحاً مثل أبيه ، ولكن الأزمنة كانت أكثر ملاءمة لعيش الحياة مما هي لعلاج المرضى . بدأ الحب بالخروج من أغنيات البوليرو ، ثم انتهت الرسائل الغرامية المعطرة التي استمرت ربع قرن ، والسرِينادات البكائية ، ورسم الشعارات على المناديل ، ولغة الزهور ، وصالات السينما المقفرة في الثالثة بعد الظهر ، والعالم بأسره الذي كان يمضي متغطرساً ضد الموت بجنون البيتلز السعيد .

بعد سنة من تعارفهما ذهبا للعيش معاً ومعهما أبناء ماروخا في شقة مساحتها مئة متر مربع . وتقول ماروخا : «لقد كانت كارثة» وهي محقة في ذلك : فقد كانوا يعيشون وسط مشاجرة يخوضها الجميع ضد الجميع ، وبين أضرار الأطباق المكسرة ، والغيرة والشكوك التي تسيطر على« الأطفال والكبار . وتقول ماروخا : «كنتُ في بعض الأحيان أكرهه حتى الموت» ، ويقول بيياميثار : «وأنا أيضا كنت أكرهها هكذا» . فتضحك ماروخا : «ولكن لخمس دقائق فقط» . في شهر تشرين الأول ١٩٧١ تزوجا في مدينة اورينيا في فنزويلا ، فكان ذلك أشبه باضافة خطيئة أخرى إلى حياتهما ، لأن الطلاق لم يكن موجوداً ، وقلة هم الذين كانوا يؤمنون بشرعية الزواج المدني . وبعد أربع سنوات ولد أندريس ، الابن الوحيد لكليهما . استمرت المخاوف ولكن آلامهما تقلصت : فقد تكفلت الحياة بتعليمهما أن سعادة الحب لم توجد للنوم فيها وإنما للمعاناة معاً .

كانت ماروخا هي ابنة ألفارو باتشون دي لا توري ، صحفي نجم في الأربعينات ، ماتِ مع زميلين بارزين في حادث مرور تاريخي في النقابة . وكانت ماروخا يتيمة الأم أيضاً ، فتعلمت هي وأختها غلوريا مواجهة الحياة بمفردهما منذ شبابهما المبكر . وقد عملت ماروخا رسامة ومصورة منذ العشرين من عمرها ، وصحفية مبكرة ، ومخرجة وكاتبة سيناريو في الاذاعة والتلفزيون ، ومسؤولة عن علاقات عامة أو اعلانات في مؤسسات كبرى ، ودوماً في ميدان الصحافة . وكانت موهبتها الفنية وطبعها المندفع يفرضان نفسيهما منذ البداية ، تساعدها في ذلك موهبة قيادية مخبأة جيداً وراء ركود عينيها الغجريتين . نسي بيياميثار من جهته الطب ، وقص شعره ، وألقى بقميصه الوحيد إلى القمامة ، ووضع ربطة عنق ، وتحول إلى خبير مبيعات بالجملة يبيع كل مايطلبون منه بيعه . ولكنه لم يبدل طريقته في الحياة . وتعترف ماروخا بأنه ساهم أكثر من شدائد الحياة في شفائها من الشكلانية والنواهي السائدة في وسطها الاجتماعي .

كان كل منهما يعمل من جانبه بنجاح بينما الأولاد يترعرعون في المدرسة . وكانت ماروخا ترجع إلى البيت في الساعة السادسة مساء لتهتم بهم . ومستفيدة من محنة تجربة التربية الصارمة والتقليدية التي تلقتها هي نفسها ، أرادت أن تكون أماً مختلفة لا تحضر اجتماعات الآباء في المدرسة ولاتساعد الأبناء في حلّ الواجبات المدرسية . فكانت بناتها يقلن لها متذمرات : « نريد أماً مثل الأخريات » . ولكن ماروخا دفعتهم نحو الجهة المعاكسة بالاستقلالية والتكوين اللذين يمكناهم من عمل مايرغبون فيه . والمثير للفضول أنهم رغبوا جميعهم في أن يكونوا ما كانت تود هي نفسها أن يكونوه . فقد أصبحت مونيكا اليوم رسامة متخرجة من أكاديمية الفنون الجميلة في روما ، ومصممة غرافيك . وصارت الكسندرا صحفية ومعدة برامج ومخرجة في التلفزيون . وخوانا كاتبة سيناريو ومخرجة في التلفزيون والسينما . ونيكولاس مؤلف موسيقي للسينما والتلفزيون . وباتريثيو سيكولوجي محترف . وأندريس طالب اقتصاد ملدوغ بعقرب السياسة اقتداء بالمثال السيء الذي قدمه له أبوه ، وقد اختير في انتخابات شعبية ، وهو في العشرين من عمره ، عضوا في المجلس البلدي في تشابينيرو ، إلى الشمال من بوغوتا .

إن تواطؤ لويس كارلوس غالان وغلوريا باتشون منذ فترة خطوبتهما كان عاملاً حاسماً في ادخال ألبيرتو وماروخا إلى طريق السياسة التي لم يكونا قد فكرا فيها من قبل . فقد دخل غالان ، وهو في السابعة والثلاثين من العمر ، المنافسة على رئاسة الجمهورية عن الحركة الليبرالية الجديدة . وقامت زوجته غلوريا ، وهي صحفية أيضاً ، ومعها ماروخا الخبيرة في الدعاية والإعلان بوضع خطة استراتيجية وإدارة ست من حملاته الانتخابية . وكانت خبرة بيياميثار في المبيع بالجملة قد منحته معارف لوجستية حول مدينة بوغوتا لا يمتلكها إلا قلة من السياسيين . وقد قام ثلاثتهم خلال شهر محتدم بأول حملة انتخابية لليبرالية الجديدة في العاصمة ، واستطاعوا أن يزيحوا من أمامهم خبراء مجربين في الحملات الانتخابية . وفي انتخابات عام ١٩٨٢ كان بيياميثار في المركز

السادس من قائمة مرشحين لا أمل في انتخاب أكثر من خمسة منهم لعضوية الكونغرس ، ولكن الحملة أدت إلى انتخاب تسعة من مرشحي القائمة . وقد كان ذلك الفوز لسوء الحظ بداية حياة جديدة ستقود ألبيرتو وماروخا ـ بعد ثمانية أعوام من ذلك ـ إلى محنة الحب في الاختطاف الرهيبة .

* * *

بعد نحو عشرة أيام من الرسالة جاء الزعيم الكبير الذي يدعى *الدكتور* ـ وقد اصبح معروفاً أنه المدبر الأكبر لعملية الاختطاف ـ لزيارة ماروخا دون إشعار مسبق . فبعد أن رأته في البيت الأول الذي اقتادوها إليه في ليلة الاختطاف ، عادت للقاء به نحو ثلاث مرات أخرى قبل موت مارينا . وكان يتحدث مع مارينا آنذاك مطولاً بصوت هامس ، بحيث لا يمكن تفسير تلك المحادثات إلا بأنها تستند إلى ثقة قديمة جداً . وكانت علاقته بماروخا هي الأسوأ على الدوام . فأي تدخل منها ، مهما كان بسيطاً ، يرد عليه رداً متغطرساً وبلهجة فظة : « أنتِ لايمكنك قول أي شيء هنا » . وعندما كانت الرهينات الثلاث مايزلن معاً أرادت أن تشكو من بؤس الظروف في الغرفة التي تعزو إليها سعالها المزمن وآلامها المتزايدة .

فرد عليها بغضب :

ـ لقد أمضيتُ ليالي أسوأ ، في أماكن أسوأ ألف مرة من هذا المكان . ماذا تظنون أنفسكم ؟

لقد كانت زيارته مؤشراً إلى أحداث كبيرة ، جيدة أو سيئة ، ولكنها حاسمة على الدوام . وفي هذه المرة وجدت ماروخا المتشجعة من رسالة اسكوبار ، الحماسة الكافية لمواجهته .

وقد كان التواصل فورياً وبانسيابية مذهلة . بدأت هي بسؤاله دون أحقاد عما يريده اسكوبار ، وكيف تمضي المفاوضات ، وماهي احتمالات إقدامه على تسليم نفسه قريباً . فأوضح لها دون تكتم أن الأمر لن يكون سهلاً دون

توفير ضمانات كافية من أجل أمن بابلو اسكوبار وأسرته وأعوانه . وسألته ماروخا عن غيدو بارّا الذي كانت مساعيه تبعث فيها الأمل ، ثم جاء اختفاؤه المفاجئ ليحبط معنوياتها . فقال لها دون دراماتيكية :

ـ لقد أساء التصرف . وقد أُبعد خارجاً .

وكان يمكن تفسير ذلك بثلاث طرق : فإما أنه فقد سلطاته ، أو أنه غادر البلاد فعلاً ـ مثلما أذيع ـ وإما أنهم قتلوه . وقد تهرب هو من الجواب بأنه لا يعرف مصيره في الواقع .

وبسبب فضول لا يُقاوم من جهة ، ومن أجل كسب ثقته من جهة أخرى ، سألته ماروخا أيضاً عمن كتب رسالة الاكستراديتابليين التي وجهت في تلك الأيام إلى سفير الولايات المتحدة حول مسألة تسليم المطلوبين وتجارة المخدرات . فالرسالة لم تلفت انتباهها بقوة حججها وحسب ، بل وبصياغتها الجيدة أيضاً . لم يكن *الدكتور* يعرف معرفة يقينية من هو كاتب الرسالة ، ولكنه متأكد من أن اسكوبار يكتب رسائله بنفسه ، مفكراً ومكرراً كتابة المسودات إلى أن يتوصل إلى قول ما يود قوله دون أخطاء أو تناقضات . وبعد أن تبادلا الحديث قرابة ساعتين ، عاد *الدكتور* إلى طرح مسألة الاستسلام . ولاحظت ماروخا أنه مهتم بالموضوع أكثر مما بدا لها في البداية وأنه لا يفكر في مصير اسكوبار فقط وإنما في مصيره الشخصي كذلك . وكانت هي من جهتها تمتلك وجهة نظر متماسكة حول المجادلات وتطورات قضية المراسيم ، وتعرف تفاصيل سياسة الخضوع وميول الجمعية التأسيسية حول تسليم المطلوبين والعفو عنهم . فقالت له :

ـ إذا كان اسكوبار لايضع في اعتباره أنه يجب عليه أن يقضي في السجن مدة أربعة عشر عاماً على الأقل ، فانني أظن أن الحكومة لن توافق على استسلامه .

وقدّر *الدكتور* هذا الرأي عالياً ، حتى انه خطرت له فكرة فريدة : «لماذا لاتكتبين رسالة إلى المعلم ؟» وأضاف على الفور بالحاح ، أمام ارتباك ماروخا :

ـ أقول لك بجد ، اكتبي له هذا الذي قلتهِ . فقد تكون له فائدة كبيرة .

قال ذلك ونفذه . فقد حمل إليها ورقة وقلماً وانتظر دون تعجل وهو يتمشى من طرف إلى آخر في الغرفة . أما ماروخا فقد دخنت نصف علبة من السجائر منذ بدأت بكتابة الكلمة الأولى وحتى انتهت من كتابة الكلمة الأخيرة ، وهي جالسة على السرير تكتب على الورقة المسندة إلى لوح خشبي . قدمت بتعابير بسيطة شكرها إلى اسكوبار للطمأنينة التي بثتها كلماته في نفسها . وقالت له إنها لاتحس بمشاعر الإنتقام ضده أو ضد من قاموا باختطافها ، وإنها تشكر الجميع على الطريقة الكريمة التي عاملوها بها . وإنها تأمل أن يوافق اسكوبار على مراسيم الحكومة لكي يتوصل إلى مستقبل أفضل له ولأبنائه في وطنه . وأخيراً ، وبالصيغة نفسها التي أوحى إليها بها بيياميثار في رسالته ، عرضت تقديم تضحيتها من أجل سلام كولومبيا .

كان *الدكتور* يأمل بشيء أكثر تحديداً حول شروط الإستسلام ، ولكن ماروخا أقنعته بأن التأثير سيكون نفسه دون الدخول في تفاصيل قد تبدو وقحة ، أو يجري تفسيرها بصورة مغلوطة . وقد كانت محقة في ذلك : فقد وزع بابلو اسكوبار تلك الرسالة على الصحافة التي كانت في متناول يده آنذاك بسبب الإهتمام بأمر إستسلامه .

وقد كتبت ماروخا إلى بيياميثار في البريد نفسه رسالة مختلفة تماماً عن الرسالة التي تصورتها تحت تأثير الغضب ، وهكذا توصلت إلى جعله يظهر في التلفزيون بعد عدة أسابيع من الصمت . في تلك الليلة بالذات ، حلمتْ وهي تحت تأثير المنوِّم بأن بابلو اسكوبار يهبط من طائرة هليكوبتر محتمياً بها من رشة رصاص كما في نسخة مستقبلية لأفلام رعاة البقر .

في نهاية الزيارة ، وجه *الدكتور* تعليمات إلى من في البيت لكي يحسنوا معاملة ماروخا . وكان « الوكيل » وداماريس سعيدين جداً بالأوامر الجديدة ، حتى أنهما كانا يبالغان أحياناً في إرضائها . وكان *الدكتور* قبل أن يغادر قد قرر تغيير الحراسة . وطلبت منه ماروخا ألا يفعل ذلك . فالشبان حملة الثانوية

الذين يقومون بالحراسة في شهر نيسان كانوا مبعث راحة بعد مصائب شهر آذار ، ومازالوا يقيمون معها علاقة سلمية . كانت ماروخا قد كسبت ثقتهم . فكانوا يروون لها ما يسمعونه من « الوكيل » وزوجته ، ويطلعونها على التناقضات الداخلية التي كانت سر دولة من قبل . وقد وصل بهم الأمر إلى معاهدتها ـ وماروخا صدقت ذلك فعلاً ـ بأنه إذا حاول أحد عمل شيء ضدها فسيكونون أول من يعارضه . وكانوا يعبرون لها عن عواطفهم ببعض الأطعمة اللذيذة التي يسرقونها لها من المطبخ ، وأهدوا إليها علبة من زيت الزيتون لتخفي طعم العدس البغيض .

الصعوبة الوحيدة كانت في قلقهم الديني الذي يعذبهم ولاتستطيع هي إشباعه بسبب عدم إيمانها الخِلْقيّ وجهلها في موضوع الدين . وقد جازفت مرات عديدة في تعكير انسجام الغرفة بسؤالهم : « أخبروني ماهو الموضوع . أذا كان القتل خطيئة ، فلماذا تقدمون على القتل ؟ » . وكانت تتحداهم : « كل هذه الصلوات في الساعة السادسة مساء ، وكل هذه الشموع وكل هذه الأمور التي تقدمونها *للطفل الإلهي* ، ولكنني إذا حاولت الهرب فلن تترددوا في قتلي رمياً بالرصاص » . وقد بلغت حدة المجادلات حداً دفعت أحدهم إلى الصراخ برعب :

ـ أنتِ ملحدة!

فصرخت هي أن نعم . ولم تفكر مطلقاً في أنها ستسبب مثل ذلك الذهول . ولإدراكها أن راديكاليتها الباطلة يمكن أن تكلفها غالياً ، فقد اخترعت نظرية كونية للعالم وللحياة تتيح لهم النقاش دون مشاجرات . ولهذا فإن فكرة استبدالهم بآخرين لاتعرفهم لم تكن بالفكرة المطلوبة . لكن *الدكتور* أوضح لها :

ـ كل ما في الأمر أننا نريد حلّ مشكلة الرشاشات هذه .

وقد فهمت ماروخا قصده حين جاء أفراد الفريق الجديد . فقد كانوا ماسمي بلاط عزل من السلاح ينظفون ويتسلقون هنا وهناك طوال النهار ، إلى

حد أنهم يسببون إزعاجاً أكثر من القمامة السابقة ومن حالة الغرفة السيئة . ولكن سعال ماروخا بدأ يختفي شيئاً فشيئاً ، وأتاح لها النظام الجديد مشاهدة التلفزيون باطمئنان وتركيز مناسبين لصحتها وتوازنها .

لم تكن ماروخا غير المؤمنة تعير أدنى اهتمام لبرنامج *دقيقة الرب* ، وهو برنامج تلفزيوني غريب يستمر ستين ثانية ، يقوم فيه أسقف مربٍ في الثانية والثمانين من عمره ، هو رافائيل غارثيا هيريروس ، بعرض تأملات إجتماعية أكثر منها دينية ، تكون غامضة وغير واضحة في أحيان كثيرة . أما باتشو سانتوس الذي كان كاثوليكياً متحمساً وممارساً ، فكان يهتم برسالة الأسقف التي لايجمع إلا القليل بينها وبين رسائل السياسيين المحترفين . لقد كان الكاهن أحد أكثر الوجوه المعروفة في البلاد منذ شهر كانون الثاني ١٩٥٥ ، حين بدأ برنامجه على القناة السابعة في التلفزيون الوطني . وكان قبل ذلك صوتاً معروفاً في إذاعة تبث من كارتاخينا منذ عام ١٩٥٠ ، ومن كالي منذ كانون الثاني ١٩٥٢ ، ومن ميدلين منذ أيلول عام ١٩٥٤ ، ومن بوغوتا منذ كانون الأول من السنة نفسها . وقد بدأ في التلفزيون تقريباً في الوقت نفسه الذي أُفتتح به نظام البث . وكان يتميز بأسلوبه المباشر والفظ أحياناً ، ويتكلم وعيناه اللتان تشبهان عيني نسر تحدقان بالمشاهد . وفي كل سنة منذ عام ١٩٦١ ، كان ينظم مأدبة المليون التي تحضرها شخصيات مشهورة جداً ـ أو ترغب في ان تكون كذلك ـ فيدفعون مليون بيزو مقابل فنجان حساء وقطعة خبز تقدمهما إليهم إحدى ملكات الجمال ، لجمع أرصدة تخصص لأعمال إجتماعية تحمل اسم البرنامج التلفزيوني نفسه . أكثر الدعوات صخباً هي تلك التي وجهها في رسالة خاصة عام ١٩٦٨ إلى بريجيت باردو . وقد أثارت موافقة الممثلة الفورية استنكار النفاق المحلي ، فهدد بتخريب المأدبة . أصر الكاهن على قراره . ولكن حريقاً في استوديوهات بولوني بباريس ، والتفسير الخرافي بعدم وجود مكانن في الطائرات كانا الذريعتين المناسبتين لتصريف السخرية الوطنية الكبرى .

كان حراس باتشو سانتوس مشاهدين مواظبين لبرنامج *دقيقة الرب* ، ولكنهم كانوا يهتمون بمضمونه الديني أكثر من اهتمامهم بمضمونه الاجْتماعي . وكانوا يؤمنون بصورة عمياء ، مثل معظم الأسر التي تسكن أكواخ أنتيوكيا ، بأن ذلك الكاهن هو قديس . لقد كانت لهجته على الدوام ساخطة ، وموضوعه ـ أحياناً ـ غير قابل للفهم . ولكن البرنامج في ١٨ نيسان ـ الموجه دون ريب ، ولكن دون تسمية إلى بابلو اسكوبار ـ كان رموزاً مشفرة لايمكن حلها . فقد قال الأب غارسيا هيريرو وهو ينظر مباشرة إلى الكاميرا :

قالوا لي إنه يريد أن يسلم نفسه . آه ، أيها البحر! آه ، يابحر كوفينياس في الخامسة مساء حين تكون الشمس في الغروب! ماذا يجب علي أن أفعل ؟ يقولون لي إنه متعب من حياته ومن صراعه ، ولست أستطيع أن أروي سري لأحد . ولكن السر يختفي من الداخل . أخبرني أيها البحر! : هل يمكنني الإقدام على ذلك ؟ هل يتوجب عليّ عمل ذلك ؟ أنت يامن تعرف كل تاريخ كولومبيا ، أنت يا من رأيت الهنود يتعبدون على هذا الشاطئ ، أنت يا من سمعت حفيف التاريخ : هل يتوجب عليّ عمل ذلك ؟ هل سيستنكرونني إن أنا فعلته ؟ هل سينكرونني في كولومبيا ؟ هل سيكون هناك رصاص إذا ما ذهبتُ معهم ؟ هل سأهوي معهم في هذه المغامرة ؟

لقد سمعت ماروخا الحديث أيضاً ، ولكنه بدا لها أقل غرابة مما بدا لكثير من الكولومبيين ، لأنها كانت تفكر دائماً في أن الأب يحب الطواف حتى التيه مابين المجرات . وكانت ترى أحاديثه على أنها مقبلات لا مفر منها قبل نشرة أخبار الساعة السابعة . ولكنه في تلك الليلة شدّ انتباهها ، لأن كل ماله علاقة ببابلو اسكوبار له علاقة بها أيضاً . لقد بقيت حائرة وساهمة ، وقلقة جداً لعدم يقينها من المعنى الذي يمكن أن يكون وراء تلك الرطانة الصادرة عن العناية الإلهية . أما باتشو الذي كان واثقاً بالمقابل من أن الأب سيخرجه من ذلك المطهر الذي هو فيه ، فقد عانق حارسه بسعادة .

- ١٠ -

فتحت رسالة الأب غارثيا هيريروس ثغرة في الطريق المسدود . وقد بدت لبيياميثار أشبه بمعجزة ، ذلك أنه كان في تلك الأيام يراجع أسماء وسطاء محتملين يمكن لهم أن يكونوا محل ثقة اسكوبار بصورتهم العامة وسوابقهم . وقد حصل رافائيل باردو كذلك على خبر عن البرنامج وأحس بالقلق من فكرة أن يكون هناك اختراق ما في مكتبه . ولكنه هو وبيياميثار على السواء رأيا أنه يمكن للأب غارثيا هيريروس أن يكون الوسيط المناسب من أجل استسلام اسكوبار .

في أواخر آذار ، كانت الرسائل التي تذهب وتجيء لاتجد ماتقوله بالفعل . بل ووصل الأمر إلى ماهو أسوأ : فقد بات جلياً أن اسكوبار يستخدم بيياميثار كأداة لبعث رسائله إلى الحكومة دون أن يقدم شيئاً مقابل ذلك . وقد كانت رسالته الأخيرة عبارة عن قائمة بلانهاية لها من الشكاوى . فالهدنة لم تُخترق ولكنها منحت الحرية لجماعته كي يدافعوا عن أنفسهم ضد أجهزة الأمن ، وهذه الأجهزة مدرجة في قائمة الاغتيالات الكبيرة ، وأنه إذا لم يتم التوصل إلى حلول سريعة فسيزيدون وتيرة الهجمات دون تمييز ضد الشرطة والسكان المدنيين . وكان يشكو من أن النائب العام لم يعزل سوى ضابطين بينما كان الاكسترادايتابليون يتهمون عشرين ضابطاً .

عندما كان بيياميثار يجد نفسه دون مخرج ، كان يناقش الأمر مع

خورخي لويس اوتشوا ، ولكن حين يكون الأمر أشد حساسية ، يرسله هذا الأخير إلى مزرعة أبيه بحثاً عن نصائح مفيدة . وكان الأب العجوز يقدم عندئذ إلى بيياميثار نصف كأس مقدس من الويسكي قائلا له : «اشربه كله . فأنا لا أعرف كيف يمكنك أن تتحمل هذه المأساة الكبيرة» . هكذا كانت الأمور في أوائل نيسان ، حين رجع بيياميثار إلى مزرعة لالوما وروى لدون فابيو القصة المفصلة للقاءاته مع اسكوبار . وقد شاطره دون فابيو خيبة أمله ، وقال بحزم :

ـ لا نريد مزيداً من الرسائل اللعينة . إذا واصلنا على هذا المنوال فسنحتاج إلى قرن من الزمان . من الأفضل أن تلتقي أنت نفسك مع اسكوبار وتتفقان على الشروط التي تريدانها .

وقد أرسل دون فابيو نفسه الاقتراح . فأطلع اسكوبار على أن بيياميثار مستعد للسماح بحمله ، رغم كل المخاطر ، في صندوق سيارة . ولكن اسكوبار لم يوافق . وكان رده : «ربما كان مايزال خائفاً من جهاز الذبذبات الالكتروني الذي يمكن تخبئته في أي مكان ، بما في ذلك تحت رقاقة ذهبية تغطي أحد الأضراس .

وكان يصر في أثناء ذلك على وجوب فرض عقوبات على رجال الشرطة ، وعلى اتهام ماثا ماركيز بالتحالف مع الحركات شبه العسكرية ومع كارتيل كالي من أجل قتل أنصاره . وكانت هذه التهمة ، إضافة إلى إتهامه إياه بقتل لويس كارلوس غالان ، هما المتسلطتان على عقل اسكوبار في هجومه على الجنرال ماثا ماركيز . وكان ردّ هذا الأخير الدائم ، سواء في العلن أو في المجالس الخاصة ، هو أنه لايخوض في الوقت الراهن الحرب ضد كارتيل كالي لأنه يعطي الأولوية للصراع ضد إرهاب تجار المخدرات وليس ضد تجارة المخدرات . وكان اسكوبار من جهته قد كتب رسالة إلى بيياميثار ، دون أن يطلب منه ذلك : «قلّ لدونيا غلوريا إن ماثا هو الذي قتل زوجها ، ولتكن واثقة من ذلك دون أن يراودها أي شك» . وحيال التأكيد المتكرر على هذا الإتهام ، كان ردّ ماثا هو نفسه دائماً : «إن أفضل من

يعرف عدم صحة هذه التهمة هو اسكوبار نفسه» .

أراد بيياميثار اليانس من تلك الحرب الدامية والعقيمة التي تهزم كل مبادرة ذكية أن يبذل مجهوداً أخيراً للتوصل إلى جعل الحكومة توافق على هدنة للتفاوض . ولكن ذلك لم يكن ممكناً . فقد أوضح له رافائيل باردو منذ البداية أنه على الرغم من أن ذوي المخطوفين يصطدمون بإصرار الحكومة على عدم تقديم أدنى التزام ، فإن خصوم سياسة إخضاع المطلوبين يتهمون الحكومة بأنها تسلم البلاد إلى تجار المخدرات .

وقد زار بيياميثار أيضاً الجنرال غوميث باديبا ، المدير العام للشرطة . وكانت ترافقه في تلك الزيارة شقيقة زوجته غلوريا دي غالان . وقد طلبت هي من الجنرال الموافقة على هدنة لمدة شهر من أجل محاولة التوصل إلى اتصال مباشر مع اسكوبار . فقال لها الجنرال :

ـ إننا نموت أسفاً يا سيدتي . ولكننا لا نستطيع وقف العمليات العسكرية ضد هذا المجرم . إنك تتصرفين على مسؤوليتك ، والشيء الوحيد الذي نستطيع عمله هو تمنياتنا لك بالحظ الحسن .

كان ذلك هو كل ما حصلا عليه إزاء التكتم البوليسي للحيلولة دون تسرب المعلومات الذي لا تفسير له ، والذي أتاح لاسكوبار خداع أفضل الحصارات المضروبة . ولكن دونيا غلوريا لم تخرج خاوية اليدين ، ذلك أن أحد الضباط قال لها وهو يودعها إنهم يحتجزون ماروخا في مكان ما من محافظة ناريينيو ، على الحدود مع الاكوادور . وكانت هي تعرف من بياتريث بأنها موجودة في بوغوتا نفسها ، وهكذا فإن ضلال الشرطة أزاح عنها الخوف من عملية إنقاذ مسلحة .

إن تأملات الصحافة حول شروط اسكوبار لتسليم نفسه وصلت في تلك الأيام إلى مستوى الفضيحة العالمية . فإنكار الشرطة ، وتوضيحات كل المستويات الحكومية ، بما في ذلك الرئيس شخصياً ، لم تستطع أن تقنع الكثيرين بعدم وجود مفاوضات واتفاقات سرية من أجل استسلامه .

كان الجنرال ماثا ماركيز يعتقد بأن ذلك صحيح . بل وأكثر من ذلك : فقد كان مقتنعاً على الدوام ـ وقال ذلك لكل من يود سماعه ـ بأن اقالته من منصبه ستكون أحد شروط اسكوبار الأساسية لتسليم نفسه . وكان يبدو على الرئيس غافيريا أنه مستاء منذ وقت سابق من بعض التصريحات غير المنضبطة التي كان يقدمها ماثا ماركيز للصحافة ، ومن بعض الإشاعات التي لم تتأكد مطلقاً بأن تسريب بعض المعلومات الحساسة كان من عمله . ولكن الرئيس في تلك اللحظة ـ وبعد سنوات طويلة أمضاها ماثا في منصبه ، وأحرز شعبية واسعة لضربه المجرمين بيد قوية ولورعه الديني الفائق تجاه *الطفل الإلهي* ـ ماكان ليتخذ قراراً باقالته ببرود . ولا بد أن ماثا كان يعي قوته ، ولكنه كان يعرف دون ريب كذلك أن الرئيس سينتهي إلى تنفيذ مايراه ، فكان الشيء الوحيد الذي طلبه ـ عبر رسائل مع أصدقاء مشتركين ـ هو إشعاره بأمر إقالته قبل وقت كافٍ ليتسنى له إنقاذ أسرته .

الموظف الوحيد الذي كانت لديه صلاحية إقامة اتصالات مع محامي بابلو اسكولار ـ على أن تكون مثبتة خطياً ـ هو مدير التحقيق الجنائي كارلوس ألبيرتو ميخيا . فقد أوكلت إليه قانونياً مهمة الاتفاق على تفاصيل عمليات الاستسلام وظروف الأمن والحياة داخل السجن .

وقد راجع الوزير خيرالدو أنخل شخصياً الخيارات المحتملة . فأبدى اهتماماً بالجناح ذي المواصفات الأمنية العالية في سجن ايتاغوي منذ أن سلّم فابيو اوتشوا نفسه في شهر تشرين الثاني من السنة السابقة ، ولكن محامي اسكوبار اعترضوا على المكان لأنه يشكل هدفاً سهل المنال للسيارات الملغومة . وقد بدت له مقبولة كذلك فكرة تحويل دير بوبلادو إلى سجن محصن ـ وهو دير يقع بالقرب من المبنى السكني الذي كان بابلو اسكوبار قد نجا فيه من انفجار منتي كيلوغرام من الديناميت ونسبَ الانفجار إلى كارتيل كالي ـ ولكن الراهبات مالكات الدير رفضن بيعه . وكان قد اقترح تحصين سجن ميدلين نفسه ، ولكن المجلس البلدي عارض ذلك بالاجماع . وهكذا

فإن ألبيرتو بيياميثار الذي كان يخشى إخفاق عملية الاستسلام بسبب عدم وجود السجن ، توسط بحجج ذات وزن لمصلحة الاقتراح الذي كان اسكوبار قد تقدم به في شهر تشرين الأول من السنة السابقة : اقامة السجن في المركز البلدي لمعالجة مدمني المخدرات « إل كلاريت » ، الذي يقع على بعد اثني عشر كيلومتراً من الحديقة المركزية ، في مزرعة تعرف باسم كاتدرائية الوادي ، وهي مسجلة باسم مستعار لاسكوبار . وكانت الحكومة تدرس إمكانية استئجار المركز وتكييفه كسجن ، وهي تدرك أن اسكوبار لن يسلم نفسه ما لم يتم حل مشكلة أمنه الشخصي . وكان محاموه يطالبون بأن تكون الحراسات من أبناء مدينة انتيوكيا ، وأن تناط مسؤولية الأمن الخارجي بأي جهاز مسلح باستثناء الشرطة ، خشية الانتقام لرجال الشرطة الذين جرى اغتيالهم في ميدلين .

وكان عمدة اينفيغادو ، المسؤول عن انجاز العمل النهائي ، قد أخذ علماً بتقرير الحكومة ، وبدأ عملية تجهيز السجن الذي يتوجب عليه أن يسلمه إلى وزارة العدل وفق عقد الايجار الموقع من الطرفين . كان البناء الاساسي ببساطةِ بناءٍ مدرسي ، أرضه من الإسمنت ، وسقفه من القرميد وله أبواب معدنية مطلية باللون الأخضر . وكان القسم الإداري يقوم في بيت المزرعة السابق المؤلف من ثلاث صالونات صغيرة ، والمطبخ ، وفناء مرصوف بالأحجار وزنزانة العقاب . وكانت هناك قاعة نوم جماعية مساحتها أربعمئة متر مربع ، وصالة فسيحة أخرى للمكتبة وصالة دراسة ، وست غرف فردية لكل منها حمام خاص . وكان هناك في الوسط بهو مشترك مساحته نحو ستمئة متر مربع ، وفيه أربع حجرات استحمام مزودة بدوشات ، وغرفة لتبديل الملابس ، وست دورات مياه . وقد بدأت عمليات تكييف المبنى لتحويله إلى سجن منذ شهر شباط ، وكان يعمل فيه ستون عاملاً ينامون بالتناوب ساعات قليلة كل يوم . ولكن طبيعة الأرض الوعرة ، وسوء حال الدرب المؤدي إلى الموقع ، وقسوة الشتاء أجبرتهم على الاستغناء عن استخدام القلابات والشاحنات ،

واضطروا إلى نقل معظم التجهيزات على متن بغلة . وأول شيء نقلوه كان سخانا ماء سعة كل منهما خمسون ليتراً ، وأسرة نوم عسكرية ونحو عشرين كرسياً من أنابيب معدنية مطلية باللون الأصفر . ثم نقلوا بعد ذلك عشرين أصيص نباتات زينة ـ شجيرات اراوكاريا ، وغار ونخيل فيليبيني ـ لاستكمال الديكور الداخلي . وحيث أن المكان في السابق كان دون خطوط هاتفية ، فقد تقرر تأمين اتصالات السجن بنظام لاسلكي في البداية . وقد بلغت التكلفة النهائية نحو مئة وعشرين مليون بيزو دفعتها بلدية اينفيغادو . وكانت التقديرات الأولية قد حددت فترة ثمانية أشهر لإنجاز العمل ، ولكن حين دخل الأب غارثيا هيريروس إلى مسرح الأحداث ، جرى التعجيل في العمل بسرعة اضطرارية .

كانت تعترض الاستسلام عقبة أخرى تتمثل في حلّ جيش بابلو اسكوبار الخاص . وكان اسكوبار ، كما يبدو ، لا يعتبر السجن أداة في يد القانون ، وإنما مكان مقدس يحميه من أعدائه ، بل ومن العدالة النظامية نفسها كذلك ، ولكنه لم يكن يستطيع التوصل إلى الإجماع بشأن تسليم إفراد قواته أنفسهم معه . وكانت حجته في ذلك أنه لا يستطيع أن يوفر لنفسه ولأسرته مكان آمن ويترك أتباعه تحت رحمة فرقة النخبة . وقد قال في إحدى رسائله : «أنا لا أقود بمفردي» . ولكن هذا القول كان في نظر الكثيرين هو نصف الحقيقة ، ذلك أنه من المحتمل أيضاً أن اسكوبار كان يرغب في أن يكون معه كامل طاقمه لكي يواصل إدارة تجارته من السجن . ولكن الحكومة كانت تفضل على أي حال حبسهم جميعهم مع اسكوبار . لقد كانوا نحو مئة عصبة ، ولكنهم لم يكونوا جميعهم في حالة حرب دائمة ، وإنما كانوا أشبه بقوات احتياطية في الخط الأول ، يمكن حشدهم وتسليحهم خلال ساعات قليلة . وكانت القضية هي في التوصل إلى جعل اسكوبار يجرد من السلاح قادتهم الخمسة عشر أو العشرين البارزين ويأخذهم معه إلى السجن .

في مقابلات، بيياميثار الشخصية القليلة مع الرئيس غافيريا ، كان موقف

هذا الأخير دائماً هو تسهيل مساعيه الخاصة لتحرير المختطفين . ولم يكن بيياميثار يعتقد بأن الحكومة تقوم بمفاوضات مختلفة عن التي خولته القيام بها ، والتي كانت منظورة ضمن سياسة إخضاع المطلوبين . وكان الرئيس الأسبق طربيه وهيرناندو سانتوس ـ رغم عدم إعلانهما ذلك ، ورغم معرفتهما بالمصاعب الدستورية التي تواجه الحكومة ـ يأملان دون ريب في حد أدنى من المرونة من جانب الرئيس . ولكن رفض هذا الأخير تعديل المهلة المنصوص عليها في المرسومين بالرغم من إصرار وتوسل ومطالبة نيديا ، سيبقى شوكة في قلب ذوي المخطوفين . وواقع أنه وافق على التعديل بعد ثلاثة أيام من موت ديانا هو أمر لن تتفهمه أسرتها إلى الأبد . حتى ولو كان الرئيس قد قال في جلسة خاصة إن تغيير المهلة في ذلك الحين ما كان سيحول للأسف الشديد دون موت ديانا بالطريقة التي حدث بها .

لم يكن اسكوبار يكتفي بقناة واحدة للحوار ، ولم يتخل لحظة واحدة عن محاولة التفاوض مع الرب ومع الشيطان ، بكل أنواع الأسلحة الشرعية أو غير الشرعية . ليس ذلك لأنه كان يثق بالبعض أكثر من ثقته بغيرهم ، وإنما لأنه لم يكن يثق بأحد على الإطلاق . وحتى عندما كان قد ضمن ما يأمل بالحصول عليه من بيياميثار ، كان يواصل مداعبة الحلم بالحصول على العفو السياسي الذي ظهر في عام ١٩٨٩ ، حين حصل كبار تجار المخدرات وكثيرون من أتباعهم على بطاقات عضوية في حركة « م ـ ١٩ ـ » لتُدرج أسماؤهم في قوائم رجال حرب العصابات المستفيدين من العفو . ولكن القومندان كارلوس بيثارو أغلق عليهم الطريق بمطالب من المستحيل تحقيقها . وبعد سنتين من ذلك كان اسكوبار يبحث عن طريق آخر للعفو من خلال الجمعية التأسيسية التي أخضع العديد من أعضائها لضغوط مختلفة ، بدءاً بالعروض المالية السخية وحتى الممارسات التخويفية الخطرة .

ولكن خصوم اسكوبار دخلوا على الخط أيضاً من أجل مآربهم وكان ذلك هو الأصل فيما سمي فيديو المخدرات الذي أثار فضيحة صاخبة وعقيمة .

فشريط الفيديو الذي يفترض أنه صُور بكاميرا مخبأة في غرفة بفندق ، في اللحظة التي يتلقى فيها عضو في الجمعية التأسيسية مبلغاً نقدياً من المال من شخص يُفترض أنه محامي اسكوبار ، لم تتوصل مصداقيته إلى إقناع أحد . فعضو الجمعية التأسيسية الذي يظهر في الشريط كان قد انتُخب ضمن قائمة «م ـ ١٩» ، وكان ينتمي في الواقع إلى جماعة شبه عسكرية تعمل في خدمة كارتيل كالي في حربه ضد كارتيل ميدلين . وبعد شهور من ذلك انهار زعيم إحدى الميليشيات الخاصة أمام العدالة وروى أن جماعته قد أقدمت على تلك الخدعة المصورة تلفزيونياً لاستخدامها كدليل على أن اسكوبار يرشو أعضاء الجمعية التأسيسية ، مما يفسد بالتالي أي محاولة للعفو عن المطلوبين أو عدم تسليمهم إلى الولايات المتحدة .

ومن بين الجبهات الكثيرة التي كان يحاول فتحها ، سعى اسكوبار إلى التفاوض حول اطلاق سراح باتشو سانتوس من وراء ظهر بيياميثار ، حين كانت مساعي هذا الأخير على وشك الوصول إلى غايتها . فقد أرسل اسكوبار عبر أسقف صديق رسالة إلى هيرناندو سانتوس في أواخر شهر نيسان ، لكي يلتقي مع أحد محاميه في كنيسة اوساكين . والمسألة تتعلق ـ حسب الرسالة ـ بمساع بالغة الأهمية من أجل إطلاق سراح باتشو . ولم يكن هيرناندو يعرف ذلك الأسقف فقط ، وإنما كان يعتبره قديساً حياً ، وهكذا ذهب إلى الموعد وحده وفي الوقت المحدد تماماً ، أي الساعة الثامنة ليلاً من اليوم الموعود . وفي عتمة الكنيسة نبهه المحامي الذي كان غير مرني تقريباً بأنه لا علاقة له بالكارتيلات ، ولكن بابلو اسكوبار هو الذي أنفق على دراسته ولايمكنه بالتالي رفض تقديم تلك الخدمة له . وكانت مهمته تقتصر على تسليم نصين إلى هيرناندو : تقرير منظمة العفو الدولية ضد شرطة ميدلين ، ونسخة أصلية من أفتتاحية متبجحة حول تعسف فرقة النخبة .

قال المحامي :

ـ لقد جئت إلى هنا وأنا أفكر فقط في حياة ابنك . فإذا نشرت هذه المواد

غداً ، فسيكون فرانثيسكو طليقاً في اليوم التالي .

قرأ هيرناندو الافتتاحية غير المنشورة بمغزاها السياسي . كانت تشير إلى الوقائع التي طالما استنكرها اسكوبار ، ولكن بتفاصيل مريعة من المستحيل إثبات صحتها . وكانت مكتوبة بجدية وتبصر ماكر . وكاتبها ، حسب المحامي ، هو اسكوبار نفسه . وقد كانت تبدو من أسلوبه على أي حال . لقد كان تقرير منظمة العفو الدولية قد نُشر في صحف أخرى ، ولم يكن لدى هيرناندو سانتوس ما يمنع إعادة نشره . أما الافتتاحية بالمقابل فكانت شديدة الخطورة إذا ما نُشرت دون أدلة . وقال هيرناندو : «فليرسل لي الأدلة وسوف أنشرها على الفور حتى لو لم يطلقوا سراح باتشو» . ولم يكن هناك شيء آخر يقال . والمحامي الذي أدرك أن مهمته قد انتهت ، أراد أن ينتهز الفرصة ليسأل هيرناندو عن المبلغ الذي قبضه منه غيدو بارًا مقابل وساطته .

فرد هيرناندو :

ـ لم يتقاضَ سنتافو واحداً . ولم يتحدث مطلقاً عن النقود .

فقال المحامي :

ـ أخبرني الحقيقة ، لأن اسكوبار يراقب الحسابات ، إنه يراقب كل شيء ، وهو بحاجة إلى هذه المعلومة .

كرر هيرناندو إنكاره ، وانتهى اللقاء بوداع رسمي .

* * *

ربما كان الشخص الوحيد المقتنع في تلك الأيام بأن الأمور توشك على الوصول إلى نهايتها هو المنجم الكولومبي ماوريثيو بويرتا ـ المراقب المتيقظ للحياة الوطنية من خلال النجوم ـ الذي كان قد توصل إلى نتائج مذهلة حول البطاقة النجميّة لبابلو اسكوبار .

فقد ولد في ميدلين ، في الأول من كانون الأول ١٩٤٩ ، في الساعة الحادية عشرة وخمسين دقيقة قبل الظهر .

وهو بالتالي من برج القوس مع نسبٍ إلى برج الحوت في أسوأ اقتران ممكن : حيث المريخ إلى جانب زحل في برج العذراء . فتكون ميوله هي : التسلط ، القسوة ، الطغيان ، الطمع غير المحدود ، التمرد ، العصيان ، الفوضى ، عدم الانضباط ، التهجم على السلطة . ونهاية حماسه : الموت المفاجئ .ابتداء من ٣٠ آذار ١٩٩١ . كان زحل في برجه في خمس درجات من أجل السنوات الثلاث التالية ، ولم تكن قد بقيت أمامه سوى ثلاث خيارات لتحديد مصيره : المستشفى ، أو المقبرة أو السجن . وهناك خيار رابع ـ الدير ـ يبدو أنه غير محتمل في حالته . ولكن الفترة على أي حال كانت مناسبة للإتفاق على صيغة للتفاوض أكثر من مناسبتها لأغلاق التعامل نهائياً . وهذا يعني : إن خياره الأفضل هو الاستسلام المشروط الذي تقترحه الحكومة .

« يجب أن يكون اسكوبار قلقاً جداً حتى يبدي كل هذا الاهتمام ببطاقته النجميّة » ، هذا ما قاله أحد الصحفيين . ذلك أنه ما إن وصله خبر ماوريثيو بويرتا حتى رغب في معرفة تحليل حالته في أدق تفاصيلها . ومع ذلك ، فإن المبعوثين اللذين أرسلهما اسكوبار لم يصلا إلى هدفهما ، واختفى أحدهما إلى الأبد . عندئذ نظم المنجم بويرتا سيميناراً في ميدلين وأحاطه بدعاية واسعة ليضع نفسه في متناول يد اسكوبار ، ولكن مجموعة من العقبات الغريبة حالت دون لقائهما . وقد فسر بويرتا ذلك على أنه وسيلة حماية من النجوم حتى لايتدخل أحد في تبديل قدرٍ كان مقرراً حتماً .

وقد حصلت زوجة باتشو سانتوس على كشف خارق للطبيعة أيضاً من منجمةٍ كانت قد تصورت مسبقاً موت ديانا بوضوح مذهل ، وكانت قد قالت لها بثقة مماثلة إن زوجها باتشو على قيد الحياة . وفي شهر نيسان التقت بها في مكان عام ، فهمست في أذنها بصورة عابرة :

ـ أهنئك . إنني أرى مجيئه .

* * *

كانت تلك هي المؤشرات الوحيدة المشجعة حين بث الأب غارثيا هيريروس رسالته المشفرة إلى بابلو اسكوبار . أما كيف وصل إلى ذلك القرار الصادر عن العناية الإلهية ، وما علاقة بحر كوفينياس بقراره ، فهي أمور مازالت تشغل البلاد . ومع ذلك ، فإن الطريقة التي حدث بها ذلك كانت أكثر غرابة . ففي يوم الجمعة ١٢ نيسان ١٩٩١ كان قد زار الدكتور مانويل ايلكين باتارويو ـ المخترع السعيد للقاح مضاد للملاريا ـ ليطلب منه أن يقيم في *دقيقة الرب* موقعاً طبياً للكشف المبكر عن الايدز . وكان برفقته ـ إضافة إلى كاهن شاب من رعيته ـ شخص انتيوكي بكل ما فيه ، واحدٌ من أصدقائه المقربين يساعده في شؤونه الدنيوية . هذا المحسن الذي طلب عدم ذكر اسمه لم يكن قد بنى كنيسة الأب غارثيا هيريروس وتبرع بها وحسب ، وإنما كان يساهم طوعاً في تبرعات لأعمال الأب الإجتماعية . وفي السيارة إلى معهد علوم المناعة للدكتور باتارويو ، أحس بنوع من الإلهام المستعجل ، فقال للأب :

ـ اسمع يا أبتاه . لماذا لاتتدخل في هذه القضية لتساعد بابلو اسكوبار على تسليم نفسه ؟

قال ذلك دون مقدمات ودون أي سبب محدد . وسيقول فيما بعد : «لقد كانت رسالة من هناك في الأعلى» مثلما يشير دائماً إلى الرب ، باحترام عبد وبثقة صديق . وقد تلقى الأسقف العبارة مثل سهم في القلب . امتقع لونه بزرقة ضاربة إلى السواد . وقد تأثر الدكتور باتارويو الذي لم يكن يعرفه ، بالنشاط الذي يشع من عينيه وبميله إلى التفاوض . أما مرافقه فقد رآه مختلفاً : «كان الأب يبدو وكأنه يطفو . ولم يفكر طول الزيارة في أي شيء آخر سوى ماكنت قد قلته له ، وقد رأيته لدى خروجنا مستعجلاً إلى حد أخافني» . ولهذا أخذه للاستراحة في نهاية ذلك الأسبوع في بيت للراحة في كوفينياس ، وهو شاطئ شعبي على الكاريبي يؤمه آلاف السياح وينتهي إليه أنبوب نفط طاقته مئتين وخمسين ألف برميل من النفط الخام يومياً .

لم يستكن الأب لحظة واحدة . فهو لا يكاد ينام ، وينهض في أثناء تناول الطعام ، ويقوم بمسيرات طويلة على الشاطئ في أي ساعة من ساعات النهار أو الليل ، ويصرخ في مواجهة صخب الأمواج : «آه ، يابحر كوفينياس . هل يمكنني عمل ذلك ؟ هل يجب علي عمل ذلك ؟ أنت يامن تعرف الأمر : ألن نموت في المحاولة ؟ » وبعد تلك المسيرات المعذبة كان يدخل إلى البيت بسيطرة تامة على معنوياته ، وكأنه قد تلقى الإجابات فعلاً من البحر ، ويناقش مع مضيفه أدق تفاصيل المشروع .

حين رجعا إلى بوغوتا يوم الثلاثاء ، كانت لديه رؤية إجمالية أعادت إليه الطمأنينة . وفي يوم الأربعاء عاد إلى حياته الروتينية المعتادة : استيقظ في الساعة السادسة ، واستحم ، وارتدى الزي الأسود مع الياقة الكهنوتية ، وفوقه العباءة البيضاء الدائمة ، ثم وضع برنامجاً لشؤون اليوم المتأخرة بمساعدة سكرتيرته باولينا غارثون التي لم تفارقه طوال نصف حياة . وفي تلك الليلة قدم برنامجه حول موضوع مختلف ليست له أي علاقة باهتماماته المتسلطة على عقله ، وفي يوم الخميس صباحاً ، بعث إليه الدكتور باتارويو رداً متفائلاً على طلبه ، مثلما كان قد وعده . لم يتناول الأب غداءه . وفي الساعة السابعة إلا عشر دقائق وصل إلى استوديوهات «انترفيزيون» ، حيث يُبث برنامجه ، وارتجل أمام الكاميرا الرسالة الموجهة مباشرة إلى اسكوبار . لقد كانت ستون ثانية غيّرت القدر القليل المتبقي له في الحياة . ولدى عودته إلى البيت كانت في انتظاره سلة من الرسائل الهاتفية المرسلة من كل أرجاء البلاد ، وسيل جارف من الصحفيين الذين لن يتوقفوا عن مراقبته منذ تلك اللحظة وإلى أن ينجز هدفه في اقتياد اسكوبار من يده إلى السجن .

كانت المرحلة النهائية قد بدأت ، ولكن التنبؤات كانت حائرة ، لأن الرأي العام كان منقسماً مابين الجموع التي تؤمن بأن الكاهن الطيب هو قديس والملحدين المقتنعين بأنه نصف مخبول . والواقع أن الحياة كانت تثبت أشياء كثيرة باستثناء كونه كذلك . كان قد أكمل الثانية والثمانين من عمره

في شهر كانون الثاني ، وكان سيكمل في شهر آب اثنتين وخمسين سنة في سلك الكهنوت ، وكان من بعيد الكولومبي الوحيد المؤثر الذي لم يحلم مطلقاً بأن يكون رئيساً للجمهورية . وكان رأسه الثلجي وعباءته الصوفية البيضاء فوق مسوحه واحدة من الصور الأكثر احتراماً في البلاد . اقترف أشعاراً نشرها في كتاب وهو في التاسعة عشرة من عمره ، ثم أشعاراً أخرى ، في مرحلة الشباب أيضاً . نشرها باسم مستعار هو «سينيستنس» . ونال جائزة منسية على كتاب قصص قصيرة ، وستاً وأربعين وساماً على عمله الاجتماعي . وكانت قدماه راسختان جيداً في الأرض في الأوقات الطيبة أو السيئة على السواء ، وكان يمارس حياة اجتماعية دنيوية ، يروي ويستمع إلى نكات من كل الألوان ، وعندما تحين ساعة الجد يُخرج ما كان مخبأ على الدوام تحت عباءته السهبية : سانتانديري ذو عظام حمراء :

كان يعيش في تقشف ديريّ في بيت الخوري بكنيسة سان خوان دي إوديس ، في غرفة سقفها مليء بثقوب تقطر ماء ويرفض إصلاحها . وكان ينام على سرير من ألواح خشبية دون فرشة ودون وسادة وبشرشف من مزق مختلفة الألوان لها شكل كوخ كانت قد صنعته له بعض الراهبات المحسنات . لم يقبل وسادة ريش قُدمت إليه يوماً لأنها بدت له مخالفة لقانون الرب . ولم يكن يبدل حذاءه إلى أن يُهدى إليه حذاء جديد ، ولايبدل كذلك ملابسه وعباءته الأبدية البيضاء إلا إذا أهدي إليه غيرها . وكان يأكل قليلاً ، ولكنه كان جيد الذوق على المائدة ويعرف كيف يقدّر الطعام الجيد والنبيذ الفاخر ، ولكنه لا يقبل الدعوات إلى المطاعم الفخمة خشية أن يظن الناس أنه هو من يدفع الحساب . وفي أحد تلك المطاعم رأى مرة سيدة راقية في خاتمها ألماسة بحجم حبة لوز ، فقال لها مواجهةً :

- بحلية مثل هذه يمكنني بناء مئة وعشرين بيتاً للفقراء .

لم تدر السيدة التي أربكتها العبارة ما الذي عليها أن تفعله ، وفي اليوم التالي بعثت إليه بالخاتم مع ملاحظة ودودة . لم يكفِ ثمن الخاتم لبناء مئة

وعشرين بيتاً بالطبع ، ولكن الأب شيدها على أي حال .

كانت سكرتيرته باولينا غارثون دي بيرموديث تنحدر من تشايباتا ، في سانتاندير الجنوبية ، وكانت قد جاءت إلى بوغوتا مع أمها عام ١٩٦١ ، وهي في الخامسة عشرة من عمرها ، ومعها توصية بأنها طابعة آلة كاتبة مجربة . وقد كانت كذلك بالفعل ، ولكنها لم تكن تعرف كيف تتحدث بالهاتف وكانت قوائم مشترياتها عويصة لا يمكن حلّ رموزها بسبب فظاعات خطها ، ولكنها تعلمت كيف تتقن الأمرين كليهما لكي يستخدمها الأب لديه . وفي الخامسة والعشرين من عمرها تزوجت وأنجبت أبناً ـ الفونسو ـ ، وابنةً ـ ماريا كونستانثا ـ ، وهما اليوم مهندسا كهرباء . رتبت باولينا أمورها لتواصل العمل مع الأب الذي راح يفلت لها شيئاً فشيئاً حقوقاً وواجبات إلى أن لم يعد قادراً على الاستغناء عنها ، فصارا يسافران معاً داخل البلاد وخارجها ، ولكن برفقة كاهن آخر على الدوام . «من أجل تفادي الإشاعات» كما توضح باولينا . وانتهى بها الأمر إلى مرافقته إلى أي مكان ، حتى ولو لمجرد وضع ونزع عدساته اللاصقة التي لم يتعلم وضعها بنفسه مطلقاً .

وفي سنواته الأخيرة كان الأب يفقد السمع في أذنه اليمنى ، وصار نزقاً ، تثير حفيظته ثغرات ذاكرته . وكان قد بدأ يستبعد الصلوات التقليدية شيئاً فشيئاً ، ويرتجل صلوات خاصة به يطلقها بصوت عالٍ بإلهام من يُوحى إليه . وكانت سمعته كمخبول تزداد في الوقت نفسه مع ازدياد الإعتقاد الشعبي بأنه يتمتع بسلطة خارقة للتكلم مع المياه والتحكم بمجاريها ومسالكها . وموقفه المتفهم بشأن قضية اسكوبار أعاد إلى الذاكرة عبارة كان قد قالها لدى عودة الجنرال غوستافو روخاس بينيا ، في آب ١٩٥٧ ، لكي يحاكمه الكونغرس : «حين يسلم نفسه للقانون ، فإنه يستحق الاحترام العميق ، حتى ولو كان مذنباً» . وفي آخر حياته تقريباً ، خلال مأدبة المليون التي تعرض تنظيمها لإشكالية كبيرة ، سأله صديق عما سيفعله بعد ذلك ، فأجابه برد ابن تسعة عشر عاماً : «أريد أن أستلقي في مرج وأتأمل النجوم» .

في اليوم التالي لرسالته التلفزيونية ـ ودون أعلان أو إجراءات مسبقة ـ ذهب الأب غارثيا هيريروس إلى سجن إيتاغوي ، ليسأل الأخوة اوتشوا عن الطريقة التي يمكنه فيها أن يكون مفيداً في مسألة استسلام اسكوبار . وقد ترك لدى الأخوة اوتشوا انطباعاً بأنه قديس ، ولكن لديه نقيصة واحدة فقط لابد من أخذها بعين الاعتبار : فهو منذ أكثر من أربعين سنة على اتصال مع المستمعين من خلال موعظته اليومية ، ولايمكنه أن يتصور نفسه يقوم بمسعى دون أن يبدأ بروايته للرأي العام .

ولكن الأمر الحاسم بالنسبة إليهم كان في أن أباهم دون فابيو رأى فيه وسيطاً أرسلته العناية الإلهية .أولاً ، لأنه لن تكون لدى اسكوبار التحفظات التي كانت تمنعه من مقابلة بيياميثار . وثانياً ، لأن صورته المتألهة قادرة على إقناع أعوان اسكوبار كلهم بتسليم أنفسهم .

بعد يومين من ذلك كشف الأب غارثيا هيريروس النقاب في مؤتمر صحفي عن أنه قام بالاتصال مع المسؤولين عن احتجاز الصحفيين ، وأعرب عن تفاؤله بقرب الإفراج عنهم .

لم يتردد بيياميثار لحظة واحدة في الذهاب إليه في *دقيقة الرب* . ورافقه في زيارته الثانية إلى سجن إيتاغوي ، وفي اليوم نفسه بدأت العملية المكلفة والسرية التي انتهت بالإستسلام . كانت البداية رسالة أملاها الأب في سجن الأخوة اوتشوا ونسختها ماريا ليّا على الآلة الكاتبة . وقد ارتجلها وهو واقف أمامها ، بالموهبة نفسها ، والإيقاع نفسه ، واللهجة السانتنديرية نفسها التي يلقي بها مواعظه خلال دقيقة واحدة . دعاه إلى أن يبحثا معاً عن طريق لنشر السلام في كولومبيا . وأعرب له عن أمله بأن تعينه الحكومة ضامناً « لاحترام حقوقك وحقوق أسرتك وأصدقائك » . ولكنه حذره من طلب أشياء لاتستطيع الحكومة التنازل عنها . وقبل أن ينتهي إلى القول « مع تحياتي الحانية » أخبره في الواقع عن الهدف العملي للرسالة : « إذا كنت ترى أنه بإمكاننا اللقاء في مكان آمن لكلينا ، فأخبرني بذلك » .

ردّ اسكوبار على الرسالة بعد ثلاثة أيام بخط يده . وافق على تسليم نفسه كتضحية من أجل السلام . وأوضح أنه لا يأمل بالعفو ، ولايطالب بالعقوبة الجزائية وإنما الانضباطية ضد رجال الشرطة الذين يعيثون فساداً في قرى ميدلين ، ولكنه لا يتخلى عن قراره بالرد في عمليات إنتقامية كارثية . كان مستعداً للإعتراف بجريمة ما ، مع أنه واثق من أنه ليس هناك قاضٍ كولومبي أو أجنبي يملك أدلة كافية لإدانته ، ويأمل بأن يخضع خصومه للنظام نفسه . ومع ذلك ، وعلى عكس ما كان الأب ينتظره بلهفة ، لم تكن هناك أي اشارة إلى اقتراحه اللقاء معه .

كان الأب قد وعد بيياميثار بالتحكم باندفاعاته الإعلامية ، وقد وفى بوعده جزئياً في البداية ، ولكن روحه المغامرة شبه الطفولية كانت أقوى من قواه على التحكم . فكانت الآمال التي أشاعها ، وضخامة التعبئة الصحفية ، سبباً في عدم تحركه خطوة واحدة منذ ذلك الحين إلا وأفواج الصحفيين وأجهزة التلفزة والإذاعة تلاحقه حتى باب بيته .

* * *

بعد خمسة شهور من العمل السري المطلق تحت تكتم رافائيل باردو شبه المقدس ، ظن بيياميثار بأن انفلات لسان الأب غارثيا هيريروس يبقي العملية بمجملها عرضة للمخاطر . وهكذا طلب ، وحصل على مساعدة أقرب الناس إلى الأب ـ وعلى رأسهم باولينا ـ واستطاع الإعداد لبعض الأعمال دون أن يخبره بها مسبقاً .

في ١٣ أيار تلقى رسالة من اسكوبار يطلب منه فيها أن يأخذ الأب إلى مزرعة لالوما ويبقيه هناك طوال الوقت اللازم . ونبهه إلى أن ذلك الوقت قد يكون ثلاثة أيام وقد يصل إلى ثلاثة أشهر . فعليه أن يقوم بمراجعة شخصية ودقيقة لكل خطوة من العملية . وكان هناك أيضاً احتمال إلغاء كل شيء في اللحظة الأخيرة بسبب أي شكوك أمنية . ولحسن الحظ أن الأب كان على أهبة

الاستعداد لقضية كانت تؤرق نومه . وفي يوم ١٤ أيار ، في الساعة الخامسة صباحاً ، طرق بيياميثار باب بيته ، فوجده يعمل في مكتبه وكأنه في عز النهار . قال له :

ـ هيا بنا يا أبتاه . سنذهب إلى ميدلين .

كان آل اتشوا قد أعدوا كل شيء في مزرعة لالوما لشغل اهتمام الأب طوال الوقت اللازم . لم يكن دون فابيو موجوداً ، لكن نساء الأسرة تولين أمر كل شيء . ولم يكن من السهل إلهاء الأب ، لأنه أدرك أن رحلة بذلك الارتجال وبتلك السرعة لايمكن لها إلا أن تكون لأمر جدي جداً .

كان الفطور شائقاً وطويلاً ، وقد أكل الأب جيداً . وفي حوالي الساعة العاشرة صباحاً ، أخبرته مارتا نيفيس بأن اسكوبار سيستقبله بين لحظة وأخرى ، وقد حاولت في أثناء ذلك اليوم عدم إظهار الكثير من الدراماتيكية . انتفض هو حين سمع ذلك ، وأبدى سعادته ، ولم يعد يعرف ماذا يفعل ، إلى أن أعاده بيياميثار إلى الواقع بقوله له منبهاً :

ـ من الأفضل أن تعرف منذ الآن يا أبتاه . ربما سيكون عليك الذهاب وحدك مع السائق ، ولا أحد يعرف إلى أين ولا لكم من الوقت .

شحب لون الأب ، وصار لا يكاد يستطيع حمل المسبحة بين أصابعه ، وبينما هو ينتقل من جانب إلى آخر ، كان يصلي بصوت عالٍ صلواته المبتدعة . وكلما مرّ بجوار النوافذ كان ينظر نحو الطريق ، موزعاً بين الخوف من ظهور السيارة التي ستأتي لأخذه ، وجزعه من عدم مجينها . أراد التحدث بالهاتف ، ولكنه هو نفسه انتبه إلى خطورة ذلك ، وقال : «لحسن الحظ أن التحدث إلى الرب لايحتاج إلى هاتف» . ولم يشأ الجلوس إلى المائدة خلال الغداء الذي كان أشهى من الفطور . كان هناك في الغرفة التي أعدت له سرير بمظلة حريرية كما في سرير مطران . حاولت النساء إقناعه بأن يستريح قليلاً ، وبدا عليه أنه قد وافق . ولكنه لم ينم . كان يقرأ بقلق «موجز *تاريخ الزمان*» من تأليف ستيفن هاوكينغ ،

وهو كتاب رائج يحاول أن يثبت بالحسابات الرياضية أن الرب غير موجود . وفي الساعة الرابعة مساء دخل إلى الغرفة التي كان بيياميثار يحاول النوم فيها . وقال له :

ـ ألبيرتو ، من الأفضل أن نرجع إلى بوغوتا .

لقد تطلب إقناعه بالعدول عن ذلك جهداً كبيراً ، ولكن النساء توصلن إلى ثنيه عن عزمه بظرافتهن وكياستهن . وعند الغروب جاءته نكسة أخرى ، ولكن لم يكن أمامه مفر عندئذ . فهو نفسه كان يدرك مخاطر المجازفة بالسفر ليلاً . وعندما حان موعد النوم طلب أن يساعدوه في نزع العدستين اللاصقتين ، ذلك أن من كانت تنزعهما وتضعهما هي باولينا ، ولم يكن يعرف عمل ذلك بنفسه . لم ينم بيياميثار تلك الليلة ، لأنه لم يستبعد إمكانية أن يعتبر اسكوبار أن ظلال الليل هي أكثر أمانا للقاء .

لم يستطع الأب أن ينام دقيقة واحدة . وكان الفطور في الساعة الثامنة صباحاً أكثر تشويقاً من فطور اليوم السابق ، ولكن الأب لم يستطع حتى الجلوس إلى المائدة . كان مازال يائساً بالعدسات اللاصقة ولم يستطع أحد مساعدته في أمرها ، إلى أن تمكنت مديرة المنزل من وضعهما بعد جهد جهيد . وعلى العكس مما كان عليه في اليوم الأول ، لم تبد عليه العصبية ولم يكن يتنقل لاهثاً من مكان إلى آخر ، بل جلس مثبتاً نظره على الطريق الذي ستأتي منه السيارة . وبقي على تلك الحال إلى أن هزمه الضجر ، فنهض قافزاً وقال :

ـ أنا ذاهب . هذا الأمر مثل إرضاع ديك .

توصلوا إلى اقناعه بالبقاء إلى مابعد الغداء . فأعاد إليه ذلك الوعد حماسته . أكل جيداً ، وبادلهم الحديث ، وكان منبسط الأسارير كما في أفضل أزمنته ، وأعلن أخيراً أنه سينام القيلولة ، وقال مهدداً بسبابته :

ـ ولكنني أحذركم . عند استيقاظي من القيلولة سأغادر فوراً .

أجرت مارتا نيفيس بعض الاتصالات الهاتفية للحصول على معلومات

جانبية تفيدهم في إقناع الأب بالبقاء بعد استيقاظه . ولكنها لم تتوصل إلى شيء . وقبل الساعة الثالثة بقليل كانوا جميعهم يغالبون النعاس في الصالة ، عندما نبههم هدير محرك . وكانت تلك هي السيارة . نهض بيياميثار بقفزة واحدة ، طرق باب غرفة الأب ، ودفع الباب قائلاً :

ـ ابتاه . لقد جاؤوا في طلبك .

استيقظ الأب نصف استيقاظ ونهض كيفما استطاع . وأحس بيياميثار بالتأثر حتى أعماق روحه ، فقد بدا له مثل عصفور منتوف الريش ، بجلده الملتصق بعظامه والمرتعش بقشعريرة الرعب . ولكنه استعاد سيطرته على نفسه فوراً ، فرسم إشارة الصليب ، وكَبُرَ ، وعاد إلى مظهره الحازم والهائل ، ثم أمر بيياميثار : « اركع يابني ولنصلِ معاً » . وعندما نهض كان قد أصبح شخصاً آخر . وقال :

ـ فلنذهب لنرى ما الذي يريده بابلو .

ومع أن بيياميثار كان يرغب في مرافقته إلا أنه لم يحاول ذلك ، لأنه كان قد تم الإتفاق على عدم ذهابه معه ، ولكنه سمح لنفسه بالتحدث على انفراد إلى السائق ، وقال له :

ـ ستكون مسؤولاً عن الأب . إنه شخصية مهمة جداً . فانتبهوا إلى ما ستفعلونه به . وانتبهوا إلى المسؤولية التي تتحملونها .

نظر السائق إلى بيياميثار ، وكأنه ينظر إلى مجنون ، وقال له :

ـ كيف يخطر لك أنه قد يحدث أي شيء وأنا أركب مع قديس في السيارة ؟

أخرج قبعة بيسبول وطلب من الأب أن يعتمرها حتى لا يتعرف عليه أحد بشعره الأبيض . فوضعها الأب على رأسه . لم يتوقف بيياميثار عن التفكير في أن ميدلين كانت منطقة عسكرية . فكان يخشى أن يوقفوا الأب ويعطلوا اللقاء . أو أن يقع في تقاطع نيران المجرمين والشرطة .

أجلسوه في المقعد الأمامي مع السائق . وبينما الجميع ينظرون إلى

السيارة وهي تبتعد ، خلع الأب القبعة عن رأسه وألقى بها من النافذة وهو يصرخ ببيياميثار قائلاً : «لاتقلق يابني ، فأنا أتحكم بالمياه» . فانفجر عندئذ دوي الرعد في الريف الرحب وانهالت السماء بوابل من المطر التوراتي .

* * *

الرواية الوحيدة المعروفة لزيارة الأب غارثيا هيريروس لبابلو اسكوبار هي تلك التي رواها هو نفسه حين رجع إلى مزرعة لالوما . قال إن البيت الذي استقبله فيه كان كبيراً وفخماً ، فيه مسبح أولمبي وعدة منشآت رياضية . واضطروا في الطريق إلى تبديل السيارة ثلاث مرات لأسباب أمنية ، ولكنهم لم يوقفوهم في الحواجز الشرطية الكثيرة بسبب وابل المطر الذي لم يتوقف لحظة واحدة . وكانت هناك حواجز أخرى تابعة لأجهزة الاكسترا ديتابليين الأمنية ، على حد قول السائق . استمرت الرحلة أكثر من ثلاث ساعات ، مع أن الاحتمال الأكبر هو أنهم قد أخذوه إلى أحد بيوت اسكوبار في مدينة ميدلين ، وأن السائق قد تجول به طويلاً في السيارة ليوهمه بأنه يبتعد كثيراً جداً عن لالوما .

قال إن نحو عشرين رجلاً يحملون أسلحة ظاهرة قد استقبلوه في الحديقة ، وقد أنبهم على حياتهم السيئة وتلكؤهم في تسليم أنفسهم . وكان بابلو اسكوبار بنفسه ينتظره على الشرفة ، مرتدياً ثياباً قطنية بيضاء للبيت ، وبلحية شديدة السواد وطويلة جداً . الخوف الذي اعترف الأب بأنه شعر به منذ وصوله إلى لالوما ، ثم في قلق الرحلة ، تبدد حين رآه ، فقال له :

ـ بابلو ، لقد جئتك لننهي هذه المسألة .

وقد ردّ عليه اسكوبار بحميمية مماثلة وباحترام كبير . جلسا وجهاً لوجه على مقعدين من مقاعد الصالة ذات الكريتون المعرق ، وباستعداد للحديث مطولاً كصديقين قديمين . تناول الأب كأس ويسكي أدى إلى تهدئته ، بينما

راح اسكوبار يشرب كأساً من عصير الفواكه رشفة رشفة ببطء شديد . ولكن مدة الزيارة المنتظرة تقلصت إلى ثلاثة أرباع الساعة بسبب قلة صبر الأب وأسلوب اسكوبار الكلامي المحدد والحاسم مثل رسائله .

ولأن بيياميثار كان قلقاً من الثغرات في ذاكرة الأب ، فقد طلب منه أن يسجل ملاحظات من المحادثات . وقد فعل ذلك ، ولكنه مضى بعيداً جداً كما يبدو . فبحجة ضعف ذاكرته ، طلب من اسكوبار أن يكتب بخط يده اقتراحاته الجوهرية ، وبعد الانتهاء من كتابتها راح يطلب منه التبديل والشطب بحجة أن تنفيذها مستحيل . وبهذه الطريقة قلص اسكوبار الموضوع الذي كان يلح عليه بإقالة رجال الشرطة الذين يتهمهم باقتراف كل الشرور ، وركز على أمن المكان الذي سيسجن فيه .

وروى الأب أنه سأل اسكوبار إذا ما كان هو منفذ الاغتيالات ضد أربعة مرشحين للرئاسة . فرد بطريقة ملتوية قائلاً إنهم ينسبون إليه جرائم لم يقترفها . وأكد له أنه لم يستطع منع اغتيال البروفسور لوو موترا ، الذي جرى في الثلاثين من نيسان السابق في أحد شوارع بوغوتا ، لأن القرار باغتياله كان قد صدر قبل زمن طويل ، ولم تكن هناك طريقة لتغييره . أما فيما يتعلق بإطلاق سراح ماروخا وباتشو فقد تجنب قول أي شيء يمكن أن يورطه بمسؤولية اختطافهما ، ولكنه قال إن الاكسترادييتابليين يحتجزونهما في ظروف طبيعية ، وإنهما بصحة جيدة ، وسيطلق سراحهما فور الإتفاق على شروط الاستسلام . وعن باتشو بصورة خاصة ، قال بجدية : «هذا الرجل يبدو سعيداً باختطافه» . وأخيراً اعترف بطيب نوايا الرئيس غافيريا وأعرب عن رغبته في التوصل إلى إتفاق . تلك الورقة التي كتب عليها الأب أحياناً ، وصححها وأحسن صياغتها في معظم الأحيان اسكوبار بخطه ، كانت الاقتراح الرسمي الأول حول الاستسلام .

نهض الأب ليودع ، فسقطت منه في تلك اللحظة إحدى العدستين اللاصقتين . حاول وضعها ، وساعده اسكوبار ، وطلبا مساعدة الخدم ، ولكن

دون جدوى . فقال الأب بيأس : «لايمكننا عمل شيء . الوحيدة التي يمكنها ذلك هي باولينا » . وقد فوجئ بأن اسكوبار يعرف جيداً من تكون ، ويعرف أين هي في تلك اللحظة ، فقد قال له :

ـ لاتقلق يا أبتاه . إذا رغبت فإننا سنرسل لإحضارها .

ولكن الأب لم يكن قادراً على تحمل لهفة العودة ، وفضّل الذهاب دون عدسات . وقبل تحيات الوداع ، طلب منه اسكوبار أن يبارك قلادة ذهبية يعلقها في عنقه . وقد فعل الأب ذلك في الحديقة وهو محاط بالحراس ، فقالو له :

ـ لايمكنك الذهاب يا أبتاه دون أن تباركنا .

وركعوا كلهم على الأرض . لقد كان دون فابيو اوتشوا قد قال عن وساطة الأب غارثيا هيريروس إنها ستكون حاسمة من أجل استسلام رجال اسكوبار . ولابد أن اسكوبار قد فكر في الشيء نفسه ، وربما كان هذا هو السبب الذي جعله يركع مع رجاله ليقدم لهم قدوة حسنة . باركهم الأب جميعهم وأنذرهم لكي يعودوا إلى الحياة الشرعية ويساعدوا مملكة السلام .

لم يتأخر أكثر من ست ساعات . فقد وصل إلى مزرعة لالوما في حوالي الساعة الثامنة والنصف ليلاً ، تحت النجوم المتلألئة ، ونزل من السيارة قافزاً مثل تلميذ في الخامسة عشرة ، وقال لبيياميثار :

ـ اطمئن يابني ، لاتوجد أية مشكلة ، لقد أركعتهم جميعاً للتو .

لم يكن من السهل جعله ينظم أفكاره . فقد سقط في حالة انفعال مثيرة للذعر ، ولم تنفع معه المسكنات ولا المشروبات المهدئة التي أعدتها نساء آل اوتشوا . كان المطر مايزال يهطل ، ولكنه كان يريد الطيران فوراً إلى بوغوتا ، ونشر الخبر ، والتحدث مع رئيس الجمهورية لينجز الإتفاق هناك بالذات ويعلن السلام . توصلوا إلى إقناعه بالنوم بضع ساعات ، ولكنه منذ الفجر كان يطوف في البيت المظلم ، يتكلم وحيداً ، ويتلو بصوت عالٍ صلواته الملهمة ، إلى أن غلبه النعاس عند شروق الشمس .

حين وصلا إلى بوغوتا في الساعة الحادية عشرة من صباح الخامس

عشر من أيار ، كان الخبر يدوي في المذياع . وجد بيياميثار ابنه أندريس ينتظره في المطار ، فعانقه بانفعال وقال له : «اطمئن يابني . أمك ستكون طليقة خلال ثلاثة أيام» . وكان رافائيل باردو أقل قدرة على الإقتناع حين أخبره بيياميثار بذلك هاتفياً ، فقد قال له :

ـ يسعدني ذلك حقاً يا ألبيرتو . ولكن لا توهم نفسك كثيراً .

وللمرة الأولى منذ الاختطاف حضر بيياميثار حفلة أصدقاء ، ولم يفهم أحد كل تلك السعادة التي كان يبديها لشيء ليس في نهاية المطاف سوى وعد غامض مثل غيره من وعود بابلو اسكوبار الكثيرة . في أثناء ذلك كان الأب غارثيا هيريروس قد جال على كل نشرات الأخبار في البلاد ـ المرئية والمسموعة والمقروءة ـ طالب بالتسامح مع اسكوبار ، وكان يقول : «إذا نحن لم نخدعه فسيتحول إلى بانٍ عظيم للسلام» ، ثم يضيف دون أن يذكر روسو : «البشر في دخيلتهم طيبون جميعهم ، ولكن بعض الظروف تحولهم إلى أشرار» . ووسط مجموعة متشابكة من الميكروفونات قال دون تحفظ :

ـ اسكوبار رجل طيب .

وفي يوم الجمعة ١٧ أيار أعلنت صحيفة *التيمبو* أن الأب يحمل رسالة شخصية سيسلمها يوم الأثنين القادم إلى الرئيس غافيريا . وكان المقصود بذلك في الواقع تلك الملاحظات التي كان قد سجلها هو واسكوبار في أثناء اللقاء . وفي مساء يوم الأحد أصدر الاكسترادتيابليون بياناً كاد أن يمر دون أن يلفت الاهتمام في فوضى الأخبار الكثيرة : «لقد قررنا الإفراج على فرانثيسكو سانتوس وماروخا باتشون» . لم يحدد البيان الموعد . ومع ذلك ، فقد بثت الإذاعة الخبر وكأنه قد حدث فعلاً ، وبدأ الصحفيون الصاخبون يتناوبون الحراسة في بيتي الرهينين .

كانت تلك هي النهاية : تلقى بيياميثار رسالة من اسكوبار يقول له فيها إنه لن يطلق سراح ماروخا باتشون وفرانثيسكو سانتوس في هذا اليوم وإنما

في اليوم التالي ـ الاثنين ٢٠ أيار ـ في الساعة السابعة ليلاً . ولكن على بيياميثار أن يكون في ميدلين مرة أخرى في الساعة التاسعة صباحاً يوم الثلاثاء من أجل استسلام اسكوبار .

ـ ١١ ـ

سمعت ماروخا بيان الاكستراديتابليين في الساعة السابعة بعد الغروب من يوم الأحد ١٩ أيار . لم يكن البيان يشير إلى ساعة وتاريخ الإفراج عنها ، وبالنظر إلى أساليب الاكستراديتابليين في التصرف ، فإن ذلك يمكن أن يعني إطلاق سراحها بهد خمس دقائق أو بعد شهرين . اندفع «الوكيل» وزوجته إلى الغرفة وهما مستعدان للأحتفال . كانا يصرخان :

ـ انتهى هذا الأمر . يجب الاحتفال بذلك .

وقد تكلفت ماروخا مشقة في إقناعهما بالانتظار إلى أن يتلقيا الأمر رسمياً من فم مبعوث مباشر من بابلو اسكوبار . لم يفاجئها الخبر ، فقد تلقت في الأسابيع الأخيرة اشارات واضحة بأن الأمور أفضل مما افترضته حين جاؤوا باقتراح فرش الغرفة بالسجاد المشؤوم . ففي الحلقات الأخيرة من برنامج *كولومبيا تطالب بهم* كان يظهر المزيد من الأصدقاء والممثلين الشعبيين . ومع تجدد التفاؤل ، صارت ماروخا تتابع المسلسلات التلفزيونية باهتمام كبير ، إلى حد أنها كانت تظن باكتشاف رسائل مشفرة حتى في دموع الغليسرين التي تُذرف في الغراميات المستحيلة . وكانت أخبار الأب غارثيا هيريروس ، المتزايدة الاستعراضية ، تشير بجلاء إلى أن ماهو غير معقول سيحدث .

أرادت ماروخا أن ترتدي الثياب التي جاءت بها ، متحسبة من تحرر سريع يجعلها تظهر أمام الكاميرات ببيجامة المخطوفة الكئيبة . ولكن انعدام أخبار

جديدة من المذياع ، وخيبة أمل « الوكيل » الذي كان ينتظر وصول الأمر الرسمي قبل أن ينام ، جعلها تتخذ موقف الاحتراس من الظهور بمظهر مضحك ، حتى ولو أمام نفسها فقط . فتناولت جرعة كبيرة من المنوِّم ولم تستيقظ حتى اليوم التالي ، الأثنين ، يراودها إحساس ضبابي بعدم معرفة من تكون ولا أين هي .

* * *

لم تراود بيياميثار أية شكوك . فرسالة اسكوبار إليه كانت واضحة لاتقبل التأويل . وقد أخبر الصحفيين بذلك ، ولكنهم لم يهتموا بكلامه . في حوالي الساعة التاسعة ، أعلنت إحدى الإذاعات بتفخيم أنه قد تم للتو إطلاق سراح السيدة ماروخا باتشون دي بيياميثار في حي ساليتري . فخرج الصحفيون متدافعين ، ولكن بيياميثار لم يتأثر ، وقال :

ـ لن يطلقوا سراحها أبداً في مثل ذلك المكان المعزول حيث يمكن أن يلحق بها الأذى . سيفعلون ذلك غداً بالتأكيد ، وفي مكان آمن .

وقد سدَّ صحفي طريقه بالميكروفون قائلاً له :

ـ ماهو مفاجئ هي هذه الثقة التي توليها حضرتك لهؤلاء الناس .

فقال بيياميثار :

ـ إنها كلمة حرب .

بقي الصحفيون المقربون في ممرات البيت ـ وبعضهم في البار ـ إلى أن دعاهم بيياميثار إلى الخروج لكي يغلق البيت . وعسكر آخرون في الشاحنات الصغيرة والسيارات قبالة المبنى ، وأمضوا الليلة هناك .

استيقظ بيياميثار يوم الاثنين في موعد أخبار الساعة السادسة ، مثلما يفعل عادة ، وبقي في السرير حتى الساعة الحادية عشرة . وحاول ألا يشغل الهاتف إلا في أضيق الحدود الممكنة ، ولكن اتصالات الصحفيين والأصدقاء لم تمنحه أي هدنة . فمايزال خبر اليوم هو انتظار خروج المخطوفين .

* * *

كان الأب غارثيا هيريروس قد زار «ماريافي» يوم الأربعاء ١٥ أيار لكي يطلعها على الخبر السري بأن زوجها سيخرج طليقاً يوم الأحد القادم . ولم يكن بالامكان معرفة كيفية حصوله على الخبر قبل اثنتين وسبعين ساعة من بيان الاكسترادِيتابليين حول الإفراج عن الرهينين ، ولكن أسرة سانتوس اعتبرت الخبَر أمراً واقعاً . وللاحتفال به التقطوا صوراً للأب مع ماريافي والطفلين ، ونشروها يوم السبت في *التيمبو* على أمل أن يفهم باتشو ذلك على أنه رسالة شخصية موجهة إليه . وكان هذا هو ماحدث : فما إن فتح الجريدة في غرفة أَسره ، حتى أحس باتشو بإلهام واضح أن مساعي الأب قد توجت بالنجاح . أمضى اليوم قلقاً بانتظار المعجزة ، ممرراً خدعاً بريئة في أحاديثه مع الحراس ليرى إن كانت تفلت منهم عبارة كاشفة ، ولكنه لم يتوصل إلى شيء . أما الإذاعة والتلفزيون ، اللذان كانا لايتوقفان عن الحديث في الموضوع منذ عدة أسابيع ، فقد أهملاه في يوم السبت ذاك .

وبدأ يوم الأحد مماثلاً . لقد بدا لباتشو أن الحراس كانوا في حالة غريبة وجزعين في ذلك الصباح ، ولكنهم في سياق النهار عادوا شيئاً فشيئاً إلى روتين أيام الأحد : غداء خاص من البيتزا ، أفلام وبرامج تلفزيونية معلبة ، قليل من اللعب بالورق ، ومشاهدة قليل من كرة القدم . وفجأة ، حين لم يعد هناك من ينتظر شيئاً ، افتتحت *كريبتون* نشرة أخبارها بخبر مستعجل يقول أن الاكستراديتابليين يعلنون عن إطلاق سراح الرهينين الآخيرين . قفز باتشو مطلقاً صرخة النصر ، وعانق حارسه المناوب . وقد قال فيما بعد : «ظننت أنني سأصاب بنوبة قلبية» . ولكن الحارس استقبل الخبر برواقية مريبة ، وقال :

ـ فلننتظر وصول التأكيدات .

قاما بجولة سريعة على نشرات الأخبار الأخرى في محطات الإذاعة والتلفزيون ، وكان البيان يُبث منها جميعاً . وكانت إحدى القنوات التلفزيونية تبث مباشرة من صالة التحرير في جريدة *التيمبو* ، فعاد باتشو ، بعد تسعة شهور إلى الإحساس بالأرض الراسخة للحياة الحرة : الجو الأقرب إلى الكآبة في

وردية يوم الأحد ، الوجوه المعهودة في الحجيرات الزجاجية ، مكانه الخاص في العمل . وبعد أن كرر مبعوث التلفزيون الخاص إعلان الإفراج الوشيك ، رفع الميكرفون ـ وكأنه قمع بوظة ـ وقرّبه من فم محرر رياضي ، وسأله :

ـ مارأيك بالخبر ؟

ولم يستطع باتشو كبح رد فعله كرئيس تحرير ، فقال :

ـ يا للسؤال الغبي! أهو ينتظر أن يقولوا له إنهم يطلبون إبقائي شهراً آخر ؟

كانت الإذاعة ، كالعادة ، أقل صرامة ، ولكنها أكثر إثارة أيضاً . وكان مراسلو الإذاعة والتلفزيون على السواء متمركزين في بيت هيرناندو سانتوس ، ويبثون منه تصريحات لكل من يصادفونه أمامهم . وقد فاقم ذلك من عصبية باتشو ، إذ لم يعد يرى أنه من الجنون التفكير في أنهم سيطلقون سراحه تلك الليلة بالذات . وقد قال فيما بعد : «هكذا بدأت أطول ست وعشرين ساعة في حياتي . فكانت كل ثانية كأنها ساعة» .

كانت الصحافة في كل مكان . فكاميرات التلفزيون تنتقل من بيت باتشو إلى بيت أبيه ، وكلا البيتين يغص منذ ليلة الأحد بالاقارب والأصدقاء والفضوليين العاديين وصحفيين من كل بقاع العالم . ولا يذكر هيرناندو سانتوس وماريافي كم مرة انتقلا من أحد البيتين إلى الآخر حسب الاتجاهات المفاجئة التي تتخذها الأخبار ، لدرجة أن باتشو لم يعد يميز أحد البيتين عن الآخر في التلفزيون . والأسوأ من ذلك أنهم كانوا يوجهون إلى كليهما في كل واحد من البيتين الأسئلة نفسها حتى أصبح الوضع لايطاق . وقد بلغت الفوضى حداً لم يعد هيرناندو سانتوس معه قادراً على شق طريقه بين الحشود المتزاحمة في بيته ، فكان عليه أن يدخل خفية من الكراج .

هرع الحراس الذين لم يكونوا مناوبين لتهنئته . وكانوا سعداء بالخبر إلى حد نسي معه باتشو أنهم سجانوه ، فتحول الإجتماع إلى حفلة أصدقاء من الجيل نفسه . وفي تلك اللحظة انتبه إلى أن هدفه في إعادة تأهيل حراسه

سينتهي إلى الاخفاق بسبب إطلاق سراحه . لقد كانوا شباناً من محافظة انتيوكيا يهاجرون إلى ميدلين ، فيجدون أنفسهم ضائعين في ضواحيها ، ويَقتلون ويُقتلون دون وازع من ضمير . وهم ينحدرون في الغالب من أسر محطمة حيث صورة الأب سلبية جداً ، وشخصية الأم قوية جداً . وكانوا معتادين على العمل بمداخيل عالية جداً ولم يكن لديهم أي اعتبار للنقود .

وعندما تمكن باتشو من النوم أخيراً ، رأى الحلم الرهيب بأنه حرٌ وسعيد ، ولكنه فتح عينيه فجأة ورأى السقف نفسه . وأمضى بقية الليل معذباً بصياح الديك المجنون ـ وكان أكثر جنوناً وقرباً من أي وقت آخر ـ ودون أن يعرف حقاً أين هو الواقع .

في الساعة السادسة صباحاً ـ يوم الاثنين ـ أكد المذياع الخبر دون أي اشارة إلى ساعة التحرر المحتملة . وبعد تكرار لا حصر له للموجز الأصلي ، أُعلن أن الأب غارثيا هيريروس سيعقد مؤتمراً صحفياً في الساعة الثانية عشرة ظهراً ، بعد مقابلة مع رئيس الجمهورية ، وقد قال باتشو : «آه ، يا رب . عسى ألا يخوض هذا الرجل في الوحل في اللحظة الأخيرة بعد كل ما فعله من أجلنا» . في الساعة الواحدة بعد الظهر أخبروه بأنه سيُفرج عنه ، ولكنه لم يعرف أي شيء آخر إلى مابعد الساعة الخامسة ، حين جاء أحد الزعماء المقنَّعين وأخبره دون تأثر بأنه ـ وفق التوجه الإعلامي لاسكوبار ـ سيتم الإفراج عن ماروخا في موعد نشرة أخبار الساعة السابعة ، بينما سيخرج هو في موعد أخبار التاسعة والنصف .

* * *

صباح ماروخا كان أكثر تسلية . ففي الساعة التاسعة دخل إلى الغرفة زعيم من الدرجة الثانية وأكد لها بأن الإفراج عنها سيتم في المساء . وروى لها كذلك بعض تفاصيل مساعي الأب غارثيا هيريروس ، وربما فعل ذلك بهدف الاعتذار عن اجحاف اقترفه في زيارة قريبة سابقة ، حين سألته ماروخا عما إذا

كان مصيرها بين يدي الأب غارثيا هيريروس . وقد رد عليها الرجل يومئذ بشيء من السخرية :

ـ لاتقلقي ، أنت في آيدٍ أكثر أماناً بكثير .

انتبهت ماروخا إلى أنه قد فهم سؤالها بطريقة خاطئة ، فسارعت توضح أنها كانت تكنّ على الدوام احتراماً كبيراً للأب . صحيح أنها لم تكن تولي اهتماماً في أول الأمر لمواعظه التلفزيونية التي تبدو أحياناً مشوشة وغير مفهومة ، ولكنها منذ رسالته الأولى إلى اسكوبار أدركت أن له علاقة ما بحياتها ، وبدأت تراه باهتمام ليلة إثر ليلة . وكانت تتابع خيط مساعيه ، وزياراته إلى ميدلين ، وتقدم محادثاته مع اسكوبار ، ولم يراودها الشك في أنه يمضي في الطريق الصحيح . ولكن سخرية الزعيم جعلتها تخشى ألا يكون للأب لدى الاكسترادِيتابليين كل تلك المصداقية التي يفترضها المرء من خلال محادثاته العلنية مع الصحفيين . قد زاد سعادتها التأكد من أنها ستتحرر عما قريب بفضل مساعيه .

بعد حديث قصير حول أثر تحرير الرهائن على البلاد ، سألته عن خاتمها الذي انتزعوه منها في البيت الأول ليلة اختطافها . فقال لها :

ـ اطمئني كل أغراضك في أمان .

قالت :

ـ إنني قلقة لأن الخاتم لم يأخذوه مني هنا وإنما في البيت الأول الذي كنا فيه ، والشخص الذي أخذه لم نره بعدها . ألا تكون حضرتك ؟

~~فقال الرجل :~~

ـ لست أنا . ولكنني قلت لك أن تطمئني ، فحليّك هنا . أنا رأيتها .

عرضت زوجة « الوكيل » على ماروخا أن تشتري لها ماتحتاجه . فطلبت منها ماروخا صباغاً للرموش ، وقلم أحمر شفاه وآخر للحواجب وجوربين بدل اللذين تمزقا في ليلة الاختطاف . بعد ذلك دخل الزوج قلقاً لعدم وجود أخبار جديدة عن تحريرها ، وأبدى خشيته من أن يكونوا قد بدلوا الخطط في

اللحظة الأخيرة مثلما يحدث بكثرة . أما ماروخا بالمقابل فكانت مطمئنة . استحمت وارتدت الثياب نفسها التي كانت ترتديها في ليلة الاختطاف ، باستثناء السترة ذات اللون الفاتح التي سترتديها عند الخروج .

شدت محطات البث الإذاعي الاهتمام طوال النهار بنقلها الآراء حول انتظار المخطوفين ، وبمقابلات مع أسرهما ، وباشاعات غير مؤكدة لا تلبث أن تتجاوزها في اللحظة التالية اشاعات أكثر صخباً . ولكن لم يكن هناك شيء مؤكد . سمعت ماروخا أصوات أبنائها وأصدقائها ببهجة مبكرة يهددها الارتياب . وعادت ترى بيتها بديكوره المختلف ، وزوجها وهو يتحدث بارتياح وسط كتائب الصحفيين الذين أضجرهم انتظارها . وكان لديها مايكفي من الوقت لتتفحص بصورة أفضل تفاصيل الديكور التي صدمتها في المرة الأولى ، فتحسن مزاجها . كان الحراس يتوقفون قليلاً عن ممارسة التنظيف الحانق ليستمعوا ويشاهدوا نشرات الأخبار ، ويحاولون تشجيعها ، ولكن محاولتهم كانت تحقق أقل من نصف نتائجها مع تقدم المساء .

* * *

كان الرئيس غافيريا قد استيقظ دون منبه في الساعة الخامسة من صباح يوم اثنينه الحادي والأربعين في الرئاسة . إنه ينهض عادة دون أن يشعل الضوء حتى لايوقظ آنا ميلينا ـ التي تبقى نائمة بعد استيقاظه أحياناً ـ وبعد أن يحلق ذقنه ويستحم ويرتدي ملابس المكتب ، يجلس على كرسي صغير سهل النقل يبقيه خارج غرفة النوم ، في ممر بارد ومظلم ، لكي يسمع الأخبار دون أن يوقظ أحداً . إنه يستمع إلى الإذاعة من جهاز استقبال صغير يضعه على أذنه بأخفض صوت . ويراجع الصحف بنظرة سريعة ابتداء من العناوين الرئيسية وحتى الإعلانات . ويقص منها دون مقص الأشياء التي تهمه ليعالجها فيما بعد ، حسب الحال ، مع أمنائه ومستشاريه ووزرائه . في إحدى المرات وجد خبراً عن شيء كان يجب إنجازه ولم يُنجزْ ، فأرسل القصاصة إلى الوزير

المختص مع سطر واحد كتبه بسرعة على الهامش : « ماهو الموعد الشيطاني الذي سيحل به الوزير هذه المشكلة ؟ » . فكان الحل فورياً .

الخبر الوحيد في ذلك اليوم كان الإفراج الوشيك عن المختطفين ، ومن ضمنه ، إجتماع مع الأب غارثيا هيريروس ليستمع إلى تقرير منه عن لقائه باسكوبار . نظم الرئيس يوم عمله ليكون جاهزاً في أي لحظة . فألغى بعض الاجتماعات التي يمكن تأجيلها ، وأقر اجتماعات أخرى . وأولها كان إجتماع مع المستشارين الرناسيين بدأه بعبارته المدرسية :

ـ حسن ، فلننه هذا الموضوع .

كان عدد من المستشارين قد رجعوا لتوهم من كاراكاس ، حيث أجروا يوم الجمعة السابق نقاشاً مع الجنرال المتكتم ماثا ماركيز ، وكان المستشار الصحفي ماوريثيو بارغاس قد أعرب في اللقاء عن قلقه من أن أحداً ، داخل الحكومكة وخارجها ، لايعرف إلى أين يذهب بابلو اسكوبار في الواقع . وكان ماثا واثقاً من أنه لن يسلم نفسه ، لأنه لايثق حسب رأيه إلا بعفو من الجمعية التأسيسية . فرد عليه بارغاس بسؤال : ماذا سيفيد العفو رجلاً محكوماً عليه بالموت من قبل خصومه الخاصين ومن قبل كارتيل كالي ؟ وأضاف : « قد يفيده العفو ، ولكنه ليس الحل الكامل » . فما كان اسكوبار بحاجة ماسة إليه هو سجن آمن له ولجماعته تحت حماية الدولة .

وقد طرح المستشارون الموضوع خشية أن يأتي الأب غارثيا هيريروس إلى الإجتماع بالرئيس في الثانية عشرة ويتقدم في اللحظة الأخيرة بمطلب لايمكن الموافقة عليه ، ولا يسلم اسكوبار نفسه ولا يطلق سراح الصحفيين دون الموافقة عليه . فحدوث ذلك سيكون إخفاقاً للحكومة لايمكن اصلاحه . وتقدم مستشار الشؤون الدولية غابرييل سيلفا بتوصيتين احتياطيتين : الأولى ، أن لايكون الرئيس وحيداً في الاجتماع . والثانية ، إصدار بيان يكون متكاملاً قدر الإمكان لتجنب أية تخمينات غير مناسبة . وقد أعرب رافائيل باردو الذي كان قد طار إلى نيويورك في اليوم السابق ، عن موافقته هاتفياً .

استقبل الرئيس الأب غارثيا هيريروس في لقاء خاص الساعة الثانية عشرة ظهراً . في أحد الجانبين كان الأب مع كاهنين من رعيته ، وألبيرتو بيياميثار ومعه ابنه اندريس . وفي الجانب الآخر كان الرئيس مع سكرتيره الخاص ميغيل سيلفا ، ومعهما ماوريثيو بارغاس . وقد التقط قسم الخدمات الإعلامية في القصر صوراً فوتوغرافية وبالفيديو لتقديمها إلى الصحافة إذا انتهت الأمور جيداً . أما إذا لم تنته الأمور جيداً ، فلا يكون لدى الصحافة على الأقل دليل مصوّر على الإخفاق .

الأب الذي كان يدرك أهمية اللحظة ، روى للرئيس تفاصيل اجتماعه مع اسكوبار . لم يكن لديه أدنى شك في أنه سيسلم نفسه ويطلق سراح الرهينين ، وأيد كلامه بالملاحظات المكتوبة بخط اسكوبار وخطه . العنصر الشَرطيَ الوحيد هو أن يكون السجن الذي سيذهب إليه هو سجن اينفيغادو وليس سجن ايتاغوي ، وذلك لأسباب أمنية فصّلها اسكوبار نفسه .

قرأ الرئيس الملاحظات وأعادها إلى الأب . ولفت نظره أن اسكوبار لايتعهد بإطلاق سراح المخطوفين وإنما يعد ببذل المساعي لدى الاكسترادِيتابليين . فأوضح له بيياميثار بأن ذلك هو أحد احتياطات اسكوبار الكثيرة : فهو لم يعترف مطلقاً بأنه يحتجز المخطوفين حتى لايُستخدم ذلك دليلاً ضده .

سأل الأب عما سيفعل إذا طلب منه اسكوبار أن يرافقه من أجل تسليم نفسه . وكان الرئيس موافقاً على ذهابه . وازاء شكوك طرحها الأب حول ضمان أمن العملية ، رد الرئيس بأنه ليس هناك من يستطيع أن يضمن أمن عملية استسلام اسكوبار خيراً من اسكوبار نفسه . وأخيراً أشار الرئيس إلى الأب ـ وأيده مرافقو هذا الأخير ـ بأنه من المهم جداً تقليص التصريحات العلنية إلى أقصى الحدود ، حتى لايتقوض كل شيء بسبب كلمة غير مناسبة . أبدى الأب موافقته ، ووصل به الأمر إلى التقدم بعرض نهائي : «لقد أردت بعملي هذا أن أقدم خدمة ، وسأبقى رهن إشارتكم إذا احتجتم إلي في أمر آخر ، مثل البحث

عن طريق للسلام مع هذا السيد الخوري » . كان واضحاً للجميع أنه يشير إلى الخوري الاسباني مانويل بيريث ، قائد جيش التحرير الوطني . انتهى الإجتماع بعد عشرين دقيقة ، وصدر عنه بيان رسمي . وقد وفى الأب غارثيا هيريروس بوعده وكان نموذجاً في القناعة في تصريحاته إلى الصحافة .

* * *

شاهدت ماروخا المؤتمر الصحفي الذي عقده الأب ولم تجد فيه شيئاً جديداً . وعادت نشرات أخبار التلفزيون إلى عرض الصحفيين المرابطين في بيوت المخطوفين ، ومن المحتمل الظن أنها كانت الصور نفسها التي عُرضت في اليوم السابق . وكررت ماروخا كذلك ما كانت قد فعلته في اليوم السابق دقيقة بدقيقة ، وكان لديها وقت فائض لمشاهدة الروايات التلفزيونية المسائية . أما داماريس التي تجدد حماسها بعد وصول الإعلان الرسمي ، فقد أنعمت على ماروخا باختيار ما تريده على الغداء ، مثلما ينعمون على المحكومين بالاعدام عشية تنفيذ الحكم . فقالت لها ماروخا دون نية في السخرية إنها تريد أي شيء غير العدس . ولكن الوقت تسارع في المشاغل الأخرى ، ولم تستطع داماريس الخروج للشراء ، وهكذا لم يكن هناك سوى عدس مع عدس من أجل غداء الوداع .

ارتدى باتشو من جهته الملابس التي كان يرتديها في يوم الاختطاف - وقد أصبحت ضيقة عليه بسبب ازدياد وزنه من القعود والطعام السيء - ، وجلس ليسمع الأخبار ويدخن ، مشعلاً سيجارة من عقب الأخرى . سمع مختلف أنواع الروايات عن إطلاق سراحه . سمع التصويبات ، والأكاذيب الخالصة والبسيطة من زملائه المشوشين في توتر الانتظار . وسمع أنهم وجدوه متنكراً يأكل في أحد المطاعم ، ثم تبين أن ذلك الشخص هو أخوه .

قرأ الافتتاحيات والتعليقات والأخبار التي كان قد كتبها حول الأحداث لكي لاينسى المهنة ، ومفكراً بنشرها بعد خروجه كشهادة عن الأسر . كان عددها

يزيد على المئة . وقرأ واحدة منها لحراسه ، وكان قد كتبها في شهر كانون الأول ، حين بدأت الطبقة السياسية التقليدية تهذر في محاولة للنيل من شرعية الجمعية التأسيسية . فانتقدهم باتشو بشدة وباستقلالية كانت دون شك نتيجة لتأملاته في الأسر . فهو يقول في إحدى ملاحظاته : « جميعنا نعرف كيف يتم الحصول على الأصوات في كولومبيا وكيف نجح برلمانيون كثيرون في الانتخابات » . ويقول إن شراء الأصوات يستشري في كل أنحاء البلاد ، وخصوصاً في الساحل ؛ وإن يانصيب الأجهزة الكهربائية المنزلية مقابل الخدمات الانتخابية أمر شائع ، وإن كثيرين ممن يُنتخبون يتوصلون إلى ذلك من خلال رذائل سياسية أخرى ، مثل قبض عمولات على الرواتب العامة والمساعدات البرلمانية . ولهذا ـ يقول ـ فإن المنتخَبين دائماً هم أنفسهم وأنفسهن وهم « أمام إمكانية فقدان امتيازاتهم ، يبكون اليوم صارخين » . وينتهي ضد نفسه بالذات تقريباً : « إن حيادية وسائل الاتصال ـ بما في ذلك جريدة *التيمبو* ـ التي دار صراع طويل من أجلها وبدأت تتحقق ، قد تبخرت الآن » .

ومع ذلك ، فإن أكثر ملاحظاته مفاجأة هي تلك التي كتبها حول رد فعل الطبقة السياسية ضد حركة « م ـ ١٩ » ، عندما حصلت هذه الحركة على تصويت يتجاوز العشرة بالمئة في الجمعية التأسيسية فكتب : « ان العدوانية السياسية ضد م ـ ١٩ ، ومحاصرتها (حتى لا نقول احتقارها) في وسائل الاتصال ، يثبت أننا بعيدون جداً عن التسامح ، وكم نحن بحاجة إلى تحديث ماهو مهم : الذهن » . ويقول إن الطبقة السياسية قد احتفلت بالمشاركة الانتخابية لرجال حرب العصابات السابقين لكي تبدو ديمقراطية فقط ، ولكن عندما تجاوز التصويت لهم العشرة بالمئة انفلتت في إطلاق الشتائم ضدهم . وانتهى بأسلوب جده ، انريكي سانتوس مونتيخو (كاليبان) ، كاتب الخاطرة الأوسع انتشاراً في تاريخ الصحافة الوطنية : « هناك قطاع محدد وتقليدي جداً من الكولومبيين قتل النمر ثم خاف من جلده » . ولايمكن لشيء أن يكون

أكثر مفاجأة من ورود هذا الكلام على لسان شخص برز منذ المدرسة الابتدائية كنموذج مبكر لليمين الرومنطيقي .

لقد مزق كل تلك الكتابات ، باستثناء ثلاثة منها قرر الاحتفاظ بها لأسباب لم يستطع هو نفسه تفسيرها . واحتفظ كذلك بمسودات رسائله إلى أسرته وإلى رئيس الجمهورية ، ومسودة وصيته . وكان يرغب في أن يأخذ السلسلة التي كانوا يقيدونه بها إلى السرير على أمل أن يصنع منها النحات بيرناردو سالثيدو نحتاً ما ، ولكنهم لم يسمحوا له خشية أن تكون عليها بصمات تحدد هويتهم .

ماروخا بالمقابل لم ترغب في الاحتفاظ بأي تذكار من ذلك الماضي المشؤوم الذي قررت محوه من حياتها . ولكن في نحو الساعة السادسة مساء ، حين بدأ الباب ينفتح من الخارج ، أدركت إلى أي مدى ستفرض تلك الشهور الستة المريرة نفسها على حياتها . منذ موت مارينا وخروج بياتريث ، كانت تلك الساعة هي ساعة الحرية أو الإعدام : وهو الشيء نفسه في الحالتين كلتيهما . انتظرت وروحها معلقة بخيط الصيغة الشعائرية المشؤومة : «هيا ، سنذهب . استعدي» . كان من قال ذلك هو *الدكتور* ، وكان يرافقه الزعيم من الدرجة الثانية الذي جاء في اليوم السابق . وكانا يبدوان مستعجلين لضيق الوقت .

قال *الدكتور* مناشداً ماروخا بإلحاح :

ـ هيا . هيا! أسرعي!

كانت قد تصورت مسبقاً تلك اللحظة مرات ومرات ، حتى أنها شعرت عندئذ بضرورة كسب الوقت تسيطر عليها ، فسألت عن خاتمها .

فقال زعيم الدرجة الثانية :

ـ لقد بعثته مع شقيقة زوجك .

وردت عليه ماروخا بكل هدوء :

ـ هذا ليس صحيحاً . فقد قلت لي من قبل انك رأيته بعد مغادرتها .

ما كان يهمها أكثر من الخاتم عندئذ هو أن تكشفه أمام رئيسه . ولكن هذا تظاهر بعدم الفهم تحت وطأة ضغط الوقت . أحضر «الوكيل» وزوجته كيس ماروخا الذي يضم أغراضها الشخصية والهدايا التي قدمها إليها الحراس المختلفون على امتداد فترة احتجازها : بطاقات أعياد الميلاد ، بيجامة الرياضة ، المنشفة ، مجلات وكتاب ما . الشبان الوديعون الذين حرسوها في الأيام الأخيرة لم يكن لديهم ما يقدمونه إليها سوى ميداليات قديسين ، وتوسلوا إليها أن تصلي من أجلهم ، وأن تتذكرهم ، وأن تفعل شيئاً لتخليصهم من تلك الحياة السيئة .

وقالت لهم ماروخا :

ـ سأفعل من أجلكم كل ماتشاؤون . وإذا احتجتم لمساعدتي يوما فتعالوا إليّ ، وسأساعدكم .

ولم يشأ *الدكتور* أن يكون أقل من الآخرين : «وماذا يمكنني أنا أن أعطيك كتذكار ؟» قال ذلك وهو يفتش جيوبه . وأخرج رصاصة من عيار ٩ مليمتر وقدمها إلى ماروخا . ثم قال لها بنبرة جادة أكثر منهامازحة :

ـ خذي . الرصاصة التي لم نطلقها عليكِ .

لم يكن سهلاً تخليص ماروخا من معانقات «الوكيل» وداماريس التي رفعت القناع حتى أنفها لكي تقبلها وتطلب منها ألا انساها . أحست ماروخا بتأثر مخلص . لقد كانت تلك في نهاية المطاف هي نهاية أطول أيام حياتها وأكثرها نحساً ، واللحظة الأكثر سعادة .

وضعوا على رأسها قناعاً لابد أنه كان الأكثر قذارة ونتانة . وضعوه معكوساً ، فكانت ثقوب العينين والفم من الخلف ، فلم تستطع أن تتجنب ذكرى وضعهم القناع على رأس مارينا بهذا الشكل ليقتلوها . اقتادوها وهي تجر قدميها في العتمة إلى سيارة مريحة جداً مثل تلك التي اختطفوها فيها . وأجلسوها في المكان نفسه ، وفي الوضع نفسه ، وبالاحتياطات نفسها : رأسها مستند إلى ركبتي رجل حتى لايراها أحد من خارج السيارة . ونبهوها

إلى وجود عدة حواجز للشرطة ، فإذا أوقفهم أحد تلك الحواجز على ماروخا أن تخلع القناع وتتصرف جيداً .

* * *

في الساعة الواحدة بعد الظهر كان بيياميثار قد تغدى مع ابنه أندريس . وفي الثانية والنصف استلقى من أجل القيلولة ، واستكمل نومه المتأخر حتى الساعة الخامسة والنصف . وفي الساعة السادسة كان قد خرج من الحمام وبدأ بارتداء ملابسه حين رن جرس الهاتف . رفع السماعة عن الكوميدينو المجاور للسرير وتمكن من أن يقول فقط : « ماذا هناك ؟ » قبل أن يقاطعه صوت مجهول : « ستصل بعد السابعة ببضع دقائق . إنهم يخرجون الآن » . وأغلق الهاتف . كان إشعاراً غير منتظر شكرهم بيياميثار عليه . اتصل بالبواب ليتأكد من أن سيارته في الحديقة وسائقه مستعد .

ارتدى ملابسه في العتمة ووضع ربطة عنق ذات معينات فاتحة ليستقبل زوجته . بدا أنحف من أي وقت مضى ، ذلك أنه فقد أربعة كيلوغرامات في ستة أشهر . في الساعة السابعة ليلاً دخل إلى الصالون ليتبادل الحديث مع الصحفيين ريثما تصل ماروخا . وكان هناك أبناؤها الأربعة ، وابنهما المشترك أندريس . ولم يكن غائباً سوى نيكولاس ، موسيقيّ الأسرة الذي سيصل من نيويورك خلال بضع ساعات . جلس بيياميثار على أقرب كرسي من الهاتف .

* * *

كان مايزال أمام ماروخا حينئذ خمس دقائق لتصبح حرة . وعلى العكس من ليلة الاختطاف ، كانت رحلة الحرية سريعة ودون عقبات . في البدء ساروا في درب غير معبد وبانعطافات ودورانات لايُنصح بها لسيارة بمثل تلك الفخامة . لاحظت ماروخا من خلال الأحاديث أنه فضلاً عن الرجل الذي إلى جانبها هناك رجل آخر إلى جوار السائق . ولم يبدُ لها أن أياً منهما هو

الدكتور . وبعد ربع ساعة أجبراها على الانبطاح على أرضية السيارة التي توقفت نحو خمس دقائق ، ولكنها لم تعرف سبب التوقف . ثم خرجوا بعد ذلك إلى جادة عريضة وصاخبة بحركة المرور الكثيفة في الساعة السابعة ، ثم سلكوا طريقاً آخر دون عقبات . وفجأة ، ولم يكن قد انقضى عليهم أكثر من ثلاثة أرباع الساعة منذ خروجهم ، ضُغطت مكابح السيارة بقوة . وأمر الرجل الذي إلى جوار السائق ماروخا بجزع :

ـ هيا ، انزلي ، بسرعة .

وحاول الذي إلى جانبها أن يسحبها خارج السيارة . فقاومت ماروخا صارخة :

ـ لا أرى شيئاً .

أرادت رفع الغمامة عن وجهها ، ولكن يداً فظة منعتها من ذلك ، وصرخ بها أحدهم «لاتنزعي القناع قبل مرور خمس دقائق» . أنزلها من السيارة دفعاً ، وأحست ماروخا بدوار الفراغ ، الرعب ، وظنت أنهم قد ألقوا بها إلى هاوية . ولكن الأرض الراسخة أعادت إليها أنفاسها . وبينما هي تنتظر ابتعاد السيارة ، أحست بأنها في شارع حركة المرور فيه قليلة . رفعت القناع بكل حذر ورأت البيوت من خلال الأشجار وقد أضيئت أول النوافذ ، وعندئذ عرفت حقيقة كونها حرة . كانت الساعة السابعة وعشرين دقيقة ، وكان قد انقضى مئة وثلاثة وتسعون يوما على الليلة التي اختطفوها فيها .

اقتربت سيارة منفردة على الطريق ، وقامت بالتفافة كاملة وتوقفت على الرصيف المقابل ، قبالة ماروخا بالضبط . ففكرت ، مثلما فكرت بياتريث في حينها ، بأن مصادفة كهذه غير ممكنة . لابد أن تلك السيارة مرسلة من الخاطفين لضمانة نهاية النجاة . اقتربت ماروخا من نافذة السائق وقالت له :

ـ أرجوك ، أنا ماروخا باتشون . وقد أُطلق سراحي للتو .

كانت تريد أن يساعدها فقط في الحصول على تكسي . ولكن الرجل أطلق صرخة مدوية . فقبل دقائق كان يسمع من المذياع أخبار تحرير الرهائن

الوشيك ، وقد قال لنفسه : « كيف سيكون الأمر لو أنني التقيت بفرانثيسكو سانتوس يبحث عن سيارة ؟ » . كانت ماروخا متلهفة لرؤية ذويها ، ولكنها تركته يأخذها إلى البيت المقابل لتتصل بالهاتف .

عانقتها صاحبة البيت والأطفال وهم يصرخون حين تعرفوا عليها . كانت ماروخا تشعر بأنها مخدرة ، وكأن كل مايحدث يبدو لها وكأنه خدعة أخرى من خدع الخاطفين . الرجل الذي التقطها من الشارع يدعى مانويل كارّو ، وهو صهر صاحب البيت اغوسطو بوريرو ، وقد كانت زوجته من نشطاء حركة الليبرالية الجديدة القدماء ، وعملت مع ماروخا في حملة لويس كارلوس غالان الانتخابية . ولكن ماروخا كانت ترى الحياة من الخارج ، كما على شاشة سينمائية . طلبت خمراً ـ ولم تعرف السبب مطلقاً ـ وشربته دفعة واحدة . وعندئذ اتصلت ببيتها هاتفياً ، ولكنها لم تكن تتذكر الرقم جيداً وأخطأت في محاولتين . ردّ عليها صوت نساني على الفور : « من ؟ » فتعرفت ماروخا على صاحبة الصوت وقالت دون دراماتيكية :

ـ الكسندرا ، ابنتي .

وصرخت الكسندرا :

ـ ماما! أين أنتِ ؟كان ألبيرتو بيياميثار قد قفز إلى الهاتف حين رن الجرس ، ولكنه لم يستطع أن يسبق يد الكسندرا التي مرت صدفة قرب الهاتف في تلك اللحظة . كانت ماروخا قد بدأت باملاء العنوان عليها ، ولكنها لم تكن تملك قلماً ولا ورقاً في متناول يدها . فانتزع بيياميثار سماعة الهاتف منها وحيّا ماروخا بطبيعية مذهلة :

ـ ماذا حدث ياصغيرتي . كيف حالك ؟

وردت عليه ماروخا بنبرة مماثلة :

ـ في حالة جيدة ياحبي ، ليست هناك مشكلة .

هو كان يملك قلماً وورقة أعدهما من أجل تلك اللحظة . سجل العنوان بينما كانت ماروخا تملي عليه ، ولكنه أحس أن ثمة شيء غير واضح وطلب

منها أن تعطي السماعة لأحد أفراد أسرة صاحب البيت . وقد أوضحت له زوجة بوريرو التفصيل الذي كان يحتاجه . وقال لها بيياميثار :

ـ ألف شكر . المكان قريب . سأحضر حالاً .

نسي أن يغلق الهاتف ، ذلك أن السيطرة الفولاذية التي فرضها على نفسه طوال ستة شهور من التوتر قد أفلتت فجأة . نزل أدراج المبنى قافزاً كل درجتين معاً واجتاز بهو العمارة راكضاً تتبعه أفواج الصحفيين المحملين بمعداتهم الحربية . وجاء آخرون من الاتجاه المعاكس وكانوا على وشك الاصطدام بالبوابة . فصرخ بهم جميعاً :

ـ لقد أفلتوا ماروخا . هيا بنا .

دخل السيارة وصفق بابها بعنف أرعب السائق الذي كان يغفو .« سنذهب لاحضار السيدة » قال له بيياميثار . وأعطاه العنوان : الطريق المحوري ١٠٧ الرقم ٢٧-٧٣ . وقال محدداً بدقة « إنه بيت أبيض على الصف الغربي الموازي للاتوستراد » . ولكنه قال ذلك بسرعة مشوشة ، فانطلق السائق في اتجاه خاطىء . صحح له بيياميثار الاتجاه بفوضى ليست معهودة في طبعه . وصرخ بالسائق :

ـ انتبه جيداً لما تفعله . يجب أن نصل خلال خمس دقائق . وإذا خسرت فسوف أخصيك!

لم يضطرب السائق الذي كان قد عانى إلى جانبه مآسي عملية الاختطاف الرهيبة . واستعاد بيياميثار أنفاسه ووجّهه عبر أقصر الدروب وأسهلها ، فقد تصور الطريق في ذهنه بينما كانوا يوضحونه له بالهاتف ليكون متأكداً من أنه لن يضل الطريق . لقد كانت أسوأ ساعات حركة المرور ولكنه لم يكن أسوأ الأيام .

كان أندريس قد انطلق في أثر أبيه مع ابن عمه غابرييل ، ملاحقاً قافلة الصحفيين التي راحت تشق الطريق وسط ازدحام حركة المرور بصفارات إنذار مزيفة وخدع سيارات اسعاف . وبالرغم من أنه سائق مجرب ، إلا أنه علق في ازدحام المرور ، وتخلف . أما بيياميثار بالمقابل فقد وصل في زمن أولمبي

مدته خمس عشرة دقيقة . لم يكن عليه أن يحدد البيت ، فقد وجد بعض الصحفيين الذين كانوا في بيته يتجادلون مع صاحب البيت ليسمح لهم بالدخول . شق بيياميثار طريقه وسط الحشد . ولم يتسع له الوقت ليسلم على أحد ، إذ أن صاحب البيت تعرف عليه وأشار له إلى الدرج قائلا :

ـ من هناك .

كانت ماروخا في غرفة النوم الرئيسية ، حيث اقتادوها لترتب نفسها ريثما يصل زوجها . وحين دخلت وجدت نفسها وجهاً لوجه مع كائن مجهول وفظ : إنها هي نفسها في المرآة . رأت نفسها متورمة ومترهلة ، جفونها متهدلة من إلتهاب كليتها ، وبشرتها مائلة إلى الخضرة وزاوية بعد ستة شهور في العتمة .

صعد بيياميثار الدرج في خطوتين ، فتح أول باب وجده فكانت غرفة الأطفال ، فيها دمى ودراجات . عندئذ فتح الباب المقابل ، ورأى ماروخا جالسة على السرير بالسترة ذات المربعات التي كانت ترتديها حين خرجت من بيتها يوم الاختطاف ، وكانت قد تزينت للتو من أجله . وقد قالت ماروخا فيما بعد : «لقد دخل مثل إعصار» . قفزت هي إلى عنقه ، وتعانقا عناقاً زخماً وطويلاً وصامتاً . أخرجتهما من الغيبوبة جلبة الصحفيين الذين تمكنوا من تحطيم مقاومة رب البيت ودخلوا متزاحمين . ارتعدت ماروخا . وابتسم بيياميثار بمرح وقال لها :

ـ إنهم زملاؤك .

قالت ماروخا متفجعة : «منذ ستة شهور لم أر نفسي في المرآة» . ابتسمت لصورتها ولم تكن هي . انتصبت ، ربطت شعرها عند مستوى الرقبة بشريط قماشي ، وأصلحت حالها كيفما استطاعت في محاولة لجعل المرأة التي في المرآة تشبه الصورة التي تتذكرها لنفسها منذ ستة شهور . لم تستطع التوصل إلى ذلك .

ـ إنني مرعبة ـ قالت ذلك وعرضت على زوجها أصابعها المشوهة

بالانتفاخات ، وأضافت : ـ لم أنتبه إلى ذلك لأنهم كانوا قد انتزعوا مني الخواتم .

فقال بيياميثار :

ـ أنت في أحسن حال .

أحاط عنقها بذراعه وخرج بها إلى الصالة .

انقض عليهما الصحفيون بالكاميرات والأضواء والميكروفونات . انبهرت ماروخا وقالت لهم : «اهدؤوا ياشباب . سنتكلم بصورة أفضل في بيتنا» . وكانت تلك هي كلماتها الأولى .

* * *

نشرات أخبار الساعة السابعة ليلاً لم تقل أي شيء ، ولكن الرئيس غافيريا علم بعد عدة دقائق من خلال اشارة لاسلكية بأن ماروخا باتشون قد تحررت . فانطلق إلى بيتها مع ماوريثيو بارغاس ، ولكنهما قبل أن يغادرا تركا بياناً رسمياً جاهزاً عن إطلاق سراح فرانثيسكو سانتوس الذي سيتحقق بين لحظة وأخرى . وقد قرأ ماوريثيو بارغاس البيان بصوت عالٍ أمام آلات تسجيل الصحفيين مشترطاً عليهم عدم بثه قبل الإعلان رسمياً عن إطلاق سراحه .

في أثناء ذلك كانت ماروخا في طريقها إلى بيتها . وقبل وصولها بقليل انتشرت اشاعة تقول أنه قد تم اطلاق سراح باتشو سانتوس ، فأفلت الصحفيون الكلب المقيد ، أي البيان الرسمي الذي قرأه عليهم ماوريثيو ، ودوى في نباح بهيج من كل محطات البث .

سمع الرئيس وماوريثيو البيان وهما في السيارة واحتفلا بفكرة تسجيله مسبقاً . ولكن ، بعد خمس دقائق جرى تصحيح الخبر .

فصرخ الرئيس غافيريا :

ـ ماوريثيو! أية مصيبة هذه!

ومع ذلك ، لم يكن بامكانهما أن يفعلا شيئاً عندئذ سوى الأمل بأن يحدث الخبر فعلاً مثلما أعلنا عنه . في أثناء ذلك ، ولأنه كان من المستحيل

عليهما البقاء في شقة بيياميثار بسبب الحشود التي كانت في الداخل ، فقد بقيا في شقة اثينت فيلاثكيث في الطابق الذي فوق شقة بيياميثار ، بانتظار حدوث التحرير الحقيقي لباتشو بعد ثلاثة أخبار مزيفة عن تحرره .

* * *

كان باتشو سانتوس قد سمع خبر تحرر ماروخا ، وخبر تحرره المسبق وخطأ الحكومة . في تلك اللحظة دخل إلى الحجرة الرجل الذي كان قد تحدث معه في الصباح ، فاقتاده من ذراعه ودون عصابة على عينيه حتى الطابق السفلي . وانتبه هناك إلى أن البيت مقفر من الاثاث ، فأخبره أحد الحراس وهو يكاد يموت من الضحك بأنهم قد نقلوا الأثاث في شاحنة حتى لايدفعوا ايجار الشهر الأخير . ودعوه جميعهم معانقين وشكروا باتشو على الأشياء الكثيرة التي تعلموها منه . وقد كان ردّ باتشو عليهم مخلصاً :

ـ وأنا أيضاً تعلمت الكثير منكم .

أعطوه في المرآب كتاباً ليغطي به وجهه متظاهراً بأنه يقرأ وكرروا عليه التحذيرات المعهودة . إذا اعترضتهم الشرطة عليه أن يستلقي على أرضية السيارة ليتمكنوا من الإفلات . والتحذير الأهم : يجب عليه ألا يقول إنه كان في بوغوتا وإنما على بعد ثلاث ساعات عبر دروب وعرة . وكان هناك مبرر فظيع : فقد كانوا يعرفون أن لدى باتشو ما يكفي من الفطنة ليكَون فكرة تقريبية عن موقع البيت ، ويجب عليه ألا يكشف ذلك لأن الحراس كانوا قد تعايشوا مع الجيران دون أي احتياطات خلال أيام الاختطاف الطويلة . وانتهى المسؤول عن تحريره إلى القول :

ـ إذا أنتَ ذكرت موقع البيت فسيكون علينا قتل جميع الجيران حتى لايتعرفوا علينا فيما بعد .

قبالة كشك الشرطة في جادة بوياكا عند تقاطعها مع الشارع ٨٠ انطفأ محرك السيارة . وامتنعت عن الانطلاق مرتين ، ثلاث مرات ، أربع مرات ،

وفي المرة الخامسة اشتغل المحرك . جميعهم كانوا يتعرقون عرقاً بارداً . وبعد كوادرتين إلى الأمام انتزعوا الكتاب من المخطوف ، وأطلقوا سراحه عند الناصية بعد أن أعطوه ثلاثة أوراق نقدية من فئة ألفي بيزو من أجل التكسي . وقد ركب أول سيارة تكسي مرت من أمامه ، وكان سائقها شاباً ولطيفاً رفض أن يأخذ منه الأجرة وشق طريقه مطلقاً نفير سيارته وصرخات البهجة وسط الحشود التي كانت تنتظر أمام البيت . وقد كان وصوله خيبة أمل للصحفيين الصفر : فقد كانوا ينتظرون رجلاً هزيلاً ومهزوماً بعد مئتين وثلاثة وأربعين يوماً من الحبس ، فوجدوا أنفسهم أمام باتشو سانتوس متجدد الشباب من الداخل والخارج ، وأكثر بدانة ، وأكثر نزقاً ، وأكثر تلهفاً إلى الحياة من أي وقت آخر . «لقد أعادوه مثلما كان» ، صرح بذلك ابن عمه انريكي سانتوس كالديرون . وقال آخر ، وقد انتقلت إليه عدوى مزاج الأسرة المتهلل : «لقد كان بحاجة إلى ستة شهور أخرى» .

* * *

كانت ماروخا في بيتها عندئذ . فقد وصلت مع ألبيرتو تلاحقها وحدات البث المتحركة التي كانت تتجاوزها وتسبقها وهي تبث مباشرة من وسط إزدحام حركة المرور . والسائقون الذين كانوا يتابعون خط سيرها من أجهزة الراديو كانوا يتعرفون عليها ويحيونها بإطلاق أبواق سياراتهم ، إلى أن عمّ الحماس والبهجة الطريق كله .

أراد أندريس بيياميثار العودة إلى بيته بعد أن فقد أثر أبيه ، ولكنه كان يقود بجلافة أدت إلى تعطل السيارة وكسر ذراع تغيير السرعة . فترك السيارة برعاية شرطة حراسة الطريق في أقرب موقع ، وأوقف أول سيارة مرت من أمامه : كانت بي . إم . دبليو رمادية قاتمة ، يقودها اداري لطيف كان يستمع إلى الاخبار . قال له اندريس من يكون ، ولماذا هو متعجل وطلب منه أن يوصله قريباً من البيت قدر استطاعته .

فقال له الرجل :
ـ اصعد . ولكنني أحذرك من أن أمورك ستسوء جداً إذا كنت تكذب .

عند تقاطع طريق السريع السابع مع الشارع ٨٠ لحقت به صديقة في سيارة رينو قديمة . فواصل أندريس رحلته معها ، ولكن أنفاس السيارة انقطعت عند طلعة الطريق المستعرض . فتعلق أندريس كيفما استطاع في آخر سيارة جيب بيضاء تابعة للإذاعة الوطنية .

المرتفع المؤدي إلى البيت كان مسدوداً بالسيارات وجموع الجيران الذين نزلوا إلى الشارع . عندئذ قررت ماروخا وبيياميثار النزول من السيارة واجتياز المئة متر المتبقية مشياً على الأقدام ، ولم ينتبها إلى أنهما قد نزلا في المكان نفسه الذي جرت فيه عملية الاختطاف . كان الوجه الأول الذي تعرفت عليه ماروخا وسط الحشود المتحمسة هو وجه ماريا دل روساريو ، مبدعة ومخرجة برنامج *كولومبيا تطالب بهم* ، الذي لم يبث في تلك الليلة ولأول مرة منذ تأسيسه بسبب انتفاء السبب . ثم رأت على الفور أندريس الذي قفز كيفما استطاع من سيارة الجيب محاولاً الوصول إلى البيت في اللحظة التي أصدر فيها ضابط شرطة ، طويل ومربوع ، أمراً باغلاق الشارع . وبإلهام محض نظر أندريس إلى عيني الضابط وقال به بصوت ثابت :
ـ أنا أندريس .

لم يكن الضابط يعرف أي شيء عنه ، ولكنه سمح له بالمرور . تعرفت عليه ماروخا حين كان يركض نحوها وتعانقا وسط التصفيق . كان لابد من مساعدة رجال الدوريات الشرطية لشق الطريق . وانطلق كل من ماروخا وألبيرتو وأندريس صاعدين المرتفع بقلوب مثقلة ، وغلبهم الانفعال . وللمرة الأولى تفجرت من عيون الثلاثة الدموع التي كانوا قد قرروا كبحها . وكان ذلك أقل ماهو ممكن : فإلى حيث يصل النظر ، كانت حشود الجيران الطيبين قد علقت أعلاماً على نوافذ المباني العالية ، وراحت تحيي بربيع من المناديل البيضاء وبهتافات مدوية مغامرة العودة السعيدة إلى البيت .

خاتمة

في الساعة التاسعة من صباح اليوم التالي ، ومثلما هو متفق عليه مسبقاً ، حط بيياميثار في ميدلين دون أن يكون قد نام ساعة كاملة . لقد كانت حفلة انبعاث . ففي الساعة الرابعة فجراً ، عندما تمكنا من البقاء وحدهما في الشقة ، كان هو وماروخا منفعلين بأحداث ذلك اليوم ، فبقيا في الصالة يتبادلان الذكريات المتأخرة حتى الصباح . كانت المأدبة المعتادة تنتظره في مزرعة لالوما ، وكانت قد أضيفت إليها يومئذ شمبانيا التحرر . ولكن الاستراحة كانت قصيرة ، لأن بابلو اسكوبار هو الذي كان مستعجلاً آنذاك وهو مختبئ في مكان ما من العالم دون درع الرهائن . وقد كان مبعوثه الجديد رجلاً طويلاً جداً ، مهذاراً ، شديد الشقرة وله شارب ذهبي ، ويدعونه *المونو* ، وكانت لديه صلاحيات كاملة للتفاوض على الاستسلام .

بناء على أوامر الرئيس غافيريا ، كانت كل المجادلات الحقوقية مع محامي اسكوبار قد خرجت من خلال الدكتور كارلوس ادواردو ميخيا ، وبمعرفة وزير العدل . ومن أجل استسلام اسكوبار جسدياً كان ميخيا يعمل بالاتفاق مع رافائيل باردو ، من جانب الحكومة ، وفي الجانب الآخر كان يعمل خورخي لويس اوتشوا والمونو واسكوبار نفسه في الظل . وكان بيياميثار مايزال وسيطاً نشطاً مع الحكومة ، أما الأب غارثيا هيريروس ، الذي يشكل ضمانة أخلاقية لاسكوبار ، فكان على استعداد دائم للتدخل من أجل

تصريف أي عقبات بالسرعة القصوى .

إن تعجل اسكوبار بمجيء بيياميثار إلى ميدلين في اليوم التالي لإطلاق سراح ماروخا دفع الجميع إلى التفكير بأن استسلامه سيكون فورياً ، ولكن سرعان ماتبين أن الأمر ليس كذلك ، فقد كانت ماتزال هناك بالنسبة إليه بعض الإجراءات التي تشغله . وكان قلق الجميع ، وعلى رأسهم بيياميثار ، هو الخوف من حدوث شيء لاسكوبار قبل استسلامه . فقد كان بيياميثار يعرف أن اسكوبار ، أو من سيبقى حياً من أنصاره ، سيجعلونه يدفع من جلده ثمن أي شكوك تراودهم في نقضه لكلمته . وقد كسر ذلك الجليد اسكوبار نفسه حين اتصل به هاتفياً إلى لالوما وحيّاه دون مقدمات :

ـ دكتور بيبا ، هل أنت سعيد الآن ؟

لم يكن بيياميثار قد رآه أو سمعه من قبل ، وقد تأثر بهدوء صوته الذي لا أثر فيه لأي هالة اسطورية . «أشكرك لأنك جئت ـ واصل اسكوبار الكلام دون أن ينتظر جواباً ، بشَرطهِ الأرضي المستند جيداً إلى أسلوبه البلدي في الحديث :ـ أنت رجل يحافظ على كلمته ولايمكنك أن تخدعني» . ثم دخل في الموضوع فوراً :

ـ فلنبدأ بترتيب الكيفية التي سأسلم بها نفسي .

الواقع أن اسكوبار كان يعرف كيف سيسلم نفسه ، ولكن ربما كان يود إجراء مراجعة شاملة مع الرجل الذي وضع فيه آنذاك كل ثقته . فمحاموه وإدارة التحقيق الجنائي كانوا قد ناقشوا ، مباشرة أحياناً ومن خلال الإدارة المحلية في أحيان أخرى ، ولكن بالتنسيق مع وزير العدل دائماً ، كل تفاصيل الاستسلام مجتمعة وكل تفصيلٍ منها على حدة . وبعد توضيح المسائل القانونية التي ظهرت من مختلف التفسيرات التي كان يقدمها كل منهم للمراسيم الرئاسية ، تقلصت مواضيع البحث إلى ثلاثة فقط : السجن ، وموظفو السجن ، ودور الشرطة والجيش .

كان السجن ـ في مركز إعادة تأهيل مدمني المخدرات القديم في

اينفيغادو ـ على وشك الإنتهاء . وقد زاره بيياميثار والمونو بناء على رغبة اسكوبار ، في اليوم التالي لتحرير ماروخا وباتشو سانتوس . وكان مظهر المكان أقرب إلى إثارة الغَمّ في النفس بسبب الأنقاض المتراكمة وأضرار الأمطار الغزيرة في تلك السنة . كانت المنشآت الأمنية الفنية قد أنجزت . فكان هناك سور مزدوج يصل ارتفاعه إلى مترين وثمانين سنتمتراً ، وخمسة صفوف من الأسلاك المكهربة بطاقة قدرها خمسة آلاف فولت ، وسبعة مراصد للحراسة ، إضافة إلى مرصدين آخرين عند المدخل . وسيجري تعزيز هذين الموقعين فيما بعد بصورة أكبر للحيلولة دون هروب اسكوبار وللحيلولة في الوقت نفسه دون تعرضه للقتل .

والنقطة الوحيدة الحرجة التي وجدها بيياميثار هي أن الحمام الملحق بغرفة اسكوبار كان مكسواً ببلاط من البورسلين الإيطالي ، فأوصى باستبداله ـ وقد استبدل ـ بديكور أكثر تقشفاً . وكانت محصلة تقريره أكثر تقشفاً : « يبدو لي أن هذا السجن هو سجن جداً » . وبالفعل ، فالبذخ الفولكلوري الذي أثار في النهاية استنكار البلاد ونصف العالم ، وأحرج الحكومة في سمعتها ، فُرض فيما بعد من داخل السجن من خلال عمليات رشوة وتخويف غير مفهومة .

طلب اسكوبار من بيياميثار أن يعطيه رقم هاتف لايثير الشبهات في بوغوتا ليتفقا فيما بينهما على تفصيل تسليم نفسه ، فأعطاه رقم هاتف جارته في الطابق العلوي اثينيت فيلاثكيث . وقد بدا له أنه ليس هناك هاتف أكثر أماناً منه ، فهو رقم يتصل به في كل وقت كتّاب وفنانون على قدر من الجنون يكفي لإخراج أكثر الناس تماسكاً عن طوره . وكانت الصيغة بسيطة وسليمة : يتصل صوت مجهول ببيت بيياميثار ويقول له : «بعد خمس عشرة دقيقة يادكتور» . فيصعد بيياميثار دون تسرع إلى شقة اثينيت ، وبعد خمس عشرة دقيقة يتصل اسكوبار شخصياً . وفي إحدى المرات تأخر بيياميثار في المصعد ، وردت اثينيت على الهاتف . فسألها صوت ابن بلد جاف عن

الدكتور بيياميثار . فقالت اثينيت :

ـ إنه لايسكن هنا .

فقال لها ابن البلد بصوت مرح :

ـ لاتقلقي . لابد أنه يصعد .

كان المتحدث هو بابلو اسكوبار في اتصال حي ومباشر ، ولكن اثينيت لن تعرف ذلك إلا إذا خطر لها أن تقرأ هذا الكتاب . لقد أراد بيياميثار في ذلك اليوم أن يخبرها بوفاء مبدني ، ولكنها هي ـ التي لاتستطيع أن تبتلع شيئاً كاملاً ـ أغلقت أذنيها رافضة أن تسمع ، وقالت له :

ـ أنا لا أريد معرفة أي شيء . افعل ماتريده في بيتي ، ولكن لاتخبرني بأي شيء .

في ذلك الحين كان بيياميثار يقوم بأكثر من رحلة إلى ميدلين كل أسبوع . ويتصل من الفندق الدولي هاتفياً بماريا ليّا ، فترسل إليه السيارة لتوصله إلى مزرعة لالوما . وكان قد ذهب في إحدى رحلاته الأولى مع ماروخا لتشكر آل اوتشوا على مساعدتهم . وفي أثناء تناول الغداء خرج موضوع خاتم قطع الزمرد والألماس الدقيقة الذي لم يعيدوه إليها في ليلة إطلاق سراحها . وكان بيياميثار قد تحدث في هذا الأمر أيضاً مع آل اوتشوا ، وأرسلوا بدورهم رسالة إلى اسكوبار ، ولكنه لم يرد عليها . فطرح المونو الذي كان حاضراً إمكانية إهداء خاتم جديد إليها ، ولكن بيياميثار أوضح له أن ماروخا لا تتلهف إلى الخاتم من أجل ثمنه وإنما لقيمته العاطفية . فوعد المونو بنقل المشكلة إلى اسكوبار .

الاتصال الأول الذي أجراه اسكوبار إلى بيت اثينيت كان حول برنامج *دقيقة الرب* ، حيث اتهمه الأب غارثيا هيريروس بأنه بورنوغرافي متمادٍ ، ودعاه للعودة إلى طريق الرب . لم يفهم أحد ذلك الانقلاب الكبير . وكان اسكوبار يفكر بأنه إذا كان الأب قد تحول فلا بد أن يكون هناك سبب كبير ، واشترط توضيحاً فورياً وعلنياً قبل أن يسلم نفسه . والأسوأ بالنسبة إليه هو

أن رجاله كانوا قد وافقوا على تسليم أنفسهم لإيمانهم بكلمة الأب . فأخذه بيياميثار إلى مزرعة لالوما ، ومن هناك قدم الأب إلى اسكوبار كل أنواع التوضيحات هاتفياً . وحسب تلك التوضيحات ، فقد جرى أثناء تسجيل البرنامج خطأ في المونتاج جعله يقول ما قاله . سجل اسكوبار المحادثة وأسمعها لرجاله متجنباً بذلك وقوع الأزمة .

ولكن ، كان مايزال ثمة المزيد . فقد أصرت الحكومة على دوريات مشتركة من الجيش والحرس الوطني خارج السجن ، وعلى قطع أشجار الغابة المتاخمة للسجن لاستخدامها كحقل للرمي ، وعلى حقها في تعيين الحراسة من خلال لجنة ثلاثية من الحكومة المركزية وبلدية اينفيغادو والنيابة العامة ، لأن الأمر يتعلق بسجن بلدي ووطني . فاعترض اسكوبار على اقتراب الحراس منه لأن أعداءه يمكن أن يغتالوه داخل السجن . واعترض على الدوريات المشتركة ، لأنه ـ وفق مايقوله محاموه ـ لايمكن وجود قوات عامة داخل السجون حسب قانون السجون . واعترض على قطع الغابة المتاخمة ، لأن ذلك يسمح أولاً بهبوط طائرات هليكوبتر ، وثانياً لأنه يفترض أن حقل الرمي سيكون ميداناً يُستخدم السجناء فيه كأهداف ، وبقي على موقفه إلى أن أقنعوه بأن حقل الرمي ليس إلا قطعة أرض يمتاز محيطها بمجال رؤية جيدة . وقد كانت تلك هي في الحقيقة مزية مركز مدمني المخدرات ـ سواء بالنسبة للحكومة أو السجناء ـ ، فمن أي نقطة في المبنى يمكن رؤية كل الوادي والجبل لرصد أي خطر قبل وقت مناسب . وأخيراً أراد المدير الوطني للتحقيق الجنائي في اللحظة الأخيرة بناء سور مصفح حول السجن اضافة إلى سياج الأسلاك الشائكة . فغضب اسكوبار .

وفي يوم الخميس ٣٠ أيار ، نشرت صحيفة *الاسبيكتادور* خبراً ـ نسبته إلى مصادر رسمية جديرة بالثقة التامة ـ حول الشروط المفترضة التي وضعها اسكوبار لتسليم نفسه في اجتماع عقده محاموه مع ناطقين باسم الحكومة . وكان أكثر تلك الشروط ـ حسب الخبر ـ استعراضية هو نفي الجنرال ماثا

ماركيز وأقالة الجنرالين ميغيل غوميث باديّا ، قائد الشرطة الوطنية ، وأوكتافيو بارغاس سيلفا قائد إدارة التحقيق القضائي في الشرطة .

* * *

دعا الرئيس غافيريا الجنرال ماثا ماركيز إلى موعد في مكتبه ليوضح له منشأ الخبر الذي نسبه أشخاص مقربون من الحكومة إليه . استمرت المقابلة نصف ساعة ، ومن يعرف الشخصين كليهما لايمكنه أن يتصور من منهما كان أكثر ثباتاً من الآخر . قدم الجنرال بصوته الهادئ والبطيء رواية مفصلة لاستقصاءاته حول القضية . واستمع إليه الرئيس بصمت مطلق . وبعد عشرين دقيقة ودّع كل منهما الآخر . وفي اليوم التالي أرسل الجنرال إلى الرئيس رسالة رسمية من ست صفحات يكرر فيها بدقة كل ما قاله له ليبقى كوثيقة تاريخية ،

تقول الرسالة إنه وفقاً للتحقيقات فإن منشأ الخبر هو مارتا نيفيس اوتشوا ، التي روته قبل أيام بصورة حصرية لمحرري الشؤون القضائية في *التيمبو* ـ الذين استُودعوا الخبر حصراً ـ ، وهم لم يفهموا كيف نُشر أولا في *الاسبيكتادور* . وأعرب في الرسالة عن أنه كان مناصراً لاستسلام بابلو اسكوبار . وأكد على وفائه لمبادئه والتزاماته وواجباته ، وانتهى إلى القول : « لأسباب تعرفها حضرتك أيها السيد الرئيس ، هناك كثير من الأشخاص والهيئات ممن يصرون على البحث عن بلبلة استقراري المهني ، ربما بنية وضعي في موقف خطر يتيح لهم تحقيق أهدافهم ضدي بسهولة » .

أنكرت مارتا نيفيس اوتشوا أن تكون هي مصدر الخبر ، ولم تعد إلى التحدث في الموضوع . ومع ذلك ، بعد انقضاء ثلاثة شهور ـ وحين كان اسكوبار قد أصبح في السجن ـ ، اتصل السكرتير العام للرئاسة بالجنرال ماثا في مكتبه بطلب من الرئيس ، ودعاه إلى الصالون الأزرق ، وبينما هو يمشي من جهة إلى أخرى كما في نزهة يوم أحد ، أخبره بالقرار الرئاسي بإحالته إلى

التقاعد . وقد خرج ماثا مقتنعاً بأن ذلك هو دليل على التعهد المقطوع لاسكوبار والذي كانت الحكومة قد نفته ، وقد قال ذلك علناً : « كان أمراً متفاوَضاً عليه » .

وقبل ذلك على أي حال ، كان اسكوبار قد أعلم الجنرال ماثا أن الحرب بينهما قد انتهت ، وانه ينسى كل شيء ويسلم نفسه جدياً : يوقف الاغتيالات ، ويحل العصابة ويسلم المتفجرات . وكدليل على ذلك أرسل إليه قائمة مخابئ وجدوا فيها سبعمئة كيلوغرام من المتفجرات . وفيما بعد ، حين أصبح في السجن ، واصل الكشف لشرطة ميدلين عن مجموعة من المخابئ عثر فيها على طنين من الديناميت . ولكن ماثا لم يصدقه مطلقاً .

الحكومة الجزعة من تأخر الاستسلام عيّنت مديراً للسجن شخصاً من بوياكا ـ هو لويس خورخي باتاكيفا سيلفا ـ وليس من انتيوكيا ؛ وكذلك عشرين شرطياً وطنياً من محافظات مختلفة وليس من انتيوكيا وحدها . وقد قال بيياميثار : « إذا كان ما يريدونه هو رشوتهم فلا فرق في أن يكونوا من انتيوكيا أو من أي مكان آخر » . واسكوبار الذي كان منهوكاً من كل ذلك اللف والدوران ، لم يكن يناقش الأمر . وتم الاتفاق أخيراً على أن يتولى الجيش وليس الشرطة تغطية عملية التحاقه بالسجن ، وأن تُتخذ إجراءات استثنائية لتخليص اسكوبار من مخاوفه من التعرض للتسمم بالطعام في السجن .

وتبنت الإدارة الوطنية للسجون من جهتها نظام الزيارات نفسه المطبق على الأخوة اوتشو فاثكيث في جناح الحماية القصوى في سجن ايتاغوي . وأن تكون ساعة الاستيقاظ هي السابعة صباحاً وساعة وضع السجين في زنزانة تحت قفل ومفتاح هي الثامنة ليلاً . وأن يتلقى اسكوبار ورفاقه زيارات النساء كل يوم أحد منذ الثامنة صباحاً وحتى الثانية بعد الظهر ؛ وزيارات الرجال أيام السبت ، وزيارات الأحداث في يوم الأحد الأول والثالث من كل شهر .

وفي فجر يوم التاسع من حزيران ، حلت عناصر من كتيبة شرطة ميدلين العسكرية محل جماعة الخيالة التي كانت تحرس محيط السجن ، وبدؤوا

بتركيب أجهزة أمن مذهلة ، وأبعدوا من الجبال المجاورة جميع الأشخاص الغرباء عن المنطقة وتولوا المراقبة الشاملة براً وجواً . لم تعد هناك أي ذرائع . وقد بعث بيياميثار إلى اسكوبار يعلمه ـ بكل صراحة ـ أنه يشكره على تحرير ماروخا ، ولكنه غير مستعد للتعرض لمزيد من المخاطر ، لمجرد أنه هو لايحسم أمر تسليم نفسه . وأرسل إليه يقول بجدية : «منذ الآن فصاعداً لم أعد أتحمل المسؤولية» . قرر اسكوبار تسليم نفسه خلال يومين ، وكان شرطه الأخير هو أن يرافقه النائب العام أيضاً عند استسلامه .

ظهرت في اللحظة الأخيرة عقبة فريدة كان يمكن لها أن تؤدي إلى تأجيل جديد : لم تكن لدى اسكوبار وسيلة رسمية تحدد هويته ليثبت أنه هو من يستسلم وليس شخصاً آخر . وقد طرح أحد محاميه المشكلة على الحكومة وطلب بالتالي بطاقة هوية مواطن لاسكوبار ، دون الأخذ بعين الاعتبار أنه مطلوب تبحث عنه كل قوى الأمن العام ، وأنه عليه أن يذهب شخصياً إلى دائرة السجل المدني الخاصة به . وكان الحل المستعجل في تحديد شخصيته ببصمة الإصبع وبرقم بطاقة هوية كان يستخدمها في وظيفة مرموقة قديمة ، وأن يصرح في الوقت نفسه بأنه لايستطيع إظهار تلك البطاقة لأنه فقدها .

* * *

أيقظ المونو بيياميثار في الساعة الثانية عشرة من ليل ١٨ حزيران لكي يصعد إلى الطابق العلوي ويرد على مكالمة مستعجلة . كان الوقت متأخراً ولكن شقة اثينيث كانت تبدو مثل جحيم سعيد بأكورديون هيخيديو كوادرادو وفرقته الموسيقية . وكان على بيياميثار أن يشق طريقه بالمنكبين وسط الحشد المخبول لأرقى النمامين الثقافيين . وقد اعترضت اثينيت سبيله بطريقتها التقليدية وقالت له :

ـ لقد صرت أعرف من التي تتصل بك . وانتبه لنفسك ، لأنك إذا تغافلت فسيخصونك .

تركته وحده في غرفة النوم في اللحظة التي رن فيها جرس الهاتف . ووسط الصخب الذي كان يهز البيت ، تمكن بيياميثار من سماع ماهو جوهري :

ـ الأمر جاهز ، تعال إلى ميدلين غداً باكراً .

* * *

في الساعة السابعة صباحاً وضع رافائيل باردو طائرة من شركة الطيران المدني تحت تصرف الموكب الرسمي الذي سيحضر عملية الاستسلام . ولخشية بيياميثار من حدوث تسرب أخبار مبكر ، ذهب إلى بيت الأب غارثيا هيريروس في الساعة الخامسة صباحاً . وجده في المصلى بالعباءة غير المخيطة فوق مسوحه ، وعندما انتهى من الصلاة ، قال له :

ـ حسن يا أبتِ ، هلم بنا . سنذهب إلى ميدلين لأن اسكوبار سيسلم نفسه .

وكان في الطائرة ـ اضافة إليهما ـ فيرناندو غارثيا هيريروس ، ابن أخ الأب الذي يعمل مساعداً له في بعض المناسبات ؛ وخيمي فاثكيث من المستشارية الإعلامية ؛ والدكتور كارلوس غوستافو ارييتا النائب العام للجمهورية ، والدكتور خيمي كودوبا تريفينيو النائب المنتَدب لشؤون حقوق الإنسان . وفي مطار اولايا هيريرا ، وسط ميدلين ، كانت بانتظارهم ماريا ليّا ومارتا نيفيس اوتشوا .

نُقل الموكب الرسمي إلى دار الحكومة . وذهب بيياميثار والأب إلى شقة ماريا ليّا لتناول الفطور ريثما تنتهي آخر إجراءات الاستسلام . وهناك عرف أن اسكوبار يمضي في الطريق ، أحياناً في سيارة وأحياناً سيراً على الأقدام ليتجنب حواجز الشرطة . لقد كان خبيراً في هذه الأمور .

توترت أعصاب الأب مرة أخرى . فقد سقطت منه إحدى العدسات اللاصقة ، وداس عليها ، فاغتاظ إلى حد اضطرت معه مارتا نيفيس إلى أخذه

إلى محل بصريات سان اغناثيو ، حيث حلوا له المشكلة بنظارة عادية . كانت المدينة تغص بحواجز تفتيش صارمة ، وقد اوقفوهما فيها جميعها تقريباً ، ولكن ليس لتفتيشهما ، وإنما ليشكروا الأب على مايقوم به من أجل سعادة ميدلين . ففي تلك المدينة التي كان كل شيء فيها ممكناً ، كان الخبر الأكثر سرية في العالم قد أصبح في متناول الجميع .

وصل المونو إلى شقة ماريا ليّا في الساعة الثانية والنصف بعد الظهر ، وكان يرتدي ثياباً وكأنه ذاهب في نزهة ريفية ، مع سترة ترابية دافئة وحذاء طري .

قال لبيياميثار :

ـ كل شيء جاهز . فلنذهب إلى دار الحكومة . اذهب أنت من طريقك وسأسلك أنا طريقاً آخر .

ذهب في سيارة بمفرده . وذهب بيياميثار والأب غارثيا هيريروس ومارتا نيفيس في سيارة ماريا ليّا . وأمام دار الحكومة نزل الرجلان ، وبقيت المرأتان تنتظران في الخارج . لم يعد يبدو على المونو أنه ذلك التقني البارد والفعال ، وإنما كان يحاول أن يختبئ داخل نفسه . فقد وضع نظارة قاتمة وقبعة لاعب غولف وبقي طوال الوقت في الصف الثاني وراء بيياميثار . وقد رآه أحدهم وهو يدخل مع الأب ، فأسرع يتصل هاتفياً برافائيل باردو ليقول له إن اسكوبار ـ أشقر جداً ، وطويل القامة جداً ، ومتأنق ـ قد سلّم نفسه للتو في دار الحكومة .

وعندما كانوا يستعدون للخروج ، تلقى المونو بجهاز الهاتف اللاسلكي تنبيهاً بوجود طائرة تتجه إلى مجال المدينة الجوي . كانت طائرة اسعاف عسكرية تحمل عدداً من الجنود الجرحى في اشتباك مع رجال حرب العصابات الذين يقودهم اورابا . الخوف من أن يصبح الوقت متأخراً كان يقلق السلطات ، لأن طائرات الهليكوبتر لاتعود قادرة على الطيران عند الغروب ، وتأجيل الاستسلام الى اليوم التالي يمكن له أن يكون مشؤوماً . عندئذ اتصل

بيياميثار برافانيل باردو الذي أمر بتغيير خط سير طائرة الجرحى وأكد أمره القاطع بإبقاء السماء خالية . وبينما كان ينتظر النهاية ، كتب في يومياته الشخصية : «لن يطير عصفور واحد فوق ميدلين اليوم» .

انطلقت طائرة الهليكوبتر الأولى ـ من طراز بيل ٢٠٦ تتسع لست ركاب ـ من فوق سطح دار الحكومة بعد الساعة الثالثة بقليل ، وكان فيها النائب العام وخيمي فاثكيث ؛ وفيرناندو غارثيا هيريروس والصحفي الإذاعي لويس آليريو كاييه الذي كانت شعبيته الهائلة تشكل ضمانة مطمئنة لبابلو اسكوبار . وكان هناك ضابط أمن يوجه الطيار باتجاه السجن مباشرة .

أما طائرة الهليكوبتر الثانية ـ طراز بيل ٤١٢ ، تتسع لإثني عشر راكباً ـ فقد انطلقت بعد عشر دقائق حين تلقى المونو الأمر بذلك عبر الهاتف اللاسلكي . وركب معه في الطائرة بيياميثار والأب . وما أن اقلعوا حتى سمعوا من المذياع خبر هزيمة الموقف الحكومي في الجمعية الوطنية التأسيسية ، حيث تمت الموافقة على عدم تسليم الوطنيين لجهة أجنبية بأغلبية واحد وخمسين صوتاً مؤيداً ، وثلاثة عشر صوتاً ضد القرار وامتناع خمسة عن التصويت ، في تصويت أولي سيجري تأكيده فيما بعد . ومع أنه لم تكن هناك دلائل تشير إلى أنه أمر متفق عليه ، فقد كان من الصبيانية تقريباً عدم التفكير بأن اسكوبار كان يعرف بذلك مسبقاً وأنه قد انتظر تلك اللحظة الأخيرة ليسلم نفسه .

تبع الطياران توجيهات المونو لالتقاط بابلو اسكوبار وحمله إلى السجن . وكانت رحلة طيران قصيرة جداً ، وعلى ارتفاع شديد الانخفاض بحيث بدت التوجيهات وكأنها تُعطى لسيارة : خذ الجادة الثامنة ، تابع من هنا ، والآن إلى اليمين ، أكثر ، أكثر ، حتى الحديقة ، هذا هو المكان . ووراء أيكة أشجار ملتفة ظهر فجأة بيت رائع الفخامة وسط أزهار تروبيكالية ذات ألوان صارخة ، وملعب كرة قدم كامل بدا مثل طاولة بيلياردو هائلة وسط حركة المرور المتدفقة في حي البوبلادو .

اشار المونو :

ـ اهبط هناك . ولاتطفئ المحركات .

وحين اصبحوا على مستوى ارتفاع البيت ، اكتشف بيياميثار أن هناك حول الملعب مالا يقل عن ثلاثين رجلاً ينتظرون وهم يشهرون أسلحتهم . وحين حطت الهليكوبتر على المرج النظيف ، انفصل عن الجماعة نحو خمسة عشر حارساً ومشوا بجزع نحو الهليكوبتر وهم يحيطون برجل لايمكن للمرء أن يمر به دون مبالاة . كان شعره طويلاً حتى الكتفين ، وله لحية شديدة السواد ، كثة وخشنة ، تصل إلى صدره ، وبشرة شاحبة دبغتها شمس القفار . كان مربوعاً ، ينتعل حذاء رياضياً ويرتدي سترة زرقاء فاتحة من القطن العادي ، ويتحرك بسهولة وبهدوء يبعث القشعريرة . وقد تعرف عليه بيياميثار منذ النظرة الأولى لمجرد أنه يختلف عن جميع الرجال الذين رآهم طوال حياته .

بعد أن ودّع حراسه المقربين بمعانقات قوية وسريعة ، أشار اسكوبار إلى اثنين منهم ليصعدوا من الجانب الآخر لطائرة الهليكوبتر . وكانا موغري واوتو ، وهما من أكثر المقربين إليه . ثم صعد هو دون أن ينتبه إلى رياش المروحة التي كانت تدور بسرعة متوسطة . ووجه تحيته الأولى قبل أن يجلس إلى بيياميثار . مد إليه يده الدافئة والمعتنى بها جيداً وسأله دون أدنى تأثر في صوته :

ـ كيف حالك يا دكتور بيياميثار ؟

فرد عليه :

ـ كيف أحوالك يا بابلو .

التفت اسكوبار بعد ذلك نحو الأب غارثيا هيريروس بابتسامة لطيفة وشكره على كل شيء . جلس إلى جوار حارسيه ، وعندئذ فقط بدا عليه أنه انتبه إلى وجود المونو هناك . وربما كان يظن بأنه سيكتفي باعطاء التعليمات إلى بيياميثار دون أن يصعد إلى الهليكوبتر . قال له اسكوبار :

ـ أنت حشرت نفسك حتى النهاية في هذه القضية .

لم يدرِ أحد إذا ماكان ذلك اعترافا بجميل أم تأنيباً ، ولكن النبرة كانت أقرب إلى المودة . واكتفى المونو ، التائه مثل الجميع ، بهز رأسه والابتسام قائلاً :

ـ آه ، يامعلم!

عندئذ فكر بيياميثار ، كما في وحي ، في أن اسكوبار هو رجل أخطر بكثير مما كان يعتقده ، لأن شيئاً خارقاً كان يتبدى في هدونه وسيطرته على نفسه . حاول المونو أن يغلق الباب ، ولكنه لم يعرف كيف يفعل ذلك ، فكان على مساعد الطيار أن يغلقه . وفي انفعال اللحظة لم يتذكر أحد منهم اصدار الأوامر . فسأل الطيار المتوتر وراء أجهزة القيادة :

ـ هل نُقلع ؟

فانفلتت من اسكوبار عندئذ الاشارة الوحيدة إلى جزعه المكبوت ، حين سارع إلى إصدارِ الأمر :

ـ طبعاً ، فلنقلع . أسرع! أسرع!

وعندما انفصلت الهليكوبتر عن المرج سأل بيياميثار : « كل شيء على مايرام ، أليس كذلك يا دكتور ؟ » فرد عليه بيياميثار بحقيقته دون أن يلتفت إليه : « كل شيء تماماً » . ولم يقولا شيئاً آخر ، لأن الرحلة كانت قد انتهت . لقد قطعت الطائرة المقطع الأخير من الرحلة وهي تكاد تلامس الأشجار وحطت في ملعب كرة القدم في السجن ـ وكان مليئاً بالأحجار ومرمياه مكسّرين ـ إلى جوار الهليكوبتر الأولى التي كانت قد وصلت قبل ذلك بربع ساعة . ولم تستغرق الرحلة كلها منذ مغادرة دار الحكومة أكثر من خمس عشرة دقيقة .

ولكن الدقيقتين التاليتين كانتا مع ذلك هما الأكثر توتراً . حاول اسكوبار أن ينزل أولاً منذ فُتح الباب ، فوجد نفسه محاطاً بحراس السجن : كانوا قرابة خمسين رجلاً بالزي الأزرق متوترين وذاهلين بعض الشيء ، وقد صوبوا نحوه

أسلحتهم الطويلة . فوجئ اسكوبار ، وفقد السيطرة على نفسه للحظة ، وأطلق صرخة ملؤها التسلط المرهوب :

ـ أخفضوا أسلحتكم ، اللعنة!

وعندما أصدر قائد الحرس الأمر نفسه ، كان أمر اسكوبار قد نُفِّذ . مشى اسكوبار ومرافقوه المنتي متر حتى المبنى ، حيث كانت بانتظاره سلطات السجن ، وأعضاء الوفد الرسمي ، والجماعة الأولى من أتباع اسكوبار التي كانت قد وصلت براً للاستسلام معه . وكانت هناك أيضاً زوجة اسكوبار ، وأمه الشاحبة جداً والتي كانت على وشك البكاء . وحين مرّ بجانبها ربت على كتفها بحنان وقال لها : « اطمنني يا عجوزي » . وخرج مدير السجن للقائه وهو يمد يده :

ـ السيد اسكوبار ـ وقدم نفسه : ـ أنا لويس خورخي باتاكيفا .

شد اسكوبار على يده . ثم رفع ساق بنطاله اليسرى وأخرج المسدس الذي كان يضعه في قراب مثبت إلى كاحله . لقد كان درّة عظيمة : سيغ ساير ٩ ملم ، مرصع بشعار ذهبي على مقبضه الصدفي . لم ينزع اسكوبار مخزن المسدس ، بل أخرج الرصاصات منه واحدة بعد أخرى وألقى بها إلى الأرض .

كانت حركة مسرحية إلى حد ما ، وبدا كما لو أنه قد تدرب عليها مسبقاً ، وقد أعطت مفعولها كدليل على الثقة بأكبر السجانين الذي كان تعيينه في ذلك المنصب قد نزع النوم من عينيه . وقد نشرت الصحف في اليوم التالي أن اسكوبار قد قال لباتاكيفا وهو يسلمه المسدس : « من أجل سلام كولومبيا » . ولكن أياً من الشهود لا يذكر ذلك ، وخصوصاً بيياميثار الذي كان مفتوناً بذلك المسدس .

صافح اسكوبار الجميع . وبقي النائب المنتدب ممسكاً بيده بينما هو يقول له : « إنني هنا ياسيد اسكوبار للتأكد من أن حقوقك تُحترم » . شكره اسكوبار باهتمام خاص . ثم أمسك أخيراً بذراع بيياميثار وقال له :

ـ تقدم يا دكتور . أنا وأنت لدينا الكثير لنتحدث فيه .

اقتاده إلى نهاية الرواق الخارجي ، وهناك تحدثا نحو عشر دقائق وهما يستندان إلى الدرابزين ويديران ظهريهما للجميع . بدأ اسكوبار بتقديم عبارات الشكر الرسمية . ثم تحدث بهدونه المدهش معرباً عن أسفه للآلام التي سببها لبيباميثار وأسرته ، ولكنه طلب منه أن يفهم أنها كانت حرباً قاسية للجانبين . ولم يفرط بيباميثار بالفرصة ليحل ثلاثة ألغاز في حياته : سبب قتلهم لويس كارلوس غالان ، ولماذا حاول اسكوبار أن يقتله هو شخصياً ، والسبب الذي من أجله اختطف ماروخا وبياتريث .

أنكر اسكوبار أي ذنب له في الجريمة الأولى ، وقال : «المسألة هي أن أناساً كثيرين كانوا يريدون قتل الدكتور غالان» . اعترف بأنه كان حاضراً المناقشات التي تقرر فيها اغتياله ، ولكنه أنكر مشاركته في الحديث أو أن تكون له أي علاقة بالأحداث . وقال : «لقد تدخل في ذلك الأمر أناس كثيرون . أما أنا فقد عارضت لأنني كنت أعرف ما الذي سيأتي إذا قتلوه ، ولكنني كنت أعرف أن ذلك هو القرار ولايمكنني معارضته . أرجوك أن تقول ذلك لدونيا غلوريا» .

أما بالنسبة للمشكلة الثانية ، فقد أوضح أن جماعة من أصدقائه أعضاء الكونغرس أقنعوه بأن بيباميثار هو زميل لايمكن السيطرة عليه ومتمادٍ جداً يجب كبح اندفاعه بأي طريقة قبل أن يتمكن من إقرار الموافقة على تسليم المطلوبين إلى الولايات المتحدة . وقال :

«أضف إلى ذلك أنهم في هذه الحرب التي كنا نخوضها ، كانوا يقتلون المرء بسبب أي تقولات . ولكنني الآن بعد أن تعرفت إليك يادكتور بيباميثار ، فإنني أبارك ساعة نجاتك وعدم إصابتك بأي سوء» .

وحول اختطاف ماروخا قدم تفسيراً مبسطاً : «كنت أختطف أناساً لأحصل على شيء ، فلا أحصل عليه . لم يكن هناك من يفاوض ، لم يكن هناك من يهتم ، ولهذا توجهت إلى دونيا ماروخا لأرى إذا كنت سأتمكن من الحصول على أي شيء» . ولم تكن لديه مبررات أخرى ، وإنما انحرف إلى

تعليق مطول حول الطريقة التي راح يتعرف بها على بيياميثار في سياق المفاوضات*، إلى أن اقتنع بأنه رجل جدي وشجاع ، كلمته من ذهب تستوجب الشكر الأبدي ، وقال له : «أعرف أنه لايمكن لي ولك أن نكون صديقين» . ولكن يمكن لبيياميثار أن يكون متأكداً من أنه لن يحصل له أو لأسرته أي شيء منذ ذلك الوقت فصاعداً ، وقال :

ـ أنا سأبقى هنا لزمن لا أعرف متى سينتهي ، ولكن مايزال لي أصدقاء كثيرون ، فاذا شعر أحد أفراد أسرتك أنه في خطر ، أو إذا حاول أحد ازعاجكم ، فابعث إليَّ تخبرني بذلك فقط . أنت أديت واجبك من أجلي ، وأنا سأنفذ واجبي ، فشكراً جزيلاً لك . وهذه كلمة شرف .

وقبل أن يودعه ، طلب اسكوبار من بيياميثار أن يقدم له معروفاً أخيراً بطمأنة أمه وزوجته اللتين كانتا على حافة الهيجان . وقد فعل بيياميثار ذلك دون كثير من الأوهام ، ذلك أن كلتيهما كانتا مقتنعتين بأن العملية ليست إلا فخاً خبيثاً من الحكومة من أجل قتل اسكوبار داخل السجن . بعد ذلك دخل إلى مكتب المدير وأدار الهاتف من الذاكرة على الرقم ٢٨٤ ٣٣٠٠ في القصر الجمهوري ليجدوا له رافائيل باردو حيثما يكون .

وقد كان في مكتب المستشار الصحفي ماوريثيو بارغاس الذي ردّ على الهاتف ثم قدم السماعة إلى باردو دون تعليق . تعرف باردو على الصوت الخطر والهادئ الذي كان يصل هذه المرة في هالة مشعة . قال بيياميثار :

ـ دكتور باردو ، لقد أحضرت لك اسكوبار إلى السجن .

تلقى باردو الخبر ـ ربما للمرة الأولى في حياته ـ دون أن يمرره عبر مصفاة الشكوك . وقال :

ـ ياللروعة!

وقدم تعليقاً سريعاً لم يحاول ماوريثيو بارغاس مجرد تفسيره ، ثم أغلق الهاتف ، ودخل إلى مكتب الرئيس دون أن يقرع الباب . ولكن بارغاس الصحفي منذ ولادته وطوال أربع وعشرين ساعة في اليوم ارتاب بأن دخول

باردو السريع إلى مكتب الرئيس وتأخره لابد أن يكون على علاقة بأمر كبير . لم تتحمل أعصابه الانتظار أكثر من خمس دقائق . ثم دخل إلى مكتب الرئيس دون أن يعلن عن دخوله ، فوجده يضحك مقهقهاً من شيء كان باردو قد رواه له للتو . وعندئذ عرف بالأمر . فكر ماوريثيو سعيداً بجلبه الصحفيين الذين سيقتحمون مكتبه بين لحظة وأخرى ، ونظر إلى الساعة . كانت الساعة الرابعة والنصف مساء . وبعد شهرين من ذلك سيكون رافائيل باردو قد أصبح أول مدني يعيّن وزيراً للدفاع ، بعد خمسين سنة من توالي الوزراء العسكريين .

* * *

كان بابلو اميليو اسكوبار غافيريا قد أكمل إحدى وأربعين سنة من عمره في شهر كانون الأول . ووفقاً للفحص الطبي الصارم لدى دخوله السجن ، تبين أن حالته الصحية « هي حالة رجل شاب في ظروف جسدية وذهنية طبيعية » . والملاحظة الوحيدة الغريبة هي وجود احتقان في الغشاء المخاطي الأنفي وشيء يشبه أثر جراحة تجميل في الأنف ، ولكنه فسر ذلك بأنه جرح منذ أيام الفتوة في مباراة بكرة القدم .

وقد وقّع على محضر الاستسلام الطوعي كل من المدير والمدير المحلي للتحقيق الجنائي ، والنائب المنتدب لحقوق الانسان . وأكد اسكوبار توقيعه بخاتم إصبعه الإبهام وبرقم بطاقة هويته الضائعة ٧٦٦ ٣٤٥ ٨ الصادرة في اينفيغادو . وقد دوّن السكرتير كارلوس البيرتو برافو في نهاية الوثيقة ملاحظة تقول : « بعد توقيع المحضر ، طلب السيد بابلو اميليو اسكوبار بأن يوقّع هذه الوثيقة أيضاً الدكتور ألبيرتو بيياميثار كارديناس ، الموقّع هنا » . ووضع بيياميثار توقيعه مع أنهم لم يخبروه مطلقاً بأي صفة فعل ذلك .

بعد انتهاء الإجراءات ، ودّع بابلو اسكوبار الجميع ودخل إلى الزنزانة التي سيعيش فيها مشغولاً جداً كعادته بشؤونه وصفقاته ، ولكنه صار يملك فوق ذلك سلطة الدولة في خدمة راحته المنزلية وأمنه الشخصي . ومع ذلك ،

فإن ذلك السجن الذي هو سجن جداً ، كما تحدث عنه بيياميثار ، بدأ يتبدل منذ اليوم التالي إلى بيت ريفي من خمسة نجوم فيه كل أنواع الرفاهية ، ومنشآت اللهو ، وتسهيلات حفلات القصف والإجرام . وكل ذلك مشيد بمواد بناء من النخب الأول كانت تنقل شيئاً فشيئاً في صندوق شاحنة تموين ذات أرضية مزدوجة . بعد مئتين وتسعة وتسعين يوماً من ذلك ، قررت الحكومة التي علمت بالفضيحة أن تبدل سجن اسكوبار دون إشعار مسبق . وبطريقة لايمكن تصديقها ، مثل واقع أن الحكومة احتاجت لسنة قبل أن تعرف مايجري في السجن ، رشا اسكوبار رقيباً وجنديين يقتلهما الخوف بطبق من الطعام ، وهرب ماشياً مع حراسه عبر الغابات المجاورة ، وتحت ذقن الموظفين والقوات المسؤولة عن نقله .

كان هروبه بمثابة الحكم على نفسه بالاعدام . وقد صرّح فيما بعد بأن عملية الحكومة بدت له غريبة جداً وغير مواتية إلى حد لم يفكر معه في أنهم يريدون نقله حقاً ، وإنما يريدون قتله أو تسليمه إلى الولايات المتحدة . وحين أدرك أبعاد غلطته شن حملتين متوازيتين لكي تعود الحكومة إلى تقديم الجميل إليه بسجنه : فقد شن أكبر هجمة تفجيرات إرهابية في تاريخ البلاد وعرض تسليم نفسه دون شروط من أي نوع . وتظاهرت الحكومة بأنها لم تسمع بمقترحاته على الإطلاق ، ولم تذعن البلاد لإرهاب السيارات المفخخة ووصلت هجمات الشرطة إلى أبعاد لايمكن الدفاع عنها .

كان العالم قد تبدل بالنسبة إلى اسكوبار . فمن يمكن لهم أن يساعدوه مجدداً للنجاة بحياته كانوا يفتقدون الرغبة والحجج لذلك . فالأب غارثيا هيريروس توفي في الرابع والعشرين من تشرين الثاني ١٩٩٢ بقصور كلوي مضاعف ، وباولينا ـ التي أصبحت دون عمل ودون مدخرات ـ التجأت إلى خريف هادئ مع ابنيها وذكرياتها الطيبة ، إلى حد أنه لم يعد هناك من يعرف شيئاً عنها في *دقيقة الرب* . أما ألبيرتو بيياميثار الذي عُيّن سفيراً في هولندا ، فقد تلقى عدة رسائل من اسكوبار ، ولكن الوقت كان قد فات تماماً . وثروة

اسكوبار الهائلة التي تقدر بثلاثة آلاف مليون دولار ، ذهب معظمها إلى بالوعة الحرب أو تبددت مع تمزق شمل الكارتيل . ولم تعد أسرته تجد مكاناً في العالم تنام فيه دون كوابيس . إن اسكوبار الذي تحول إلى أعظم طريدة في تاريخنا كله ، لم يعد يستطيع البقاء في المكان نفسه أكثر من ست ساعات ، وكان يمضي في هربه المجنون مخلفاً وراءه جثثاً متناثرة لقتلى أبرياء ، ومتخلياً عن حراسه أنفسهم الذين كانوا يُقتلون أو يستسلمون للعدالة أو ينضمون إلى العصابات المعادية . أما خدماته الأمنية ، وحتى غريزته شبه الحيوانية في البقاء على قيد الحياة ، ففقدت عبقريتها التي كانت لها في أزمنة أخرى .

وفي الثاني من كانون الأول ١٩٩٣ ـ أي بعد يوم واحد من اكماله أربع وأربعين سنة من العمر ـ لم يستطع مقاومة إغراء التحدث في الهاتف مع ابنه خوان بابلو الذي كان قد عاد إلى بوغوتا بعد أن رفضت المانيا استقباله مع أمه وأخته الصغرى . وبعد دقيقتين نبهه خوان بابلو ، الذي أصبح أكثر حذراً منه ، إلى ضرورة عدم مواصلة التحدث في الهاتف لأن الشرطة ستحدد مصدر المكالمة . ولكن اسكوبار ـ الذي كان ولاءه لأسرته مضرب المثل ـ لم يعر كلام ابنه اهتماماً . وفي تلك اللحظة كانت وحدة اقتفاء الأثر قد توصلت إلى تحديد المكان بدقة في حي لوس اوليفوس في ميدلين ، حيث كان يتكلم . وفي الساعة الثالثة والربع مساء ، كانت وحدة خاصة غير ملفتة للنظر ، مؤلفة من ثلاثة وعشرين شرطياً يرتدون الملابس المدنية ويحيطون بالقطاع ، قد احتلت البيت وبدأت بخلع باب الطابق الثاني . شعر اسكوبار بذلك ، وقال لأبنه في الهاتف : « سأتركك ، لأن هناك شيئاً مريباً سيحدث » . وكانت تلك هي كلماته الأخيرة .

* * *

أمضى بيياميثار الليلة التي تلت استسلام اسكوبار في أكثر مراقص المدينة بهجة وخطورة . وكان يشرب خمراً مع كثيرين من حراس اسكوبار

الشخصيين . وكان المونو الغارق حتى قبعته ، يحكي لكل من يستمع إليه بأن الدكتور بيياميثار هو الشخص الوحيد الذي اعتذر منه المعلم . وفي الساعة الثانية فجراً نهض واقفاً دون ديباجات وودّع ملوحاً بيده :

ـ إلى اللقاء دائماً يا دكتور بيياميثار . يجب علي أن أختفي الآن . وربما لن نلتقي إلى الأبد . لقد أسعدني التعرف عليك .

وعند شروق الشمس أوصلوا بيياميثار إلى بيت لالوما وهو مشبع بالخمر مثل اسفنجة . وعند المساء ، حين كان في طائرة العودة ، لم يكن هناك موضوع آخر للحديث سوى استسلام بابلو اسكوبار . وكان بيياميثار يومذاك أحد أبرز الرجال في البلاد ، ولكن أحداً لم يتعرف عليه بين الحشود في المطارين . فقد أشار الصحفيون دون صور إلى وجوده في السجن ، لكن دوره البطولي الحقيقي والحاسم في كل عملية الاستسلام سيبقى كما يبدو في ظلال الأمجاد السرية .

وحين رجع إلى بيته في ذلك المساء لاحظ أن الحياة اليومية بدأت تعود إلى مسارها . فقد كان أندريس يدرس في الغرفة . وكانت ماروخا تخوض بصمت حربها القاسية ضد أشباحها لكي تعود إلى ماكانت عليه وتصبح هي نفسها . وكان حصان سلالة تانغ قد رجع إلى مكانه ، بين مقتنياتها الأولية من اندونيسيا وتحفها القديمة التي جمعتها من أرجاء نصف العالم ، في وضعه المنتصب على قائمتيه الخلفيتين فوق الطاولة المقدسة حيث تريده وفي الركن الذي حلمت برؤيته فيه طوال ليالي الاختطاف اللانهائية . وكانت قد عادت إلى مكتبها في « فوثيني » بالسيارة التي اختطفت منها ـ بعد محو الخدوش التي أحدثها الرصاص على الزجاج ـ ومع سائق آخر جديد وشاكر يجلس في مقعد السائق القتيل . وقبل انقضاء سنتين جرى تعيينها وزيرة للتربية .

بيياميثار الذي بقي دون عمل ودون رغبة في الحصول على عمل ، وبمرارة من السياسة ، فضل الاستراحة لبعض الوقت على طريقته ، فكان يصلح الأعطال البيتية الصغيرة ، ويشرب البطالة رشفة رشفة مع رفاق قدماء ،

ويذهب إلى السوق ليشتري بنفسه كي يستمتع ويمتع أصدقاءه بلذائذ المطبخ الشعبي . لقد كانت حالة مزاجية مناسبة للقراءة في الامسيات وترك اللحية تنمو . وفي أحد أيام الآحاد أثناء تناولهما الغداء ، وعندما بدأ ضباب الحنين يتداخل في الماضي ، طرق أحدهم الباب . ظنا أن أندريس قد نسي المفاتيح مرة أخرى . فتح بيياميثار الباب ، فوجد شاباً يرتدي سترة رياضية ويسلمه علبة صغيرة ملفوفة بورق هدايا ومربوطة بشريط مذهب ، ثم اختفى عبر الدرج دون أن يقول كلمة واحدة ودون أن يتيح له الوقت لتوجيه أي سؤال . فكر بيياميثار في أنها قد تكون قنبلة . وهزه لحظة غثيان الاختطاف ، ولكنه فكّ الشريط وأزاح الورق عن العلبة بطرف أصابعه ، بعيداً عن غرفة الطعام حيث كانت ماروخا تنتظره . لقد كانت علبة جلدية صغيرة ، وفي داخلها في عش من الأطلس ، كان يقبع الخاتم الذي انتزعوه من ماروخا في ليلة الاختطاف . لقد كان ينقصه فص من الألماس ، ولكنه كان الخاتم نفسه .

لم تستطع أن تصدق . وضعته في اصبعها ولاحظت أنها تستعيد عافيتها بسرعة ، إذ أنه كان مناسباً لإصبعها . فتنهدت متوهمة :

ـ يا للفظاعة! كأن هذا كله قد حدث من أجل تأليف كتاب .